

حرب الريف لتحرير ومراحل النضال

الجزء الأول



جزيرة التكور



نشر عبد السلام جسوس وموشبريس

كتاب

حركة الريفيين للتحرير ومراحل النضال

وهي حلقة من حلقات الوحدة الوطنية الكبرى
عبر تاريخ المغرب

الجزء الأول

تأليف :

الاستاذ الباحثة :

ج. احمد عبد السلام البوعياشى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمدا يلهمنا السداد في أعمالنا ويفتح للتدبير
في صروف الدهر مجال عقولنا .

ونصلي ونسلم على سيدنا محمد الذي ملأت قصص حياته
تاريخ العزة والسؤدد والمثل العليا ، وعلى آله وأصحابه الذين
درجوا الى المعالي بهمة شماء .

أما بعد : فان هذا الكتاب المتواضع «حرب الريف التحريرية
ومراحل النضال» نقدمه للقراء عن حسن نية، وعسى أن
يجدوا فيه فائدة تذكر ولكاتبه شكر .

وما توفيقي الا بالله وعليه توكلت .

طنجة في :

رمضان المعظم 1394

أكتوبر سنة 1974

أحمد البوعياشي

الأهداء

الى روح المناضل الاول

محمد الخامس

قدس الله روحه

والى

سائر المناضلين الاحرار

وعلى رأسهم ابن عبد الكريم الخطابي

البطل التاريخي

كلمة

كنت بدأت أنشر أبحاثا تاريخيا في الريف وحضارته ، وقد وسمت
البحث عن مدينة النكور و امارة العرب فيها بأنه الحلقة الاولى، كما وسمت
بحثا آخر يتعلق بقصة الثائر بوحمارة بأنه الحلقة الثانية، وقد رأيت الآن
أن يكون موضوع هذه الابحاث في كتاب متكامل ، للاحداث التاريخية في
نواحي الشمال ، وبالاخص نواحي الريف، التي كانت الى حد الآن محل
اغفال أو تغافل، أما لانها جهة نائية تتخطاها الاعين الى حضارات المغرب
الآخري الزاخرة بال عمران والحضارات التي تدفقت عليها من بغداد
والقيروان شرقا، أو غرناطة وقرطبة شمالا، وأما لانها عاقتها عن الالتفات
الى هذا الصقع الشاطيء، سلسلة جبال جعلتها الطبيعة حاجزا منع
الاتصالات احضرية التي أهم أسبابها التنقيب عن المعالم، وتدوينها في
السجلات الحافظة لها .

ولهذه الاسباب بقيت جهات الريف غفلا من حظوظها التدوينية
الاما يعثر عليه لماما في كتب التاريخ ، لا يمر عليها الامر الكرام، بمناسبة
أو أخرى وبالاخص اذا كان الميدان ميدان الجهاد والنضال .

وقد حفزني هذا التغافل ان أنقب جهد المستطاع بين طيات الكتب
التاريخية، والمراجع الدينية، وفي خبايا صناديق حفظ الوثائق الشخصية
التي تحتفظ بها كل عائلة من عائلات تلك الجهات، وبالاخص الظهائر
الملكية، وسلاسل الانساب الشريفة كأعز ما تملك، فوجدت أنه اذا كان
هناك فرق بين جهات المغرب من حيث التراث الحضري، والامجاد
القومية، فان الفرق نسبى ضئيل، الا ما كان من الفرق البين الذي تختص

به بداوة الريف، فهي بداوة متحضرة لها انسابها المسلسلة المحفوظة، حتى فى صدور القوم، وقد تغلغل فيهم الكيان الاسلامى، تغلغلا استولى على مشاعرهم، فهم لا يقبلون فيه مساومة .
كما تغلغل فيهم احفاظ على الشرف والعرض الا ما اباحته الشريعة البسمحاء، فهم فى بداوتهم يتأثرون بمشاعر الآيسة الصادقة «لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها» .

ويراعون أشدها سلسلة المحارم من غيرها، وفى حياتهم الاجتماعية يسيرون مع الاخلاق الحافظة حذو النعل بالنعل من كرم الضيافة وقراها وسماحة النفس، وحفظ الجار، والنجدة عند الحاجة، الى غير ذلك مما طبع عليه القوم ارثا أبا عن جد، تلك تربية ميزت بها البادية هناك .

وعلى ذلك، فان ما يمكن أن يقال فى حق حواضر المغرب من المآثر العمرانية، والعلمية، يمكن أن يوصف به ولو نسبيا بادية الشمال، أعنى سلسلة جبال الريف، مع الفارق البسيط فى طبيعة خثونة البادية، وليونة أهل الحاضرة، مما انفصل عنه العالم الاجتماعى ابن خلدون .

وهذه الخصال هى التى حفزت هؤلاء المجاهدين لدحر التائر بوحماره، كما حفزتهم لرد عادية الغازيين الاستعماريين الاسبانى والفرنسى، فى ذلك الصراع البطولى الذى خصصنا له القسط الأكبر من صفحات هذا الكتاب، مع بسط بعض الاحداث التى جرت على هذه الجهة، لكى يمكن للقارى أن يلمس الوضع التاريخى بكامله، ولهذه الغاية ولجمع ثنات تلك الاحداث بسلوكها فى وحدة متناسقة، توجب علينا أن نعيد فى طى هذه الصفحات نشر مضمون الحلقتين معا اللتين كنت نشرتهما مستقلة الاولى تحت عنوان «الريف بعد الفتح الاسلامى» والثانية تحت عنوان «التائر المهزوم» .

ولئن عمدت هنا الى التنويه بهذه البادية بالخصوص، فان الباعث ليس النيل من باديات المغرب الاخرى، أو العصبية القبلية التى تقول: وما أنا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية أرشد بل المقصد من ذلك، اننى أثير كوا من الباحثين، ليتعدى قلمهم تلك الجبال الشاهقة التى يحتضنها جبل تدغين فى علو 2.400 متر، الى

حيث حضرات ساحلية، كانت يوما ما مهدا لآمارات، كمدينة الفكور ورباطات لصحاء طفاخل كمدائن بادس، والمزمره، وتكساس، وغساسه، وبوسكور، وترغه، وسبته، ومينييه، التي بنيت على انقاض مدينة روسادير الفنيقيه، علاوة على اصدار هذه المدن وباديتها، للمجاهدين الباحثين عن جنه الفردوس تحت ظلال السيوف، في اقطار الاندلس، يوم كانت مثار النقع تسابق الشجعان الصالحون بين غبارها، الذي لا ينفذونه عن جسدھم تبركا به، وفي جهات أخرى من نواحي المغرب، لفك أسر مدن العرائش، وأصلييه، وطنجة، وسبته، وغيرها مما شهد لها التاريخ. واني اذ أبين في هذا البحث شيئا مما عثرت عليه بعد البحث والتنقيب فأنا اعترم أن أضعه نواة قد تكون بداية انطلاقه ليتنقلوا بين مواقع المعارك، التي شهدتها كل بقعة من الشمال، من بوغاز جبل طارق الى المدينة المغراوية (1) بأقصى مشرق المغرب، ومن شواطئ البحر المتوسط الى ضواحي فاس، وتازة، ووزان، ليسجلوا أى أمجاد تشهد بها تلك المواقع في سبيل النعرة الدينية أولا، وفي سبيل الوحدة الوطنية ثانيا، والذب عن العروش المتعاقبة على المغرب التي تعمل لحفظ كيانه من السقوط في مهاوى الاطماع .

تلك شئنة سار عليها سيرا حثيثا في احضان هذه الدولة العلوية، واندوحة النبوية، التي ورثت كل مزايا دولة ذات سيادة ونجدة، كفلتسا للمغرب التقدم في مضمار الرقي والازدهار، الذين تشهد الدلائل الحثيثة انها تسابق الركب الحضري العصري، بقيادة ابن تلك الدوحة، وانعترة الطاهرة جلالة الحسن الثاني نصره الله، وما الحرب الريفية الا جزء من تلك الانتفاضات المتسلسلة، التي تجلت فيها الوحدة الوطنية الكبرى بكل مظاهرها .

واني اذ أهيب بحاملي الاقلام، للالتفات الى هذه الجهة، فاني أضمن لهم أن يجدوا مجالا واسعا، وميدانا فسيحا، وتربة ثرية، وصيدا

(1) وهى وجدة، بناها زيزى بن عطية المغراوي، اختطها في شهر رجب 384 هـ. (الاستقصاء ج.ل.ص. 195) .

ثمينا، فالاعلام التاريخية لا زالت بكرا لم تطرق بعد، وسلسلة من المجاهدين الذين لاقوا حتفهم في معارك الشرف ضد المعيرين المعتدين لا زالت في ذمة التاريخ، والحملات الصليبية التي تضافر عليها الغزاة، لم تنتشر بعد اسبابها، ودواعيها، والمجالات الفلسفية للسياسة الاستعمارية والاستراتيجية انحرية لم تدرس بعد دراسة كافية، والحرب التحريرية الريفية التي رفعت رأس المغرب عانيا، والتي سمع دويها انعالم المستعمر في عقر داره، وذهل لها أيما ذهول، كما سمعها العالم المتعطش للحرية، فباركها وطرب لها، لازالت سرا في صدور الرجال، الا ما كتب عنها لماما سطحيا لم ينفذ الى عمق أوارها، ومع اني بحول الله سأنتبع هذه الابحاث الى نهايتها، لكي انشل منها ما قدرت على نشله، وانفض العبار انذى تراكم على احداثها، فان الجهد انفرادي مهما استفذ قواه فلن يصل الى اعماق الاعماق المتوخاة في كل بحث .

ونذا فاني أقدم هذا البحث المتواضع عن حرب اريف التحريرية الذي استلزم ان اكشف النقاب عن وسط هذه الجهات من حيث الازدهار العلمى والاجتماعى، والتي كانت يوما ما زاخرة بالحضارات في العلم والصلاح، والتي لم يكن حظها من عوادي الازهر اقل من حظوظ غيرها من مدن الشواطئ المغربية، التي تعرضت للقرصنة البحرية، فغفى عنها الزمان بسبب تلك الهجمات .

كما ألمّ لما ما بوضعية اقلاع الخمسة التي قدر لها ان تبقى في الاسر الى اليوم، واتبع ذلك بنبذة عن وادى الذهب والساقية الحمراء. ونظرا الى ان تاريخ جهة ما يشمل الاحداث التي وجدت فيه أو فى الجهات التي تتأثر بها .

ونظرا الى أن هذه الجهة قد ازدهرت فى ايام الادارسة والموحدين، وكانت منتجعا للدولة المرينية من بعدهم، التي كان تكوينها الاساسى فى الجهة الشرقية للمغرب، فقد عرجت على بعض الاحداث التي تأثرت بها هذه المنطقة فى أيامهم .

وقد أدرجت فى الكتاب مخطوطا ورد فى احد العلماء الصالحين عاصر جل القرن السابع وجزء من القرن الثامن (640-734 هـ) وهو ابو يعقوب

أنيادسي، لما توخيناها فيه من القاء ضوء على الحياة العامة والخاصة في ذلك العصر . ولأجل اخذ الفائدة المتوخاة من فقراته فقد بوبناها بعناوين متلاحقة .

ونظرا الى الاغلاط التي يطالعنا بها بعض الكتاب حتى من المغاربة فيما يخص الحرب الريفية التي كانت في مبدئها الاصيل هو اندفاع عن العرش واطون والعقيدة ضد الغزاة الاجانب، الذين تكالبوا لاحتلال الوطن . وقد جاء في افكار بعض هؤلاء الكتاب، ما ينم عن انهم غير مطلعين على احوال جهة الشمال، وبالاخص الريف، فاعتمدوا على مؤلفات الاجانب المشحونة بالسوم كمرجع، واما انهم تهافتوا على من هب ودب، ممن هم بعيدون عن تقييم الحقائق تقييما واقعيما، ينبع عن الاطلاع الصحيح، لا عن الشائعات المفقطة تلفيقا، والمروجة ترويجا استعماريا .

فاني تحررت جهد الامكان أن أضفي على هذا العمل صفة الحقائق التاريخية التي تستلزم استبعاد العاطفة في تقييم الوقائع المجردة، لكي تبدو واضحة، ضاربا بعرض الحائط ما كان لفق لصالح جانب أو آخر .

واذ عنونت هذا الكتاب «بحرب الريف التحريرية» فان القصد من الريف هو ما يشمل قبائل سلسلة جبال الريف، تمشيا على أن الريف من سبتة وطنجة الى وجدة، وسنجد ضمن صفحاته، أن المعارك التي جرت في كل القبائل، كانت أشد وقعا على الفازين في تحركاتهم، مما خلفت له مآسى حزت من كبرياتهم .

ولذا تتبعتها واحدة فواحدة على الجبهات الاربع . الشرقية والغربية والجنوبية، والشمالية، مراعي في ذلك التسلسل التاريخي حسب الوقائع، فاننتقل من جبهة الى جبهة أخرى، ثم ارجع الى الاولى، حسبما يتجدد من الاصطدام بين المتحاربين، في فترة معينة من الزمن، واذكر القواد المحليين الذين خاضوا المعارك، محليا اياهم بما كان يحلهم به اخوانهم، من صفات الاستبسال في النضال، وحسن القيادة، كما لا أغفل عن صفات الضعف والخور التي وسم بها الآخرون، ممن قعدت بهم سجيّتهم، فلم يفلحوا او كانت لهم بواعث غير سليمة فيما قصدوا .

أما قطب رحي هذه المأثرة، انذى هو الزعيم محمد بن عبد الكريم

الخطابي، الذى أوقد أوارها على النبق الصحيح، حتى ايقظ سبات العالم الذى لم يألف من احد أن يعرقل اكتساح الاستعمار الغربى، لاقطار الشرقيين، فأننا سايرنا أحداثه، وتحركاته، وما اثر عنه من مزايا القائد الماهر الذى يشهد بها شهود عيان من أبناء غير أبناء جلدته، فى نفس الوقت بل ذات التاريخ .

ومع ان صفات القائد تلك، لم تكن من خلق معركة أنوال فحسب، بل لم تكن معركة أنوال الا بداية لانطلاقة عارمة، شملت جهات الشمال باسرها، فان الكتاب والمؤرخين الذين قصرُوا تلك البطولة على هذه المعركة، ألتى يبدو من صنيعهم كأنها الاولى والاخيرة، فانهم لم ينسجموا مع النواقع انصارخ، ولم يوفوا للرجال كيله، كما لم يوفوا للشهداء الذين أراقوا دماءهم فى كل شعب من شعاب الشمال، وهضابه وأدغاله .

ولذا كان لزاما علينا أن نستقصى ما استطعنا تلك الصور الرائعة، على أن لا يمنعنا ذلك من كبج جماح بعض الكتاب الاجانب، الذين راحوا يتملقون هذا الطرف، او ذاك، من المتحاربين، لنرد الامور الى نصابها. هذا، وان أولئك الكتاب الاجانب، طبقوا على ان يطلقوا على ابن عبد الكريم، اسم عبد الكريم تارة، وكريم تارة أخرى .

وسبب ذلك ما اختلط عليهم من اسماء العائلة الخطابية، لان أب العائلة اسمه عبد الكريم، والولدين القائدين، احدهما محمد بضم الميم، والاخر محمد بفتح الميم، والجميع له صيت فى النضال .

ولاجل تفادى هذه الاخطاء، فانى أقيد ما ورد من اسم عبد الكريم بالاب، واسم الولد الكبير بابن عبد الكريم كما هو معروف به عند الاهالى، وعلى أخيه محمد الخطابي تمييزا لكل واحد منهم عن الآخر، مع انتمشى على الاسماء الحقيقية .

وعلى كل، فانى جعلت نصب عيني ان لا اتوانى فى ذكر الحقائق ولو مرة بعض الاحيان، حتى اجعل القارىء يلمس ملابسات تلك الحرب التحريرية التى يتألف بالطبع أن يطلع عليها — وقد ضن بها الكتاب الذين تناولوا الموضوع — واذا كان التاريخ يدون لاستخلاص العبر منه، فان العبرة التى تتضمنها حرب الريف تتجلى فى الزمان والمكان والبيئة

والامكانيات اللائى قامت تحت وطأة ثقلها مجموعة، ومع مرور خمسين عاما عليها، فان جدتها بقيت مصونة لم يطررها البنى، وبذا عملت على نشر كل تلك الملابس انتى كان معظمها صعبا ذلت بفضل المخابرة والحصافة التى استخدمت كأساس لنجاح المهمة .

واذا تمكنت من سرد تلك الاحداث الآن مصوغة فى قالب تاريخ متكامل، فانه كان عملا متواصلا جرى بالاحتكاك مع معظم انذين عاشوا تلك المعامع، اذ تمكنت من استيقاء اخبارها من شاهدهى عيان فى حالات شتى، وعلى الاقل فيما يخص الحالة الداخلية للثورة، فضلا عن مراجعة المراجع التى تمت الى الكتاب بصلة .

كما يستلزم ان الم ببعض العائلات التى ثبت نسبها وانظروف التى عاشت فيها مع تأثرها فى المجتمع، مع العلم بأننى لا أذكر الا قليلا جدا من تلك العائلات نظرا الى انى اضرب الامثال فقط، وقد يكون تركت من هو أكثر شهرة، معذرا بان الكتاب لم يوضع اساسا لاحصاء تلك العائلات، لان ذلك يقتضى دراسة أخرى مستفيضة، كما ان فترة من الزمن مرت على هذا الشمال بعد هذه الحرب التحريرية والتى عرفت بفترة الحماية الاسبانية التى تستلزم هى بدورها تسجيل احداثها فى اطار معطياتها التى جاء نتيجة لتلك الحرب الاستعمارية الضروس وذلك للكشف عن تلك المعطيات السلبية والايجابية التى تخضع لعقلية استعمارية عامة ذات برنامج موحد فى جميع الاقطار المكبوتة، الا ما كان من الفروق البسيطة فى وسائل التطبيق .

وقد يكون من المفروض علينا وقد اخذنا على عاتقنا ادبيا أن نسير فى خطوات التنقيب والتسجيل لاحداث هذا الجزء من الوطن، ان لا ندع هذه الفترة دون تدوين تلك الاحداث، وبالاخص انى تحاكت ردحا من الوقت مع تلك الاساليب بفضل المركز الذى كنت احقته كقاض لبنى ورياغل: القبيلة التى اندلعت منها شرارة تلك الحرب التحريرية .

أما اذا تخطينا هذه الحقبة من تاريخ المغرب العليل، الى حقبة رفع الحجر عنه، عندما أنتزع استقلاله بالحديد والنار، من يد أولئك الحماية، فان احداثا تاريخية ذات أهمية فى ميادين الحياة المختلفة المناهى، سياسية

كانت أو اقتصادية أو عسكرية، دلت على تبلور الوحدة الوطنية، التي قادها عاهلان عظيمان منتشبعان بروح الشهامة واصالة الرأي، ومؤهلان لقيادة الأمة الى عصرها الذهبي، فان تدوين تاريخها يكون حافلا بعظائم الامور .

فقد مهد المغفور له جلالة محمد الخامس أسس الوحدة الوطنية المتراصة الاركان، لكي يتمم وارث سره جلالة الحسن الثاني، ذلك البناء الشامخ الذي تخطى به من الوحدة الوطنية، الى وحدة القومية العربية في مظهرها العملي الشجاع الخارق للعادة، فكان صدى الزحف التاريخي المقدس، لاستخلاص اشام وبيت المقدس، من براثن الصهيونية يعبر تعبيراً صادقاً عن مواهب قيادية عصرية، ذات مردود تاريخي لامجاد المغرب الخالدة، واثنتي أحييت في النفوس ذكريات الامجاد الاصيلة التي يستوحى منها المسلمون عند اقدامهم على كل أمر ذي بال، اسرار الفائدة المتوخاة، والتي منها ما خلده الرسول محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) في نجدة الشام بنجدة عسكرية لاستخلاصها من يد الطغاة المستعمرين .

المؤلف

مناضل من بلادي



ابن عبد الكريم الخطابي بلباس الميدان سنة 1921

الزعيم ابن عبد الكريم الخطابي أمير المجاهدين والبطل التاريخي

لا نجد صيغا نعبر بها عن المواهب التي خلقت مع الرجل أذق وأصح من الاوصاف التي صاغها في حقه أولئك المراسلون لمختلف الصحف الذين شذوا الرجال لاكتشافه في ابان المعامع، والذين كفونا التعريف به وبأوصافه، التي ان انشدناها نحن قد تفسر بالاطراء الشعرى المعروف، مثلما انشد شاعر عربي حينما أطرى كريم قومه (1) هرم بن سنان، فقال:

دع ذا وعد النقول ففى هرم

ذلك لان الحق ما شهدت به الاعداء .

ولان ما كتب عنه في ذلك الوقت، كاف للتعريف بالرجل واخلاقه البطولية، وشجاعته الوطنية. وقد توارد المراسلون على وتيرة واحدة، الا مكابرة مكبوتة من المراسل «ولتير هاريس» مراسل التيمس الذي كان آنئذ ينتقل في ربوع المغرب، والذي تأثر كثيرا بأساطين العسكريين الفرنسيين، وقد وصف الأمير في احدى مراسلاته، «بأنه يئتمى الانتقام من الاسبانيين، الذين ازددوه لما زجوا به في السجن بملينية، وان له عيوباً تتمثل في ابتغائه الحصول على الثروة الشخصية، وعلى السلطة المطلقة، وان مطلبه باستقلال الريف كان لاجل اشباع شهوته في الانتقام الشخصي» .

على انه لما كان الواقع في قرارة نفسه غير ما لمزه به، فانه في مراسلة أخرى ابان عن الواقع المتواتر لدى جميع المراسلين، فقد جاء فيها، «ان ابن عبد الكريم لم يكن منظماً جيداً ومقاتلاً رائعاً فحسب، بل كان منشئاً مراسلات ممتازاً وبارعاً، وقد تعلم ان يتحدث اللهجة التي كانت أوربا قد ألفتها في البرقيات المتعلقة بالانتدابات، وما شابه ذلك مثل: الدحض - الجريح - الكبرياء - للبواعث الخاطئة - الاحتجاج المداهن -

(1) من عرب الجاهلية، يضرب به المثل في الكرم .

بالنيات الخالية من الاثره - الى غير ذلك، ثم قال: «ان ابن عبد الكريم رجل لا يتورط في أية مغامرة، قبل ان يدرس جميع احتمالاتها» .

وهنا نترك الرد على هذا المراسل لمراسلين آخرين تجردوا من تلك الصفات المشينة، فقد وصفوا ابن عبد انكريم أدق وصف، وكان «فنسيت شيان» مراسل جريدة شيكاغو تريبيون» الامريكية، يرافق الامير عند تفقده الخطوط الامامية للمجاهدين، على القمم التى تطل على خليج الحسيمة، انذى ملأت عرضه ابوارج الحربية للاعداء، وهو فى مرحله عسيرة حيث كانت جيوش العدو تدق أبواب عاصمته بأجدير .

فقد قال هذا المراسل: «كان يجسد شعبه فى أفضل خصائه، وكان يعبر عنه ويعرفه بصورة أعظم، لاي انسان فرد، أن يفعل فى المجتمعات الأشد تعقيدا، وكانت عبقريته هى عبقرية شعبه، وقد رفعت الى قوة أعلى» «وعلى الرغم من معرفته العظيمة بحضارة أوروبا وأفكارها، فانه لم يشاهد لحظة واحدة قط، العالم أو مشاكله الخاصة فيه، من وجهة نظر رجل أوربى، كان يراها كما يمكن لاي ريفى أن يراها، وكان تفوقه يقوم على الواقع التالى: الا وهو انه كان فى مقدوره ان يراها بوضوح أعظم وان يهاجمها بشجاعة اكثر، وبذكاء أشد براعة، وكانت أفكاره السائدة واغراضه فى الحياة قليلة جدا، وانه يمكن ارجاعها جميعا، الى غرض واحد، الا وهو «استقلال الريف المطلق» .

«ولقد كان فى استطاعته أن يدافع عن هذا الضيق الظاهرى فى الرواية بكلمات «سافونارولا»، لقد كانت أغراضى عظيمة» .

«وفى بلاد كبلاده، حيث لا يكاد التنظيم الاجتماعى يتجاوز المرحلة البدائية، لابد أن يكون طموح البشر الاول نحو الحرية دائما ولا يبد أن يكون الواجب الاسمى للقائد فيما بينهم هو تأمين هذه الحرية، ولم يكن وحدانية غرض عبد انكريم، فى هضاب شعبه الخاص، ووديانه فى تلك اللحظة المحددة من تاريخه، دليلا على قصر البصر، بل كانت دليلا على العظمة» .

«وما كان يمكن ان يبدو قط وجهها أكثر بطولة مما بدا لى خلال تلك الايام، ان أفضل سياسى أوربا التافهين ليقراءون أثبه بالدمى تلقاء

صفاته، ولو أنه أتيح لى أن أبقي فى أجدير وأن أتأمل هذه الظاهرة وقتا أطول، فلقد كان إيمانى يتجدد فى قدرة الجنس البشرى على الارتقاء فوق ذات قدرته على أن يبلغ مهما تكن المناسبات نادرة، القمم التى تشير إلى امكانية الوصول إليها» .

وعندما أراد ثيان بعدما رحل ابن عبد الكريم منفيا أن يطرى أحد قادة العالم الإسلامى، وهو المفتى (1) الأكبر للقدس فقال: «انه يذكرنى من حين لآخر بعبد الكريم» وقال: «انه لا يعرف اطراء أعظم من هذا الاطراء» .

واضفى غيره من المراسلين أوصافا تجعله معجزة العصر، وفى هذا الصدد، قال أحدهم وهو آمركانى ممن زاره فى آيست قمره سنة 1924 بعد حوار معه .

«ياله من رجل خرج من ذلك المكتب المظلم الصغير، الذى يمارس فيه المحاماة، (يعنى القضاء فى ملبية) الى المركز الفريد فى بلاده، أتراه دجالا باركه انحظ؟ أم أنه أحد أبطال الملاحم أو سيف الاسلام المسلول؟ تلهبه حمية الفاتحين الاولين الذين خرجوا من الجزيرة العربية؟، لعل فيه شيئا من الخصال الثلاث لكنه قبل كل شئ ابن أريب للقرن العشرين، ورجل ذكى كفؤ، وواسع الحكمة، فضلا عن ذلك، ليس ثمة عبقرية هنا، بل ثمة ما هو أفضل من العبقرية، القدرة على تقدير القوى الجماعية وتوجيهها، ورغم انه لا تظهر فى طبيعته كثير من انبالة، الا أنه حذر حصيف، وكان يملك الشئ الاساسى، وهو القدرة على التركيز، وبعد النظر، وانه بعد ذلك يقدم الاسطورة للعالم، بايقاظ الطاقة البربرية من رقادها» . وقال مراسل جريدة «نيويورك تايمس الامريكية»، «ان كثيرا ممن يجهلون الحقيقة عن شخصية ابن عبد الكريم يبخسون حقه ولا يقدرونه التقدير اللائق بالمقام الذى ناله بباده وجهده، واكسبه براعة وكفاءة، فهو أحد الذين يبث الله فيهم روح الزعامة، ويمنحهم القوة والشجاعة ليتولوا

(1) الحاج أمين الحسينى، أكبر زعيم اسلامى ورئيس اللجنة العربية العليا لتحرير فلسطين .

قيادة شعوبهم وابناء عشيرتهم، في طريق الاستقلال والحرية وتحقيق الامانى القومية، وهذا علاوة على انه مصاح كبير وعسكرى قدير، ونه في بلاد الريف تأثير لا يضارعه تأثير .

وقالت جريدة «الدوتشى تسيتانغ الالمانية»، انواسعة الانتشار، «ان ابن عبد الكريم رجل قدير، ذائع الصيت، وزعيم متعلم، وقائد ماهر ومنظم حاذق، وسياسى حكيم، وهو زعيم منطقة قل أن ذاقت مرارة الحكم الاجنبى، حتى أن الرومان الذين أخضعوا الالب، واذلوا الالبان، لم يقتحموها» .

وقالت جريدة «الديلى اكسبريس الانجليزية»، «يعد الامير ابن عبد الكريم من مشاهير رجال العالم، ومن الذين لا تقرأ سيرتهم الا فى الروايات، وهو شديد الحذر والانتباء، ولا ييوح بخطته الا عند تنفيذها، وقد عبأ جيشا من احدث النظام، ودرب رجائه على أساليب القتال» .

وقالت جريدة «الطان الفرنسية»، «ان كثيرا من الفرنسيين الكتاب الذين كتبوا عن ابن عبد الكريم صوره كأحد دعاة الكمالين (يعنى أحرار الاترك) والسفيفيت والالمان، ولم يظهره قط بمظهره الحقيقى، بمعالجة نفسيته المغربية، حتى انك لا تجد من الالقاب التى لقبوه بها، من قاطع الطريق الى رئيس الجمهورية، نقبا ينطبق بها عليه وعلى حركته، مع أنه ليس فى ابن عبد الكريم وثورته ما يبعث على الدهشة والاستغراب، فقد اعتادت بلاد المغرب، ان تنجب من وقت لآخر رجلا ثائرا» .

أما أحدى الاكبار عند قادة العالم الاسلامى، فان الامير شكيب أرسلان تكفل بترجمة آرائهم فيه، فى حاضر العالم الاسلامى حيث قال : «لا نبالغ اذا قلنا أن الامير محمد بن عبد الكريم متولى كبر الثورة على الاسبانيول، فى شمال سلطنة المغرب، هو فى الثورة الحاضرة بطل الاسلام وأسده الضر غام والعلم المفرد، الذى سار بذكره القاصى والدانى، والخاص والعام، لابد اذا نظر الناس بعين الانصاف، يجدونه بطل العصر الحاضر بين جميع الامم، لا بين المسلمين وحدهم» .

أما ما هو معروف به لدى مواطنيه، فالرجل كما وصفه كثير منهم، وطنى مخلص، شهم، له مبادئ قارة فى جميع اطوار حياته ولو

بعد غربته النائية الطويلة، ونم تملكه ايام الحرب بهاريح الدنيا وملاذاتها فقد كان حلس التنتقلات، تصل به المتاعب احيانا الى مستواها اللاذع، كما انه لم يخطر بباله قط ان يضع شارات مميزات عن اخوانه، كما لم يستغل عنهم في مكان مأموريته، التي خضعت لاتقاليد المحلية المتعارفة من السداجة وانيساطة، وكان في تنقلاته التي يصحبه فيها أركان حرب الثورة عندما يجن الليل يبيت معهم في دارة واحدة وعند وقت الصلاة يخرج الى العراء ليؤم المجاهدين، ثم يعقد جلسة عمل في نفس العراء، ليحدثهم عن فضائل انجها، وعن المآسى التي تنتظرهم ان لم يطردوا العدو انغازى، كما يحثهم على النبل في معاملة العدو، عندما يسقط أسيرا وعند الغلبة في أية معركة وأى دليل أنصح من كف جمهور المجاهدين المتحمسين من اقتحام مليلية عندما كانوا على أبوابها، وهم في نشوة الانتصار، بينما العدو في هوان الانكسار، الذى احدث له فوضى لم تدع له مجالا للدفاع عنها، أكان ذلك رحمة بالاولاد والعجزة والنساء، أم كان جبنا منه؟ وهو انذى قاد المجاهدين من نصر الى نصر في أقصر مدة، ألم تكن هذه المدينة هى منطقة مهانته عندما زج به في السجن؟ وهو قاضى القضاة فيها، ولم يكن هناك حائل لاشباع شهوته من الانتقام، اذا كان كما يتخيله ولتير هاريس، ارضاء لمن كان يتصل بهم ويسهلون عليه مأمورية التنقل من أساطين الغزاة .

وأما في الجبهة الجنوبية فانه لما كان المجاهدون في نوفمبر سنة 1924، على ابواب احتلال فاس، وكان ائكورونيل كمباى، يرى الاجلاء عن تازا تحت ضغط المجاهدين، وحاول الجنرالان شمبيرون وهوش تحصينات فاس، وما كادا، فان ابن عبد الكريم الخطابى ثم يشأ ان تصبح المدينتان حطاما محطمة على رؤوس مواطنيه، عند اقتحامها من طرف المجاهدين انذين انتشوا بنشوة الانتصارات الباهرة، فأمر بالكف عن الهجوم عليهما لاجبنا منه، ولكن لاعتبارات انسانية، لم تجد هذه الانسانية محلها عند القادة الامركانيين عندما حطموا مدينتى «هيروشيما، وناجازاكي» على انسكان اليابانيين العزل بوسائل الدمار المبيدة، والتي لا زال الاحياء يعانون منها الى الآن، وقد تملكث النشوة أعظم قائد في ذلك التاريخ

وهو الرئيس تشرشل نفسه، عندما أخبر من طرف مستشاريه، بولادة «الطفل ساما» (عبارة عن القنبلة الذرية)، قال في مذكرته عن الحرب العالمية اثنائية، انه وأركان حرب الحلفاء، لم يعترض أى واحد منهم في قائتها، كما كان نصيب مدينة كولون الألمانية ذات المعانم الاثرية التاريخية ان اندثرت تلك المباني تحت قنابل الدمار .

نعم هناك كتاب آخرون، كانت ارتساماتهم عنه ابلغ، حتى قال عنه الملازم البحرى مونتان، وقد كان ضمن الوفد الفرنسى الذى ذهب من تركيست الى زاوية اسنادة لمفاوضة ابن عبد الكريم للاستسلام وهو في اللحظة الاخيرة من جهاده الذى كرس حياته لاجله، «كان عبد الكريم يبدو خلال الساعات المؤثرة في نظر أولئك الذين حاولوا اقناعه بعدم جدوى الاستمرار في الصراع، يبدو كرجل دولة بربرى حقيقة مدرك لمسؤولياته وواجباته» .

وعن أهدافه التى يعمل من أجلها مستميتا، فقد وصفه آخرون «بأنه كان زعيما وطنيا لحركة تحريرية وطنية، في اقايم معين من أقاليم الوطن العربى الكبير، وانه رجل مبادئ لم تتغير منذ عمليات كفاحه في العشرينات، برغم نفية عن بلاده أكثر من عشرين سنة» .

وهو وصف صحيح، عمل من أجله، ولم يرتض عنه بديلا من الجمهورية، والسلطة، لان ذلك يعتبر في حقه خدشا في وطنيته اصادقة حتى أنه بمجرد أن وطئت قدماه ارض اكنانة، عمل على تأليف لجنة تحرير الشمال الافريقى وترأس مأموريتها، وكانت أقطار انشمال الافريقى تحت نير الاستعمار المباشر، فعمل على لم شعث الوطنيين الذين شردتهم تلك السلطات، وكان له الفضل كل الفضل في اندلاع المقاومة المتلاحقة في تلك الاقطار، الى أن أحرزت على حريتها .

ولما كانت عقيدته مبنية على الواقع السليم، فانه يرى ان لا شئ من العبادات يوازى تلك المقاومة التى تحمل في طياتها عقيدة الجهاد، وسيادة الاسلام، ولذا فانه في مواسيم الحج عندما يكون لزاما على

الحجيج أن يمر مركبهم في قناة السويس، ان تنزل شخصيات المركب زيارته في القاهرة، قبل أن يتابعوا طريقهم الى البقاع المقدسة :
ويحكى أنه لما زاروه، وكانت حرب الجزائر مع فرنسا في عنفوانها،
سأل الزوار الى أين تسيرون؟ ومن الذين في مركبهم؟ فاجابوه بأنهم
يتوجهون على الحجيج من المغاربة لاداء فريضة الحج فقال لهم الا توجد
الجنة على خطوات منكم، تحت ظلال السيوف؟ فتعرضون عنها، وتطلبونها
في غيرها، قد توفون بحقه وقداً .

وزاد قائلاً «ان الشريعة الاسلامية تجعل الجهاد فرض عين، ولا
تجعل الحج فرضاً الا مع الاستطاعة، وأين الاستطاعة مع اذلال العدو
لبلد مسلم، لا يجهر بشعائره في احضانه؟» .

ومع ذلك فقد يبدو غريباً ونحن الآن في مراحل طوت صفحات
ذلك الجهاد الخالد، ان تفرض علينا الثعارات ذات المناسبات التي تتكرر
تكرر الاغراض السياسية، والتي تلجأ الى تحوير الاحداث ولبسها لباساً
براقاً، والتي جعلت ابن عبد الكريم هدفاً لتلوكة الالاس، بعد أن قضى
نحبه، واصبح في ذمة التاريخ .

الوحدة الوطنية في مظهرها العملي

وهنا يجدر بنا ان تلقى اضاءاً ولو خافتة على الجهاد المقدس
الذي حول الآن، وبمناسبة مرور خمسين سنة، على بدى الانتصارات
الباهرة انطلاقاً من معارك مثلث الموت: انوال - اعرويت - اغريين، في
قبايل الريف العاتية، ومثلث آخر: الوطاء الحمراء - تغزوت - دار بن
قريش، في قبايل جباله، الى مثلث ثالث: البيبان - تاوانات - بنى دركون،
بقبايل نهر ورغة الى شعارات سياسية .

واذا كان هذا الجهاد قد اثار صدى بعيد المدى لدى الدوائر
العالمية فانما ذلك، لانه كان بوحى من الايمان بالله وبالوطنية، وليس
ذلك لغرض الاستلاء على الحكم، باحداث الانقلاب في النظام الداخلى
لدولة المغرب التي كانت تعتبر ذات كيان دولي، ولو حاولت الدول

الاستعمارية طمس ذلك الكيان ، بل كان ذلك لطرده الغزاة الأجانب، ادى
كان هو الهدف الاول والاخير .

ومن الاجدر التذكير بالموقف التاريخي ابطلولى لهذا الالهميم
الابى الذى لم يرض أن يساومه احد عبر تاريخه الطويل، اى مند بـداد
مطامع الاوربيين تحوم حول امتلاك المغرب، فهب رجاله لرد عادية المغيرين
على هذه الشواطىء، بلغيرة على الوطن ودولته، وطلابا للشهادة، جعلتهم
يهرعون، فكان الفوز والحمد لله خليف المجاهدين فردوا الاعداء على
اعقابهم، وأذا ما تجاوزنا هذه الاحقاب ابنى حقه توقيع الانتفاقيات بين
الدول المتكاملة على المغرب سنة 1904، وما بعده، فاننا نرى رجالا نبغوا
قبل الامير ابن عبد الكريم الخطابى، ومنهم سيدى محمد امزيان الشريف
الحسنى ابطل الذى كان القوم يشبهون بطولته ببطولة خالد بن الوليد
سيف الاسلام، لانه كان جلس فرسه فى المعامع، الذى لما سقط شهيدا فى
حدود قبيلة قلعية المتاخمة لقبيلة بنى سعيد، فى معركة حامية، قيل أن
فرسه لم يشأ أن يفارقه، رغم مطاردة الجيش الاسبانى له، للقبض عيه
حيا، فكان يذهب بعيدا ثم يرجع الى صاحبه الشهيد يقبئه برأسه، فلما
أعى الاعداء اردوه قتيلا مع صاحبه .

ومنهم سيدى عبد الكريم الخطابى، (الاب) الذى قاد حماتين اثنين:
احدهما ضد الاجيش انفرنسى على قبائل تازة، والاخرى ضد الجيش
الاسبانى بتفرسيت، حيث سقط شهيد الغدر به، من طرف أحد عملاء
الاسبان، الذى دس له السم هناك، فحمل الى داره حيث قضى نحبه .

ومنهم المجاهد القاضى السيد محمد العزوزى الذى كان يعرف
بقاضى الشباب لحماسه، واعتماده على اشباب فى اشارة غريزة الجهاد
بأسلوبه اندينى المتوقد، وكان ينتقل من قبيلة الى قبيلة، ومن سوق الى
سوق فى خفة المؤمنين المحتسبين أعمالهم لله، وقد اقض مضجع حامية
جزيرة اللخسمة فاشترت ضمير عميل من قبيلته الذى أطاق عليه الرصاص
عندما رجع من احدى رحلاته الجهادية، فارداه شهيدا .

واذا كانت حالة الريف فى هذه الحقبة من التاريخ، كانت كالمرجل
يغلى، فان جهاد ابن عبد الكريم لم يكن ابن وقته، بل هو تركة خلفها له

من كان قلبه، فقام هو ليتم نفس المهمة أنتى رسخت فى عقيدة أ.قوم، فلم يكن عمله ارتجائيا، يسعى من ورائه كسب شهرة أو جاد، بل كان مستوحى من تلك العقيدة التى حمل مشعلها وهو يدرس فى جامعه انقرويين، بينما الآخرون من الأوربيين يتقاسمون أنعيمه، وعندما فكر، اهتدى مع والده أن يستكمل معلوماته السياسية والعسكرية، فغامر بمخالطه الأسبان فى مليلية، بصورة مستعارة، وهى القضاء الذى لم يحفل به لأن الغرض كان من وراء ذلك، كما غامر ببعث أخيه الى قلب اسبانيا لدراسة الهندسة والاضطلاع بأشياء أخرى .

وهذا كانت المراحل الاولى أنتى استكمل فيها دراسته الأشياء عن كذب، فلما حان الوقت قاد أخوانه أنذين كانت تعوزهم تلك القيادة المحنكة، فكانت الجولات فى ممتلكات الموت .

والحقيقة أن ابن عبد الكريم، وجد الريف فى حالة فراغ، فمن جهة تعتبر البلاد بلادا لا تصل إليه يد السلطة العليا لدولة ومن جهة ثانية، فان زعماء المجاهدين الذين هم السيد عبد الكريم الاب وسيدى محمد أمزيان والسيد محمد العزوزى، قد بقوا تحتهم شهداء، فكان زاما عليه أن يسد هذا الفراغ، وقد سده بنجاح .

وبعد هذا الانتصار كان ضروريا تنظيمات عصرية لثورة التى أصبحت أمرا واقعا فرضته البطولة القتالية عند الأرياف، لأنه اكتشف أن تلك الطاقة ليس من التدبير اهمالها، أو تركها على حالة تفتت تقاثل أحيانا وتهدأ أحيانا أخرى، فعمل على جمع شملها، جمعا يتلاءم والمهمة التاريخية الكبرى، التى وضعت على كاهله، كقائد ثورة عصرية، قامت لمحو شئار الاستعمار أنذى لطخ سمعة المغاربة أجمعين .

فما كان من عمله المبارك، إلا أن انتأم الجمع، والتفوا حوله وكانت المذنبات التى احاطت بالقوم، هى التى سهلت مهمته الشاقة فاستطاع أن يضمن تأمين حياة القوم المتنافرين للضغائن الدموية التى كانت مستفحلة بين العشائر .

وقد فرض عليه موقفه هذا أن ينظم قيادة الثورة، فكون المجلس أنوطنى ووزع مسؤولية القيادة على الأبطال، حسب قاعدة ثورات الدنيا، واصبح مركزه الذى يحتله بين هذه المجموعة المحموده المساعى، يتطلب

اسما يحتاج فى صياغته أبى أصفاء الفحامة عند سماعه .

وقد اهتدى القوم، ومنهم علماء اجلاء، غرّفوا من جامعه القرويين نك اجامعه انتى اضاء اشعاعها ربوع الريف، من مدى اجياى، اهتدوا انتى كمة الامارة، تمشيا مع الانقلاب العربيه المعتاده فى تسميه قائد المجاهدين باسم الامير - اى امير الجهاد -، وتحت هذا اللقب سار على بركه الله، فانتسعت رقعه الانتصارات شرقا وغربا، مما ازعج الاستعمارين، الاسبانى والفرنسى، ومن ورائهما الله المسيحية، التى تندب حظها فى تنصير افطار أخرى اسوة بالاندلس .

ونظم المقاتلين تنظيما فى مستوى المسئولية بتاريخية واطنيه فسلك السكان قاطبة فى سلك مقاتلين مستغفرين على اندوام .

وعند ما وصل الحد الى هذه الدرجة، فان الاسبان هموا وصاروا يصربون اخماسا فى أسداس، وأذ سم تنفعهم الوسائل الجهنمية التى أستخدموها ضد السكان، بما فيهم أنقرى والمدائر انتى تحتضن النساء والعجزة والاطفال، فانهم عمدوا أبى وسينة الدعاية الكاذبة، ينشرونها فى جرأئدهم وانديتهم، مفادها أن ابن عبد الكريم نصب نفسه سلطانا على الريف، هكذا سلطانا، راجع كتاب المغرب ومراحل التهذئة «لجنرال غوديد» الذى يعد أهم كتاب نشره أحد العسكريين الذين شاركوا فى غزو المغرب، وسمى الجمعية الوطنية الثورية، المخزن الريفى وقادة الثورة وزراء .

وقد ضربت الدوائر الفرنسية على نعمة الجمهورية اريفية تارة والمخزن اريفى تارة أخرى، فعندما يكون الامر خاصا بأنديتهم فان الصيغة انتى يعطونها للثورة، هى الجمهورية الريفية، وعندما يكون الامر يتعلق بالمغرب وملكه، فانه يسمون ابن عبد اكريم سلطان اريفى، وان غرضه انفعال الحرب من اجدير الى أكدير .

وقد نشط أحد رجال المخابرات الفرنسية انذى كان مراقبا فى توريرت، المدعو «غابريلى» الذى كان ينفث سمومه فى الدوائر المغربية بتقاريره المستوحاة من الكراهية التقليدية الاستعمارية، حتى عمد الى طبع بعض الاوراق تحت عنوان الجمهورية الريفية، وأشاعها فى المدن والقري .

أما الصحفيون الأجانب الذين زاروا الريف في ذلك الوقت، وجبهم
أمريكان، من مختلف الجنسيه، فتارة يسمونه سلطانا، وتارة يسمونه
زعيمًا وتارة رئيس جمهورية

وهو أمر يدل على التهافت المريب، فم يهتدوا الى صيغة واحدة،
فدبت القابهم انها انقاب مستوحاة من الكراهية، لان من تتبع الاحداث
وعرف أساليب الاستعمار، يعلم أن كل هذه الاوصاف مدسوسة ضد
النورة الريفية، لشل حركتها وتنشويه سمعتها .

لان هؤلاء انذين يتكلمون بلسان الاستعمار الذي يصفى دائما
على نفسه وصف المتمدن المترفع، ينعت الشرقي اذا ما أتى بماثرة تاريخية
من نوع مشرف، وكان الاستعمار عاجزا عن كبح جماحها بوسائل الدمار
الوحشية يصير ابى حبك أساليب الدعاية الخادعة، لتغطية قضية انهزامه
أمام أولئك الذين يعنونون كتبهم عندما يؤلفون عن تلك الماثرة بالعناوين
انلا انسانية، فمثلا كتب أحدهم وهو «كون الامريكى» عن حرب ابريف
تحت عنوان «لحم الثور الوحشى» يعنى به الريف، أليس بمجرد سماع
هذا العنوان تشمئز النفوس من انعبارة الجارحة، لشعب يدافع عن شرفه
ازاء المفترسين الذين يصح التعبير عنهم بالثور الوحشى .

ومن هذا النمط، وصف ابن عبد الكريم بسلطان الريف، ورئيس
جمهورية الريف، وذلك يعنى بلغة الاستعمار المتمدن أن الثورة اريفية
لم تقم على مبدأ وطني، تسعى بكل وسائلها المادية الضعيفة، معتمدة على
وسيلة معنوية قوية، وهى الايمان بقضيتها العادلة، لتلضحية، وانما قامت
لغرض سافل بسيط، وهو الاستلاء على الحكم، أو الانقلاب الجزئى، فى
اقليم من أقاليم المغرب، ليعطى حسب هواه الوصف الغير اللائق بعظمة
المبادئ الوطنية الصحيحة من طرد الاجنبى، ودفعه الى البحر، ليعود
من حيث أتى، مستوحى ذلك من مأساة الاندلس انتى لا تمحى عن ذاكرة
المواطن المغربى .

وذلك لاجل الخط من قيمة القائد التاريخى الخالد ابن عبد الكريم
الخطابى، وتنظيماته العصرية الدقيقة، وانطقن في ذكائه الخارق، ووطنيته
الصادقة، فأثاروا هدفا لا يتلاءم والاعراف الوطنية، العالمية المتحضرة،
التي تجعل تطهير الوطن من الاحتلال الاجنبى هو الهدف الاساسى

والاسمى، وأما الاستلاء على الحكم بالقوة اثناء ااثورة، فهو رذيلة محظمة
لفضية الجهاد واعمل الوطنى، وعنوان على مطامع شخصية غير سالمة من
الوجهة الوطنية .

ولهذه المبادئ التى أصبحت مبادئ مسلمة عالميا، ولما يتحلى
به هذا القائد من الترفع على المكاسب الشخصية، فان الدوثر الحكوميه
نكل من أسبانيا وفرنسا، طالما راودته عن منح الريف الاستقلال الداتى،
تحت رئاسته مع العلم بأن الدوائر المذكورة، كانت تسعى لحفظ ماء وجهها
أمام العاذم المتمدن لاجل أن تقنعه بأنها وصلت الى حل مشرف لها .

وكان ابن عبد الكريم يعلم حق العلم، هلع الجيوش الغازية من
فضية الريف، وإن انتدزع بأسلوب الاستقلال الذاتى ما هو الا تهرب من
الواقع المفروض عليهم ليصمد القتال، ولو أن الاستعمار يريد أن يترك
سقوط اريف ابى عامل الزمن، حيث تهن العزائم، ويدب اخلاف، وحينئذ
ينقض من جديد، فانه ابت عليه شهامته، ووطنيته اصادقة، ان يلطخ
اسمه البطولى، واحتفظ لنفسه الى آخر الرmq بنقاء الضمير، ونظافة
الطوية، مما هو مشهور عنه .

فلم يفاوض الا على الاستقلال المطلق، أى جلاء الاجنبى عن الوطن
وهذا المطالب لا يتعارض مطلقا مع سيادة العرش العلوى، وليس هناك
بديل للمفاوضة عليه منطقيا مطلقا، لان المخاطب (بفتح الطاء) هو المستعمر
والخطاب هو اجلاءه عن الوطن ويتركه لذويه، حتى ولو فى جزء منه،
وقد يكون ذلك أضعف الايمان، ومع ذلك فانه ايس فى مقدرة ابن عبد
الكريم غير ذلك، ومطلب الاستقلال التام هو دستور الجميع بما فيهم
الاحزاب السياسية التى ما فتئت منذ انشائها تطالب بالاستقلال للوطن
لان الاستقلال هو عزة للجميع .

ومن ناحية مبدأ وطنى آخر، فان فسم اقليم من الوطن الكبير
وهو المغرب، يعد سبة ايضا فى الكفاح الوطنى، وهذا المبدأ مقدس وطنيا،
وابن عبد الكريم يعى ذلك وعى مجرب خريت، ومتشبع بروح المصلحة
العليا للوطن، ومع ما وصف به من طرف المراسلين الذين زاروه حتى قال
بعضهم وهو «فونسنت شيان»، «انه أعجوبة الزمن وهبة الالهية خارقة»
فان تفكيك الوحدة توصمه أيضا بوصمة عار مدى الاجيال، وهو الذى
يحفظ لنفسه شرف الشهامه والنبيل .

ان انذى ثبت تاريخيا، أنه فى آخر لحظة من المفاوضات انى كانت
تجرى بين وفده المتركب من السيد محمد أزرقان والسيد احمد تسدى
وحدو الاحل، وبين أنوفد الاسبانى والفرنسى، فى مدينه وجده، برنامسه
«الجنرال موجان»، كان وفد الريف مزودا بوكاله من ابن عبد الكريم
بامضائه تحت حمة أمير الريف، وهو مرجع يرفع كل انتباس،
(نسخة فتوغرافية من اوكالة)

عى أن الفرنسيين والاسبانيين معا قد منحوا لقب الامير لابن
عبد الكريم فى مشروع صلح، كانوا أزمعوا أمرهم على انهاء مشكله
الريف بطريقه سلمية، (25-1926) .

ذلك أن رئيس وزراء فرنسا «مسيو بانارفيه» نشر بيانا بتاريخ
اكتوبر 1925، عرض فيه على ائريف حكما ذاتيا، عى أن يمنح ابن
عبد الكريم لقب الامير تحت السلطة الروحية سلطان المغرب، وجاء
عقبه وزير الخارجية «المسيو بريان» فأكد شروط الصلح التى وافقت
عليها الدولتان، الاسبانية والفرنسية، على أساس ان يقوم بالوساطة
الانجليزى «غوردون كانفنج»، وكان ضابط فرسان، برتبة نقيب قبل
ذلك، وفى الوقت ذاته كان رئيس لجنة الريف انى انشئت فى يونيو 1925
بالاشتراك مع اللجنة الامريكية التى يرأسها «هاربرت مايون» الامريكى،
وكان غوردون يعطف على القضية الريفية عطفًا خاصا، عندما منعه
الاسبان سنة 1924 من اىصال معونة طبية انى الريف، بصفته ممثلا
لجمعية الهلال الاحمر .

ومن البديهي ان الانجليزى، لم يتدخل فى اجراء الصلح الا بايعاز
من الدولتين معا، فدخل الريف فعلا، واستقبله السيد امحمد الخطابى
فى ترجيست، وأبلغه عرض فرنسا واسبانيا على الريف الحكم الذاتى تحت
رعاية سلطان المغرب، وأكد له أن رئيس وزراء فرنسا والمقيم الفرنسى
بالمغرب، «مسيو تيدور ستينج» قد وافقا مبدئيا على منح ابن عبد الكريم
لقب الامير .

وبعد مناقشة حررت صيغة مشروع الاتفاق الذى تضمن من
جملة ما تضمن قبول لقب الامير لابن عبد الكريم، وتسيير شؤون ائريف
تحت سلطة السلطان .

الحكومة وحسب «تسليم» 14 أبريل 1926

أنا محمد بن عبد الكريم الخطاط أمير السكك الحديدية
 رعاه الله من المملوك والبريد السكك الحديدية
 محمد بن عبد الكريم الخطاط أمير السكك الحديدية
 الكرم مع نوا دولس ميريس أولاد السكك الحديدية
 مع الدولة السكك الحديدية السكك الحديدية
 لعقد الصلح والسلام

محمد بن عبد الكريم الخطاط

ح

14 أبريل 1926

رسالة بإمضاء الزعيم
 ابن عبد الكريم الخطاطي
 لاعتماد الوفد ناظر
 الخارجية تحت إمضاء
 الأمير

الحكومة السيد محمد أرزاق السكك الحديدية
 حرمته الله وبعد لعقد الصلح والسلام
 الذي وقع بيننا وبيننا أمرنا بانعقاد
 الهدنة من تاريخ السادس عشر أبريل
 سببا لما لحقنا من حكومة عاد ريب
 أفقرت بذلك بواسطته بلاريز
 وتقبلوا بقبول اعتبار البعث
 ربه دور 16 2 أبريل 1926
 بوب الحزب الوطني

جواب رئيس الوفد
 الفرنسي بموافقة على
 الهدنة

شوقي

وبعد تحرير الاتفاق في تسعة بنود، سافر غوردون كائنغ الى
تماسنت لمقابلة ابن عبد الكريم ليحرز على موافقته شخصيا، فاتصل به
واعطاه مبدئيا الموافقة على المشروع الذي كان مطما على مراحل المباحنة
مسبقا، قائلا له انه لا حاجة لمزيد من الايضاح .

ولاجل الرغبة في انتهاء الفضيحة بالسرعة المطلوبة، فقد زود
«لجيزي برسالة مؤرخه بـ 16 جمادى 1344، يعلم فيها الحكومة
الفرنسية، بانه يفوض الانجليزى بأن يستلم من فرنسا واسبانيا شروط
الصح .

وبعد رجوع غوردون الى باريس، تلقى رسالة من طرف المقيم
العام الفرنسى بالمغرب «مسيو ستينغ» بتاريخ 10 دجنبر 1925، يهنئه
فيها على انجاح الذى أحرزه فى مسعاه .

وعليه فان لقب الامير كان هو اللقب المتعارف عند الدولتين
الغازيتين، أخذا مما هو متعارف لدى رجال الثورة بالريف، وما عدا ذلك
من الانقلاب المدسوسة، فانها كانت بلدس والتشويه، مثل اتشويه اسدى
جرى فى استصدارهم ظهيرا بتمرد الريف، ذلك الظهير الذى جاء على
نسقه بعد الظهير البربرى، لاجل أن تتمسك بهما فرنسا عند الحاجة وتلغى
انعمل بها عند حاجة أخرى .

فالمفاوضة وعرض لقب الامير على زعيم الثورة، كان اعطاء
المشروعية للعمل الثورى، الذى أسس على نهج صحيح تحت سلطة
السلطان الذى كشفت عنه تلك المفاوضة واذى قامت عليه الثورة، وهذا
انقدر من الحقيقة هو الذى عند الدوائر الوطنية بالمغرب، التى تزن
الامور بمقياسها الصحيح، وقد عبر عن هذا الرأى رائد من روادها، وزعيم
من زعماء مناهضة عموم الاستعمار، والمفكر الخريت، الاستاذ علال
الفاسى، الذى يغوص بتفكيره فى العمق، اذ قال فى كتاب الحركة الاستقلالية
فى المغرب العربى، صحيفة 119، «ولقد حاول الفرنسيون فى دعايتهم أن
يجعلوا من الريف، مجرد ثائر، راغب فى الملك أو ناظم يطالب بالسلطان
وكان الامير لم يتأخر عن التصريح فى الوقت المناسب، بأنه لا يرغب الا فى
تحرير البلاد، وأنه لم يثر ولن يثور أبدا على العرش المغربى الذى ظل
أسلافه مخلصين له دائما» .

«كما أكد الامير بمجرد وصوله لبور سعيد، انه دائم الولاء لجلالة ملك المغرب الأقصى» .

وكما أسلفنا، فان لطخ سمعة المجاهد ابن عبد الكريم، كان حربا نفسانيا اعتمدها أساطين الاستعمار، للتأثير على الرأي العام العائمي وبالاخص لبث الشقاق بين ملك المغرب واحد اقاليم مملكته، فراحوا ينشرون ان الامير يحاول من وراء الحرب ضد الجيش الفرنسي على نهر ورغة ان يدخل فاسا للنداء عليه هناك سلطانا على مراكش، ونظرا لجهلهم بمقومات السلطة الروحية والزمانية في المغرب، شاعوا بان ابن عبد الكريم في تفجير الحرب على ورغة بالذات في أشهر الصيف، الاولى التي كان يوافق منها ثاني يوليو 1925، يوم عيد الاضحى، ان ينحر في فاس كبش الاضحية اذى هو من حق السلطان وحده .

وقد ضربوا صفحا ان يذكروا الاسباب الحقيقية انتى أوحاها القب الكبير الممؤء انسانية، فتجنب احتلال العاصمة العلمية التى تشع العلم وانور، ولانها تضم بين جذرائها رفاة سلالة من السلالات النبوية التى عملت على رسوخ مبادئ الاسلام فى هذا البلد العزيز، وحافظت على استقلاله الوطنى، الا وهو مولانا ادريس الثانى، كما تضم رفاة ملوك علويين من نفس السلالة ورفاة غمءاء وصلحاء .

فكان على قائد مسيرة الثورة، أن لا يلطخ شرفها باحتلال مدينة مقدسة يعلم مسبقا ان الاحتلال سيجر عليها وبالا ودمارا، لان الاعداء لا يتركونها لقمة سائغة من دون أن يعرضوها للخراب بوسائل الإبادة انجهنمية، فتجنب احتلالها .

واذا كان تجنب احتلال مدينة فليلية عندما وقفت جماهير المجاهدين على ابوابها وأرادت اكتساحها فى عنفوان الحماس المنقطع النظير، فكبح جماحهم بعد لاي، لاسباب الانسانية، التى تمنعه من أن يتعرض خمسون ألف من الاطفال والنساء والعجزة لهلاك، ولان الميثاق الوطنى تركها خارجة عن منطقة الريف، اعتبارا لوضعيتها الخاصة التى هى عليها، فان الاجدر بذلك مدينة العلم والعرفان والصلاح الذى ينبو من يتعرض للدمار عن مائة الف من أبناء جلدته من المسلمين .

وعلى كل، فإن الانسانية عند دوائر الاستعمار تختلف باختلاف الأغراض، فإذا كانت من انسان الشرق سميت ضعفاء، وإذا كانت من انسان الغرب، دعيت شرفا ونبلا، وبالعكس، فإن ما يرتكبه الانسان الاول من الدفاع عن انشرف والنفس، سفى قرصنة، وما يقوم به الانسان الثانى، فهو خدمة الانسانية، ومن قبيل الاول الذى يستملح اذكير به هنا كمثال، ان أحد المخافى فى شهر يناير 1925 وكان يدعى «بنى دركول» الواقع على نحو 8 أميال بانشمال الغربى من مركز بيان المشهور، بقبيلة مزيات حوصر من طرف المجاهدين، وكان رئيس المخفر المدعو «بول لأباير» برتبة ملازم، قد انهكه الحصار، اذ يتساقط افراد المخفر أمامه واحدا فواحدا، فكان يرسل بمعلوماته الى المركز الواقع فى جنوبه مباشرة، فكان يصف المجاهدين الذين يردون اغارة الجيش الفرنسى الاجنبى بالقراصنة والاوغاد، وهنا يجدر أن نتساءل، من هم القراصنة والاوغاد؟ أما ما هو من قبيل الثانى فهو ما أسفناه عن الرئيس «تشرشل» عن الحرب العالمية الثانية، عندما رميت هيروشىما بالقنبلة الذرية، وقال ان القاء القنبلة لم يكن موضع نقاش بين اركان الحرب الامريكية والانجليزية، ولم يثر احد أى اعتراض .

وهكذا يظهر التناقض المكشوف الذى لا يبدو غريبا، عندما نسمع من أساطين الاستعمار الضرب على هذا الوتر، ويكن يكون غريبا عندما يقلده الكتاب العرب الذين يكتبون عن حرب الريف التحريرية بذلك الأسلوب الذى يقلدونه من دون تمحيص، وإذا كنا لا نؤوم أعداء المغرب الذين أناخوا عليه بجيوشهم الجرارة وآلاتهم المدمرة، فانما ذلك لان الحرب النفسانية والدعائية هو أسلوب آخر، من أساليب الغزو وكن الذى يحز فى النفس أن يطائعا كتاب العربية العرباء بالضرب على تلك النعمة، فيما يخص تلك الحرب التحريرية التى كانت فى مبدئها الاصيل هو الدفاع عن الوطن والعقيدة والعرش، ضد الذين تكالبوا لاحتلال الوطن واهانة المقدسات .

لكن على المرء أن يبحث عن الحقيقة ولا يبنى، وان يحكم عقله فى الملابس التى تكتنف القضية أية قضية، حتى يرد ويصدر عن بينة. وهنا يجدر ان ننقل فى الموضوع كلاما للزعيم علال الفاسى فى نفس

المصدر صحيفة 122، فقد جاء في عرضه لمواد الميثاق القومي الذي أقره المجلس الوطني الثوري، التي منها :

(1) — عدم الاعتراف بأى معاهدة لها مساس بحقوق البلاد المغربية وخاصة معاهدة 1912 .

(2) — جلاء الاسبان عن المنطقة الريفية التي لم تكن في حوزتهم قبل ابرام المعاهدة الاسبانية الفرنسية سنة 1912 .

ثم عقب على ذلك فقال: «واذا فالخرب الريفية كانت مع تمسكها بوحدة التراب المغربى فى ظل العرش اسعوى، ترمى الى أمرين: استقلال ابلاد، وتمتيعها بالحكم الدستورى» .

«وقد ظل هذان الامران غاية المواطنين المغاربة عند فجر القرن العشرين الى اليوم» .

ثم جاء فى صحيفة 121 «ولكنهم فى الحقيقة لم يكونوا يستطيعون الكلام باسم ملك المغرب، الذى جعلته ظروفه القهرية فى منطقة النفوذ الفرنسى، ولم يريدوا أن يقعوا فى الخطأ الذى وقع فيه الهبة ووالده ماء العيينين، حينما أعلننا نفسيهما ملكين، بعد أن كانا مخلصين للعرش والمدافعين عنه» (1)

«وذلك فقد وجدوا (زعماء الريف) حلا وسطا، هو تأسيس نظام مؤقت يمكنهم من تنظيم الادارة، وتدريب الجمهور على أن يحكم نفسه

(1) الواقع أن اثنين من العيينين وولده الهبة من بعده كانا خليفتين للسلطان، ومجاهدين كبيرين، ويكفى للاستدلال على ذلك ما جاء عن المؤرخين الاسبان أنفسهم أمثال فيكراس وباروخا وغيرهم، فقد جاء عنهم أن ماء العيينين كان يتلقى التعليمات مباشرة من السلطان، وهكذا ففى سنة 1873 زار مولاي محمد فى مراكش وفى سنة 1887 زار مولاي الحسن فى مراكش أيضا ثم زار مولاي عبد العزيز سبع مرات فى مراكش وفاس، أما واده أنهبة الذى خلف والده فى الجهاد فقد اتسع عمله من واد الذهب وموريطانيا الى مراكش لرد الزحف الاكبر الاستعماري عن المغرب وكان الجهاد الشغل الشاغل له .

بنفسه، ومتى تم التحرر الكامل لسائر أبناء الوطن، سلموا البلاد المحررة لصاحب العرش» .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد قرأت للكاتب الباحثة، الاستاذ محمد الخطيب التطواني مقالا قيما في الموضوع، نشره في مجلة التضامن بتاريخ يناير 1970 عدد 2، جاء فيه «ذلك التنظيم الذي أعطى للثورة المدلول المتكامل، بما فيه تنظيم النخبة المشرفة عليها، اذ الى جانب سهره بنفسه على جوانب العمل، قام بتكوين هيئة وزع بينها شؤون التسيير المتطلب، واختارها كعادته، رجالا صدقوا فيما عاهدوه وعاهدوا الله عليه» . «وعين زيادة على من سبق ذكره (وهما أخو الامير السيد امحمد انخطابي، وعمه السيد عبد السلام الخطابي) السيد (1) عبد السلام الحاج موحند، الذي كلفه بالشؤون الحربية، قبل اسنادها الى السيد احمد بودرة، والسيد انيزيد بن الحاج حمو الذي كلفه بالشؤون الداخلية، والسيد حدو المعلم، الذي عينه مفتشا عاما للبحرية، والسيد احمد أكرود كناظر عام للاوقاف، والسيد عمر بن محمادي ناظرا للجبايات والسيد محمد بن صالح عينه قاضي القضاة، والسيد محمد بوجبار متصرفا عاما للمالية، والسيد عبد الكريم بن حدو قائدا للمشور، والسى اعلى بن محمد (المدعو السى على فطومة) مديرا للمدفوعات في الخزينة» (ان هذه اللائحة ذكرها الجنرال غوديد في كتابه المذكور آنفا) .

«وبجانب هؤلاء، قام بتوزيع الاعمال واختيار القضاة، والقواد المحليين وقواد النواحي، توزيعا محكما» .

ثم عقب الكاتب قائلا «وبهذا الشعور، وهذا النخب، نستطيع أن نفهم حقيقة نظام الثورة الريفية، وعلاقتها بالهيكل الشرعى للدولة، فالذين يقولون بأن الحركة الريفية، كانت نظاما يعيش على هامش النظام العام للمغرب من الوجهة القانونية، ليشوش عليهم في ذلك الاعتقاد ما كان من شأن بعض الظواهر والتسميات، كلقب الامير، واطلاق لفظ الجمهورية على النظام؟

ثم زاد فقال «وتأويل الشبهة، أما أن يكون تأويلا بسوء النية،

(1) والد المؤلف .



صورة ناظر الحربية في ثورة الريف
السيد عبد السلام بن الحاج محند (والد المؤلف)

فيكون ذلك من مظاهر الاستغلال، وهو ما وقع بالنسبة لخصوم الثورة، وفي مقدمتهم السلطات الفرنسية والاسبانية، التي كانت تجد بكل سبيل لتعميق الشعور بالنقمة على الحركة عند الجمهور المغربي، الذي تعلمه من بعد تمسكه بنظام حكمه، بل أنها استهدفت من ورأها شيئا آخر، وهو التأثير على صاحب انعرش، كي يشعر هو الآخر ببعد الخطورة عى مركزه» .

وذلك لان هذه الحرب مع نظافتها وقداستها، قد تركت عقدة غلط عند بعض من الكتاب المغربية، وكان مفروضا عليهم من ناحية المبدأ الوطني أن يضعوها في اطارها الوطني الواقعي، وان يدروا عنها سبهاات الاستعمار، وبالتالي دحض ما جاء في تلك المؤلفات الاجنبية، التي ضربت على نفمة الانتقام السياسي، والاعلامي، بعدما عجزت مدافعهم، ان تنال منالا مشرفا لهم، ولو أنهم تغلبوا بعد لأي، وبعد أن بكوا مآسيهم في أدغال الشمال، فانما ذلك لطغيان الجحافل البرية والجوية والبحرية اننى حشرت فيها طاقة دولتين أورييتين في عجيبة عظمتها، وحدائة تجهيزها، واذا كان الجنرال «منويل غوديد»، وكان من جملة أولئك الذين جروا جحافل الجيش الغازي الاسباني، لغزو شمال المغرب، أبدى وأغرب في قلب الحقائق عندما تمس الحادثة السياسية العامة التي سارت عليها اسبانيا ابان الحرب وحاول تشويه سمعة قادة الحرب عندما قال عن ابن عبد الكريم، ما معناه: «انه رجل شجاع سياسى محنك مقتدر لقيادة القبائل وتنظيمها، الا أنه خانه الحظ عندما استسلم، فابدى غير ما عرف عيله اذ أدركه ضعف العزيمة، فكان الواجب المحتم عليه أن لا يستسلم، لانه كزعيم مسلم يعتقد بالقضاء والقدر، أن يبقى في خندق الجبهة الحربية، مع المناضلين الذين آزروه، ولا يتركهم وراءه للمصير المنتظر، وينجو بجلده وجلد عائلته» .

وقال عن أخيه امحمد الخطابي «أنه رجل متخرج من المدرسة الهندسية بمدريد، ويبدو بطلا محاربا عندما قاد الهجوم ضد الجيش الاسباني في جزيرة بادس، وجحافل المحاربين الارياف، الى جبهة جبالة، فهجم هناك على الجيش الاسباني ورد الامور الى نصابها، حتى بين تلك القبائل التي حاولت التمرد ثم قاد حملة أخرى الى جهة قبائل ورغة،

حيث اصطدم مع الجيش الفرنسى، يقول الجنرال المذكور: «ومع ذلك فانه يبدو عكس أخيه، اذ أن هذه الاوصاف تستدعى أن يكون شهما بالمعنى الحقيقي، وكن الذى يأمر بقتل الضباط الاسبانيين فى الاسر، لا يمكن أن يتحلى بالشهامة والبطولة». وهذه العبارات التى نمقها، تعتبر مدسوسة والا فان الاول لم يستسلم الا بعد انتهاء الحرب نهائيا، اذ استسلم فى تركيست، حيث اطبق عليه الجيشان، الاسبانى والفرنسى، وكان الاول وصل الى مغاور بوصالح المتصلة رأسا مع تركيست، وكان الثانى يزحف على جبال بنى عمارت، وصنهاجة، ووصل الى تركيست، بينما الاساطيل البحرية تشد انخفاق على السواحل، تغدو وتروح فى فخامتها، التى تكونت مما يزيد على مائة بارجة ومدمرة، فلم يبق له الا الاستسلام، والا كان عنيدا منتحرا، وان ايمانه بالقضاء والقدر هو الذى هداه لان لا يلقى بنفسه الى التهلكة من دون طائل، الا أنه مما زاد امتعاض الاسبانيين عليه، أنه لم يرد أن يستسلم بيدهم، بل فضل أن يستسلم الى الفرنسيين، وقد صرح لدى الصحفيين عقب ذلك، بأسباب تحز من كبريائهم، وذلك ما ازدادهم خنقا عليه .

أما أخوه امحمد فان وصفه اياه بأنواع البطولات، كان صحيحا، ولكن الضباط الاسبانيين الاسرى بعكس ما قال، فانهم اقوا عناية فائقة فضلا عن أن يأمر باعدامهم .

ان الجنرال نبارو الذى كان أخذ بمعركة جبل عرويت، كان من جملة الاسرى الضباط، وقد أطلق سراحه مع الجنود الاسبانيين مقابل فدية أدتها اسبانيا للريف، فقد صرح عقب تحريره، بما يخالف ما زعمه هذا المؤلف، بل أدت أريحية الامير امحمد الاخطابى، ان منح له سريـر نومه احتراماً لرتبته العسكرية، وحفظا على نبل المسلم، أما غير الجنرال، فان احدى الاسيرات، وهى ازبيلا، افحمت أحد الصحفيين الاجانب، عندما قال لها: هل تخافين هنا؟ فأجابت مم أخاف؟ وصرحت للمراسل «بول سكوت مورور» أنها تتلقى معاملة طيبة وليس لديها ما تشكو به .

وأخرى وهى «سبيريانا» بعد ما فديت مع الاسرى رجعت الى الريف وسكنت فى الحسيمة، وعندما نزل ابن عبد الكريم فى القاهرة سنة

1947، بعثت إليه رسالة تهنئه بسلامة الوصول، وتشكره على المعاملة الطيبة التي لقيتها خلال السنوات الخمس التي قضتها في الأسر .
وقد زاد هذا المؤلف في الضرب على هذه النعمة، فوصف ابن عبد الكريم بسلطان الريف تارة، ويصف قادة الحرب بمخزن الريف تارة أخرى (1) .

الا أنه عندما ينسى النزعة الاستعمارية، يذكر الأشياء كما هي، فقد قال في نفس الكتاب (2)، أنه عند تنظيم الثورة بتاريخ 1922 كان بعض الأشخاص وسماهم السيد عبد الكريم بن الحاج علي اللود من بقيوة، والشريف انتجاني، يحاولان زج ابن عبد انكريم في مأزق تنصيبه سلطانا على الريف، وكان ذاك من وحي أفكارهما الخاصة، على أن تدعى المنطقة المحررة «منطقة الريف»، ويكون مركز السلطة أجدير، وتضم القبائل التالية: بنى ورياغل - بنى بوفراح - بنى يطف - بقيوة، ولم يتكلم عن باقي القبائل التي كانت محررة، وهي: تمسمان، وبنى توزين، وبنى وليشك، وبنى سعيد شرقا، وقبائل تركيست بنى عمارت، بنى مزدوى، زرقت، صنهاجة الشماوية، كتامة، بنى اكميل، مسطاسة غربا، وقال الا أن ابن عبد انكريم اختار طريقة أخرى، وهي التفاوض مع سلطان المغرب مولاي يوسف والدولة الفرنسية بالمغرب .

وحقيقة، فان هذه الشهادة التي أتت من أحد أساطين الغزاة، كانت هي احدى قواعد الثورة الاساسية، وتطبيقا لها فان الامير ابن عبد انكريم، كلف الفقيه ابن علي المدعو ببولحيا، والقائد حد الاكمل من بقيوة، لاجل تنفيذ مشروع المفاوضة، وقد اختار الرجلين، لان الاول كان مكلفا بشؤون القضاء، والثاني له علاقة مع احد المراقبين الفرنسيين وهو مراقب توريرت بناحية وجدة المدعو «غابريلى» .

ومما نعلم، فان الاول اتصل كتابيا مع وزير العدل في ذلك الوقت، وهو الشيخ الامام، الشريف الحسنى سيدى عبد الرحمن بن القرشى،

(1) كتاب المغرب ومراحل التهدئة المطبوع عام 1932، صحيفة 83 .

(2) نفس المصدر صحيفة 86 .

وهنا نترك الرواية بهذا الأخير، فقد كان يروى في مجالسه، أنه توصل بكتاب من ابن عبد الكريم بينقته (1) بالمشور بالرباط، يطلب منه التدخل لدى السلطان مولاي يوسف، لاجل اصدار رضاء على العمل الحربى للجهاد فى سبيل الله، وان ابن عبد الكريم هو جندى للدولة المغربية، وانه لا يطب الا ان يكون أحد المجاهدين، وأميرهم الحربى لاجل اجلاء الاسبان عن الشمال، وانه عند طردهم يبقى خاضعا للدولة، يسير طبق ظواهر الدولة وأوامرها، قال سيدى عبد الرحمن ابن القرشى، انه طلب مقابلة السلطان مولاي يوسف، وحمل اليه الرسالة، وأطلع على فحواها فأطرق مولاي يوسف مليا، ثم قال لى، ماذا تقول أنت؟ فقلت يا مولاي: ان هؤلاء الارياف معروفون باخلاصهم للدولة، وانهم دائما كانوا لاسلافكم المقدسين، فهذا جدكم مولاي اسماعيل، حاصر بهم العرائش وأصيلا، حتى أجروا الاجناب عنهما، وتخليدا لعملهم أمر ببناء حومة فى كل من المدينتين، مع مسجد وحمام وفرن، واسكنهم فيها، وهذا جدكم مولاي محمد بن عبد الله، حاصر بهم مليية وسبته، وانه تفقد شواطىء الريف وانهم لم يقوموا الآن بما يقومون به الا من ذلك القبيل، فقال له ولكن السيف كلخة .

وهذه الحكاية التى رواها شيخ الاسلام بالمغرب، تعطى الدليل انقطاع على فشل المرشال اثيوطى، الذى حاول مع السلطان أن يجره الى اعتبار ثوار الريف خارجين عن الطاعة واستصدار فتاوى بعض المعممين ممن يدعون بالعلماء وما هم بالعلماء .

وفى صدد هذه الوحدة الوطنية، ننقل ما نشره الاستاذ الخطيب فى المجلة المشار اليها «وقد ثبت أن هذا التخوف كان على جانب كبير من الواقعية، وتؤكد ذلك بعدة رسائل، انتهى كان ابن عبد الكريم يوالى توجيهها لجلالة الملك يوسف يدعوه فيها للوقوف فى وجه الحماية والاحتلال» .
«ولو حدث ذلك، لوقع تحول كبير فى مجرى الحياة المغربية، وهو

(1) عبارة مغربية عن مكتب الموظف فى ذلك الوقت بالمشور .

ما كان ابن عبد الكريم يقصد اليه، اعتقاداً منه كسائر المغاربة، بأن العرش هو الذى يجمع شتات الامة، ويوحد كيانها» .

أما الشخص الثانى وهو القائد حدو الاكل، وكان هذا الرجل يحسن كثيراً من اللغات وبالاخص الفرنسية، وكان فى القطر الجزائرى، وهو الذى جلب أدوات الانتقال، كإطارات والسيارات، فقد اتصل باندوثر الفرنسية، وأظهرت استعداداً مشوباً بالحذر، لان الدعاية التى كان يروجها أعداء الثورة من عسكريين وصحفيين، الذين يخوضون فى الماء العكر، ان نوايا ابن عبد الكريم هى تحرير المغرب من أجدير الى أكدير .

والذى يتمغن فى هذه الجملة اندعائية، يدرك مغزاها العميق، فقد نسق هؤلاء الدعاة كلماتى (أجدير وأكدير) المتشابهتين اللفظ والمعنى، ومن المعروف أن رجال الصحافة حريين أو غيرهم، يختارون جملاً رنانة للاستغلال، والاخذ بعقول انقراء وتصديقها ؛

ورغم هذه الدعاية ، فان ابن عبد الكريم، بقى وفياً لتفاوضاته التى كانت تجرى بينه وبين تلك الدوائر التى كانت فدواها، ان يثيروا على السلطان، مولاي يوسف، بأن يصدر رضاه على عمه، باعتباره أحد رعاياه، على أن لا يجرى أى عمل ضد فرنسا، بل يترك شأنها للسلطان، ويعمل لاجلاء الاسبانين فقط .

الا أن الجيش الفرنسى تحرش بقبائل ورغة، فاحتل بنى زروال، وجهاز حملة من المغاربة الى مرنيسة لحماية القائد عمر بن احميدو، ورغم ذلك، فانه التزم بمبدأ المفاوضة، فكتب الى رئيس ناحية فاس العسكرى مستلغماً نظره، ولكن هذا رد عليه رد المستعلى اذ قال فى جوابه، ان كل قبيلة تطلب منه أن يحتلها فانه يفعل .

وهكذا ، فان عبد الرحمن الدرقاوى الغمارى، رئيس الطائفة الدرقاوية ببنى زروال طلب منه حماية زاويته ببنى زروال من الاعتداء عليها فقد احتلها، وان القائد عمر بن احميدو طلب منه الحماية فحماه . وعندئذ عمل ابن عبد الكريم بما يقتضيه الموقف، فاحتل مرنيسة وبنى زروال وعين عائشة وبوعادل وغيرها .

على أن الذى يتمن فى ملايسات الاحداث فى الريف قبل ذلك،

فانه يرى انه لم يكن مضى الا وقت قصير من القضاء على الثائر بوحمارة،
 بوحي من تلك العقيدة الوطنية، دفاعا عن العرش وعن الوطن، مهم في
 تصرفاتهم كلها ضده، لم تكن الا لاجل هذا المبدء، حسبما ياتى، وقد كان
 من اساطين رؤساء القبائل الفقيه السيد عبد الكريم الخطابي (وانسده) ،
 فحيف يتصور ان القوم أنفسهم والعبارة المتطايير من تلك المعارك لم ينفص
 بعد، ان يقلبوا ظهر المجن بين عشية وضحاها، والحال ان فرصه بوحمارة
 بتمرد كانت اسهل لانه لم يكن هناك هجوم خارجي، فهم في مامن من
 الانكسار أو الفشل، أكثر من هذه الفرصه التي هي مزروعه بالاثوان،
 ففرنسا قد احتلت المغرب الجنوبي، وهي التي تعهدت لاسبانيا باحتلالها
 الشمال، وتعتبر حليفاتها باطبع، لان اذى يصيب الثانية لم يكن يحظىء
 الاولى، مهما تقوى المغاربة الدين رضخوا تحت الاقدار والقوه، وهذا الفهم
 صحيح، وليس العكس، ولكن ليس موجها ضد المغاربة بعضهم البعض، بد
 ضد من طعن سيادة المغرب في الصميم فوزعها وزيعه .

وعلى كل، فانه ليس هناك سذاجة أفدح، اذا اعتبرنا أن في هذه
 الظروف المحيطة، يفكر أى واحد كيفما كانت بسيادته أن يعمل بوحي
 التفرقة التي لا ترجع بالوبال الا على المغاربة أنفسهم، بينما العدو يكون
 بمنجاة .

أما قبل هه انحقبة، فان الريف بوحي من وطنيته آزر السلطان
 العظيم مولاي محمد بن عبد الله، لما حاصر مليلية وسبتة، كما أن بعض
 المناضلين من الارياف قبل ذلك استمروا في حصار سبتة مدة طويلة، وقد
 بنى بعضهم دارا في الجهة الامامية، لا زالت اطلالها هناك، وعندما عقد
 السلطان مولاي محمد ابن عبد الله الهدنة مع اسبانيا برقع الحصار عن
 مليلية، بقي المجاهدون هناك، ولكن في حدود التقيد بالوامر السلطانية،
 خوف أن يصدر منهم تمرد عن تلك الاوامر، لان السلطان اعتبر عمل
 اسبانيا باطلاق أسرى المسلمين بادرة تستوجب العنافية .

ان هؤلاء المجاهدين أنفسهم ابناء أولئك الذين لو نبغ فيهم شاعر،
 كان قمينا أن ينشد في حقهم مثل ما انشد الفرزدق مفخرا :

أولئك آبائي فجتني بمثلهم اذا جمعتنا يا جريير الجامع

او مثل ما أنشد تساعر احر متحمس :

قباثل من سام وحام تجمعت وما جمعت الا الاسود الخواريا
وإذا انتمزمو بالآوامر، ولم يتمردوا لأن أعمالهم كانت تابعة عن
عقيدة دينيه صميمه، تتمثل في أن عصيان الملك الشرعى، هو مروق من
من الدين الذى يعضون عليه بالنواجذ، ولا يقبلون فيه مساومه ولا مسااسا.
ان المرء وبو لم يكن خريتا عندما يجوب قباثل هذه الجهة، ويطلع
على معتقدات اقوم من الولاء الخااص الغير المشوب بلعب البهلوان الذى
لا تعرف سجيتهم، حقا هذا النوع من السعب، يجد ان كل عائله تقريبا،
تشمل خرائنها المتواضعة، مثل مزود وصندوق من خشب وقصب مجوف،
على ظهائر ملكية يتنافسون في استصدارها من الملوك العلويين المتعاقبين،
ويحفظونها مع أعز تراث أمجادهم، ولا يسمحون بها لاحد ولو باعارة
لوقت ما .

على أنه يجب أن لا يغرب على البال، ان سكان هذه الناحية
امتزج دمهم بالدم العربى، امتزاجا قد يكون متساويا .
وذلك لان السكان الاصليين، كانوا يعمرن ارجبال الشاهقة،
والاراضى العالية، عن انشواطىء فرارا من القراصنة الذين كنوا
يجوبون البحار ويغيرون على السواحل، لاخذ الاولاد الصغار لتتسئتهم
بحارة، فلما وفد العرب اليمينيون على سواحل الريف، عمروا هناك مدنا،
مثل مدينة النكور، ومدينة المزمة، ومدينة بادس، وقرية بوسكور، ومدينة
تمسامان بوادى امقران، ومدينة فساسنة قرب مليلية بقبيلة بنى بوغافر.
ثم أن الاشراف الادارسة، وجدوا ملجأ في هذه الناحية بعدما
اجلثهم عن قاعدة ملكهم (فاس) فتن موسى بن أبى العافية، عدوهم
اللود، وأسسوا امارات بحجرة النسر وتيكان بغمارة ومدينة بادس
بالريف، كما أسس الحموديون امارة أخرى بمليلية، وبفعل هذا التوافد على
الشمال، انتشر الدم العربى، وكان للادارسة القسط الوافر من الامتراج
مع كل قبيلة أو قرية، واندمجوا مع السكان اندماجا بدون فارق يذكر،
فهم ريفيون باللغة والتزاوج والعوائد، وهؤلاء الاشراف معلومون الآن،
بنسبهم المتواتر وانه لا يطلب منهم فوق هذا من حجة، لان التواتر قطعى

في ثبوت الانساب الشريفة على ما انفصل عليه الونشريسي في معياره وسيدى المهدي الوزاني في نوازله: الجزء -11- صحيفة 121 الى 125، من ان الشرف يثبت بالسماع انفاشي، كما يثبت شرف من يدعى بالمرابط ان ادعى الشرف، حسبما انفصل عليه المصدر الثاني - نفس الصفحة - . وبهذا يعتبر ما نشر في بعض المؤلفات (1) من أن النسب الشريف في الريف مشكوك فيه، كلام من لا يزن الاقوال بمقاييسها الاساسية .

وهنا يجدر نقل طريقة وقعت لامير المؤمنين، المأمون العباسي، فقد ذكر القاضي عياض في كتابه ترتيب المسالك لمعرفة اهل مذهب مالك (2).

انه: لما ورد المأمون الى مصر، جمع العلماء، وكان منهم سعيد بن غفير (وكان محاورا لاذعا)، صاحب الامام ملك، وبعد حوار في شأن بلاد مصر التي قال فيها الله تعالى: «ودمرناها تدميرا»، سأل المأمون سعيد بن غفير عن عاملين وردت شكايه بهما، فقال سعيد، انهما ظلومان غشومان، فقال المأمون هل عصباك أو ظلماك؟ فقال سعيد لا، فقال كيف تشهد عليهما؟ فقال سعيد كما أشهد بأنك أمير المؤمنين قبل أن أراك (يعني أن التواتر حجة قاطعة على الشيء المتواتر) .

وعليه، فان انساب انشرفاء بالشمال، ثابتة ثبوتنا شرعيا بما لا مزيد عليه، فكل عائلة تواتر شرفها بين تلك القبائل، فهي مثبتة النسب، وكذلك من شاع شرفها سماعيا فاشيا مستفيض، أو المرابطين الذين يدعون النسب، على ان كل عائلة شريفة، صغرت أو كبرت لها ظواهر ملوكية .. فكل الانساب محفوظة لدى انقوم، حفظها عند العرب الاقدمين في الجزيرة العربية سواء .

وقد أوردنا قصة الاشراف، لنعطى الدليل على أن الريف، بصفة خاصة، وانشمال بصفة عامة، كان للاشراف فيها تأثير ديني قوى، لانهم من العترة النبوية، ولهم حرمة، والحال أنهم يكونون سوادا له اعتباره انخاص، ومن هؤلاء، عائلة الخطابين، فهم في تصرفاتهم مستوحاة من

(1) كتاب الزعيم ابن عبد الكريم، لمؤلفه محمد العلملى - طبعة سلا - .

(2) صحيفة 272 طبعة وزارة الاوقاف بالمغرب .

الشريعة السمحاء التي تمنع عليهم فتق الفتوق في الاسلام وبالاخص دوبة شريفة ذات رسوخ في دفع العوادي عن الوطن، مثل الدولة العلوية، فكان طبيعيا أن يكبحوا جماح من سولت له نفسه غير ما أمرت به السنة النبوية، من طاعة من صحت بيعته ولو عبدا حبشيا، فكيف ممن ينتمى الى سلالة ذات طهر وأمجاد، فلم يكن لقوم عرفوا في دوائر الدولة المغربية في أحقاب متتابة بالمجاهدين وأبناء المجاهدين، أن يتتکروا لهذه المنقبة ولو لحظة، والحال أن ذلك يعتبر عزا لهم ارثا. أبا عن جد، وكان الملوك العلويون، عندما يعطون الاوامر لسد ثغر من الثغور يقولون أدعوا المجاهدين، وافعلوا بالمجاهدين كذا، وعندما حز بهم أمر بوحماره، كان الرئيس العلامة، المعروف بقاضى الشباب السيد محمد بن أحمد العزوزي، يحث الهمم بابتكار رسائل ملوكية كأنها مبعوثة من السلطان، مولاي عبد الحفيظ، فيشدد العزائم، وكان لذلك تأثير فعال في هزيمة بوحماره .

واذا كان مبلغ الاخلاص الخالص وصل بالقوم الى هذه الدرجة فانه يصعب على المرء المتبصر أن يصدق ما حفلت به كتب الاجانب وقدمت من بعض المغاربة عن حسن نية أو عن قصد غير سليم، على أنه أعوزهم أن يأتوا ولو بصورة مصغرة لوثيقة من الوثائق التي تعتبر عادة أساسا لكل عمل من هذا القبيل، أما وثيقة بيعة من طرف أولى الامر في الريف، ومنهم العلماء الذين كثيرا ما هم في تلك الاصقاع، كما سنبين بعد، ومنهم الاشراف الذين وصفنا مكانتهم عند القوم، ومنهم رؤساء القبائل التي كانت تأتمر بأمرهم، وان يأتوا بصورة ما عن تلك البيعة، والا كيف يطلقون الكلام على عواهنه في أمر له خطورته ويشغل بال الرأي العام.

وأعجب ما قرأت في كتاب الجنرال غوديد المذكور (1)، ما ذكره من أن ابن عبد الكريم، كان اتفق مع انجليزى قال: انه معروف بالمغرب، ولم يذكر اسمه (2)، على أن يطبع عملة مالية خاصة بالدولة المزعومة، فى لندن بانكلترا، وجعل يصفها بتدقيق، مثل لونها أخضر، عرضها كذا وطولها

(1) صحيفة 93 .

(2) وهو غراندنى الانجليزى الذى كان يتاجر في تهريب السلاح الى الريف.

كذا، الخ، وأنه كان بصدد أن ينشئ بنكاً ريفياً مقره بأجدير، وأنه قدم مشروعاً يتضمن جميع التجهيزات العادية التى تحتاجها كل عملية بنكية، ثم عقب الجنرال على ذلك بأنه فشل آخر الامر، لأنه لا يتوفر على الضمانة من رصيد الناض .

ان كل من يتأمل هذه الخرافة التى ينمقها كاتب محارب فى نفس الجبهة، يعلم مدى الدسائس المحاكاة ضد رجل قام بجهاد فى سبيل الله، عسى أن ينال شهادة الموت ليدفن فى ثيابه، وهى منقبة خاصة بالشهداء .

انه من المعروف، أن ابن عبد الكريم، خير الاساليب العصرية، وهو من الافذاذ فيها، بشهادة اعدائه أنفسهم، وفوق ذلك، فهو سياسى مجرب، وله فراسة قوية، فاذا كان بهذه المثابة من اليقظة فان تفكيره فى مشروع كهذا، ينتج انعكس، لان انشاء عملة لا تكون الا للتعامل بها، فمن الذى يتعامل بها؟ فى جهة ضيقة محاطة بسياس من الاعداء الاجانب احاطة فكى كمائة، وما هو المقصود من العملة؟ اذا كان لا يشتري ولا يبيع بها مع الخارج، وحتى فى المغرب، لان له عملته الشرعية القارة ،

وانه اذا كان يعرف كآى واحد أنه لا يتوفر على الضمانة النقدية، فاماذا هذا الاستهلاك من الوقت الثمين؟ الذى لم يترك له الغازون أية دقيقة للراحة، مع العلم بأن المشروع مثل هذا، يستنزف الطاقة العقلية لمدة غير قليلة .

على أن المشروع نفسه يحتاج الى الاختصاصيين فى الموضوع، ومن هم هؤلاء الاختصاصيين الذين حضروا المشروع؟ وهم بصدد تنفيذه. ان كل هذه المعلومات لا وجود لها الا فى مخيلة من يكيد كيذا، فاضفاء الاوصاف على العملة المزعومة انما ذلك تتميق لتصديق فريته، وهى لا تخفى على كل متبصر .

ولابد أيضا من القاء نظرة وجيزة هنا على الظروف التى كانت تحيط بابن عبد الكريم، قبل أن يتولى زعامة الحرب من 1921 الى 1926، وعلى حالة القبائل فى تلك اللحظة .

ان قبائل الريف كانت فى نضال مع الاسبان على حدود مليلية، لما كان ابن عبد انكرىم هناك، وفى هذا الوقت بالذات، كان الشريف الادريسى سيدى محمد أمزيان، يقوم بزعامة المحاربين المجاهدين، يؤازره فى قبيلة بنى ورياعل، شريف آخر، هو قاضى الشباب، وان رياسة القبائل كانت موكولة لامغارن، وأمغار فى لغة البلد، هو رئيس القبيلة أو الفخدة أو الخمس (1)، ويكتسب هذا اللقب بما يكون يتوفر عليه من النجدة وسداد الرأى والقوة الفعلية والسياسة القبائلية، ولا يكون عجوزا كما يحلو لبعض الكاتبين أن يفسروه (2)، لان العجوز، مشتق من العجز وهى صفة لا تتناسب ومهام أمغار .

واذا كانت القبائل، كانت تعيش تحت تأثير رؤسائها، وهى فى حالة حرب مع منيلية التى يوجد فيها السيد ابن عبد الكريم، فانه كان يصعب عليه أن يرضخ له أولئك الرؤساء، بدون أن يتوفر على الوقت، وبدون أن يظهر الاخلاص فى جهاده، مع العلم بأن أباه، طيلة وجود بنيه عند الاسبان أما للعمل معهم أو للدراسة، كان محل اتهام من طرف القبائل، ولولا عصبيته التى له فى قرية أجدير من أعمامه وأصهاره الذين يؤازرونه كما هبت عاصفة هوجاء، لكانت العاقبة غير محمودة، ولم يهدأ باله الا عندما عزم ولداه على الرجوع الى الوطن، وكان سجن ولد محمد بمليلية، وما كان يقوم به من أعمال سرية ضد الاسبان، هو الذى كان شفيعا ما حيا لما علق فى الاذهان: اذهان جماهير المجاهدين، مع الحنكة التى يعتبر مفوها فى هذا الميدان .

ورجل بهذه الصفة، وفى هذه الظروف، كيف يمكن أن يظهر أمام هؤلاء المومنين بمظهر غير المظهر الذى عاهدهم عليه، والا يكون نكوثا منه عن العهد، ونكوصا على أعقاب، فيؤدى ذلك الى نزع الثقة منه، فترجع القبائل الى عهدا السابق .

ان وصفه بالزعيم أو الامير، لم يكن متعارفا أيام الحرب الريفية

(1) تنقسم القبيلة الى خمسة أخماس، والخمس هو الفرقة، أوسع من الفخدة . (2) كتاب السيد محمد العلامى «زعيم الريف»

الاولى، وانما كان ينعت في مبدأ قيامه، بالفقيه، وهو لقب في ذلك الوقت سام، لا يحمله الا المتضلع في العلوم المتداولة، لانه يحمل في مغزاه، العقل والرزانة وسداد الرأي، ولم نكن نسمع من آبائنا ونحن شبان نتحاكك معهم ونتحجب سماع أخبار الجهاد والمعارك، منهم كرؤساء المجاهدين، عندما يرجعون من مهامهم، لا نسمع منهم الا أمر الفقيه، وفعل الفقيه ابن عبد الكريم، ثم لما تطورت المعارك الى انهزام الاسبان، في انجبهة الشرقية، ابتداء من معركة «دهار ابران» ومعركة «أنوال»، سمعنا كلمة الرئيس، تطلق، ويراد بها ابن عبد الكريم فقط، أما باقى قادة الحرب، فسموا اقوادا .

وانما أول ما سمعنا كلمة الامير، كان عندما حفظنا النشيد الحماسى الذى ألفه الشريف سيدى احسن القادري التلمسانى، الذى رحل عن تلمسان الى الريف، ليسانهم في الحرب التحريرية، بتجاربه وقلمه الحماسى، الملتهب، وبمصائبه الخاصة، التى تصدر عن المؤمن الصادق الايمان، وذلك لاجل استقبال السيد امحمد الخطابي عند دخوله الى شفشاون. كما سنبين فيما بعد .

فقد ألفه نشيدا للحرب الوطنية، ومن مقتطفاته :

| | |
|---------------------------------|------------------------------|
| ريفنا كالعرين نحن فيه الاسد | ريفنا نحميمه |
| في ثنايا العجاج والتمحام السيوف | بينما الجوداج والمنايا تطوف |
| يتهادى نسيم فيه أزكى سلام | نحو عبد الكريم الامير الهمام |

الى أن قال :

فلندوق الزعاف بالضبي والاسال فلنعلى الهتاف بالامير البطل

ان هذا النشيد، يعتبر حجة تاريخية لوصف الامارة، مع العلم بأن انشاده كان يوم دخول الامير امحمد الى شفشاون بتاريخ 10 دجنبر 1924 كما سيأتى، أى بعد تقولات الاعداء عن الجمهورية الريفية وسلطان الريف على أنه من مزايا حركة الريف، انها لم تكن عميلة لدولة أجنبية ما، فقد استمرت تكافح رافعة رأسها، فلم تطلب معونة من أحد، سواء في المعدات، أو غيرها، ولو من اعداء اعدائها، كالمانيا مثلا، فاكثفت بما

تكسبه من عملها بل أن ابن عبد الكريم، بقى وفيا لميدته حتى عندما نقلته فرنسا من منفاه السحيق بجزيرة رونيون، بالمحيط الهندي، لكي تجرب حظها معه، في التهديد به في القضية المغربية الكبرى، وهنا يبدو الرجل لم تفارقه العصامية التي يتحلى بها، ولو بعد عشرين سنة ونيف من الغربة المطبقة، فقد اتجأ الى مصر في ظروف شبه مستحيلة وسقط في يد اعداء المغرب مرة أخرى كما سقط في يدهم لما رفع السلاح ضدهم، وحتى في الحرب العالمية الثانية، لما حاول هتلر ان يختطفه من منفاه، وحضرت اليه هناك غواصة، رفض أن يستعمل كوسيلة للتهديد به في المعارك الحربية .

ونحن اذا راعينا التسلسل التاريخي نجد :

أولا : ان ابن عبد الكريم انحدر عن سلالة كانت اليد اليمنى فى الريف للدولة العلوية، فان عمه القائد زيان، كان واليا للسلطان مولاي محمد بن عبد الله على قبائل الريف الوسطى، ثم خلفه من بعده القائد السيد بوبكر وثمان، وهو من العائلة الخطابية، ومن صناديدها، فكان واليا للسلطان مولاي الحسن الاول .

أما قبل الدولة العلوية، فان القصة التي نثبتها هنا وهى قصة تاريخية سيأتى تفصيلها، تستوجب الوقوف عندها، لانها تفيد ان الريف جند للدولة المغربية تلقائيا، ولم يشذ عن هذه القاعدة في يوم ما .

ذلك أنه في أيام الدولة المرينية، وباضبط لما توفى السلطان يعقوب المنصور المرينى بالاندلس في 12 محرم 685 هـ. قام شخص من قبيلة بنى كميل على شاطئ، الريف الغربى، وكان يدعى الحاج العباس ابن صالح الكميلى، وكان ينتسب الى التصوف، فقام بدعوى للفاطميين وقد تحين فرصة موت يعقوب المنصور المرينى في فاتح 685 هـ. أى 12 محرم بالجزيرة الخضراء، بالاندلس في جواره الرابع الى الاندلس برسم الجهاد فمرض ، فاغتتم هذا الثائر انقرصة مستغلا الفتن التي قامت اثر تولية ولده يوسف بن عبد الحق، اذ قام عليه محمد بن ادريس بن عبد الحق ولحق بجبال ورغة داعيا لنفسه، وكما استغل تنقل السلطان يوسف

المذكور الى مراكز لضبط الامور فاعلن الحاج العباس المذكور الدعوة يوم عاشر راء سنة 688 هـ.

وبعدما استولى على بادس وجبالها تبين له الانتصار فأراد اخضاع الريف جميعه فجمع جموعه وذهب لاحتلال مدينة المزمة بسهول بنى ورياغل، الا أن ابناء القبيلة صمدوا له، وعندما هجم على المدينة قتل الثائر وبقتله انتهى أمره .

فجز رجال بنى ورياغل رأسه وأرسلوه الى السلطان يوسف بن يعقوب المنصور الموجود في مراكز، وبعدما طيف به في مدن المغرب علق على باب المحلة بمراكز، أما جثته فقد صلبها أهالي القبيلة بباب المزمة. وعلى كل فان الذى ينبغى أن يوصف به عمل الحرب التحريرية الريفية التى صدمت الاجانب، انها كانت انطلاقة للنهضة الوطنية الاولى، والتى اكتسحت فيما بعد شمال افريقيا، وانها كانت طبيعية، تاماما، كما كانت طبيعية بالذات مقاومة الاقطار الاسلامية الاخرى في المشرق العربى مثل تركيا أتاتورك، وسعد زغلول بمصر، ومجاهدين آخرين في أطلس المغرب، وان الحرب العظمى الاولى كانت أصداؤها خير حافز للقيام بالمجهود الوطنى ولو ائى حدود ما وبالاخص مقاومة الاقطار التى أصابتها ضحايا تلك الحرب أو أصبحت ترزح تحت نير الغازين، فكان من الطبيعى أن تتداعى لذلك الصدى الاقطار التى تنتظر نفس المصير، وبالاخص أن المشرق العربى كان يرسل شواظا من نار كتاباته الوطنية وكانت الحركة الوطنية في مصر قد تأججت بعد ثورة 1919، وتفاعلت مع الزمن ورفعت رأسها شامخا تحت زعامة زعيم مثالى وهو سعد زغلول، حيث وضع مسلك بريطانيا الاستعماري في المقيم المعقد .

من هم الخطابيون وما هي أطوار حياة ابن عبد الكريم

قبل تفجير ثورة 1921

اعتاد الكتاب أن ينسبوهم الى عمر بن الخطاب، وذلك أخذاً من كلمة الخطابي، لتوافق الكلمتين، وشهرة اسم الخطاب الذي ينتمي اليه أعظم خليفة في الاسلام لرسول الله (طعم) «أما عمرو أبو نصر في كتابه «بطل الريف»، فقد روى عن ابن عبد الكريم نفسه، قوله:

«انه ينتمي الى محمد بن عبد الكريم الحجازي الاصل، وان عائلته نشأت في بلدة ينبع من أعمال الحجاز، غادرت هذه البلدة في القرن الثالث الهجري، وانها أقامت في قبيلة بنى ورياعل من الريف الواقعة بين البحر وتركيبست، وهي موطن العائلة منذ ألف سنة» .

يبدو أن ابن عبد الكريم لم ينسب نفسه لعمر بن الخطاب، لسبب بسيط، وهو أنه لم يثبت تاريخياً أن عائلة سيدنا عمر بن الخطاب اشتهر منها أفراد في الريف، لانه لو رحلت عائلة منها لتضافر المؤرخون عن ذكرها، وتتبع رحلاتها ورحلات أفرادها .

وتبسط ذلك تبسيطاً يتلاءم ومقام الخليفة الثاني لرسول الله (صلم) لئلا من ذكر خالد في صاب الاسلام وعند المسلمين قاطبة، فلا يعزب عنهم نزوح عائلة تنتمي اليه، والحال أنهم تتبعوا رحلات عائلات أدون منها درجة في الاعتبار فوسعوها بحثاً وتنقياء، فضلاً عن عائلة انحدرت عن الذي سمى فاروقاً لتفريقه بين الحق والباطل، والذي قال في حقه سيد المرسلين (صلم) :

(ما سلك عمر فجا الاسلام الشيطان فجا غيره) ،

ولكن رغم كل ما ذكر ورغم ما نقاه عنه عمرو أبو نصر، فإن الخطابيين بالمغرب يوجدون على عائتين اثنتين: احدهما بربرية وهي الخطابيون الصنهاجيون الذين كانوا يسكنون ضواحي فاس، ومنهم

العالم «ميمون الخطابي» الذي عرف به الاستاذ السيد عبد الله كنون في سلسلة «مشاهير رجال المغرب» .

وثانيتهما الخطابيون الشرفاء الادريسيون الذين منهم عائلة السنوسيين في طرابلس الغرب والذين كان منهم الملوك السنوسيون في العهد الاخير والذين قاوموا الاستعمار الايطالي في بسالة نادرة بليبيا . كما كان لهم ملك أولاد زيان اشرفاء من تلمسان وتقدمت بالصحراء قبل ذلك .

وهؤلاء ينتسبون الى الشريف الخطاب بن علي بن يحيى بن راشد بن احمد بن المراتب بن حنداش بن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف (1) بن زيان - واليه ينسب الزيانيون - بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن ادريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن عاي بن عمران بن مولاى ادريس الاصغر (2) دفين فاس ومؤسسها .

والخطاب الذى تنتمى اليه هذه العائلة عرف به صاحب الدرر المنسية (3) فقال :

(العلامة الهمام، انقدوة الامام جد آل خطاب قاطبة، وقبره مشهور، مزار هناك بملتقى وادى ثاف وواد مينة (بالجزائر)، فهو والد الشريف الابى القطب الاكبر السيد عبد الله النقابى المذكور، المتونى القطبانية، وهو دفين ثغر بلاد مستغانم الكائنة بساحل البحر المعروف بالمطمر وما عمرت تلك البلاد الا بعد حاوله بها .

وقد ذكر ابن خلدون «أن أصل الشرفاء الزيانيين هم من الريف، انتقل أحد أجدادهم من بين حسن ويعقوب الى قصبة «تاوت» بأعلى الصحراء بنواحي وادى سلم، ونهر واصل، وصارت هذه النقبة مقرا لاسلافهم، ولهم بها قدر عظيم، وجاء جسيم، تولوا هناك الملك، مما يزيد

(1) الى هنا انفرد به كتاب الدرر المنسية .

(2) والى هنا شارك فيها ابن خلدون .

(3) صحيفة 107 .

على مائة سنة، ومع ذلك فانهم لم ينسوا مقرهم بقصبة «تالوت»، فعندما قضى على ملكهم الوطاسيون في تلمسان، رجعوا الى قصبتهم.

وقبل الوطاسيين كان بنو مريـن الاصليون (احترازا من بنى مريـن الفرعيين وهم الوطاسيون) كانت لهم وقائع مع الملوك الشرفاء الزيانيين في تلمسان، فقد كان تولي الملك من هؤلاء الشريف احمد بن زيان ومكث سلطانا على تلمسان ثلاثين سنة ثم خلفه ابنه يوسف وتولى الملك عشر سنين، وفي عهده استولى بنو مريـن على تلمسان وقتلوه واستباحوا قصبة الشرفاء في تلمسان، ففروا الى قصبة «تالوت» الى أن أعادوا الكرة واستولوا على تلمسان وأجلوا بنى مريـن، وتملك الشريف احمد بن يوسف بن احمد بن زيان، وخلفه أحد موالى زيان بن زيان وبقي سلطانا لمدة أربعين سنة، حيث أعاد الكرة بنو مريـن الفرعيون فهجموا على تلمسان بمعونة العرب والبربر من جميع القبائل، فحاصروها مدة أربع سنوات حيث انهكوا تلمسان وضاعت بالاجوع، فانهزم الشرفاء الزيانيون وهرب من فلت من الموت الى جهات مختلفة، وقصد جاهم قصبة «تالوت» واقترض ملكهم بتلمسان .

والملوك الزيانيون هؤلاء غير ملوك تلمسان الزيانيون المعروفون ببني عبد الواد، فهؤلاء زناتيون في الاصل، وكانوا ملوك تلمسان قبل الشرفاء الزيانيين المذكورين، وقد انقرض ملكهم في حدود أواخر المائة الثامنة الهجرية وهم أولاد زيان بن يوسف بن محمد بن زكرياء، وقد قال المقرئ في (قلائد العقيان من انساب عرب الزمان) .

ومن زناتة بنو عبد الواد ملوك تلمسان القائمون بها الآن وهم بنو عبد الواد بن بار بن رميك بن واسيرا ... الخ .

ثم أن الخطابين أولاد بنى زيان، انتشروا في الافاق، فمنهم السنوسيون الذين منهم الامام السنوسى صاحب العقائد، ومنهم سيدى محمد بن سيدى على السنوسى مؤلف «الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية» وهو من جعبوب، بلد الزاوية الجعبوبية بايبياء، ومنهم ملوكها.

ومنهم انخطابيون الذين نزحوا من تلمسان الى الريف الذى هو
أصلهم الاول، ففى الدرر السنية (1) فى أخبار السلالة الادريسية .

«أما محل أسلافه (يعنى جدهم عبد القوى الحسنى الادريسى
الزيانى التالوتى، أحد ملوك اقليم مدينة) تقدمت) قاعدة المغرب الاول،
كما كان سياق كلامه) وقرار أوائله فهم أهل قصبة تاورت باقليم الصحراء
باعا لى أواسطها بنواحي وادى سلم ونهر واصل وما يلى ذينبك من
أطراف اقليم تلك النواحي، فهى مقر أسلافهم وأوائلهم بعد انتقالهم من
محل أسلافهم الاولين مولاي عمران ابن ادريس وبنيه الذى هو الريف
وبادس، حصته مع اخوانه العشرة، حيث قسمها بينهم أخوهم الامير
مولاي محمد بأمر جدتهم» .

وبناء على ما ذكر وعلى ما كان يروى عن عبد الكريم الاب من أن
أسلافه جاءوا من تلمسان واستقروا ببنى ورياغل، فانه يرجح أن يكونوا
من هذه السلالة والله أعلم وبالاخص أن اسم الخطابين لم يكن يعرف
فى تواريخ مدن المزمة وباديس والנקور وهى تواريخ لم تترك قبيلة ولا
قرية ولا موضعا الا ذكرتها باسمها المعروف فى ذلك الوقت فى سياق ذكر
الاحداث السياسية أو الدينية التى تصدت لها باسهاب، الامر الذى
يدل على ان الخطابين لم ينزحوا من تلمسان الا بعد انقراض ملكهم
أيام انوطاسيين، حيث رجعوا الى موطنهم الاصلى، كما نزح غيرهم الى
الجهة الشرقية، فاستقروا بليبيا الى غير ذلك .

عائلة الخطابين حالا

أما الخطابيون في بنى ورياغل الآن، فهم مشهورون ولهم جذور عريقة في رياسة اقبيلة الروحية والعملية وهم يستحدون على القطاع الجغرافى الممتد على خليج الحسيمة وجزيرة النكور، وينقسمون الى فرقتين اثنتين هامتين، تسمى احدهما بآيت يوسف وعلى، ومنها عائلة ابن عبد الكريم الخطابى والثانية تعرف بآيت على ويظهر من التسمية أن الجدين المنسوب اليهما الفرقتان هما اخوان، تفرقا، فسكن الاول هضاب أجدير وآيت قمرة وما اليها وسكن الثانى بسهل أمزورن، والفرقتان الآن قد تصل نسما سكانهما الى حوالى 30.000 نسمة، الا أن الذى يجب اعتباره أنه ليس كل من هو موجود الآن في هاتين الفرقتين من أصل عائلة الخطابين، بل اختلط بهم غيرهم بفعل الهجرات من الجبال الى السهول حيث العيش والمواصلات متوفرة، فقد رحلت عائلات وعائلات واختلطت هذه بتلك، وتلك بهذه، بفضل التصاهر والسكنى، كما كان شأن السرفاء أيضا في نفس الفرقتين .

والخطابيون الاصليون هم سكان أجدير المنقسمون الى الافخاذ التالية :

فخذة آل زرعة، وهى فخذة الزعيم ابن عبد الكريم، وفخذة آل مسعود أيوسف هكذا بضم الهمزة وآل محند أبو بكر وآل على أعيسى ، ومما يستملح ذكره في أوصاف هذه الافخاذ ما كان يروى عن الوالى الصالح سيدى امحمد بن موسى الغلبزورى، قال فى بعض أوصاف هذه الافخاذ ما يلى :

ينكب آل مسعود أيوسف على قراءة القرآن، فهم أحلاس المساجد، وتزوج نساؤهم للفخفة والكبرياء الفارغة .

أما آل على أعيسى فانهم لا يقدرّون على نزال الاقران، ولذا يكثر فيهم الرجال ويعمرون، ونساؤهم يتزوجن للكسب ونماء المال .

وأما آل زرعة فهم الشجعان الذين لا يبلغ منهم رجالهم سن
الشيخوخة لكثرة خوضهم المعارك، وإذا أردت امرأة أعرابية فعليك
بنسائهم فمن حصن الدار وموطن العائلة .

أجدير وموقع القرية :

كلمة أجدير في الأصل بربرية تطلق على مخزن الحبوب في المطامر
(المرسى)، لان اسكان في انقرية أى قرية كانت، كانوا يختارون محلا له
طبيعة خزن الحبوب، بحيث لا تتسوس، وذلك بالتجربة والاختبار، فتحفر
كل عائلة مطمورة (بئرا بلا ماء) تضع فيها محصولها الفلاحي السنوى
(الحبوب خاصة) وتأخذ منها شيئا فشيئا حسب الحاجة ويدعى هذا المحل
أجدير، ولا زال أهالى الاطلس يدعونه كذلك، أما في الزيف فلم يبق هذا
الاسم الا علما على القرى، فتوجد في الريف عدة من انقرى تدعى بأجدير،
مثل أجدير بنى بوقياضا، وأجدير تمسامان وغيرهما .

تقع قرية أجدير مسقط رأس الزعيم على هضبات حجرية تلتطم
لديها أمواج البحر الابيض المتوسط، عند خليج الحسيمة ولها فرضة
اشمري والسوانى وتسامت جزيرة النكور، التى دعيت عند الاسبان
«بالا وسيماس»، ومنها أخذت الحسيمة اسما لمدينة الحسيمة .

وفي التاريخ القديم كانت قرية أجدير تقبع على كتف مدينة المزمة
انتى ذكر البكرى بأنها كانت محل تسويق محصولات الوادين:
غيس والنكور .

ولهضاب القرية استراتيجية خاصة منقطعة النظر، بحيث أن
قلبلا من التحصينات تجعلها قلعة حصينة منيعة، تبدو مثل خلايا النحل
ترسل لساعاتها الموجعة الى كل دخیل يريد هتك حصانتها .

ففى حرب انتحير، كانت كل قمة من تلك القمم الصخرية موضع
مدفع أو مدفعين أو ثلاث، يسيرها طبعيون ريفيون ماهرون، كما سيأتى
تفصيله، وقد ضاقت جزيرة النكور: القلعة المأسورة بيد الاسبان ذرعا
من هذه التحصينات التى تتحدى مدفعيتها الثقيلة المصوبة الى القرية
والى سهول الخليج والتى كانت ترمى بدون هوادة لما كانت وحدها فى

المدافع الرفيعة في هضاب اجدير ضد جزيرة الحسيبة والبحر وهي مخبئة في الاعشاب



الميدان، أى قبل غنم مدافع العدو فى المعارك المختلفة فى الجبهات فكانوا يرسلون بعض الكلاب فى الادغال الموازية للجزيرة، فتتحرك الاشجار، وحينئذ تصب الجزيرة جام غضبها وحقدتها فتفتت ما فى صدرها من الغيظ، بينما السكان يتفرجون على تلك المناظر من الهضاب والقمم الذين يكونون قد انبطحوا عنها، نيشاهدوا ذلك المنظر المتكرر اذى يروقههم ويتفكهون به، ثم يرهفون الاسماع بعد ذلك ليلتقطوا اثارا لاسلكنة تثبت نتائج المعارك ضد الكلاب، بأنها قذفت صوب المقاتلين الالهالى فقتلت وفتكت وخربت .

ان هذه الهضبات الحجرية المنيعه الصلدة المحيطة بأجدير واطى يقابلها مثلها من قمم سيدى شعيب المفتاح بتمسامان (رأس كليطو)، جعلت المنظر أمام المعيرين رهيبا ورهيبا حقا، ذلك أن المقاتلين الارياف، كانوا فى تلك القمم بمأمن من كل هجمات العدو برا وبحرا وجوا، بحيث أنه قل أن تصيب قذائفه أى هدف بالذات، فهى ترجم رجم الغيب، لأنها حباها الله كما حبا شواطىء الريف من مرتيل الى مليية بمناعة قل أن يكون لها نظير، لان فرضها التى يخلقها الوديان قليلة، فما عدا فرضة خايح الحسيمة وفرضة وادى لو وبعض الفرض الاخرى الصغيرة فيما بين هذين الموقعين، توجد الجبال الشاهقة المظلة رأسا على اتبحر كأنها صوامع حراسة ذلك ما جعل المعير من جهة البحر يئأس من استعمال تلك الشواطىء لاغراضه الهجومية، فعندما يحاول أن يزج بنفسه فى أية مغامرة، فانه يقع فى مصيدة نصبت الطبيعة الجيولوجية شراكها فى حين يقبع الالهالى المقاتلون على رؤوسها مطلين بعيون الصقور وخفة الغزلان ووثبة الاسد.

قبيلة بنى ورياغل مسقط رأس الزعيم

تقع هذه القبيلة ما بين قبائل أخرى منيعة، فمن جهة الشرق تحدها قبيلتان، هما قبيلة بنى توزين التى تعمر منطقة ذات تضاريس

جبليّة وعرة المسالك يجرى بينهما وادى النكور الذى ينزل على رفيدين، احدهما غربى ينبع من جبل ورغة، والآخر شرقى ينحدر من أزرو أقشار من كزناية، وقد جعلته الطبيعة فاصلا بين انقبيلتين، وثانيتها قبيلة تمسامان وهى أيضا تحتل منطقة نسخة طبق الاصل من الاولى، ما عدا تفتحها البحرى .

ويسكن القبيتين معا أهالى ذووا نجدة ورسوخ فى اشهامة وهم من بطون زناتة (1) من قبائل بطيوّة، فاسم بنى توزين محرف عن بنى توجين، أما تمسامان فكانت تسمى، بنى ورتداء، وأولاد بلند، وكلها أسماء زناتية، وقد تأثرتا كما تأثر جميع أهالى الريف بالهجرات التى انصبت على الناحية من أشراف وعرب آخرين ونغتهما تمازيغت منحرفة النطق عن لغة بنى ورياغل، ومن جهة الشمال يحدها خايج الحسيمة المنبسط من مصب نهر النكور الى قمة سيدى العابد على رأس مدينة الحسيمة، كما تحدها قبيلة بقيوة التى تقع هى أيضا على هضبات ذات أحجار كلسية ممتدة من رأس سيدى العابد الى فرضة مدينة بادس، وهى تختص بموقع استراتيجى لا نظير له، حيث تشرف على البحر رأسا ويعمرها أهالى يرجع نسلهم الى صنهاجة، وقد كونتهم طبيعة الارض أن يكونوا ذوى نجدة وصلاح معا، فهم من ناحية خوض غمار المعارك البحرية لا يجارون، ولذا كثرت من قديم التاريخ فيها رباطات المجاهدين الصالحين، ومن ناحية أخرى فالقبيلة تعد مقبرة الصالحاء، ولغتها تمازيغت لها نطق حلو خفيف .

ومن جهة الغرب هناك قبيلة بنى يطفث وأهاليها من صنهاجة أيضا وهى متصلة قديما بمدينة بادس وتختص بفرضة قلعة طريس انتى خلفها وادى قصبة سنادة التى تعتبر مجور القبيلة والتى احتلت فى نفس التاريخ مكانة عند الاهالى، جعل الشرفاء الوزانيين مقرا لهم، أسسوا فيها زاوية، فانهشرت القبيلة اليها، ولغتها الاساسية هى العربية الدارجة مع اتقانها للغة تمازيغت .

(1) الاستقصاء - الجزء التاسع صحيفة 205 -

كما تحدها من هذه الجهة قبائل ترجيست أيضا، وهى لها مركز صلة الوصل بين سكان سواحل البحر وسكان صلب انجبال التى هى المقر الاصلى لقبائل صنهاجة الريفية الاصلية والتى يأوى اليها الشرفاء انخمليشيون اذ ين أسسوا مركزا رئيسيا فى تلك القبائل، فانصاعت اليهم كلية وكانت تصدر وترد على توجيههم حيث أسسوا زاوية ذات اشعاع صلاحى نبغ فيهم فى هذه الفترة من التاريخ الشريف سيدى محمد اخمايش الذى استحوذ على تلك الجهة بالصلاح وسداد الرأى ولغة تلك القبائل اللهجة العربية مع تمازيغت، قد لا يفهما أهالى القبائل الاخرى ويحدها من جهة الجنوب قبيلة بنى عمرت، وهى قبيلة من صنهاجة أيضا، وهم يعتبرون أخوة لقبيلة بنى ورياغل، ويسكنون فى أعالي الجبال المتاخمة لجبل حمام، وهم ذوو نجدة لهم قدم معروف فى الحروب، يتكلمون تمازيغت ويوجد من بينهم الشرفاء الخمليشيون، الا أنهم من أواسط السكان، كما تحد أيضا من نفس الجهة بقبيلة اكرناية التى تصل اطرافها الى مدينة تازة، قاطنة فى جبال وعرة لها مواقع حربية هامة وهى التى اندلعت فى أرضها الثورة الريفية على فرنسا أخيرا التى كان من مشاهير معاركها، مثلث الموت بين بوزينب وتيزى وسلى وبورد، ولغتها تمازيغت.

أما قبيلة بنى ورياغل، فسكانها أيضا من صنهاجة وهى تحتل منطقة نها تفتحات على البحر وعلى سهل النكور، وأغلبها جبلية وفى تقسيماتها انداخيلة تسير على نهج تخميس الاخماس، خمس الخطابين، خمس المراطين، خمس بنى بوعياش، خمس بنى عبد الله، وخمس بنى حذيفة .

وهذه الاخماس هى التى تكون سياسة القبيلة تحت رؤسائها (امغارن) .

ان هذه القبيلة فى هذه الحقبة من التاريخ كانت محور الريف الاوسط وبالاخص حقبة حوادث بوحمارة التى لم تأخذ منها منالا رغم خضوع قبائل الريف الشرقية لتركاته، ولذا قال الاستاذ: دافيد هارت

الامريكى (1) ولما كان بنو ورياغل يشكلون القبيلة الاشد باسا، فقد كانوا يوجهون سياسة الريف، ولعل عدم خضوعها له من أول وهلة ومناوشاتها المستمرة ودفاعها المستميت لصالح العرش المغربى، اكسب لها نفوذا تكون

(1) يلاحظ أن الاستاذ دافيد هيرت الامريكانى يطلق على بنى ورياغل كلمة آيت ورياجل، وقد جرت بينى وبين الدكتور دائل ايكلمان الامريكانى الاستاذ فى العلوم الاجتماعية بجامعة نيويورك. محاوراة كتابية اقتطف منها ما يأتى :

س - هل كان البعض من أقاربك من كبار آيت ورياجل ؟
ج - قبل الاجابة أشير الى أن كلمة آيت ورياجل اتى وردت فى أسؤال غير مستحبة، انما الصحيح أن يوضع مكانها كلمة بنى ورياغل التى تعرف بها القبيلة .

أولا - لانه الاطلاق الذى تعرف به فى فترات حياتها حسبما هو موجود فى الوثائق العريقة فى القدم من ظواهر الملوك ورسوم التعامل وكتب التاريخ، وبالاخص تاريخ ابن خلدون والمسالك والممالك للبكرى وغيرها .

ثانيا - ان كلمة بنى أخف ولها أصل فى اللغات الحية، أما آيت فغير معروفة الا فى اللسان البربرى الاطلسى اتى لا تنقيد به جهات الريف التى تنطق بلهجة تمازيغت .

ثالثا - انى أعرف أن كلمة آيت تبناها الاستاذ دافيد هارت فى كتابه (دراسة اثنوغرافية قبيلة آيت وراجل الريفية) المطبوع عام 1954 وانى أفهم أن سبب تبنيه لهذه الكلمة هو تأثره بالبحث عن الالفاظ العربية البعيدة عن الكلمات العربية حتى يعطى صفة انبربرية للريف فى جميع مظاهرها، مع أن التاريخ الصحيح لا يوافق على ذلك فان الريف تقبل العرب والعربية فى المد الاول وكان صلة الوصل لتدفق العرب على الشمال الافريقى مجتازين الى الفردس المفقود وقد حافظ الريف على اصالة اللغة العربية فى مظاهرها اثنافية والدينية بكل أمانة، مما جعل أسماء القبائل كلها جاءت على أسماء عربية

بما رسخ في أذهان أوساط ابريف من قدرتها البطوانية في حوض غمار
المهالك من دون مبالاة .

ويمكن أن تكون حادثة الباخرة الاسبانية التي غرقت قبالة جزيرة

الاقليلا سواء التي تبدأ ببني، فمثلا بني توزين جاءت في تاريخ
ابن خلدون هكذا بني توجين كما جاءت بني ورياغل فيه كذلك ومثل
ذلك بني بويحي وبني سعيد وبني بويفرح وبني اكميل وبني عمرت
كما جاءت الاسماء الاخرى وفقا لقواعد اللغة من أسماء الاعلام
مثل كبدانة وقلعية ومطالسة وبقيوية وكتامة، وهكذا سردها أيضا
ابن روفيسور كارلتون كون في كتابه (قبائل الريف)، لانه من المعلوم
أن الاسماء التي تختتم بهاء التانيث هي أسماء عربية، نعم ان الاسماء
التي أصلها بربري تكون مختومة بتاء، وقد احتفظت بها بعض
القبائل، مثل تركيست وتماسينت وتافرسيت، الا أن هذه الالفاظ
ليست مقصورة على الريف، بل توجد في قبائل جباله، مثلا توجد
بقبيلة بني سعيد وادي لو، تمرابت تمرنوت وترزوت في بني عروص .
كما لاحظت في كتابه المذكور، عدم التفريق بين تامازيغت وتاشلحيت
فجعلها لغة واحدة، مع أن الواقع هي لهجات مختلفة، فالتشلوخ، هم
سكان الاطلس، وأمازيغان أي أبناء مازيغ هم سكان الريف، وهؤلاء لا
يتفاهمون مع أولئك الا بواسطة العربية، وفضلا عن ذلك، فان الاستاذ
هارت ذكر بني ورياغل هكذا آيت ورياغل بالجيم، وهو الاسم انذى
يحاول اطلاقه على القبيلة اغراقا منه في الابتعاد عن العربية، وهنا
أكد ان الرجل لو سار من تطوان الى وجدة شاقا وسط سلسلة
جبال الريف، يسأل اين جاءت قبيلة آيت ورياغل، لما استطاع أن
يحصل على جواب بالاثبات، لان هذا الاسم غير معروف، ولو حتى
للهجائن التي يستعمل آيت بمعنى الاهل، فيقال مثلا آيت فاس
آيت تطوان، ولا يقصد بها أن يسمى فاس آيت فاس .

وبناء على ما ذكره، فان السؤال يجب أن يكون كما يأتي :

هل كان البعض من أقاربك من كبار بني ورياغل ؟

بادس بسبب اغارة أهالى تلك الشواطىء عليها عام 1311 هـ. عاملا آخر. حيث بقيت قبيلة بنى ورياغل بعيدة عن اتحادة، التي كلفت الدولة المغربية تعويضا مائيا لاسبانيا، مبلغه أربعة آلاف ريال، اضطر السلطان مولاي الحسن الاول لإرسال الباشا الشهير بوشتى البغدادى لتأديهم، واستخلاص المال منها، فنزل بقبيلة بنى ورياغل بوطء أجدير قرب ضريح سيدى امحمد وعلى، ووجه عساكره الى تلك الجهة .

فضلا عن ما تقدم، فهناك حادثة قضائها على انثائر الكملى أيام الموحدين، ولهذه الاحداث وأحداث أخرى محلية كثيرة يسردها الاهالى، كانت أساسا متينا لتبوء المركز أمام القبائل الاخرى .

البيئة التى نشأ فيها الزعيم ابن عبد الكريم

وفى هذه الحالة، فان ابن عبد الكريم تكون كما يتكون عامة الشعب، معتمدا على نفسه، له أسلوب حياة الشدائد من دون انتمتع ببجوحية الرفاهية المترفة، بل يقنع كما يقنع اترابه بشظف العيش، ان دعى احوال وشاع فى ذلك الوقت أن من العادات المستقبحة أن يستسلم المرء لمذات بطنه ولا يساهم فى الفروسية، كما تكون عن عادة حمل السلاح من فترة الطفولة، واستعماله باثقان، يتبارى به مع أقرانه فى ضرب الاهداف واقتناص الصيد، بل وحتى ضرب الاعداء عند الضرورة .

ونظرا الى تفتق ذهن والده عن الاحداث اندولية العامة، وعدم قصور نظره على الاحداث المحلية التى يراها تكبينا لهمم الرجال الاشداء، الذين ينبغى أن ينظروا الى مرامى شاسعة الاغراض، فانه جعنه يزيد بيئة أخرى الى بيئته التقليدية، وقد ساعده على ذلك أن الريف كان يتمتع علاوة على الحياة الآنفة الذكر، بحياة اجتماعية ذات تقاليد عامة، فى تثقيف العائلات لابنائها، بثقافة علمية دينية وشرعية، وبالاخص العائلات التى لها مركز الرياسة فى القبائل .

وقد وجد ابن عبد الكريم حياته تتقاذفها تيارات ثلاثة، دينية وعلمية وسياسية، حسب الحياة العادية فى ذلك الوقت بين قبائل الريف .

وقد جمعنا هذه التيارات، لان طبيعتها في ذلك التاريخ يصعب فصل احداها على الآخر، وقد بدأنا بالاولين لتتفرغ الى التيار الاخير، الذى هو موضع هذا البحث بالذات، وهو التيار السياسى المحلى وانصارجى .

ان التيار الدينى يتمثل في هذه الزواوى المنتشرة في أصقاع الريف، بحيث انها تعتبر جزءا مهما من حياة السكان، يرجعون اليها فى ملمااتهم الدينية والدنيوية، وهى مقصدهم عندما يفرغون من متاعب الحياة المعيشية، وهى مفزعهم اذا ادلهمت الامور بين قبيلة وأخرى، أو بين جماعة وأخرى، لما أحيطت بها فى معتقداتهم من اقدسية والحصانة الخلقية، ولما ابداه مسيروها من الاشراف والصلحاء من كمال التهذيب الربانى تارة، والنفوذ العملى الذى اكتسبوه على مر الاجيال تارة أخرى .

ولاجل انقذليل على انتشار هذه الزوايا، فاننا نأتى بأمثلة لتلك الزوايا هنا، فى القبيلة التى احتك بها أكثر من غيرها، مع العلم بأن القبائل الاخرى مثلها أو أكثر .

ففى بنى ورياغل كانت توجد فى هذا العهد: عهد عائلة عبد الكريم الخلابى، زاوية سيدى يوسف، وهى أعظم زاوية تتوسط القبيلة، حتى أطلق اسمها على القرية بأجمعها، التى سكانها من ذرية هذا الولى الصالح سيدى يوسف الغابزورى، وقد تمسكوا بالصلاح، وكانت محط أنظار القبيلة يلجأ اليها أفرادها لرتق الفتوق عندما يحتد الخلاف بين أفرادها، وكثيرا ما فضت مشاكل عويضة قد تؤدى الى هلاك خلائق ؟

زاوية سيدى عيسى بن عبد الكريم، وكانت هذه هى الاصل عن الاخرى، ورغم أن مؤسسها من عائلة واحدة، لان الاول حفيد الثانى، فان الرياسة فى الفترة التى قضى فيها على بوحمارة وبدء زحف الجيوش الاسبانية من مليلية، كانت رجعت لالى هذه، بفضل نبوغ أحد أفرادها المجاهد الشهم السيد محمد بن احمد العزوزى، الذى سبختى ترجمته ضمن الثلاثة أشخاص الذين جاد بهم الزمان قبل ابن عبد الكريم .

زاوية سيدى امحمد الصغير بقرية آل هشام، وهى زاوية فضلا

عن وظيفتها الدينية ، كانت لها جولات فى السياسة المحلية، بفضل حفيده
سيدى احمد بورجلة .

زاوية سيدى الحاج مسعود الكمونى بوادى توريرت، وهى زاوية
كانت الافخاذ اتقى تسكن جبال بنى بوغياش وتمركزى وتوريرت، تلجأ
اليها بفضل صلاح أهلها، الذين حافظوا على الصبغة الدينية لعلاقاتهم
مع الاهالى، وبالاخص زاوية بوعلمة التى نبغ فيها ولده الشريف المعروف
بسيدى احمد بوعلمة .

زاوية سيدى احمد مروي، أسفل جبل حمام .
زاوية سيدى احمد اقنيا .

زاوية سيدى الحاج عبد السلام بتشيتيو الى غير ذلك .
مع العلم بأن هذه الزوايا لا تتبع طريقة من الطرق الصوفية،
وانما منحاهما الصلاح والاصلاح لحد ذاتهما .

ذلك أنها كانت بحد ذاتها، تكون مجموعة سكنية تنحدر من الرجل:
رئيس العائلة الذى اشتهر بالصلاح، وانذى اختار المخل مقرا له ومسقط
رأس ذريته من بعده، فتكونت منهم قرى ذات ثقل من وسط المجتمع
المحدودة الذى يحيطها، لان أولئك الاحفاد حافظوا ولو نسبيا على سمعة
الصلاح والاقتداء، فكانوا خير واسطة لفض انزعات القبايلة .

لاجل اعطاء مثال، نورد هنا حادثة من نوع التدخلات ذات نفس
المقصد، ففى حوالى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، حدث فى بنى
بوغياش (قرية الرابطة) أن أحد الأشخاص قتل غيلة أحد أعمامنا، ثم أن
القاتل رحل الى قرية بنى بوسته، وهى قرية يسكنها الشرفاء البوستاويون
وكان رئيسها يدعى الحاج امحمد، الذى كان فى نفس الوقت صديقا لجدنا
انحاج محمد الربضاوى الذى اغتيل ولده .

وقد سكن القاتل عند صديقه، ولم يبد جدى أى غضاظة، احتراماً
لصديقه، ولم يشأ أن يمس به بسوء ما دام محتميا به، ولكن، ان أحد أولاد
الرئيس البستاوى كان يصاحب القاتل أحيانا عن طريق السوق، ذلك ما
أغاض أولاد جدنا، وهم شباب، فما كان منهم الا أن ترصدوا للقاتل فى
الطريق، فضربوه، ولكن أخطأوه وأصابوا ولد الصديق، فأردوه قتيلا، وقد

سبب ذلك في خلق جو غير ملائم بين الصديقين، فاستدعى جدنا شرفاء راوية سيدى يوسف لاصلاح ذات النبين بادائه الدية لصديقه، فاجتمعوا وكونوا مسيرة ضخمة بطقوسهم الدعائية وصلواتهم المسترسلة وتلاوتهم اقرآنية، الامر الذى استدعى أنظار القبيظة بأسرها مترقبة نتيجة التدخل الاصلاحى، فكان القوم يترقبون للحاج امحمد الوستاوى احدى انخصلتين، أما رضى الشرفاء أو سخوطهم، في حال عدم الاذعان، وكانت شجيته تحمله على الثانية، نظرا لغلظ قفاه، وفعلا امتنع من قبول الصلح باطنيا واستخف بالشرفاء ولم يعتن بهم .

ذلك ما دعا جدنا أن يأوى الشرفاء الى داره ثلاثة أيام، اعتبرها الشرفاء بادرة تقديرهم عكس الآخر، فاغدقوا عليه من الدعاء ما اعتبره الاهالى عزا له ولخويه من بعده، أما الآخر فقد تهاوت سمعته وخبت رياسته، فلم تقم له قائمة .

هذا هو الاعتقاد السائد في ذلك الوقت، وهو اعتقاد لا نريد هنا أن نشرح مدى صحة جوهره، ولكن هو فى الواقع اعتقاد يعتبر تيارا يجرف معتقدات القوم التى خلفت استقرارا في الحياة لا يستهان بها من حيث تأثيرها في اتوجيه المعنوى للقوم، ولهذا فان الجماعات من القوم الذين نشأوا عن هذه التربية وهى منتشرة في نقط مختلفة من انقبيلة بسهولة وجبالها وحولت اليها أنظار المتساكنين، قد جعلت ابن عبد الكريم يتأثر بها، لا لانه يعتقد كما يعتقد عامة القوم في تأثير دعواتها لتحويل الاقدار الالهية عن مجراها الطبيعى، ولكن لانه لا بد أن يقرأ الحساب لهذا الاسلوب من الحياة مدا وجزرا .

وهى كما انتشرت في قبيلة بنى ورياغل، انتشرت أيضا في قبائل أخرى .

ففى قبيلة تمسامان مثلا، زاوية المرابطين بوسويقة — ينطق بها الاهالى بالزاي — .

وزاوية المرباط احمد وزاوية سيدى بويعقوب، وزاوية تمزغنين وزاوية سيدى بوداود، وزاوية أولاد عبد الوهاب، الى غير ذلك، وفي بنى

توزين زاوية سيدى الحاج على، زاوية بوجدانين، زاوية اجار مرواس، زاوية غلبون الى غير ذلك، وفي بقية زاوية سيدى الحاج حسون بادوز، وفي بنى يطفة زاوية الشرفاء الوزانيين باسناده، وفي تركيست زاوية الخمليشيين، الى غير ذلك .

أما التيار العلمى فكان يتمثل فى الاشعاع العلمى المستمد من جامعة القرويين حسب التالى :

اشعاع جامعة القرويين :

من هذا المزيج الصالح الذى غمر هذه الجهة، والذى أعطى دما لشرايين الحياة فيها، وهو مزيج العلماء الذين غرفوا من معين مدينة مولاي ادريس التى تحتضن جامعة اسلامية فريدة من نوعها، وهى جامعة القرويين الذى ظهرت كمعجزة بركة آل النبى (صلم) والتى ازدهرت ازدهارا لم يزل يزداد مرور الايام وكر العصور الا تقدا الى الامام، فأضاءت اشعاعا حضاريا وعلميا بلغ شأننا كبيرا، كانت دائما محج قاصديها من مشرق الارض ومغربها، والآية الكبرى لكل المتطلعين الى المعارف حتى من غير المسلمين، فاسدت للعرفان ما لا يمكن لقلم أن يحصيه وقد أحصاه الزمان بما حوى فى طياته من فطاحل طوى تاريخهم فى السجلات الماثورة، ولا زالت اى الآن تسدى من معينها الفياض .

وقد انقلب هؤلاء العلماء من القرويين يميمون انشمال فى الريف وغمارة والجبال، حاملين الشعلة التى لا تنطفئ - وما كان لنور الله أن ينطفئ - وقد تمكنوا مما تعلموا، فاضاءوا من تلك الشعلة هذا الصقع المبارك، وقد هداهم ايمانهم ولوجه الله فقط أن يثبتوا ما تعلموا فى صدور أبنائهم واخوانهم، نبلا للماثورة النبوية، اذا ما مات المرء، انقطع عمله الا من ثلاث : علم يثبت فى الصدور الخ. أو كما قال (صلم) أما الشق الثانى من ذلك المزيج، فهو ما اسقناه من آل البيت النبوى الذى غمرت بهم صدور القوم عزة وحبورا، وكان منهم من الصنف الاول (العلماء) النصيب الاخر، ثم يأتى الشق الثالث من ذلك المزيج وهو رجال التصوف الذين وجدوا فى هذه الجهة تربة ثرية تزدت نباتا حسنا من يحمل تلك

التعاليم الالهية التي تصقل النفوس وتهذب الطبائع وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فأسدت خيرا كثيرا للانسانية الفطرية في توجيهها، لما فيه صلاح المعاش والمعاد .

وقد تسابق هؤلاء المتصوفون فضربوا في جهات الارض يبتغون فضلا من الله على يد المشايخ النفاطيل، وكان للطريقة الشاذلية الفضل الأكبر، وهى تتمثل في الطريقة الدرقاوية في المغرب اتى كانت الى ذلك التاريخ ناصعة العمل، نظيفة المعتقد، سنية المأخذ، لا تغلو فيما قصدته من تهذيب النفوس وتنوير الازهان .

وسنذكر نبذة عن صلحاء الزيف المتصوفين وجماعة من الشرفاء، كأماثلة حية عن الحياة الصلاحية والعلمية في مختلف الاوقات لكى يتمكن القارئ من أخذ فكرة واقعة متامسة لا تدع مجالا للتخمين والجفاف . وبفضل هذا المزيج المتعاون نشأت في مختلف قبائل الريف معاهد علمية، وهى تعتبر فروعاً كامنة عن جامعة انقرويين، وقد ظهرت فوائدها الجمة، فتسابقت الجماعات لفتح مساجدها للطلبة ورتبت الفقهاء المقتدرين في تلك المساجد، باجازة مالية من حبوب الغذاء، وكان يعنى أن انجماعة تشترط على الفقيه أن يقوم بامامة المصلين جماعة وجمعة ويرتب الطلبة للتعليم .

وذلك لاجل تهئ الطلبة للتوجه الى القرويين لاستكمال معارفهم، فهو في الواقع مرحلة ابتدائية .

وقد أدى هذا العمل خدمة جنى لسكان الشمال، وأظن أن هذه الجهة قد انفردت بهذا العمل عن بوادى المغرب، الا ما كان من بلد بوس ابلد الذى لا يفترق عن الشمال في شىء، فهما توأمان في العوائد والاخلاق والمقاصد الحسنة، وأغلب ما كان الطلبة يتبادلون الرحلات بين الريف وغمارة وجباله، وذلك لتعلم العلم في الغربية، لانها أى الغربية تعينهم على الانكباب على التحصيل من دون أن يعوقهم عائق شواغل الالاهل والخلان، فكانت توجد هذه المعاهد في قبائل الريف قاطبة، وهى عبارة عن المسجد الجامع في القرية التى تتكون هيئة بنيانها من غرف متعددة للسكنى ومن غرفة كبيرة في صدرها المحراب ومقياس القبلة والمنبر ان كانت لصلاة

الجمعة، وهى التى تدعى مسجد أنصلا، لا يدخلها الا من كان طاهرا الطهارة الكبرى، وعلى المتقين الطهارة الصغرى أيضا، وفيها تعطى الدروس العلمية من الصباح الى الغروب على حسب استطاعة الفقيه، وتكوين الطلبة وهؤلاء ينكبون على المطالعة والمراجعة ومناقشة بعضهم بعضا، بحيث أن الايام كلها تعتبر ندوات علمية .

أما معاش الطلبة فهو على الجماعة بأسرها، عند غروب الشمس ينقسم الطلبة على جهات الجماعة لآخذ الكمية التى تعطى كل دار ويدعى (المعروف)، وهو وان كان الاسم يقتضى فى الاصل تبرعا ولكن فيما بين الجماعة اجبارى حسب الاتفاق فيما بينهم، فمن لم يؤدى المعروف يلزمه لوم من الجماعة، أو حرمان من منافع القرية، الى غير ذلك من الاساليب، وانما كان الطلبة يذهبون بعد الغروب بالخصوص صونا لمحرّم السكان التى هى قاعدة مأثورة .

أما الفقيه فمعاشه على الجماعة بالتناوب، ويدعى (النوبة) ولا يمكن التخلف عنها من أى أحد والا تعرض لعقوبة صارمة، وهذا المعاش داخل فى الشرط، ويلزم أن يكون وافرا، بحيث يتعدى معاشه منها الى الطلبة، وهذه المعاهد انتشرت انتشارا متزايدا فى جميع القرى، وسنذكر منها بعضا على سبيل المثال، ورحلات الطلبة الى مختلف المعاهد تدعى بالتخييشة، وقد يكون أخذًا من الخنش الذى يجمع فيه الطالب حوائجه.

ومع العلم بأننا نؤرخ لفترة ما بين أول القرن العشرين الى تاريخ الحرب اذريشية، فاننا نأتى بأمثلة دلالة على الحياة فى وجهها العلمى، وهو عنصر لمعرفة البيئة التى كونت المناضلين .

ففى بنى ورياغل :

(1) مسجد أجدير وهو مسجد عامر يقصده الطلبة من القبائل وكان يقوم بمهمة التدريس فيه الفقيه البركة النوازى السيد على الاجديرى وهو من فخذة آيت مسعود ابيوسف .

(2) مسجد زاوية سيدى يوسف كان يتولى فيها التدريس الفقيه العلامة السيد محمد القاضى العبد الهادى، وهو شريف غلبزورى من

نفس القرية، كان كاتباً مشهوراً كلفه ابن عبد الكريم في أيام الحرب بتقريب وقائع الأحداث .

(3) مسجد زاوية سيدي عيسى، كان يتولى التدريس فيها الفقيه العلامة المشارك من الساف الصالح السيد احمد بن القاضي وهو من قرية آل القاضي الشندوريين، وهو الذي تصاهر ابي السيد عبد الكريم الخطابي الاب ببنته تيمونت وهي أم الزعيم الخطابي .

(4) مسجد ارباطة، كان يتولى التدريس فيها الشريف البركة سيد الحاج شعيب بن سيدي الحاج عمر صاحب ضريح ارباطة، وكان صوفياً وشيعة الحمد، وكان يجمع الى دراسة العلم تولى الاشراف على قراءة القرآن بقراءة ورش وحزمة، وهو متبحر فيها ومن ثم خلفه بنفس القرية الفقيه العلامة النحوي الاصولي سيدي محمد بن الحاج احمد بوزيان من قبيلة بنى توزين وبعده خلفه سيدي محمد بن محمادي الطلحاي التوزاني صاحب الجد والاجتهاد، علامة زمانه في النحو، الذي لا يجارى فيه يقدر أنه قرأ الفية ابن مالك مائة مرة، وفضلاً عن ذلك فله باع في التصوف وعلم الكلام، وله كتابات في هذا الموضوع، توفي رحمه الله عام 1958 م.

(5) مسجد تزورخت، كان يتولى التدريس فيها العلامة السيد محمد بوزلماط من عائلة الشركيين من بنى توزير قرية تعمرت .

(6) وفي بنى بويخلف الفقيه العلامة سيدي امحمد بن الحاج مسعود من قرية بنى بوستة، كان يشرف على طلبة القرآن أيضاً ثم تولى التدريس فيها سيدي محمد بوزيان المذكور آنفاً .

(7) وفي زاوية آل هشام كان يتولى التدريس فيها الفقيه القاضي النوازلي السيد محمد الشركي عميد عائلة الشركيين .

(8) قرية الطاعة، كان يتولى التدريس فيها أبو يعقوب يوسف الطاعى وهو علامة مشارك، وكان نحوياً بارعاً له منظومة اعراب لا اله الا الله .

وفى بنى توزين :

(1) مسجد ايجار مرواس، تولى التدريس فيها العلامة اللغوي

سیدی احمد بن الصدیق من نفس القرية كان لغويا يحفظ جل أبواب القاموس المحيط، وكان يجب ببداية عن الاسئلة التي تلقى عليه من مختلف العلوم وكان قبله يتولى التدريس فيه السيد محمد بودهر، وكان علامة زمانه تولى شرح قصيدة السيد محمد العزوزي في لحن القراء في تلاوة القرآن .

(2) مسجد زاوية سیدی الحاج علی كان يتولى فيها التدريس الفقيه العلامة الشجاع المفتي المجاهد سیدی محمد علی بولحيا التوزاني من شرفاء بني وكيل .

وفي تمسان :

(1) مسجد سیدی أبو يعقوب .

(2) مسجد تمرغتين .

وفي قلعية ببني سيدال :

(1) مسجد تانوت الرمان، كان يتولى التدريس فيه الفقيه العلامة السيد الواید ثم خلفه من بعده البركة القدوة المشارك سیدی علال التوتوي .
(2) زاوية سیدی ورياش، كان الفقيه العلامة السيد محمد واحمد يتولى التدريس فيها، وكان قاضي القضاة بالناصور أخيرا .

وفي بني عبد الله — ببني ورياغل — :

(1) مسجد سیدی أبو يعقوب بمدشر آيت زكري، تولى التدريس فيه السيد محمد بن الصديق الماوساوي من مدينة تيلكوزين، كان علامة في الفقه وانحو .

(2) مسجد سبعة أبواب — هكذا تسمى — ، تولى التدريس فيه العلامة العابد لله محمد بن السيد محمد السكاكي من مدشر اغلط .

وفي بني حنيفة من بني ورياغل :

(1) مسجد مشكور، تولى التدريس فيه السيد محمد الخمليشي، كان عالما متضلعا في النحو والفقه والتوحيد .

وفي تركيست :

(1) مسجد سیدی بوثن، تولى التدريس فيه الفقيه العلامة السيد عبد السلام الخمليشي .

وفى زرقنت :

(1) مسجد سيدى الوافى، كان يتولى التدريس فيه العلامة السيد الحاج على الزرقنتى جد القاضى السيد محمد الزرقنتى، وكان يتولى التدريس فيه أيضا الفقيه الطناز .

وفى بنى يطفنت :

(1) مسجد سمار واعمار، تولى التدريس فيه الفقيه السيد احمد مشبال .
(2) مسجد اغبال احمد، كان يتولى التدريس فيه الشريف سيدى محمد الخمليشى .

وفى بنى بويفرح :

(1) مسجد عبد الله وشعيب .

وفى بقيوة :

(1) مسجد تلا يوسف، تولى التدريس فيه العلامة المتفقتن الموقت السيد شعيب التسمانى .
(2) زاوية ادوز كان يتولى فيها التدريس مولاي على الخمليشى، وكان علامة نوازليا فرضيا تولى مهمة قاضى القضاء بالحسيمة أخيرا .
أما فى جباله، فمشهور فيها معاهد مهمة يقصدها الطلبة من كل جهة، وبالأخص المساجد التى يدرس فيها العلامة السيد بن يرمق، والعلامة المجلاوى فى بنى كرفط فى قرية بومعدة فى زاوية تازروت، مركز انزاوية الريمسونية، والعلامة سيدى المفضل، وفى غماره بزاوية أولاد بن صالح بمزيات .

وهذا عدا المساجد التى هى خاصة لحفظ القرآن بقرآته السبع المختلفة، فانها انتشرت كذلك فى القرى والقبائل، وعلى كل فان من يتجول فى ذلك الوقت فى ربوع الشمال يأخذ العجب مشوبا بالاغتراب والانشراح، فأين ما توجه لا يجد الا جوا مملوءا بالتحصيل وتجويد القرآن ومناظرات علمية مفروضة فيها استقصاء الحجج والبراهين عن طريق التصوف أو عن طريق العلم الظاهر أو عن طريق القرآن، وكل حزب بما لديهم فرحون .

وهذه المؤسسات الدينية أو العلمية مضمونة من جميع الاذى ولو غرأ أى شخص على عدو من أعدائه فى تلك المعاهد، فانه لا يأخذ أى ثار، والا تعرض لعقاب القبية التى ينتمى اليها بالتغريم والتخريب، بل والتحريق .

وهذه الجهات كلها مأمونة فى سبيل من يقصدها، وكثيرا ما يقصد المتصوفون والعلماء من اجنوب، فتراهم يتنقلون من زاوية الى أخرى ومن معهد الى معهد فى ضيافة وكرم .

ان هذا الاسلوب من الحياة النادر فى هذه انجوة يعتبر حافظا للعلائق الوشيعة بينها وبين جهات المغرب الاخرى التى تعتبر معيننا يغترفون منه كفاس وسلا ومراكش ومكناس وطنجة وتطوان وشفشاون، مع العلم باننا نورخ هنا للبادية التى أثرت هذه المعاهد فى اثاره الحماس الجهادى فى أرض الريف، على أن الذى يلفت النظر من كل ذلك، ان هذه المعاهد كانت العنصر الهام فى توجيه الناس لتعلقهم بالعروش المتعاقبة على المغرب، فمن مبادئ التعليم الاساسية وكذلك مبادئ التصوف، ان الفتق على الملك يعتبر مروقا من الدين، وبالاخص ان صلاة الجمعة تعتبر منبرا للبيعة لما تحتوى الخطبة الثانية من الدعاء لامير المؤمنين، ففى كتب التاريخ عندما نجد أن شخصا ما عندما يخرج عن الملك مثالا يقال، انه خطب به على المنابر فى صلاة الجمعة، فالخطبة فى الجمعة بالملك تعتبر مبايعة له وتجديد لها، واستمرارا للتعلق بالملك .

وفى هذا المضمار تمسكت جهات الشمال بالعرش العلوى، ولم ينفذ أبدا، يده من يده رغم ما كانت عليه الحالة، مما يعتبر انبلاد بلاد السيبة كما يقولون، ولكن اذا أردنا أن نحلل كلمة السيبة، نجدها كلمة تطلق على عواهنها، لان القوم رغم ضعف السلطة المركزية عن ايصال الاوامر المشددة اليها، فان انفس بقوا على ما عاهدوا عليه من الحفاظ على الولاء والاخلاص لمكهم ودينهم، فهم أشد حفظا حتى من الذين كانوا تحت السلطة الفعلية المباشرة .

وذلك اننا اذا تفحصنا التاريخ، نجد أنه بتاريخ كذا خرج فلان فى جهة كذا، وبايعه الناس هناك، وان الملك الشرعى سير اليه أما بنفسه

أو بأحد قواده للقضاء على الفتنة، وذلك ما هو مشحون به كتب التاريخ، أما جهة الشمال، فاننا لا نجد شيئاً يذكر، بل أن من سوات له نفسه أن يفعل شيئاً من هذا القبيل كان حتفه على يد القبائل تلقائياً، مثل الكميلي (1) وبوحمار (2) وزيطان (3) وغيلان (4) الى غير ذلك، لان العلماء غرسوا في النفوس هذه العقيدة، وقد ملئوا بها كتبهم لمن قدر له أن كتب .

وفوق ذلك، فان هذه المعاهد هي التي انتجت زعماء الحرب التحريرية، لان الجهاد في سبيل الله كان ولا زال من أهم الاغراض الدينية التي تتعلق بها النفوس والتي كانت بالطبع تحرض عليها تلك المعاهد وتعاليم الصوفية، وسنذكر فيما بعد زعماء ثلاثة كان لهم اليد الطولى في قيادة المجاهدين ضد الاسبان قبل البطل سيدي محمد بن عبد الكريم الخطابي .

قصة وجود ابن عبد الكريم في مليلية :

تكلم الذين كتبوا على وجود ابن عبد الكريم في مليلية واسره هناك بثنتي التأويلات المستوحات اما من تلقى الاخبار الاسطورية التي يحكيها الاهالي بعضهم لبعض، فيحرف هذا أو يطنب الآخر، حتى ابتعدت الرواية الصحيحة عن واقعها الحقيقي، أما جملة أو في بعض فصولها، وأما عن كراهية نابغة عن الحقد الدفين الذي يسيطر على أفئدة العاجزين ليأتوا بالمأثرة التاريخية فيحاولون الحط ممن تخطى صعاب الزمان، لخلق تلك المفخرة التي تبقى خالدة، وهكذا، فان القول بأن ابن عبد الكريم كان يسائر الاسبان في أعمالهم في شمال المغرب، بما كان ينشره في بعض الجرائد، مثل «تلفراف الريف»، وان القول، بأن سبب أسره بمليلية هو لاجل النزاع الذي كان بينه وبين الجنرال سلفستري، وان هذا الاخير صفعه على خذه، لانه لم يمثل أمرا كان كلفه القيام به فيما يتعلق بالوساطة التي كان يقوم بها بين الاسبان وبين زعماء قبائل الريف، وان

-
- (1) في قبائل صنهاجة الريف، (2) في سهول بنى ورياغل بالريف،
(3) في قبائل الاخماس بجباله، (4) في قبيلة بنى كرفط بنواحي العرائش .

القول بأنه اقترح على سلفستري بأن يأتى له برئيس الثوار مقابل مائة ألف بسيطة، تدفع للقائد الثائر وان الجنرال اما سمع هذا القدر الضخم من المال دفعه غضبه أن يصغعه على خذه بعدما شتمه باللص، هي أقوال مدسوسة من توافه الاخبار التى صدرت فى الأصل عن المؤرخين الاسبان مثل الجنرال «منويل غوديد» الذى استنقى الرواية الخاصة بحياة الزعيم ابن عبد انكريم عن رجل من الريف، وقد وصفه الجنرال المذكور فى كتابه «المغرب ومراحل التهذئة» المطبوع بتاريخ 1932 بـ صديق اسبانيا (1) وقد أفاض هذا الشخص فى التتكر لمبادئ الشهامة التى كانت مفروضة فى المناضلين الاحرار الذين لم يأخذوا السلاح الا دفاعا عن تلك الشهامة كى لا يلطخون بالنذالة الا أن المطلاع على خبايا الامور يعرف لماذا تتكر لمثل الرجولة لئيتسنى له أن يحمل لقب صديق اسبانيا الحميم بدلا من لقب المناضل الشريف، وقد اعتقد أنه شفى غليله بعد ما نفث فى روايته الملفة كل سموم الحقد الدفين الذى كان منطويا تحت جناحه والذى يقال فى مثله أن القوة تظهره والجبن يخفيه وقد نسى أن التاريخ لا يرحم، وان سنن الخلق فى هذا المضمار تسير على وتيرة واحدة تظهر ناصعة ولو بعد أجيال وأجيال بالتنقيب والتمحيص من دون فتور، فتدحض الخزعات مهما غطيت، تلك سنن التاريخ، فاذ كان الرجل ينتقم لنفسه ويعرض صفحا عن الحقائق عندما اختفى بالجنرال الغازى ليملى عليه ما أملاه بدواعى الانتقام، حينما حامت حوله شكوك فى قبيلة من قبائل الجبال التى طلب أن يعين حاكما على ذلك النخط، فاستدعى من قبل الزعيم وجرد من المسؤولية، ثم اختفى والتحق بطنجة ليحمل اسرار الثورة، فان هذا الانتقام لا يجديه عندما يرجع الكيد فى نحره .

أما حقيقة الامر فى وجود ابن عبد الكريم فى مليلية، فان ذلك كان مبدأ مقررا بين الولد ووالده لخطة مدروسة شريفة، وان الاسر كان أيضا لسبب شريف، حسيما سنقصه نقلا عن رفقاء ابن عبد الكريم فى مايلية وفى الريف .

ان المؤامرات الاستعمارية ضد المغرب كانت سلسلة متصلة
الطقات بعدما كثر الاستعمار الاوربي عن انيابه وأصبح لا يخفى
النوايا المبيتة لاحتلال شمال افريقيا، فبعد ما نزلت انجيوش الفرنسية
في الجزائر، وبعد ما استولى الاسبان على مليلية وسبتة والاسافين
الشمالية، وبعد ما خاض المغاربة المعامع ضد البرتغال والانجليز على
شواطئ الاطلس من المغرب، فام يبق هناك سر لما يبيت لهذا الوطن،
وبالاخص في جهة شمال المغرب التي خاضت نصالا شريفا مع الفائر
«بوحمار» الذي وجد دعما من محتلى الجزائر، ومن الجدير هنا سرد
بعض الحقائق التاريخية باجمال، ولو قد تكون معروفة عند الباحثين لاجل
التخلص الى قصة قاضى قضاة مليلية الذى كانت مهمته الاساسية
ايداع المجرمين في السجن واتي انعكست الآية فزج به في السجن ولكن
ئيس على يد القضاء، بل على يد البوليس العسكرى الاسبانى لتهمة وطنية
شريفة، الا وهى تحريكه لعمل النضالى بالاستعانة بممثلى منسلمان
اخوان، المؤسسة الالمانية للتنقيب عن المعادن، التى كانت تعمل في معدن
جبل وكسان غربى الناضور وجنوب اسفغان، ومن يكون فى موقفه
المخرج لما يرى تكالب الاعداء على وطنه له الحق في ان يتعامل ولو مع
الشیطان .

وللتدليل على حقيقة حادث سجنه ننقل هنا نبذة من مقال نشر
في الكتاب الاسبانى «عشرون سنة من التاريخ»، جاء فيه :

«ان عبد الكريم — اعتاد الاجانب أن يعبروا عنه بعبد الكريم وهو
اسم أبيه وعليه فالقصد هو ابن عبد الكريم — عرف أنه وصلت ساعته
وذلك للرد على التحدى الاسبانى، وكان يتمشى في خطته على مخطط سيدى
محمد أمزيان الذى قطع الطريق عام 1911 عن القوات الاسبانية في خط
الرجعة — أى في معركة الثعلب — ، كما تتبّع خطته في اثاره القبائل
انخاضة للجيش الاسبانى .

وعبد الكريم الذى ولد في أجدير عام 1882 ودرس في كلية

انقرويين، انتهى به الطواف عام 1909 ان يسكن في مليلية، حيث كان يشغل وظيف قاضى، ثم فى سنة 1914 عين قاضى القضاة مع عمله فى الصحافة، وكان يتمتع باحترام من طرف الجميع، وفى سنة 1917 وقعت له خلافات مع الكرونيلى «خوان خيل خيل»، وعند قيام انحرى الاوربية الكونية، كان عبد الكريم مستعملا من طرف المانيا مما جعل الحكومة الاسبانية تودعه فى السجن بالضغط الملح من طرف فرنسا، وسرعان ما هرب من السجن، حيث القى عليه القبض من جديد، وبعد انحرى خرج من السجن ولكنه كان قد تغير .

وسياتى تفصيل الكلام عن تحرك الالمان فى الريف، وعمل عبد الملك حفيد الامير عبد القادر الجزائرى ونتائج ذلك .

أما الاحداث التاريخية التى غمرت عواصم أوربا ضد المغرب فقد تكونت عن احتلال البرتغال والاسبان لمدن طنجة وسبتة ومليلية وجزر بادس والنكور، التى تدعى عند الاجانب بلاوسيماس (الحسيمة) والجزر الجعفرية (جزر كبدانة) ومن انتقال مدينتى طنجة وسبتة من ابرتغال الاولى الى انكلترا، كهدية بمناسبة زواج أمير انجليزى بأميرة اسبانية والثانية الى اسبانيا بعد استفتاء سكانها الاجانب بالطبع .

الا أنه فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر استفحلت اطماع الاوربيين فى الاستيلاء على شواطئ شمال المغرب، نظرا لقربه من أوربا أولا، ولأنه يحتل مكانة طبيعية استراتيجية جغرافية، حباه الله بها، ثانيا، وبعد ما كانت اطماع هذه الامم قبل هذا التاريخ منشغلة بشواطئ الاطلسى التى عاركوا من أجلها مع الاهالى، اضطروا أخيرا الى الرحيل عنها .

وهكذا حاولت فرنسا أن تحصل على رخصة قانونية من سلطان المغرب لاكتساب قواعد عسكرية على شواطئ شمال المغرب وكانت رغبها الاكيدة الاستيلاء على الجزر الجعفرية وجزيرة الحسيمة التى لم تحصل على مبتغاها باباء من السلطان سدا لما عسى أن يقع من تسربهم الى الريف الذى كانت الرقابة عليه غير تامة وبالاخص سكان هذه الجهة

من طبيعتهم التي فطروا عليها ركوب المخاطر، والولوع بالرماية، فهم عشاق الاسلحة التي تظهر مستحدثة .

ولما لم تحصل على هذا الاذن توجهت أطماعها صوب الجزائر التي احتلت منها مدينة الجزائر عام 1830، وابتداء من هذا التاريخ كان على شمال المغرب أكثر من جنوبه أن يأخذ اسيرة بما حدث، لارتباط القطرين بأواصر شتى، جوارا واقتصاديا وجغرافيا، وعليه ان يتبنى مساعدة النضال الجزائري الذي خاضه ابناءؤه البواسل تحت قيادة بطل مجاهد ممن ينذر أن يجود بهم الزمان، وهو الامير عبد القادر الجزائري الذي نظم الدفاع عن بلاده، فلم يتقدم الفازون الا شبرا بشبر، وكان تنظيمه يظاهي تنظيم الامير الخطابي الذي نؤرخ له في الاعتماد على الاسلوب العصري من تنظيمات المجاهدين على غرار تنظيمات العدو نفسه.

واذا كانت رغبة السلطان المولى عبد الرحمن، قد تطورت لتأييد المجاهدين الجزائريين، بمالا مجال فيه للجدال، اذ قدم المعونة انلازمة التي تظاهى شهامة المناضلين، فان العبا الأكبر من تلك المساعدة، كانت تأتي من سكان الشمال الذين تقاطروا لاقتطوع للجهاد بباعث الدين والقومية العربية، وحينما طال نضال الجزائريين دخل عنصر تشبيط انغزائم بالضغط من طرف فرنسا من جهة واثارة الشكوك لدى السلطان من جهة ثانية ازاء الامير عبد القادر مع العنصر الاقتصادي الذي استفحل نتيجة الحصار على الحدود بين الجزائر والمغرب من جهة ثالثة، ولما ائشد الهجوم عليه من قبل الجيش الفرنسي، دخل الى جهة الريف الى أن وصل الى تفرست، جاعلا اياها مقر عملياته العسكرية، الى أن ارتحل لملاقاة السلطان، حيث حيكت له دسائس، ولا شك أنها من نمط تلك الدسائس التي استعملها الاستعمار لخلق البلبلة بين الاثقاء فكانت الواقعة التي تواجه فيها الفريقان حسبما يأتي :

وكان من نتائج انقضاء على ثورة الامير عبد القادر ما شهد المغرب بعد ذلك من هجوم الفرنسيين بقيادة الجنرال بوجو على وجدة في وقعة اسلى المشهورة التي كانت نذير الشؤم للمغرب عام 1844 ولولا تدخل بريطانيا لمصالحها الخاصة لتوغل بجيوشه الى ما شاء .

أما الاسبانيون فقد تحرشوا مع الاهالى فى مليلية، اذ بدأوا يتقدمون انى داخل البلاد فى 20 شتمبر 1909، حيث اصطدمت القوة الاسبانية التى حاولت تأمين السكة الحديدية اثنى تمتد الى منجم الحديد باكسان، وفى الشمال الغربى خرجت القوة الاسبانية من سبتة لاحتلال تطوان ومصب نهر مرتيل فى ابريل سنة 1911، واحتلوا اثشواطىء ما بين طنجة والعرائش فى نفس السنة، وقد كانت اسبانيا سنة 1860 احتلت مدينة تطوان، فلم تخرج منها الا بعد ما أرغمت المغرب على دفع غرامة حربية باهضة واهتبلتها فرنسا فرصة لغل المغرب بقروض وضعت على كاهل المغرب وضعية اقتصادية شاذة، الامر الذى جعل فرنسا تدخل ميدان انتنافس فى المغرب متذرة بهذه المديونية المدسوسة التى أفلقت بال كل من المانيا وانجلترا، الاولى لانها تحتاج الى أسواق لترويج منتوجاتها الصناعية، والثانية لان شمال المغرب يقع على فم مضيق جبل طارق فهى لا يهدأ لها بال اذا تفوقت عليها المانيا فى نفوذها فى المغرب، وبالخصوص بوغاز جبل طارق الذى لها فيه احتكاك مباشر، وقد تزايد قلقها عندما رأت غليوم فى موكب حافل فى طنجة راكبا انجواد وسط جمع من شخصيات المغرب فى حفل شببيه بحفل سلاطينه .

وأمام هذه المؤامرات تمخض الحل، لكن لم يكن للمغرب فيه لا ناقة ولا جمل، بل الحل كان على ظهره، وهى النكبة التى جرت ما جرت به عليه، اذ رضيت بريطانيا على أن تسكت عن فرنسا باحتلالها للمغرب، على أن تحتل شماله اسبانيا، فتمخض الامر على معاهدة الحماية سنة 1912 بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906، ثم الاتفاق بين فرنسا واسبانيا، والى هذه الدرجة فانه لم يبق الا تنفيذ الاحتلال، أما فرنسا شأنها سارت على منوال آخر غير منوال اسبانيا اثنى تعثرت، لان المنطقة اثنى وكل أمرها اليها، تعتبر خلية الزنابر لسعها أشد ايجاعا «ولابد دون الشهد من ابر النحل» .

هذه الاحداث كلها يعيها عبد الكريم الاب على ظهر قلب، فهو الذى يعنيه الامر أولا وبالذات، لانه المسؤول الاول من حيث مركزه فى الريف، ومن حيث احساسه الوطنى، ولكن لابد له من اعداد عدته، وها هو ولده

البكر محمد قد كرع من العلم من منبعه الصافى بفاس، حتى تبرز في العلوم الاسلامية وأطلع على أسرار المؤامرات وعلى الأوصاية اللا شرعية انتى وكلت الى اسبانيا على بلد هو مسقط رأسه .

ومع ما كان أبوه متميزا به من احترام المجلس العائلى الذى يرأسه بحكم مركزه الابوى فيه، فانه رحل الى فاس، حيث كان ولده يستكمل دراسته ما بين سنة 1905-1909 لعقد أحد المجالس العائلية فى إحدى حجرات مدرسة الشراطين التى كان يسكنها الابن .

وقد تمخض هذا الاجتماع عن دراسة الاتفاق الفرنسى الاسبانى حول انشمال عام 1904 اذ وضعت فيه اسخراط الاولية لحدود الشطرين التى كانت آنئذ حدودا وهمية، نظرا لعدم اكتشاف ادغال تلك الحدود بعد من طرف الدولتين .

ويقول بعض المؤرخين، ان الولد لم يكن رد الفعل من طرفه يتسم بالاهتمام، نظرا الى أنه كان يرى أن الاحتلال الاجنبى قد يأتى بخير لبُده انذى يفتقر الى استقرار وتمدن وانه لم يتغير رأيه الا بعد الاختلاط مع الاسبانيين فى ملياية اذ اختير نواياهم السيئة .

وقد يكون هذا التفسير صحيحا لو أن الطالب فى صدد دراسة الاوضاع بكامل جوانبها، والواقع أن أشغال ادراسة كانت تحول دون التعمق فى الامر، فلا يمكن اصدار قراره اأنهائى، على انه من المبادئ القارة انتى يسير عليها وانتى أطلع عليها بواسطة قراءته للكتب الوطنية انتى ترد على جامعة القرويين من جامعة أخرى مثلهما، وهى الازهر فى مصر، هى أن الاستعمار لعنة على الامم المستضعفة .

ونظرا الى أن معالم طريق الكفاح المجدى لم تكن واضحة أمام أنظار الوائد والواد معا، فان القرار الذى اسفر عنه الاجتماع هو أن يرجع انولد الى الريف لكى يتجه وجهة أخرى، لسبر غور القضية من منهلها الاصلى، وهو الاختلاط مع الاسبانيين بأية وسيلة كانت، مع تهيب انولد اثنانى امحمد الذى كان يبلغ عام 1909 حوالى 18 سنة، لانه من مواليد 1892 لاستكمال دراسته فى اسبانيا أيضا .

وان الاب كان قد خطط لهذا الامر قبل الاجتماع فى فاس، اذ ان

جزيرة الحسيمة التي هي على قدر رمى النجر من اليابسة، كانت أبوابها مفتوحة على مصراعيها لاهالى الريف، وبالاخص أهالى أجدير الذين تقع الجزيرة تحت أنظارهم مباشرة، وقد جعلها الاسبان سوقا رائجة يقتنى منها الاهالى حاجياتهم من السلع الاوربية التى عز نظيرها عندهم فى ذلك الوقت لعدم اتصالهم الخارجى، وكان أهالى انقرى انشاطية يروحون ويغدون يوميا حاملين معهم بنادقهم التى يلزم أن يدعوها عند مدخل الجزيرة تحت أنظار الحراس ليذهبوا الى داخلها يجوبون دروبها، وكان الجنود الاسبان يعرفون كل واحد منهم كمعرفتهم لابناء جلدتهم، وبالاخص الحاكم العسكرى الكولونيل سييانطو المكث فى ذات انوقت بالشؤون انسياسية التى هي وظيفته الاساسية، التابع الحاكم العسكرى بميليلية، وكان يتكلم اللغة المحلية باتقان، وكان من مبادئ السياسة التى ينفجها لفتح الريف سلميا التسامح مع الاهالى حتى حدث ذات يوم أن واحدا من اعيان أجدير يدعى عزى بن بوطاهر ضرب ضابط ائصف الاسبانى المكث بالحراسة بهراوة الى رأسه وأسقطه أرضا بسبب خصومة تطورت الى عنف، وريثما تاتى الاغاثة واعلام الحاكم، كان نزل من سلم الجزيرة الى حيث تودع البنادق، فأخذ بندقيته وخرج من دون ان يلحقه أذى، وما كان من الكولونيل الا أن حمل مسؤولية الحادثة لضابط الصف الذى أبعدته عن الجزيرة نهائيا .

الا أنه ومع تفتح الجزيرة على الاهالى، فان عامتهم لم يكونوا راضين بالذهاب اليها، وكانت السلع التى تقتنى من الجزيرة وكان أغلبها السكر والدقيق والثياب، لا يمكن بيعها فى أسواق انقبائل والا تعرض بائعها للانتقام من الاهالى بتعريمه واحراق داره، وكان على الذين يأتون بها، أن يدعوها فى دارهم لعولتهم .

وقد لعبت سياسة هذه الجزيرة دورا كبيرا، فقد اشترت ضماير بعض المتعاونين معها ورتبت لهم مرتبات شهرية، وتدعى العمولة التى يأخذونها «بالراثب»، هكذا بالثناء، وقد انتشر هذا الداء كثيرا واشترك فيه جمع من رؤساء الجماعات والاعيان الذين كادوا أن يعقدوا حلفا مضادا لحلف المجاهدين، وقد افنتن الناس افتنانا كاد أن يالحق التفرقة بين العشرة

والعشيرة، وقد أدى الحال الى اغتيال رئيس المجاهدين، القاضى السيد محمد بن احمد العزوزى، الذى سيأتى توضيح حياته وجهاده .

وفى خضم السياسة الاستعمارية جاء ابن عبد الكريم من فاس ملتحقا بعائلته بأجدير حسب الاتفاق مع أبيه، وقد وجد بندقية الموزير (الخماسية) فى الدار التى تعتبر من أولى المعدات التى يحملها من بلغ سن التسلح، ترافقه فى الحل وانتحال، لا تفارقه طرفه عين، وفى الايام التى قضاها فى أجدير كان يحملها ليذهب الى الوطاء وهو سهل غيس، حيث جنات أهالى أجدير، ليقضى فيها وقتا ما لرياضة الرماية بالبندق، مع أصدقائه وبنى عمومته وعندما يرجع الى الدار يجد والده قابعا خلف حجرة ملساء أو تحت شجرة فيحاء يطلق بصره الى ما بعد الافق فى تأملات الشيخ الذى اثقلت كاهله المسؤوليات الجسام : العائنية والوطنية والقضائية، ولا يستفيق الا عندما يسمع المؤذن يؤذن لصلاة العصر أو المغرب، فيقوم ليؤدى الواجب نحو الله .

واذا حضر الابن هش فى وجهه ويسأله أسئلة من لا يحمل أى ثقل على قلبه، وكما سيأتى، فقد كان سريع البديهة، طيب المعشر، لطيف النكتة، لا يتركها تمر فى أحاديثه، بل يطعمها بها كل ما سنحت، مما يضى على المسامرة معه بهجة وسرورا، الى نفوس محدثيه، وبعد صلاة العشاء وكثيرا ما تكون فى بيت الضيوف، وهو بيت تكون بوابته مفتوحة الى خارج الدار، وهو لازم فى بنايات الاهالى، لكل دار تحفظا من التكتشف على رببات البيوت فى خدورهن، وهذا البيت لا تطرقه الاناث الا عند تنظيفه وترتيب أثاثه. وعلى الذين يكونون — الاولاد — قد بلغوا سن التكليف الشرعى أن يحصروا صلاة العشاء مع والدهم الذى يؤمهم، واثر الفراغ منها كان على الذين لم يبلغوا سن الرشد السياسى أن يذهبوا ويبقى معه الآخرون، لكى يجروا حوارا ويستعرضوا الاحداث التى جرت أو التى تهم العائلة.

وهنا لا يمكن الضبطكم قضى الابن فى أجدير قبل أن يتحقق بمليلية عن طريق الجزيرة، الا أنه حسب الروايات المتداولة لم يطل مقامه فى أجدير بل ذهب الى مليلية، حيث عين أستاذا فى المدرسة التى فتح فيها قسم للغة العربية استندراجا للاهالى لارسال أولادهم الى

المدرسة التى تعتبر اللغة العربية فيها اغراء لهم وبعد ما أصبح معروفا عند الاسبان بمزاياء الشخصية، سمح له فى تحرير صفحة باللغة العربية فى جريدة «تلفراف الريف» وهى الجريدة التى يصدرها المكتب السياسى الاسبانى فى مليلية تحت رئاسة الكولونيل «موراليس» الذى قرب اليه ابن عبد الكريم طمعا فى أن يكون عوناً لتوعية أهالى الريف بالفوائد المتوخاة من الحملة الاسبانية، ولكن الرجل لم يأبه قط لمرامى هذا الكولونيل، كما لم يأبه لغيره ممن هو أعلى منه .

ويجدر هنا أن أروى بتدقيق وجود عائلة عبد الكريم الخطابى لدى الاسبانين فى حال حياته، فكان ولده محمد بمليلية مدرسا ثم قاضى القضاة محررا فى الصفحة العربية من جريدة «تلفراف الريف»، وولده امحمد طالبا فى قسم الهندسة بمائقة ثم مديرد، وأخوه من الاب عبد السلام الخطابى كاتباً مع حاكم جزيرة الحسيمة، ذلك أن القيادة العليا الاسبانية فى تطوان، كانت خططت تخطيطا لاحتلال شمال المغرب على الاسلوب التالى:

(1) أن تخضع القبائل الجبلية وتثبت اقدامها فى النجهة التى توجد فيها مدن الشمال: تطوان، وشفشاون، وأصيلا، والعرائش، والقصر الكبير، المحتلة من قبلها، وان يمتد نفوذها على القبائل التى تشرف على هذه المدن، واعتمدت فى هذه الجهة على مترعهم كان يبدو لها أنه قوى يتزعم تلك القبائل وهو مولاي احمد الريسونى، وكان هذا ينتقل حسب مصلحته تارة وحسب الضغط من طرف المجاهدين تارة أخرى، وقد جرت معارك فى تلك الجهات ما بين تطوان والقصر الكبير سيأتى تفصيلها .

(2) وإذا ما انتهت هذه الجهة، فأنها تاقى بثقلها على الجبهة الشرقية التى كانت تجرى فيها معارك محلية فى قبيلة قلعية تحت قيادة سيدى محمد أمزيان، على أن لا يتوغل الى قلب الريف، الا بعد انهاء الجبهة الغربية.

(3) وفى أثناء هذه المرحلة يجب أن تكسب أنصارا فى قبيلة بنى ورياغل التى هى القلب النابض فى الريف وقد رأت ان عبد الكريم الاب هو أقوى رجل وأصلح، يمكن أن تعتمد عليه وبالاخص فانه أقسرب الى جزيرة الحسيمة التى استعملت كل وسائلها الاغرائية، كالمال وانسلاح، ولكن يجب أن تختار زعيما له وزنه ومكانته لدى انقبيلة، ولم يكن أولى

من قاضى بنى ورياغل الذى ينحدر من عائلة كانت لها الرياسة فى عهد المولى محمد بن عبد الله ومولاي الحسن الاول، فاتصل به حاكم الجزيرة التى كانت مهمته الاصلية هى رياسة قسم المخابرات، على أن يعمل واسطة بينها وبين أهالى القبيلة ويكون صالة الوصل مع الطماء الذين يختارهم لآخذ المال كمرتب شهري، على شرط أن يعطى لولده الاول مكانا مرموقا فى ماياية، وتقوم اسبانيا بفتح المعاهد لولده الاصغر، ويوظف أخوه من الاب كاتبا مع حاكم الجزيرة العسكرى وقد درس عبد الكريم مع وئديه وأخيه هذه العروض وما يمكن أن يستفيدوا منها، كما درس العواقب التى يمكن أن يتعرض لها مع أهالى القبيلة الذين سيفسرون ذلك على أنه مروق من الدين والوطنية وتتعرض حياته العائلية الى أوخم العواقب، وقد وازن بين الفوائد التى ستجنيها العائلة والخصائر التى يمكن أن تتكبدها. فاسفر الرأى على المجازفة بقبول هذه العروض التى تكون من فوائدها

(1) انه اذا تأخر عن قبول العروض المقدمة اليه فان الاسبان، سيتخطونه الى شخص آخر من القبيلة الذى يفترض أن يعمل معهم بأخلاص، فتكون الكارثة على ائريف وعلى كل حال فان المال الذى سيتدفق من الجزيرة على القبيلة سيجد قلوبا ضعيفة الايمان لا تتورع أن تجر الويل بكل موبقاته على هذه القبيلة التى تعتبر انقصة المنفعة فى وجه الغزو الاستعمارى

(2) فانه من الاحسن الظهور للاسبانيين بمظهر المتعاونين معهم سدا للطريق على الغير من بنى الجلدة .

(3) ان المخطط الذى خطاه فى فاس والذى لا محيد عنه من أخذ الالهة لاستقبال كوارث الغزاة يقتضى أن تخرج العائلة الخطابية من العزلة انمميته بين أهالى القبيلة الذين لا تعدو مخططاتهم الضحلة أن يستमितوا فيسقطوا شهداء واحدا بعد واحد الى أن تنقرض النخبة المؤمنة ، فيبقى الجو العملاء انمرتشين .

(4) وعليه، فانه يجب أن يستفيدوا من هذه الفرصة التى واثت لكى يزدوا خبرة بالاساليب العسكرية والسياسية، ويزيدوا وعيا للقضية

الوطنية الكبرى ويتخبروا الاعداء عن كذب ليعرفوا أى سياسة يخططون لها لكي يأخذوا الامر من معينه .

(5) وللإبقاء على الاتصال بأهالى، فانه يبقى الاب رئيسا للعائلة فى مسقط رأسه رغم ما يتوقعه من المصاعب التى سيحدثه هذا المخطط الذى يفسره الاهالى على ظاهره ولكن لابد ليوم ما فى القريب العاجل أن ينجلى الغبار على المخطط، فيرجع الاعتبار فى عين الاهالى كاملا .

(6) انه بهذه العملية الجريئة ستبقى جزيرة الحسيمة وجزيرة بادس مفتوحتين أمام السكان لشراء المواد الغذائية التى تستحضرها اسبانيا كجزء من مخطط الاغراء، ولشراء الاسلحة من المهربين الذين يتغافل عنهم الجيش الاسبانى عمدا لاجل أن يتقاتل الاهالى فيما بينهم لأخذ الثأر الدموى بين عشيرة وأخرى حتى اذا انهكت قواهم بذلك سهلت الحملة لاكتساح تلك الربوع المنشغلة على استئصال جذور بعضهم البعض نتيجة الضغائن الدموية المستحكمة فى العائلات، ولكن رأى عبد الكريم الاب أن نفعها فى المستقبل للمعارك الحاسمة ستكون أكبر من ضررها، اذ علم أن الريفى مهما تجاهل ضد أخيه، فانه لا يقف ذلك حائلا فى حين ساعة الجهاد الاكبر فى انغزاة، وهم يعتقدون بأن الشهيد يصبح بعد موته حماما من حمامات الفردوس .

(7) ان بقاء المراكب البحرية مفتوحة أمام الاهالى سيوفر البسيطة الاسبانية، وبالأخص من البعثات المنقبة على المعادن التى اعتبرت أن جبال اريف كلها براكن لمختلف المعادن بعد اكتشاف المعدن الحديدى فى اكسان قرب الناضور، وذلك ما دعا بعض الاسبان أن يقترحوا على عبد الكريم الاب أن يهوى ولده الاصغر للتخصص فى هندسة المعادن .
أما المتاعب التى وضعها فى الميزان فانها :

(1) انحطاط سمعة عائلة الخطابى أمام القبيلة التى كانت تعتبرها انرييس المدبر لها والصادق الايمان بمبادئ الجهاد والشرف والشهامة وبالتالي ضياع تلك الثقة العمياء التى أولوها اياها .

(2) وقد يتعدى ذلك الى الهجوم على العائلة الخطابية من الجمهور المنتحس، وقد لا تحمد عقبى تلك الغضبة الجماهيرية التى لا تتحكم الى

استعمال فلسفة اللعبة التي لا يمكن على أى حال البوح بها، والافسدت تلك المخططات وقتلت في مهدها قبل أن تأتى ثمارها .

وعلى كل فقد وازن بين الخطتين وقارن بين المنافع والمضار لكل منهما واستقر رأى العائلة على الخطة الاولى، لانها أكبر فوائد مهما كانت مخاطرها عظيمة، تاركين ذلك الى رحمة الاقدار التي تعامل الانسان على نيته .

وختم عبد الكريم الاب مجاسه بالحديث المشهور : «من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه» .

وهنا انتفض الجمع واعقب ذلك تنفيذ الخطة، فالتحق الابن الاكبر بميلية، كما تقدم، والتزم بالعمل بكل وصايا والده، فلم يتطرق اليه أى فتور في سبيل المخطط الذى يعمل بكل الحاف ليدركه حتى انى سمعت ممن حدثوا عنه من أقرانه في ذلك التاريخ، أنه كان يأتى أحيانا الى جزيرة الحسيمة عن طريق البحر لاستطلاع أحوال القبيلة وبالاخص أهالى أجدير الذين يغدون ويروحون الى الجزيرة وانه كان لا ينزل الى اليابسة لزيارة عائلته، بل يبقى في الجزيرة، حيث عمه السيد عبد السلام الخطابي كاتباً، وقد حكى لى المجاهد السيد حمادى غياية، أنه وجده ذات يوم في الجزيرة، فلما سلم عليه سأله ماذا تصنع هنا في هذه الجزيرة التي يحتلها الكفار مع أنك مسلم، فاندھش غياية لهذه العبارة المعنفة له، وأجابه فاذا كنت أنا أجىء من دار الاسلام أحياناً، فأنك ساكن معهم في مليية، بل أنت موظف مع الكفرة، فأجابه ابن عبد الكريم، حقا أنا موظف في مليية، ولكن لى بصيرة أنظر بها الامور، على حقيقتها ولا خوف على أما أنتم الفلاحين السذج فان أدنى أحبولة ينصبها لكم العدو تقعون فريسة الكفر، الامر الذى يضيع معه اسلامكم .

أما القصة الاخرى التي حكاها لى أحد أعمامه أن الكرونييل موراليس كان قربه اليه وسماه قاضى القضاة للاهالى عام 1913، وكانا ينتركان العمل في مكتب واحد، يحتل الكرونييل زاوية ويحتل ابن عبد الكريم زاوية أخرى، وكان عندما يزور الكرونييل أحد الاهالى لتبليغ خبر أو طلب

أمر يستغفل الكرونيل ويقول للعميل انتظرنى خارج المكتب، وعندما يستفسره عن الخبر الذى أتى به، وربما نهاه بصريح الكلام كى لا يتكرر منه ذلك وربما أعمى عليه بحكاية ملتوية زرعا للخوف فيه، وإذا استعظم أحد مركزه كقاضى القضاة سفهه بصريح العبارة إذا كان ممن يستحق الافصاح قائلًا، ان عملى هذا لا يعدو أن يكون تخذيرا لكم أنتم الذين ترون عملى هنا احتراما لشعوركم، أما أنا فاعتبره تحديا لكم ولشعورى بنفسى، ولكن سأتناول مرارة ذلك، كما يتناول المريض مرارة دواء للشفاء.

وربما سأنه بعضهم عن تحريره فى جريدة «تاغراف الريف»، وكان جوابه دائما إذا كان محدثه ممن يوثق به انه قرع الخديعة بالخديعة فرسائلى فى الجريدة لا يقرؤها أحد من المغاربة أو المشاركة، بينما الاسبان يعبثون التراجم مترجمة مقالاتى، التى لا تحمل أى معنى بالنسبة لى والى قرائى المغاربة، فعلى هذا فذاك مما يقال فيه حبر على ورق، وإذا فان أى مجازفة فى القول الذى يحلو لبعض الكتاب أن يكتشفه بأن تلك المقالات التى كان ينشرها فى تلك الجريدة، كانت تبشيرا بعمل اسبانيا فى شمال المغرب (1)، ليس بصحيح، كما ليس بصحيح أن والده كان قاضيا بميليلية (2) بل تقصى حياة وأنده من أقرب العناصر التى كانت ترافقه فى حياته يفيد، انه لم تطأ قدمه ملياية أصلا .

وانما كانت له جزيرة الحسيمة معبرا أحيانا الى تطوان عندما يندلع ضده ما كان يتوقعه من غصبة الاهالى، وكان ينجو منها تحت حماية عصبية عشيرته من أجدير الى جزيرة الحسيمة، ومنها يرحل الى تطوان، ولم يرحل قط الى ملياية رغم الحاف الاسبان ليلتحق بولده هناك، الى أن تهدأ فورة أهيجان، فيرجع الى أجدير تحت مصلحته مع القبيلة بوساطة بعض زعماء عشيرته ليستأنف الحوار مع زعماء القبيلة التى لا تكاد تفهم مراميه التى لا يمكن أن ييوج بها كى لا يتسرب مراده الى الاسبان، فيفشل مخططه، وهو الامر الذىبقى يتحمل عبئه وحده، فيقع فى حيرة

(1) كاتب محمد بن عبد الكريم لمؤلفه الاستاذ العلمى صحيفة 17 . .

(2) المصدر نفسه .

مكمومة، حتى اذا اعياء الكتمان صرح ذات يوم لزعماء القبيلة في مجمع هام، بأربعاء سيدي أبي العفيف - على الضفة الشرقية لنهر غيس أحد النهرين اللذين يثقان قبيلة بنى ورياغل، ويصبان معا أمام جزيرة الحسيمة - صرح قائلاً لهم: «انكم تسمونني بالنصراني، أليس كذلك، فأجابوا بلى، ألسنت تخاطهم بأولادك وأقاربك؟ ومن خاط قوما فهو منهم» فيعقب على ذلك ويقول: «اننى أنبئكم بأن الوطنية والاسلام مقبوران الآن في ديار المغرب، الا ما كان من داري، وأنتم أنفسكم من يبقى منكم حيا فسيبحث عنهما في داري، هذه آتني تهدمونها، عندما تثور ثورتكم» .

وفعلا فانه تحمل كل تلك الهجمات اتى تجعله هدفا لها، ورغم أن جزيرة الحسيمة يلح عليه كلما وقع الهجوم عليه، ان ينزل جيوشه الى الغابسة لحمايته ورد عادية المغيرين عليه، فانه يمتنع ويقول له ان الوقت لم يحن بعد، لان الاهالي في مركز الحماس والقوة، لا يجمل الاحتكاك بهم، وان اخلاء داره والهجرة الى تطوان أسهل سبيل رد عاديته .

وكان الغرض من كل ذلك أن يذوق الاسبان عن مراميهم حتى يستوفى أغراضه التي يعمل من أجلها من اخفاء مخططه الذي يأتي يوم لينفذه بكل جرأة وحماس المسلم الوطني المحنك .

وقد اتضح للأسبان أنه يلعب بهم بعد ما نمت اليهم قولته المذكورة عن طريق عملائهم المبتوثين، واشتبهوا أيضا في قاضي انقضاء بمليلية، عندما غير أسلوب مقالاته في جريدة «تلغراف أريف»، وقد استعمل فيها لهجة قوية الحماس ضد الاستعمار على العموم، وان لم ينص صراحة على الاستعمار الاسباني، وأحيانا يندد بالاستعمار الافرنسي، كما بلغهم بعض التصرفات التي لا ترضيهم، وبالاخص اتصاله بممثلي مؤسسة «مانسمان اخوان» الالمانية، التي تنقب عن الجديد في منجم اكسان، حيث أفاده هذا الاتصال للاطلاع على الوثائق الاسبانية السرية الخاصة بالتنقيب عن المعادن في الريف، وبالاخص في جبل حمام من بنى ورياغل، وقد أطلع بذلك على المرامي الحقيقية لاسبانيا في احتلال الريف، حيث لم تدع له أنشك في المرامي الاستعمارية .

الاسباب الحقيقية لسجنه :

وقد أعطت لهم هذه الاستعلامات نتائج مهولة، ضد قاضى القضاة وعائلته التى كانت الى حد الوقت يعتبرها الاسبان مفتاح الاحتلال، وذلك نظرا للاتصال المريب الذى كان يجريه مع هؤلاء الالمان من جهة، ثم استفحلت الربة عند ما جاء عبد الملك حفيد عبد القادر الجزائري الى مليلية من طنجة صحبة الالمانى المدعو «الفار» اللذين راحا يعملان عميلين لالمانيا ضد فرنسا فى المغرب من جهة أخرى .

وقد جاء عبد الملك هذا الى المغرب عام 1902 م. ومن المظنون أنه كان يتحدث عن ميدان المغامرات القتالية التى كان تشبع بها بروايات أخبار جده الامير عبد القادر الجزائري، الذى خاض معارك بطولية فى الجزائر ضد الاستعمار الفرنسى، وقد يكون تأثر بهذه الاخبار التى رويت له فى اشام حيث ولد فى سوريا .

وقد حفزته هذه الاخبار أن يحضر الى المغرب ليفتح تلك المغامرات، بالانضمام الى ثورة بوحمارة فى الشمال الشرقى للمغرب، ولكنه سرعان ما انفصل عنه بعد ما أطلع فى عين المحل عن فشل عمل الثائر، وقد حمل هذا الانفصال المولى عبد العزيز الى أن يقربه اليه، الا أنه لما كان المولى عبد الحفيظ انتقض على أخيه فى المغرب فى شأن النزاع على العرش المغربى، فان عبد الملك هذا انضم فى هذا النزاع الى المولى عبد الحفيظ، ولما انتصر هذا الاخير عينه مكافأة له على رئاسة الشرطة المغربية بمدينة طنجة.

وفى أثناء قيام الحرب العالمية الاولى 1914 م. وثق الاتصال بالالمانيين، وعملاتهم الذين راحوا يبحثون عن العملاء الذين يكونون عوناً لهم لخلق المشاكل ضد فرنسا فى المغرب، وفعلاً اهدتوا الى عبد الملك هذا الذى جعل يتصل بهم سرياً، وربما استعمل الاتصال بواسطة الهاتف بالقائم بأعمال المانيا فى طنجة، وقد تفتن الى هذه الاتصالات المخابرات الفرنسية وسجلت بعض تلك المخابرات الهاتفية التى 'تدينه، وسرعان ما علم بذلك عن طريق أصدقاء يعملون فى تلك المخابرات، فحزم أمره واختفى عن طنجة الى جهة الريف، حيث يكون فى مأمن من وصول يد فرنسا اليه،

وحيث يوجد ميدان للمغامرات الحربية التي هاجر من أجلها، والتي يكون العثور بين طياتها على الاموال التي يهفو اليها وابتقى لمس عن كئيب أن جيوب الالمان المنبئين في طنجة مملوءة تبحث أين تطلق رنينها، وفعلا فقد اتفق مع الالمانى المدعو «الفار» الذى كان غرضه الاساسى اثاره القبائل الشمالية لنهر ورغة ضد فرنسا لحلق المصاعب، وقد التحقا بتلك القبائل وتمكنا من اثاره حروب العصابات في تلك الجهة بعد استمالة القبائل بما أعده الالمانى الفار من الاموال عليهم .

وفي هذا الوقت لم يكن المغرب دخل رسميا في الحرب اعظمى رغم تجنيد الفرنسيين للمغاربة الذين انخرطوا بصخفة شخصية، وبعثت بهم الى ميادين القتال، الا أنه تحت الضغط انصاع السلطان مولاي يوسف لالحاف المرشال البيوطى، المقيم انعام الفرنسي، فأعلن السلطان الحرب ضد الالمان وتركيا، وبعد دخول المغرب رسميا محاربا في صف الحلفاء، رأت القوة الفرنسية في المغرب أن تشن حربا شعواء على قبائل شمال فاس التي لم تكن خاضعة، والتي تأثرت الى حد كبير بمناوشات عبد المالك والالمانى الفار، وبهذه انحمله الفرنسية في تلك الجهة ، جعلت الحالة غير صالحة لعد المالك، ففكر هو والالمانى أن يحتموا بقبيلة بنى ورياغل، على أن يكون ذلك عن طريق قاضى القضاة بمليلية، وقد تنكر عبد المالك تحت اسم مستعار، وهو هامان الالمانى .

وعلى أى حال، فقد اتصلا في مليلية — خفية عن أنظار الاسبانين — بابن عبد الكريم الذى كانا قصداه لطلب العون من قبيلة بنى ورياغل التي تأتمر بأمر والده والتي تعتبر القبيلة العاتية في وسط قبائل الريف، ولا سيما ما خبره عبد المالك منها في قضية الثائر بوحمارة من كونها كانت جماع أمر تلك القبائل المسلحة التي تهفو للقتال .

وقد أجاب ابن عبد الكريم الذى رأى في مطلبهما ما يوافق المخطط العام الذى خططه والده من محاربة الاستعمار، اينما ثقف، وان ذلك يعتبر فرصة تتاح للريف، لاجل شحذ العزائم مرة أخرى، وقد اتفق الرأى بين الثلاثة، على أن يذهب عبد المالك والفار الى عين المكان بقبيلة بنى

ورياغل، حيث يتصلان بأبيه الذى يهوى لهما اجتماعا عاما لزعماء القبيلة بالاتفاق على الاسلوب والجهة الذين يفرضه الموقف عليهما .

ولاجل القيام برحلة تحت الستار فقد اختفيا فى نبالس الاهالى : جلابة من الصوف من نسيج محلى الى أسفل الركبتين مغرورة بوردت من حرير فى مواضع التحامها بخيوط من حرير يدعى «برشمان» وعمامة بيضاء ملتوية على الرأس مرات، وهو مطوق الشعر تماما، ونعل محلى، ورافقهما فى رحلتهما على زورق صغير بالمجاديف والقلاع ثلاثة اشخاص، اثنان من اعمام ابن عبد الكريم وهما السيد محمد بن الحاج بودرة زوج أخته والثانى الرئيس محمد المدعو بوباطا (لا زال حيا) كلاهما من أجدير وكان معهما تونسي كان حضر مع الالمانى اغار، الذى يستعمله ترجمانا وقد ودعهم ابن عبد الكريم بعد ما زود عميه برسالة شفوية الى أبيه، وكانت الرسالة تحمل رموزا لم يفهم كنهها حتى حاملها، امعانا فى انعمية، وهى تدور على أن انفرصة قد واثت وأن غايه — أى أبيه — أن يغتنمها، فالرجلان يحملان أفكارا ومالامعا، مع امكان استغلالهما لبدء تنفيذ المخطط العام لما يمكن أن يجابا من السلاح، وودعهما فى مرسى غربى مليزية قرب رأس ورك، حيث امتطيا متن الزورق المستأجر من أربابه الذين يعملون حوزيين، والذين ظنوا أن السفر عادى وان المسافرين هم من أهالى الريف الذين طالما أوصلوهم الى شواطئ الحسيمة .

وعلى كل، فقد صار كل شئ، على ما يرام، فقد ابهر انزورق بالاشخاص الخمسة ناشرا قلاعه فى اتجاه الريح، يتناوب اثنان من بحارته على المجادف، بينما الآخر يحرس القلاع، الى أن وصأوا الى شواطئ الحسيمة بساحل السوانى فى حالة الخفاء، حتى عن ربابنة الزورق، نظرا لاستعمال كل أنواع الايهام المضلة من عدم اثاره أى حديث الابلغة المحلية ومن تعمد الشح مع الربابنة حتى لا يظهر عليهم أى ثراء غير عادى، كما تظاهر الضيوف بالودوخة انقى تعترى بعض المسافرين، لكى لا يضطروا للكلام .

وقد سلكوا جميعا مسالك غير مطروقة الى أن وصلوا الى دار

السيد عبد الكريم الخطابي الاب، حيث بلغ الرسولان رساله ولده التي لم يجد صعوبة في فك رموزها التي كان اعتاد أن يتقاهها ويفهم مرادها، وبعد المحاوره التي كشفت له عن الدواعي والاسباب التي حملت الضيوف عن شد الرجال اليه، وبعدما أستقرا عواملها الايجابية والسلبية، وبعد ما استدعى أخاه من جزيرة النكور أن يزوره زيارة عادية، تقبل العمل مع الألمانين، بشرط أن يعقد مؤتمرا مع زعماء قبيلة بنى ورياغل وبنى عمرت المتأخمة لقبائل ورغة والتي تعد اشجع قبيلة بين تلك القبائل .
ولاجل الابتعاد عن أنظار جزيرة انحصيمة التي ترقب كل حركات الاهالي، فقد اختار أن يكون المؤتمر في قرية آيت قمره، وهى بلدة تقع غربى أجدير، تحجبها عن أنظار الجزيرة كدية تامسقيذانت والجبل الكبير، وكانت الوفود كما يلي :

عن بنى بوغياش: السيد عبد السلام الحاج محمد (1) مع وفد يضم حدو بوقراب وشعيب بن حمو اطاعى وموح بن انطاهر الزكىرى .
وعن بنى عبد الله: محمد ابرقاش ومحمد بن عمر ابا موحند والسى على بن السى المشناوى .
وعن بنى حديفة: موح بن صديق وبوطاهر مكوح والسى عمر محمادى .

وعن المرابطين: السيد عمر بن سمحند والسى امحمد بركان من تاشيويين بجبل حمام، وشعيب بن الحاج تهاى والسيد بوقشوش من زاوية سيدى يوسف والسيد احمد بورجلة عن زاوية آل هشام .
وعن آيت يوسف وعلى: موح ابقوى والحاج محمد شدى والقائد سى بوبكر وشن وعلوش بن المدنى واشهباز بن بوغزة .
وعن آيت على: محمد بن الحاج محمد وحمو بن حد تقلعت .

وعلاوة على هؤلاء الرؤساء، فقد رافقهم زعماء ثانويون من كل خمس، حسب مصطلحات القبيلة التي يصحب كل زعيم عصابته التي تحميه والتي تكون في نقطة دائمة تحتضن سلاحها .

(1) والد المؤلف .

وعلى أى حال، فقد اجتمعوا فى ظل اشجار من التين المغطاة بأوراق أخريف والتام الجمع على أحسن ما يرام، مما اذهل الالمانى الفار ورفيقه عبد المالك، لما ابداه الزعماء من الحماس، واليقظة وقد خطب الالمانى فى الجمهور بواسطة المترجمان التونسى الذى كثيرا ما يمد اليه السيد عبد الكريم معونة توضيح بعض افقرات باللسان المحلى (تمازيغت) .

وكان من جملة ما قاله الالمانى، أنه تخطى القبائل كلها من الجنوب والشرق وقصد هذه القبيلة الشجاعة العاتية، وأنه كالمانى يحب الحرية كأفراد هذه القبيلة، فانه جاء ليضع نفسه رهن اشارتها بكل ما تحتاجه من مال وسلاح لكى تقوموا بمحاربة عدوكم وعدو المانيا، كذلك، وهى فرنسا التى استولت على جنوب المغرب وهى بصدد احتلال شماله، الامر الذى تأباه شجاعتكم الموروثة، وها أناذا بين ايديكم لازودكم بالمال والسلاح وما عليكم الا أن تشدوا من عزيمتكم، فتقوموا قومة رجل واحد.

وقد كان لخطاب الالمانى اثر فى النفوس وقد أحدث حماسا وبالاخص انه بين أن المال الذى سيدفعه هو البسيطة الاسبانية، ويمكن لهم استبدانه بالريال الحسنى فى تطوان، التى كانت السوق الرائجة لاستبدال تلك العملة، كما كانت سوقا رائجة لشراء حبة اخروطوش لبناذقهم، وقد كان الالهالى مولوعين بالتجارة فيها حاملين اياها الى الريف بواسطة الزوارق، بحيث كانوا يذهبون الى تطوان فى قوافل ليشتروا اريال الحسنى بالريال الاسبانى الرائج فى الريف بواسطة ممثلى مؤسسة «منسمان اخوان» الالمانية، وقد راج تهريب الحبة والريال الحسنى بواسطة المهريين من تطوان وطنجة عن طريق مرتيل، حيث تسافر الزوارق بحرا .

وقد دار نقاش فى مؤتمر آيت قمرة وكان حادا حول الجبهة التى يجب أن تفتح، هل مع الجيش الفرنسى أو مع الجيش الاسبانى الذى يتعمد احتلال مركز فمركز بصورة تدريجية ومن دون ضوضاء، وقد كان من رأى الالمانى أن تفتح الجبهة فى قبائل ورغة ضد فرنسا، وان تترك جبهة الشرق مع الجيش الاسبانى الى وقت آخر، ذلك نظرا الى أن بقاءها مفتوحة يسهل جلب السلاح من هناك، وكذلك المال، ولكن الالهالى الحوا على فتح انجبهة مع الجيش الاسبانى أيضا لانه يتقدم خطوة فخطوة بعد

ما غزا قبائل قنعية، ويجب ايقافه عند حده وأخيرا وقع الاتفاق على فتح الجبهتين معا، على أن يقع الثقل الأكبر على جبهة الجنوب .

ووقع الاتفاق على أن يعطى لنفارس ريالان وللراجل ريال واحد بالعملة الاسبانية، وهو أجر فيه كثير من الاعراء في ذلك الوقت وان يكون الاداء على يد عبد الكريم الاب، الذي ينظم (الحركة)، وهكذا تكونت قوة من الاهالي تحت رئاسة عبد الكريم وتوجهت الى قبائل كزناية ومرنيسة، حيث عسكروا هناك، ضد الجيش الفرنسي، مستغفرين قبائل ورغة، وقد تحمست القبائل الاخرى غير بنى ورياغل، فاستنفر زعماءها أهاليها، فحشدت قبيلة كتامة مقاتليها تحت رئاسة السيد محمد كويسن كما فعلت تركييت مثل ذلك تحت رئاسة الزعيم السيد محمد السليطن من الخمليشين وكذلك قبيلة بنى توزين برياسة عبد السلام بن القائد بميضار، وولد أبو الخريف من فرقة اغربيا وحمو عمر كذلك، وقد تجمعت هذه القوات التي هرعت الى المراكز الامامية .

وفي هذا الحال، فقد انجلت للاسبانيين مرامي عبد الكريم الاب، وورده قاضى القضاة بمليلية، وعلى ضوء ذلك فقد فكر الاسبان أن يتحركوا سياسيا قبل أن يتحركوا عمليا بالجيش .

وقد اهتموا الى أنه يجب تجاهل عبد الكريم وعائلته، والبحث عن أشخاص آخرين من قبيلة بنى ورياغل، حيث يخلق له ذلك مصاعب داخلية مع اغداق المال بالكثرة الكثيرة لاغراء بعض زعماء اقبيلة للتحرك ضد عائلته التى لم تنفع فيها الى الآن الاساليب المتخذة معها، ولم يكن هناك ند لعبد الكريم الا السيد احمد بورجلة صاحب زاوية آل هشام، وكان من شرفاء بنى ورياغل نسباً، وكانت له سيطرة على خمس المرابطين الذى ينتمى اليه بعصبيته، وكان له دهاء خارق وثروة محلية لا بأس بها، ورغم ان المعتاد من رؤساء الزوايا أن يتجنبوا سياسة القبيلة ويدعو الى السلم بالتى هي أحسن، الا أن هذا الشريف كان لا يعبأ بهذا التقيد الذى يكبله، فراح أسوة بزعماء القبيلة يضرب فى كل ميادين الحياة العامة، يرأس فرقة المرابطين ويسهم فى مهام الحروب والسلم معا، وينافس عائلة عبد الكريم الخطابى فى الشهرة والمال، ورغم

قصوره من ناحية ميدان القضاء، الا أنه لم يقصر من ناحية استعمال دهائه لضمان رياسته واعتباره أحد انزعاء المرموقين، يحسب له حسابه. وفضلا عن ذلك فقد كان له ولد اسمه عبد السلام بعثه الى تطوان لدراسة، وكان قد شب وترعرع واكتسب قوة وحماسا وأخذ يتحمل قسطا من أعباء والده السياسي وقد كان خير من يخاف عبد الكريم هو السيد احمد بورجلة الذى توفرت فيه مؤهلات أن يكون ندا له ولعائلته، وبالأخص فقد شد أزره بالأصهار انى ولده عبد السلام هذا من عائلتين كبيرتين، احدهما من فرقة آيت على التى كان يقول فيها جده اسى امحمد أموسى، مؤسس زاوية العائلة بأنه كلما سدد سهما الى هذه الفرقة، الا وكان الحاجز الذى يمنعنى من أن أنال منها منالا، هو الكرم الموصوفة به، فلا تبغ سهامى الى رغيف كامل بل تكل عند نصف الرغيف - كناية عن بدل الطعام من طرف الفرقة - والمراد السهم المعنوى، لانه كان يعتقد فى أسى امحمد أموسى (الكرامة) وقد تزوج أخت حد بنعالية.

وثانيهما من فرقة أجدير عن السيد موح ابقوى الذى كان يعتبر زعيما بالدرجة التى تلى زعامة عبد الكريم الخطابى فى أجدير . وكان غرضه من الاصهار بهاتين اسعائلتين، تقوية مركزه السياسى فى القبيلة .

وهكذا فقد برز السيد احمد بورجلة مع الحاج محمد شدى من فرقة آل مسعود يوسف، وكان يعتبر من زعماء تلك الفرقة وكان له جاه وثراء وعصبية من ابناء عمومته، ضد مخطط عبد الكريم «الاب»، وكان الداعى الحقيقى هو التنافس بين العائلتين والتسابق لكسب الانصار، وليس خيانة للوطن، لان السيد احمد بورجلة هذا قام فى قضية بوحمارة بمجهود كبير حسبما ذكرنا فى كتابنا الثائر المهزوم، وكما سيأتى فى ملخص تلك القضية، الامر الذى برهن به على تمسكه بالوحدة الوطنية .

الا أنه هاجت القبيلة ضد هما وهاجمتهما فى عقر ديارهما فى ثورة عارمة، تتجه اليهما فى جموع، فافترقت القبيلة الى فرقتين، احدهما تتجه الى دار السيد احمد بورجلة بزاوية آل هشام، والاحرى الى الحاج محمد شدى بأجدير، فما كان من الاول الا أن احتفى بضريح جده اسى

امحمد أموسى بعائلته التى كانت القبيلة تقدسه لمكانته من الولاية والصلاح، فأم تجرأ أن تدنس حرمة، بل انثنت بعد طلاقات نارية متقطعة، مات فيها بعض أفراد القبيلة .

أما الثانى وهو الحاج محمد بن شدى، فقد اعتصم مع عصبية من ابناء عمومته بداره، مصوبين لدى القبيلة أقواء البنادق، فأعصوب بداره، ولم يكن للقبيلة أن ترحزه منها، وقد تبودل اطلاق النار لايام ولم تنل منه القبيلة أى منال، فانكسأت راجعة تاركة اياه فى داره، إلا أنه لنم يستطع بعد ذلك أن يخرج من داره، ونظرا الى أنه فى تلك المناوشات التى جرت سات دماء من انقبيلة التى أصبحت تتطلب ثارا منه، حيث وجد وبذلك أصبح سجين داره انى أن تدخلت عناصر من زعماء فرقته للعفو عنه، لما ابداء من التوبة، ومع ذاك فقد كان عليه أن يحترس كل الاحتراس .

أما السيد احمد بورجلة الذى احتتمى بصريح جده، كما أسلفنا فانه استغاث بأصهار ولده من أجدير، فجاؤوا اليه وضمنوه الى القبيلة وارسل الى ولده عبد السلام الذى كان فى تطوان والذى كان قد اشترى هناك ديارا للسكنى استعدادا لمثل هذه الطوارئ، فرجع الولد من تطوان وعند قيام الثورة كان سيدى احمد بورجلة من أنصارها الى أن اغتانه أحد الطائشين الذى لقى جزاءه على يد المجاهدين فى الصين .

احتجاج فرنسا لدى اسبانيا

بعد هذه الاحداث التى جرت فى شأن تنظيم القبائل الريفية للعمل مع الالمانيين ضد فرنسا فان المقيم العام انفرنسى المرشال اليوطى الذى لم يكن خافيا عنه تحركات عبد الكريم وولده فى مايية والذى يعتبر الى ذلك الوقت من أصدقاء اسبانيا، احتج لدى المقيم العام الاسبانى فى تطوان الجنرال خوردانا، متهما اسبانيا بتواطؤها مع عبد انكريم والالما تجرء أن يقود القبائل ضدها لاعانة الالمانيين على اثاره القلاقل فى قبائل ورغة .

واثر هذا الاحتجاج استدعى حاكم مليية الجنرال اسبورو ذو الانف الاعوج بحضور الضابط رئيس القسم السياسى المكلف بسياسة

قبيلة بنى ورياعل برتبة قائم مقام كرونيل يدعى «الريكارمي»، وبحضور ضابط آخر برتبة كبطان يدعى «بربيطا»، مكف بقبائل كرط، ولما كان وقع لابن عبد الكريم خلاف مع الكورونيل «خوان خيل خيل» في نفس الاتجاه فانه وبعد حوار مع ابن عبد لاكريم، في شأن سياسة اسبانيا ازاء قبائل الريف، وما تتحمله نتيجة الاتفاقات الدولية على هذه الجهة، التي وكل أمرها الى حمايتها والتي ترتبط بفرنسا في القسم الجنوبي من المغرب، حسب تلك الاتفاقيات وبعد ما تطرق الى الاشتباهاات في سلوكه، ووالده مع اسبانيا، التي أسدت اليهما ثقتهما، ومع ذلك فان والده أثار قبائل الريف وجمعهما في حلبة القتال، الامر الذي يعد خطرا على عملها من جهات: أولاها، اساءة علاقة اسبانيا مع فرنسا، ثانيها، تمرس القبائل على قتال الاجنبى مهما كان، ثالثها، تدفق السلاح على المقاتلين القبليين وعلى أى حال، فان عمل والده لم يكن الا بموافقة معه، وعأيه فانه يطالب منه أن يكف على هذا الفعل، وان يوصى اباه بأن يرجع الى الجادة، والا استطاع هو أن يرده الى الجادة بوسائله الخاصة .

وهنا ثارت ثائرة ابن عبد الكريم، فخرج عن الحذر انذى كان لزمه الى ذلك الوقت، فنفت ما في صدره من كمائن الاحقاد التي يخفيها للاستعماريين الفرنسي والاسباني، واستمر في فورة من الغضب الذي لم يملك بها نفسه حتى ابان عن كل الحقائق الوطنية وفي هذه المرحلة فان الحاكم اسبورو لم يتمالك نفسه من جهته فثار في وجه ابن عبد الكريم وأمر بالزج به في سجن مليلية، وكان ذلك عشية ذات يوم أربعة من عام 1915 م. وسجن فعلا بقلعة البرج بمليلية واستمر مسجوناً لمدة سنة، وكانت هذه القلعة على شكل القلاع الاثرية القديمة، بنيت على شاهق محاطة بخندق عميق مجصص بالاسمنت المسلح يتصل بابها الوحيد بقنطرة من الخشب ممتدة الى الطرف انخارجى للمرور عليها نهاراً، فاذا غربت الشمس ازيحت القنطرة، فتبقى القلعة معزولة عن العالم .

وكان مكلفا بالحراسة على المعتقلين المجرمين جنود اسبانيون بقيادة ضابط برتبة الرائد، إلا أنه ورغم هذه الحراسة، فقد استأنس على مرور الايام الجنود بما فيهم الضابط الرئيسى الى اخلاق السجين ابن عبد اكريم

وسهلوا له اتصال أفراد عائلته وأصدقائه، فكان الزوار يغدون ويروحون نهارا، وكان السيد محمد شراط وهو ولد موح ابقوى صهر عبد السلام بورجلة كثيرا ما يزوره فى السجن وكان شابا قويا وله نوع من ثقة الاسبانين لعلاقة المصاهرة مع السيد احمد بورجلة، وكان يأخذ ورقة الزيارة من عند رئاسة حراسة القلعة ليبقى معه كل النهار يؤنسه وقد حكى لى أنه عندما كان يزور ابن عبد الكريم يجده يدخل بحرارة ويسأله عن أحوال المجاهدين الذين فى الجبهة مع فرنسا ونتائج المعارك، ثم يتطرق الى سب اسبانيا، وكان يقول انها تأمرت عليه، لانها تعرف أن الدائرة تدور عليها، ولكن لابد من ذلك، وان ذلك اليوم آت عن قريب ولا ريب، ومن جملة من يزوره السيد عبد الكريم بن الحاج بودرة، وكان رجلا شجاعا سخيا وهو أخو السيد محمد بن الحاج بودرة زوج أخت ابن عبد الكريم الذى كان ذهب مع الالماني الى بنى ورياعل، وكان يدخل عليه من أصدقائه الشريف اسماعيل الشاذلى من قبيلة قلعية، وقد اقترح عليه ذات يوم من سنة 1916 م. ان يهربه من السجن، فلما وافق ابن عبد الكريم على ذلك هيا الشريف المذكور حبلا خباء تحت جلبابه ودخل به اليه على أن يديه من طاقة زنزانتة ليلا فاذا نزل الى وسط الخندق مد اليه حبلا آخر من جانب الخندق الجارجى فيجذبه به هو وثلاثة رجال آخرون قد أعدهم لهذا الغرض، وفى الموعد المحدد القى ليلا ابن عبد لكرسيم الحبل وشده الى الطاقة وتدلّى مع الحبل، ظانا أن الحبل وصل الى قاع الخندق، فلما وصل الى آخر الحبل، وكان بقى بينه وبين أسفل الخندق مسافة فسقط فى الخندق وكان كسب بدانة داخل السجن الذى أرغمه على عدم الحركات الرياضية وتكسر من رجله اليمنى وام يستطع الشريف الشاذلى مع رفاقه أن يعملوا أى شىء لفائدته، وبقي هناك الى الصباح حيث التقطه جنود الحراسة وأرسل فوراً الى المستشفى، حيث عولج بعناية الى أن شفى، وفى أول الامر اقترح عليه الاطباء قطع رجله، ولكنه امتنع نظرا الى أنه فهم أن ذلك بالايحاء من قادة الجيش، ثم رد الى نفس السجن وفرضت عليه تقنينات فيما يخص زيارة أهله وأصدقائه، وكان لا يدخل أحد الا بعد التفتيش الدقيق وقد كان يزوره من أجدير السيد

محمد شراط والسيد عبد الكريم بن الحاج بودرة، السالفا الذكر .
ولما يئسوا من أية حيلة للخروج به من السجن اقترحوا عليه أن
يعمدوا الى طريقة التسامح من طرف الاسبانيين بواسطة عبد السلام
بورجنه، وهو زوج أخت شراط، وعندما وافق ابن عبد الكريم على ذلك،
فان الشخصين الوسيطين سافرا الى بنى ورياغل للاتصال بالسيد عبد السلام
بورجلة الذى يوجد فى دار أبيه بزاوية آل هشام وكان سفرهما عن طريق
البحر من مليلية الى جزيرة النكور (الحسيمة) على ظهر باخرة البريد
التي تربط بين معاقل الجيش الاسبانى من مليلية فجزيرة الحسيمة فحجرة
بادس وتنتهى الى سبتة، ثم تكرر راجعة من حيث أتت، وذلك على رأس كل
أسبوع، وعندما نزلا الى اليابسة بأجدير ذهبا توا الى الفقيه السيد عبد
الكريم - الاب - ليعرضا عليه الفكرة، وقد استمهلها الى غده لكى يخلو
لنفسه ويوازن بين قبول العرض وعدمه وعلى كل حال، فان لقاء القبض
على ولده من جهة الاسبان قد ازاح عنه كثيرا من مصاعب القبيلة، فأصبح
الاتهام متوجها الى أشخاص آخرين ينافسونه، فكان عليه أن يهتبل الفرص
لوضع مركزهم مزعزا وسط انسكان، وكان من رأى الفقيه عبد الكريم،
أنه قاد السفينة بين الانواء والصخور وأنه قرب أو كاد أن يصل بها الى
شاطيء النجاة، مما يجعل مخططه يقترب شيئا فشيئا الى تحقيقه وان
الظلام الدامس الذى خيم على ذلك المخطط الى ذلك الوقت أصبح يفتشع،
ويبدو ضياء الفجر الذى سينير السبيل وان كان يغطي بقتشع من السحب
الملبدة التي تحجب النظر الى بعيد، ومع ذلك فان اليأس القاتل الذى ران
على عقله أخذ ينحسر شيئا فشيئا، وقد خرج بالنتيجة التالية :

1 - ان سجن ولده كان خيرا وبركة فى بعض الحالات، ولم يكن
شؤما كله .

2 - وان محاولة هروبه اتى خلفت له كسورا فى رجله، حيث عولج
بعناية فائقة من طرف الاعداء، يعتبر ارهاصا بأن المخطط يسير الى الامام،
ولا يتأخر قيد انملة .

3 - فان انظار المجاهدين التي كانت قد تحولت عنه وتركته وعائلته

قد تساطت عليه من جديد في نظرة أخرى، وهي منحه الثقة واسترجاع ما كان ضاع منها .

4 — ان هؤلاء الجماعات من الذين اغراهم المال والسلاح، وهم اغرار سيرجعون الى الجادة بوحى من ضميرهم الوطنى .
وعليه، فان مصلحة المخطط أن يدع الوسطاء يعملون لاجل انقضاء ولده الاكبر من السجن، لانه وقد استكمل المرامى التى من أجلها وضع موضع المخاطرة، فام يبق الا أن يرحل الى حيث عرين الاسد للبدء فى المرحلة الشاقة الهامة .

5 — انه يعلم في قرارة نفسه، وبوحى من الحساسية وفراسة المؤمن، ان السيد محمد شراطلم يذهب بالاقتراح اسى ولده الا بعد أن اختلى بزواج أخته عبد السلام بورجلة، وان هذا الاخير لم يعط كلمة السر الا حفظا لماء وجه الجيش الاسباني الذى أصبح تلوك الاتسن غدرهم بالرجل الذى يحتل مكان قاضى القضاة، وهو مكان مرموق، فضلا عن وجود أفراد آخرين من العائلة نفسها تحت انظارهم، وفي بلدهم، وان تصرفهم هذا وضعهم موضع نزع الثقة منهم التى عملوا لاكتسابها طيلة مدة مديدة، ام ينالوا منها الآن الا قسطا ضئيلا جدا عند جماعة لا تزن وزن عائلة الخطابى، رغم الصوائر الباهضة .

وفعلا فقد قرأه على أن يوافق على المسعى، وفي الصباح اذن للوسطاء أن يمضوا في عملهم، فذهبوا توا الى دار السيد عبد السلام بورجلة بزأوية أبيه، فما كان من هذا الا أن حزم أمره للمسفر عن طريق جزيرة الحسيمة في البأخرة قاصدا سبتة، ثم تطوان، حيث دخل على المقيم العام الاسباني الذى كان أشعر مسبقا من طريق حاكم الجزيرة، وبعد الحوار، قرأ رأى المقيم العام على القاعدة التالية لاطلاق سراحه :

أولا: ان يحاكم ابن عبد الكريم أمام القضاء العسكرى في مليلية، الذى يصدر تبرئته بعدما يقدم ابن عبد الكريم ولو شبه اعتذار .

ثانيا: فاذا رغب في المكوث في منصبه في مليلية، فان المقيم العام يرحب به، على أن يتعهد بعدم اثاره المشاكل أمام الجيش الاسباني في الريف .

ثالثا: اما اذا رغب فى اللجوء بأجدير بمسقط رأس عائذته، فانه يعطى رهائن ثلاثة من عمومته يمكنون فى مليلية، ولا يتحركون منها، ويوضعون تحت رقابة المخابرات العسكرية، على أن يتعهد بشرفه أن لا يحدث مصاعب امام سياسة اسبانيا ازاء الاهالى فى الريف، وبالاخص امام الجماعة التى تعتمد عليها هناك، على أن لا يحمل معه أمواله المودعة فى بنك اسبانيا بمليلية، ورجع بورجلة هذا الى أجدير يحمل هذه المقترحات الى الفقيه عبد الكريم الخطابى، الذى أحازته على ولده فى مليلية، قائلا: انه يوافق عليها اذا هو راقته .

وحالما وصل بورجلة الى مليلية، فقد عرض على ابن عبد الكريم مشروع الاتفاق، ووافق حالا على البندين الاول والثالث — أى المحاكمة وبند الرهائن — كما وافق على الشطر الاول من البند الثالث الا أنه تردد فى الشطر الاخير من البند الثالث الذى يتعلق بالتعهد من قبله، وقد عرض عليه أن ينفخ ألف ريال شهريا على أن يقبل هذا الجزء من هذا البند، وهو عدم اثاره المشاكل امام جماعته، وقد وافق ابن عبد الكريم على عدم سحبه لامواله المودعة، ولم يقبل المال .

وضمن هذا الاتفاق فقد ألفت محكمة عسكرية لمحاكمته — ولو سوريا — فحوكم على تهمتين اثنتين: أولهما قيامه بأعمال تخل بالاتفاقيات المعقودة بين اسبانيا وفرنسا، وثانيهما محاولة الفرار من السجن. وقد اندفع الجنرال «الريكارمى» متطوعا للدفاع عن ابن عبد الكريم، فألقى دفاعا أمام القضاء العسكرى، ملقيا اللوم على قيادة الجيش، التى زجت به فى السجن قبل التحقيق، والحال أنه كان يحتل مركزا يجعله فى الحصانة القانونية، وأما عن التهمة الثانية، فان المسؤولية تقع على نفس القيادة اذ تركته فى السجن لمدة طويلة من دون محاكمته، ليعرف مدى المدة التى يقضيها مسجوننا واذا فان اليأس تسرب الى نفسه، وكان لزاما عليه أن يطرق أى حل يبدو متيسرا أمامه، وليس ذلك الا الفرار من السجن.

وعلى ضوء هذا الدفاع أصدرت المحكمة العسكرية تبرئته من التهمتين معا، وصرحت برد الاعتبار اليه كصديق لاسبانيا، حسب حيثيات الحكم، وأثر ذلك شرع فى تطبيق البند الخاص بالرهائن، لرغبته ان يلحق

بعائلته بأجدير، وقد وقع الاتفاق بين والده وبين حاكم جزيرة الحسيمة بواسطة عبد السلام بورجلة، على تعيين الاشخاص الآتية أسماؤهم كرهائن في مليلية وهم :

(1) ولد السيد مصطفى أبودرثن، ومما تجب الإشارة إليه أن السيد مصطفى هذا من فخذة آل زرعة وهي فخذة عبد الكريم .

(2) امحمد بن حدو ويكنى امغار من عائلة ابن عبد انكريم .

(3) شخص آخر ولعله من أولاد حمادى غياية .

وهكذا سافر الرهائن على متن باخرة البريد الى مليلية، واتصوا بابن عبد انكريم، والقى اليهم كلمة السر «أن يصبروا فان انقاذهم دين عليه لازم» .

وحين سلمت الرهائن الى حاكم مليلية، رجع ابن عبد الكريم الى عائلته بأجدير، حيث تقاطرت القبيلة لتحمد له السلامة، كما اغتبط والده بجمع شمل العائلة، وعمل هذا الاخير على عقد الزواج لولده على بنت السيد محمد بوجبار من أجدير، وكان السيد عبد السلام بورجلة في هذه الفترة كثير التردد على ابن عبد الكريم وقد شجعه على الزواج، فكان يوم العرس يوما مشهودا، حضره بورجلة هذا مع أعيان فرقة المراتبين، ومع جماعة أنصاره وقد حمل من الهدايا والذبائح شيئا كثيرا كما تبارى القوم في اطلاق الطلقات النارية من بنادق (الموزر) الاسبانية التى يتنافس القوم في اكتسابها وعلى أى حال، فان هذا الحفل خلف تساؤلات كثيرة، وكان سببا لكثير من التفكير الطويل الذى استوحاه موقفان متناقضان :

أولاهما: ظهور سنحة السجن على العريس التى تركته يعرج من رجليه اليمنى مع سمنة غير معتادة ووجه وضاء مدور بلحية سوداء في تفكير عميق، علامة على الابعاء الثقيلة التى توشك أن تقسم ظهر الجمل.

وثانها: ظهور موكب جديد من الجماعة الموالية للأسبان أمام الحاضرين من أهالى القبيلة التى حضرت الآن لان تبارك تلك العائلة التى لم يكن ما توسم به الا رجما بالغيب .

وقد جرت هذه التساؤلات الى تفكير آخر في القضية الكبرى، الا وهى مرامى اسبانيا ازاء الريف فقد بدا للجمهور أن تبخر هؤلاء أمامهم

بهذا الوجه السافر، يعتبر تحديا للقبيلة التى كانت بالامس تهرع للجهاد ثم الآن تختلط مع جماعة أخرى وجها الوجه، لا تحرك ساكنا، اذا ما هو الذى حصل؟ امتلاآت العائلتان معا على قضية الريف، واقبر الجهاد؟ وفى خضم هذه الهواجس التى لا تخلو من الهمسات بين الزعماء بعضهم البعض . وعلى كل، فان العريس يجب أن يترك وشأنه لقضاء شهر العسل، بعد طول المحن التى عاركتة فصقلته واكتسب مرانا فى مدارس السياسة الاسبانية المتوتية، كما اكتسب خبرة فى مهامه الصحفية التى كانت تملئه بوصفه ذلك، صف المشرق العربى التى كانت تأهب حماسا عقب الحرب العظمى التى أعقبتها تلك الحركات المولدة لمطامح الحرية فى الشعوب التى احتكت بعواقب تلك الحرب، فهذه الجزيرة العربية تحت قيادة الشريف حسين الهاشمى تحبر احتجاجا تلو الآخر لادى الانجليز، الذين غدروا بوعودهم المبذولة سخية من قبلهم، لالشريف حسين وللغرب أجمعين، ابان المعامع لاستقلال البلاد العربية من الخليج الى قناة السويس . وهذه تركيا الفتاة، تنهض بقيادة مصطفى كمال، بعد الهزيمة التى منى بها الباب العالى .

وهذه مصر تحضن أمثال سعد زغول، زعيم حزب الوفد والتى انجبت جمال الدين الافغانى ومحمد زشيد رضى تحمل أفكارهم العامة، مجلة العروة الوثقى، وجريدة المنار، الملتهتان حماسا، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فان ابن عبد الكريم بفضل مركزه الاجتماعى والسياسى وبفضل اتقانه للغة الاسبانية، كان يعرف ما يجرى فى مدريد بين المؤيدين لمواصلة الحرب فى الشمال والمعارضين لغزو تلك الاصقاع التى لا تأتى بربح كبير بالنسبة لادماء الاسبانية التى تسيل هناك بغزارة، وقد رجع بذلك من مليلية بغير الافكار التى رجع بها من فاس قبل ذلك، كما رجع أخوه انسيد محمد الخطابى من مدريد باستدعاء من أبيه بدعوى حضور حفلة زفاف أخيه الاكبر، وكما رجع عمهما من جزيرة الحسيمة، وقطع الجميع صلته مع الاسبان .

وفى هذه الاثناء كان الجيش الاسبانى المعسكر فى قبيلة قلعية التى خاضت معه ما ينيف عن مائة معركة برئاسة البطل الخال الشريف

سيدى محمد أمزيان، والتي ابتدأت عام 1908 م. حيث قاد الجنرال «مارينا» حاكم مليلية المجندين الاسبانيين، فكبده المجاهدون هزيمة منكرة، قتل فيها من جملة من قتل الجنرال «بينيطو، وفكرو»، وعندما وصلت التعزيزات العسكرية من اسبانيا قام الريفيون في كمين بسحق قافلة عسكرية عندما قام الكرونيل «بريمو ذى الرفيرا» بهجوم مضاد برى، ثم قام أنجنرال مرينا بعدما وصلت التعزيزات الاسبانية بهجوم بجيش قوامه 40 ألف مقاتل مما اضطر المجاهدين الى التقهقر .

وكانت من أشهر تلك المعارك الدامية، هى معركة انديوانة — معركة احد بنى شيكار — معركة مرسى اركمام بكبدانة — معركة تنكمارت — معركة سلوان — معركة اسغنغان — معركة ازورورا — معركة ازروهمار — معركة الحمام — معركة وادى الكرت وأخيرا معركة نكرمين، وهى التى استشهد فيها سيدى محمد أمزيان، لما كان يخوض المعركة على جواده الازرق، وقد كلفت هذه المعارك اسبانيا ما يفوق عن مائة مليون بسيطة انتى تعد أضخم ميزانية حربية فى ذلك الوقت، وقد ترتب عن ذلك هيجان (1) فى اسبانيا، نجم عنه اسقاط الحكومة الاسبانية، ولما خلفتها حكومة أخرى وأطلعت على التكاليف الباهضة، أمرت بتجميد القتال فى الريف، نظرا لاقترانها، بأن الارياف مقاتلون مغاور، لا يحترقون فى ميادين المعارك، وقد عمد العدو بعد استشهد هذا المجاهد البطل انى وقف القتال، معتمدا على أسلوب المراوغة واختلاس احتلال المراكز خفية وبدون ضجة، مع فتح الابواب الى الاهالى ليغدوا ويروحوا الى مليلية من دون رقابة تأنيسا لهم مع الفوائد المادية التى يدفعها بسخاء، فكان يرسل ثمة من الجنود لاحتلال الموقع الذى يقرب الى معسكره، وعندما يهدأ الامر ينتقل الى مركز آخر بمعنى أنه ارتكب السطو على المراكز واحدا فواحدا، الى أن وصل الى تفرسيت، وهى قرية تعتبر عنق القنينة بالنسبة لكونها صلة

(1) وهو الهيجان الذى يسمى بأسبوع برشلونة الدامى الواقع فى بحر عام 1909 والذى ترتب عنه سقوط حكومة ماورة وصعود لمورييط زعيم المعارضة الى رئاسة الحكومة الاسبانية .

الوصل بين قبائل شتى، فشرقا توجد قبيلة مطالسة، وجزء من قبيلة بنى وليشك، وشمالا يوجد الجزء الآخر من هذه القبيلة بنى سعيد، وغربا توجد قبيلة تمسامان بجبالها العاتية، وجنوبا قبيلة بنى توزين التى تشرف بقمم هضابها عليها، بينما تحتضن عينا معينا من الماء يندفع من الاخود، اندفاع الشلال، مما كسب لارضها خصبا تحولت الى جنات من عنب وزيتون وفواكه .

ولما وصل الى هذه القرية جمد حركاته منتظرا انفرص التى تسنح لكى يتحرك من جديد، لاستيصال البقية من انقبائل، فى انتظار أمر حكام جزيرة الحسيمة انتى تعد انقبائل التى لم تحتل بعده من مشمولات سياستها العامة .

وفى غضون هذا الانتظار حدث حادث أقام الجيش الاسبانى وأقعده، ذلك أن زعماء قبيلة بنى ورياغل، قد استفزهم التعاضم الذى أظهره جماعة المتعاونين انطلاقا من حفلة عرس ابن عبد الكريم، فقد جعلوا ديدنهم أن ينتقلوا من قرية الى قرية، حيث يحلون على أصدقائهم الذين يعدون لهم الولائم الغير المألوفة لدى الالهائى، فيعمدون الى شراء ادجاج من الارامل والمعوزين، وقد سارت لدى الالهائى حفلات هذه الجماعة مضرب الامثال، وكانوا يكونون فى السوق الذين يؤمونه محط أنظار الالهائى، أما باحتقار من طرف المجاهدين، وأما بانتعظيم من طرف أصدقائهم المنضوين تحت لواء الريالات المندقة عليهم .

وهكذا أتاحوا الفرصة لخصومهم وعلى رأسهم انفقيه عبد الكريم، فحزموا أمرهم نجمم شتات القبيلة من جديد بعد ما كانوا فقدوا البطل انقضى سى محمد العزوزى قبل ذلك، والذى ذهب ضحية عمله المتواصل للم ذلك الشتات ضد الغزاة، كما سيأتى :

وفى ذات أسبوع نمت الى زعماء القبيلة أن تلك الجماعة ستذهب الى سوق احد المرباطين بوادى تيسر، الذى كان يعد سوقا تحت سيطرة حمو بن الحاج عيسى من زاوية سيدى عيسى، وفضلا عن ذكر، فان الجماعة كانت تتكون من موح اقزن لقبا، وموح بن علوش اقيعان، وعبد العزيز بن موح موحنند، وحمادى بن عمر ابقويى، وقد باتوا ليلة

الاحد بدار حمو بن الحاج عيسى وأبنهم بعض أصدقائهم أن يتخلوا عن فكرة الذهاب في غده الى السوق، لأن القبيلة لهم بالمرصاد، فأبى حمو بن الحاج عيسى أن يذعن لهذا التهديد، واعتبره تحديا له في سوقه الخاص به، وحلف ليرد السوق مهما كانت النتيجة .

وقد تصدى لهم في السوق جمهور الحاضرين تحت رئاسة شعيب بن حمو الطاعى البوعياشى وعمر بن حمادى من آل امحمد ايجيا، والسيد امحمد اكروخ، واستنفروا كل من في السوق، وعندما انحدروا المنحدر انذى يصل الى الوادى، كانت جماعة المجاهدين قد استعدوا محتمين تحت اعشاب الغابات فما أن وصأوا على خافة الوادى حتى انهال عليهم الرصاص من كل جهة، فاندفعوا الى خربة بمقربتهم ينادون بكلمة العفو العفو، ولكن كان غضب الجماهير قد بلغ منتهاه، فلم يكن في مقدور أحد أن يرحمهم، بل هرعوا جميعا لرميهم بالحجارة في الخربة التى سقطوا فيها للاجهاز عليهم، وكان الواحد منهم اذا رمى بحجر عليهم يردفه بقوله: خذ هذه الرحلة من لحم الدجاج، أو هذه انصدرة ايها الصديق، ذلك تعريض بما كان يشاع عليهم من اختيار الدجاج في حفلاتهم .

وبهذه المذبحة سقط في ايدي الاسبان، كما سقط في ايدي انصارهم، وقد كان حاكم جزيرة الحسيمة الذى كان يدعى «سيانطو»، وكان برتبة كرونيل يساعده في القسم السياسى ضابط برتبة كبطان يدعى «كنديدو»، وكان هذا الاخير يعرف اللسان المحلى كأحد أبناء اذريف، وظف لهم مبلغ ثمانية آلاف ريال أسباني شهريا، يوزعه على من يسير في ركابه .

وقد تمكنت هذه الجماعة من استمالة جمع من زعماء القبيلة على النحو التالى :

— من فرقة المرابطين : حمادى بن الحاج شعيب وشعيب بن الحاج التهامى وسليمان أوراغ .

— ومن بنى عبد الله : عمر بن السمحن من تراغن وغيره .

— ومن بنى بوعياش : موح أزرقان وحمادى مونة وسلام محمادى

وموح بن حميش اصوفى وتهامى بن شعيب .

— ومن آيت على : امحمد بن الحاج محمد ،

— ومن آيت يوسف وعلى: الحاج محمد شدى وموح ابقوى
وانقائد السيد بوبكر .

— ومن بقية انسى بيرا والسيد دادى بن حدو بن على وعبد
الرحمن اظليح وامحمد بن الجيالى وعلى بن الحاج انتهامى .

— ومن بنى حديفة: روخذ وعمر بن صديق وبو السندروس .
وبعد مذبحه سوق احد المرابطين، انكمش هؤلاء وقبعوا فى ديارهم
محتمين بعصبية أقاربهم الخاصة، ينتظرون الدور المؤلم من غلبة
الجماهير، وكن الفقيه عبد الكريم أتجه بهذه الجماهير اتجاها آخر حتى
لا تتحرك الضغائن الدموية مع أبناء جلدتهم .

وذلك انه بعد هذه الحادثة انقطع تظاهر اتباعهم فى الاسواق
والقرى، فدعا اقبيلية الى عقد مؤتمر باربعاء سيدى بوغفيف، وقد تقاطر
الناس لسماع كلمة الاشارة التى سيتوجه بها الفقيه عبد الكريم اليهم
اثر مرحلة الانتصار على جماعة جزيرة الصيمة، وقد كانوا يظنون أن
المرحلة الأخرى هى استئصال البقية اباقية، الا أنه لم يقتنع بهذا التفكير،
بل وجههم وجهة أخرى وهى تجهيز الحملة اتى العدو بتفرسيت اتى لم
ييق له الا مرحلة أو مرحلتان يقطعها، فاذا هو بسهولة نهري انكور وغيس،
قائلا لهم ان العدو يسر كثيرا اذا نحن اشتغل بعضنا ببعض، وعليه، فان
الآكد هو تولى وجهتنا اليه، وقد وجه نداء اليهم بأن يقلعوا على صنيعهم
ويلنفوا حول اخوانهم ووجد نداؤه آذانا مصغية، فجهز حملة توجه بها
الى تفرسيت فعسكر على مشارف القرية من قبيلة تمسامان وبث قومه بين
الشعاب وانوديان، الا أنه لم يطل به المقام، فسقط مريضا، ويقال بأنه بفعل
سم دس له فى طعام عند الشخص المدعو عبد السلام التفرسيتى، بايعاز
من قيادة الجيش الاسبانى بتفرسيت، وجل من تحدث الى على ذلك لا
يستبعدون ذلك، بل يؤكدونه، نظرا لان هذه الخديعة من الاغتيالات كان
الاسبان يركنون اليها، ومن قبل حادثة سم الفقيه السيد عبد الكريم بنحو
ثلاث سنوات، كانوا قد عمدوا الى اغتيال بطل آخر من نوع السيد
عبد الكريم، وهو القاضى السيد محمد العزوزى، الذى ذهب ضحية اغتيال

باطلاق رصاصة من أحد أفراد عمومته الذين رشتهم قيادة جزيرة الحسيمة
كما أسلفنا .

وعلى كل، فإن كل ما يقال عن هذه الجماعة التي سقطت في الفخ،
انهم حدعوا للأفراغ الذي كان موجودا في هذه الجهة، والا فان الذين بقوا
في الحياة منهم أبلوا البلاء الحسن في الجهاد، واستشهد من استشهد منهم
رحمهم الله، فكانوا مثالا للوطنية الصادقة، والمجاهدين الأبرار، وخلفوا
ذرية لا يزالون يعملون في الحقل الوطنى، حفظهم الله .

الوسط الطبيعي والتاريخى لارضية المعركة

قبل أن نتابع تحليل الاساليب الاستعمارية، التى دفعت اسبانيا، كدولة أوربية استعمارية أنى غزو الشمال .

وقبل استقصاء أحداث المعارك التى جرت على الجبهات الأربع: جبهة كرط، جبهة الجبال، جبهة ورغة، جبهة الحسيمة، يجدر بنا القاء ضوء ولو على الاجمال، على أرضية تلك البطولات، وصلا لتحلقات حياتها التاريخية، والحضارية، والاجتماعية، لكى يتسنى للقارئ أن يتعرف على تلك الاصقاع، التى قامت بواجب انجهاذ، لحفظ الوحدة الوطنية عبر التاريخ .

ويعتبر هذا الفصل وما بعده مدخلا للأبحاث، التى تدور حول حرب الريف .

الوسط التاريخي والطبيعي لارضية المعركة

الريف :

ان حوضا منبسطا ما بين غمارة غربا وهضاب نهر ملوية شرقا امتدادا على ساحل البحر الابيض المتوسط شمالا ومشرقا على عتبة تازة وسهل مسون جنوبا هو انذى يدعى بالريف، وفي فترات من التاريخ كان يدعى بالنكور، تسمية له باسم عاصمة امارته «مدينة النكور» وقد حدد بالضبط لدى ابن خلدون بهذه الحدود كما في بحثنا حول هذه المدينة، والتي نعيد نشره هنا توحيدا لمطابق البحث من جهة وتجديد الطبع لها بعد نفاذ الطبعة الاولى من جهة أخرى .

وحسب هذا التحديد، فانه يشمل قبائل الريف الخالصة التي تستعمل اللهجات الريفية كلغة تخاطب، لا لغة كتابة أو تعلم، التي هي اللغة العربية الفصحى والتي يبرع فيها أبناؤه براعة، وهذه القبائل تبلغ نيفا وعشرين قبيلة، منها ابتداء من الشرق بنى يزناسن - كبدانة - قاعة - أولاد ستوت - بنى بويحيى - مطانة - بنى سعيد الريفية - بنى ولشك - تفرسيت - تمسامان - بنى توزين - كزناية - وهي قبائل بطيوة التي قال عنها صاحب المقصد الشريف (1) في التعريف بصلحاء الريف: وقبائل بطيوة هم من وادى النكور من حوز المزمة الى وادى ملوية، وهذا هو الذى فى المعجب (2) أيضا اذ قال فى صدد محمد ابن ادريس الملقب بالمستعلى بالله انه لما طرده بادس ابن جبوس عن مالقة عام 449 هـ. انتقل الى ملييلة وبايعة شعب بطيوة (3) .

- (1) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد 110 قرأها ناسخها على مؤلفه، ومخطوط كان من ممتلكات الفقيه العلامة السيد الحاج احمد الرهونى وقد تبرع به قبل وفاته على خزانة تطوان .
- (2) صحيفة 68-204 .
- (3) من برابرة زناتة حسبما فى روضة النسين فى دولة بنى مرين ص 5.

هجرة قبائل زناتة الى الريف :

وقد اختلط بهم قبائل من زناتة هاجروا اليها من المغرب الاوسط نتيجة انتهاء ملكهم بموت الكاهنة داهية اتى تملكّت جبال أوراس، وكانت لها وقائع مع الفاتحين العرب، ففى ابن خلدون :

وافترق جراوة أزواجا بين قبائل البربر، وكان منهم قوم بساحل مليلية، وكانوا أثر بين جيرانهم واليهم ابن أبى العيش لما غلبه موسى بن أبى العافية على سلطانه بتكلمان، أول المائة الرابعة (الهجرية) ، حسبما نذكر، فنزل عليهم وبنى القلعة بينهم الى أن خربت بعد ذلك .

«والفل منهم بذلك الوطن الى الان لهذا العهد مندرجون فى يطوفت ومن اليهم من قبائل غمارة» (1) .

ولا زالت قبيلة بنى توزين تحتفظ الى الآن باسم أحد بطون زناتة مع تحريف فى حرف الجيم لقرب مخرجه من حرف الزاى، ويدعى هذ البطن من زناتة «بنى توجين»، وهم أخوة بنى عبد الواد، ينتسبون الى بنى بادن بن محمد، وهم من قبائل بنى واسن اتى كانت تسكن ضفاف ملوية، ففى ابن خلدون (2) «فذكر فيهم من كان على ملوية وصا (3) .

(1) صحيفة 18-ج-31 طبعة دار الكتاب اللبنانى .

(2) الجزء 31 ص-121 طبعة دار الكتاب اللبنانى .

(3) وادى صا (زا) شرقى توريرت يصب فى ملوية عند المحل الذى يعرف الآن بملتقى اوديان، توريرت هذه هى الآن مدينة عصرية وكانت قديما قصبة بناها السلطان يوسف المرينى، ففى الاستقصاء -ج-ث ص 76- وقد كانت تخما لبنى مرين وبنى عبد الواد (يعنى التلمسانيين) فنصفها للسلطان يوسف (المرينى) ونصفها لعثمان بن يغمراسن، ولكل واحد منهما عامل من ناحيته، وفى سنة 694 هـ. خرج السلطان يوسف لغزو تلمسان فطرد عامل ابن يغمراسن وشرع فى بناء الحصن الذى هناك، فأدار سورهُ وشيده وركب أبوابه مصفحة بالحديد، وكان يقف على بنائه بنفسه من صلاة الغداة الى المساء،

من قبائل بنى واسين» فذكر منهم بنى واسن، لان تلك المواطن هى مواطنهم قبل الملك، وفي هذه الطبقة منهم بطون، فمنهم بنو حرين وهم أكثرهم عددا وأقواهم سلطانا وملكا وأعظمهم دولة، ومنهم بنو عبد الواد يتنزلونهم فى الكثرة والقوة، وبنو توجين من بعدهم كذلك .

أما القبائل الريفية الأخرى وهى بنو ورياغل وبقيوه — وبنو يطف — وبنو بويفرح — وبنو اكميل — ومسطاسة — ومتيوه الريف — وتركيست — وبنو عمرت — وبنو مزدوى — وزرقالت — وتعزويت — وبنو احمد — وكتامة فهى قبائل صنهاجة، وقد اختلط بهم زناتة أيضا لما تقدم عن ابن خلدون، فقد جاء عن المقصد الشريف، قوله غاب عن بلد بقيوه سائحا فى جبال صنهاجة من حوز بادس فمات فى جبل بينى كميل وفى موضع آخر وقد قدم علينا رجل أحقق من بنى جميل من صنهاجة بادس .

الا أنه مما يلاحظ أن سكان ضفاف وادى النكور من العدوتين قد يسمون ببطيوة، فمثلا توجد حومة بمدشر اغميرا يدعون بطيوه الى الآن وهم فى قلب قبيلة بنى بوغيث من بنى ورياغل قرب مدينة النكور التاريخية .

وهذا الاطلاق اذى عبر عنه المؤرخون الاقدمون، كابن خلدون والبرى هو الذى كان يعرف بامارة النكور، وهو ما يعرف الآن بالريف، وهو يشمل اقليمين اثنين كاملين: هما اقليم الناظور واقليم الحسيمة ويشمل اجزاء من اقليمى تازة ووجدة، أما اقليم الناظور، فكان يسمى فى الاصطلاح الادارى أيام الاستعمار، بمقاطعة كرت، باسم الوادى الذى يخترق قبائل بنى توزين وبنى سعيد وقلعية .

واقليم الحسيمة كان يسمى بمقاطعة الريف، نظرا لوجود القبائل الريفية الخالصة وهى قبائل صنهاجة بادس على ما فى كتب التاريخ،

لا يغيب عن العملة الا فى أوقات انضروية، وفرغ من بنائه وتحصينه فى رمضان من السنة المذكورة ولما تم شحنه بالسكر والسلاح وعقد عليه لآخيه أبى بكر بن يعقوب وكنى أبى يحيى وانكفأ راجعا الى الحاضرة .

أما وجه التسمية بالريف، فقد قيل أن العرب الذين نزلوا بهذه الجهة سألوا زعيمهم أين يستقرون، فقال لهم ريفوا هنا — أى أرعوا غنمكم ريفا (1) .

الاطلاق الثانى :

على أن كتب التاريخ المتداولة أيضا تطلق الريف على ما يشمل القبائل من مدينة سبته وطنجة غربا وتلمسان شرقا، فتشمل أراضى سلسلة جبال الريف الممتدة على شكل قوس بساحل البحر الابيض المتوسط، والمشرقة عليه مباشرة، ففى المقصد الشريف قال: ثم أن الأديب المحقق المتفنن أبا الحجاج يوسف ابن الزيات أتى فى كتابه الموسم بالتشوف الى رجال التصوف، بآيات، وذكر أن الحامل عى تأليف ذلك الكتاب ما أهمله من تقدم من المصنفين والكتاب من ذكر صلحاء المغرب الاقصى الى أن قال وبالنسبة فى ذكر المصامدة مظهر الكل شيخ محاسنه ومحامده، ولم يعرج فى تلك الاحياء عن ذكر احد من الاحياء، وغفل فيما أثر له من الحسن والاحسان عن الريف الكائن ما بين مدينتى سبته وتلمسان، وهذا الاطلاق الثانى هو الذى تضافر عليه المؤرخون، كالاستقصا والمعجب اللذين يتعمدان تسمية دولة الادارسة بالبصرة بأنها دولة ريفية، فكلاهما قال الخبر عن دولة الادارسة الثالثة بالريف، وفى مكان آخر من الاستقصاء بصريح العبارة، حيث قال الريف البحرى كله من عمل عمر من تيكساس، وبلاد غمارة الى سبته ثم طنجة .

وهذا الاطلاق الثانى هو الذى يوافق ما يعبر عنه جغرافيا بسلسلة جبال الريف، لان سكان هذه السلسلة امتزجوا ووحدت بينهم الطبيعة والاخلاق والبيئة والتناسل أيضا، فهم لحمة واحدة .
وعليه، فانه يزداد على القبائل الآتفة الذكر قبائل غمارة التى هى قبيلة بنى اسميح وقبيلة بنى اكريم — قبيلة بنى رزين — قبيلة بنى خالد — قبيلة بنى سلمان — قبيلة بنى منصور — قبيلة بنى زجل — قبيلة بنى زيات .

(1) المنجد فى مادة ريف قال «رافت الماشية» رعت الريف .

وقبائل جبالة وهى: قبيلة بنى سعيد وادلو - قبيلة بنى حسان -
 قبيلة بنى ليث - قبيلة بنى حزم - قبيلة بنى يدر - قبيلة الاخماس
 العليا - قبيلة الاخماس السفلى - قبيلة بنى احمد - قبيلة حوز تطوان
 - قبيلة أنجرة - قبيلة بنى عروس - قبيلة وادراس - قبيلة بنى
 مصور - قبيلة فحص طنجة - قبيلة الغربية - قبيلة البدور - قبيلة
 الخلو - قبيلة سماتة - قبيلة بنى كرفط - قبيلة آل مريف - قبيلة
 بنى يسف - قبيلة بنى زكار - قبيلة اغزاوة، وكذلك قبائل شمالى نهر ورغة.

اقليم الحسيمة :

كلمة الحسيمة هى اسم لمدينة الحسيمة وانما سمى الاقليم بها
 من باب تسمية الكل بالجزء المهم، وذلك لان هذه المدينة هى مركز
 الاقليم وعاصمته .

والكلمة حديثة الوضع حدوث المدينة نفسها، فقد أسست المدينة
 عند احتلال الاسبان لهذا الموقع فى الغزوة الكبرى التى غزوا بها هذه
 الجهة فى الحملة الصليبية التى شنّها الاسبان والفرنسيون تحت قيادة
 الجنرال الاسبانى «سان خورخو» والتى شاركت فيها ما يزيد على مائة
 بارجة حربية مختلطة، لما انهكت كلا من الدولتين الحرب التحريرية
 الريفية فتوحدت كلمة المسيحية وانزلت قوتها بموضع الحسيمة فى تاريخ
 8 غشت سنة 1925 م.

موضع المدينة ووجه التسمية :

وقبل الاحتلال كان الموضع رمالا رقيقة تدعى عند الاهالى
 «بتجذيت» (وهى اسم للرمال الرقيقة باللسان المحلى الريفى)، وهذا
 المحل لم يكن موضع مدينة ولا كانت فيه اطلال، بل كان ملكا جله الاكبر
 لرجال بقبوة من دثرة تيغمنين واجدر عياش، والبعض الآخر كان لاهالى
 أجدير من بنى ورياغل، وكان المالكون يزرعونه بالخضراوات الى حدود
 سنة 1925 م. والى حد الآن تسمع النساء وكذلك الرجال الطاعنون فى
 السن ينادى بعضهم البعض هلم بنا الى تجذيت أو قد جئت من تجذيت
 الى غير ذلك، وقد احتل الاسبان أول ما احتلوا فى هذه الجهة هذا الموقع،
 حيث نزلوا برأس سيدى عابد بمحل سموه «ساباديا» ولا زالت أرقام

التاريخ موجودة في هيكل بنائي محاط بسلسلة ضخمة من حديد تخليدا لهذه الغزوة الاستعمارية، ولا أدري ما وجه الاحتفاظ عليه .

ومما يلاحظ أن الاسم تغير مرات عديدة في عهد الحماية، فعند انزال الحملة والقيام بتأسيس المدينة وضع لها الغزاة العسكريون اسم «بياسان خورخو» تخليدا لذكرى الغازي، وعندما قامت الجمهورية بابانيا سميت «بيا لوسيماس» وعند قيام الحركة الوطنية الاسبانية بقيادة الجنرال فرانكو سميت بالاسم الاول، وبقيت كذلك الى أن وقع استقلال المغرب حيث رجعت الى الاسم الثاني، مع تغيير في الكمة، لتوافق العربية، فسميت بالحسيمة، وذلك في أول زيارة قام بها رئيس الحكومة المستقلة امبارك البكاي، وخطب الاستاذ عبد الخالق الطريس معلنا محو الاسم العسكري، كما محى اسم ميناء اليوطى عن القنيطرة، ومناء كباس عن قلاع بادس بنى بويفرح .

أما الحسيمة، فانه مأخود من كلمة لوسيماس وهى اسم في الاصل للنبات المعروف «بالخزامى» وهو نبات قال المنجد العربى «زهرة أطيّب الازهار» وفي كتاب التداوى بالاعشاب: عشبة يبلغ ارتفاعها 30-60 سنتيمترا كثير الفروع المنتصبة الى الاعلى أوراقها طويلة مستطيلة ملساء غير مسننة ازهارها عطرية الرائحة مرة المذاق زرقاء اللون بمجموعات كالتنابيل «تستعمل في التطبيب» وفي المنجد الاسبانى طبعة 1955 صفحتى 68-510 ما يلى :

ALHUCEMA Espliego-Mata labiada, muy aroma tica de flores ozules, de las cuales se extrae un aceite esencial muy usado en perfumeria.

وقد كان الاسبان يطلقون هذا الاسم على جزيرة النكور، حيث تكثر هذه الاعشاب في سواحلها على الشاطئ المقابل لها، كما كانوا يطلقون على جزيرة بادس «لابنيون» .

ولما احتلوا محل الحسيمة سموها بلوسيماس، وبعد الاستقلال عرب الاسم الى الحسيمة .

ومن هذا البيان يتضح أن من يجعل اسم الحسيمة محرفا عن اسم المزمة الذى هو اسم للمدينة التاريخية، انما نشأ ذلك عن غلط في



الصورة تمثل المرشال امزيان، ورئيس الحكومة الاولى المستقلة امبارك المكناي، والقيم على الشمال الاستاذ عبد الخالق الطريس، وبينهما قاضي بني ورياغل مؤلف الكتاب، في اول زيارة قاموا بها الى الحسيمة سنة 1956.

الموقعين، فمدينة المزمة موضعها حيث الآن نادى البحر الابيض المتوسط بالذات، وهى بعيدة عن الحسيمة بحوالى 11 كياو ميترات على الجنوب الشرقى وتسامت تماما جزيرة النكور، وهذه المزمة ليست هى مدينة النكور التى كانت عاصمة الامارة العربية من اولاد صالح الحميريين، وقد فصلنا أمرها فى بحثنا حول مدينة النكور، الآتى بعده .

وهذا ما وقع بالذات للسيد محمد الفاسى عميد جامعة محمد الخامس سابقا، حيث قال فى مقال تحت عنوان «أصول الاعلام الجغرافية المغربية» نشرته مجلة البيئة فى عددها الاول لشهر ماي سنة 1962 م. حيث قال «وأريد أن أختتم هذا الحديث بقصة الحسيمة، وهى أن هذه اللفظة لا أصل لها مطلقا، لا فى العربية ولا البربرية، وانما هى من مخترعات الذين غاروا على لغتنا واعلامنا أن تفسدها اللفظة الاعجمية، فارادوا ان يردوا لفظة الوسيماس الى أصلها العربى فقالوا الحسيمة».

ثم قال أما أصل الوسيماس فهو المزمة، وهى مدينة من أولى المدن التى أسسها العرب ببلادنا اذ فى أول الفتح الاسلامى تكونت قبل كل دولة عربية امارات صغيرة على ضفاف البحر الابيض المتوسط كانت من جملتها امارة بنى منصور التى اتخذت عاصمتها مدينة المزمة، ولما اتصل الاسبان بهذه افرضات وسمعوا هذه اللفظة نطقوها على عادتهم فى نطق الزاى سينا المزمة، ثم حرفوها لاسباب لغوية يطول شرحها الى الوسيماس وكل كتب الجغرافية عند المغاربة وكل المؤرخين يسمونها المزمة .

ان السيد محمد الفاسى وقع له غلط فى موضعين :

الاول: ظن أن موقع المزمة هو موقع الحسيمة بالذات وليس كذلك كما أسلفنا .

الثانى: ظن أن المزمة هى عاصمة امارة النكور وليس كذلك، بل بينها مسافة حوالى 15 كلم، وكانت المزمة هذه فرضة لمدينة النكور منها يوسق محصول سواقي المزمة .

وانى لا آخذ على العميد، فقد وقع الغلط لبعض المؤرخين كالامير شكيب أرسلان الذى تبع الادريسى فى نزهة المشتاق، ولكن نحن الذين نعيش كلمات الاهالى ونعرف اطلاق الاسماء على المواضع والمدن

والسواقي الموروثة أبا عن جد، نعرف بالضبط الفرق الدقيق، أما قوله أن لفظة الوسيماس لا أصل لها مطلقا لا في العربية ولا في البربرية، فهو صحيح بالنسبة للعربية .

تقع مدينة الحسيمة في درجة 3 غرب خط كرنيش من خطوط الطول، و 23 درجة من خطوط العرض شمال خط الاستواء، ولذا فهي في صميم الاقليم الرابع حيث الهواء معتدل والتربة خصبة والفصول متساوية سليمة من العوارض، وهي محفوظة من الارياح العكسية بهضبات حجرية تحوط بها من جميع جهاتها، فمن الشمال، تعوها هضبة سيدى عابد اتى تحرسها من هناك، ومن الغرب تحفظها جبال بقيوة العاتية المتصلة الامتداد الى سهول بنى بويفرح القصيرة، ومن أنجنوب تحرسها هضبات أجدير المتردفة ذات الرؤوس الحادة الصلبة التى تظلها شعاب ضيقة تنساب في انحدار الى البحر، أما من الشرق فهناك تنفرج عنها لتطل على خليج الحسيمة الذى ينبسط أمامها بعد أن تحرسها منه تلك الحافات الشاهقة من الصب انجبرى الغائض في مياه الخايج، وبينما تكون حاجزا مروعا تلتطم عندها الامواج، فمن حافات بوسكور الى حافات سيدى العابد وحافات الرأس القديم ثم حافات أجدير اذ بها تلتقى بمنبسط فسيح خصيب ذى تربة ثرية لا أثر للاحجار فيها تسقيها سواقي وادى غيس والنكور، حيث يبتدأ فجأة من سهول أجدير من موقع المدينة التاريخية المزمة الذى تطل عليه جزيرة النكور، كبارجة حربية راسية أمام ذلك المنبسط، ويمتد الى السوانى بتمسامان حيث ينتهى برأس سيدى شعيب — رأس كيلاطس — .

ولا يرتفع هذا المنبسط عن الماء الا قليلا، وذلك ما دعى علماء الجيولوجية الى القول بأنه فى فترة من الفترات انجيولوجية لطبقات الارض كان البحر يمتد الى هضاب أمزورن، ثم انحسرت عنه بفعل الانقلابات.

وهذا التقدير قريب الى الحق، لان الذين يبحثون عن منابع الماء في تلك الجهات لا يعثرون عن حجر ماء، بل الارض طبقات من طين تكونت من رسوبات للطمى الذى تحمله السيول الهابطة من سلسلة جبال حمام وكرناية وبنى توزين وغيرها .

حضارات تاريخية عبر شواطئ الريف :

مدينة النكور تمهيد : (1)

يطلق بلد النكور في كتب التاريخ على الحوض المعروف الآن بالريف، ويمتد على الشاطئ الجنوبي للبحر الابيض المتوسط فيما بين قبيلة بنى يزنان شرقا وغمارة غربا، ويحد جنوبا بورغة وحدده البكري (2) في مؤلفه المسمى المسالك (3) والممالك انذى ألفه حوالى عام 460 هـ. كما يأتي : «ذكر بلاد النكور وحده ينتهى من جانب الشرق الى زواغة جراوه الحسن ابن أبى العيش ويجاورهم من هاهنا مطماطة وأهل كبدان وينتهى من جانب الغرب الى قبيل من غمارة يعرفون ببني مروان وبني حميد ، اليهم تنسب الحميدية والى مسطاسة وصنهاجة ومن ورائهم اربعة حزب فرحون وبني وليد وزناتة أهل تاجريد أو بنو مرسن حزب قاسم صاحب صاع والكدية المعروفة بتاوريرت» (4) .

ولا يخفى أن أهل كبدان هم قبيلة كبدانة وهم متصلون شرقا بقبيلة بنى يزنان، وأما مطماطة، فهي قبائل تحد كزناية وهى الحد

(1) هذا هو الجزء الاول من البحث الذى كنا نشرناه تحت عنوان «الريف بعد الفتح الاسلامى» والجزء الثانى نشرناه عند الكلام على مدينة سبتة. (2) هو الوزير عبد الله بن عبد العزيز بن ابى مصعب البكري ويعرف بابى عبيد توفى سنة 487 هـ. موافق 1094 م. (3) وصف فيه افريقيا الشمالية فى عهده وصفا دقيقا وخصوصا شواطئ البحر الابيض المتوسط، ألفه حوالى 460 هـ. وطبع بالجزائر عام 1274 هـ. موافق سنة 1857 م. وله عدا ذلك كتاب (المغرب) بضم الميم فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب بفتح الميم - ويعتبر جزءا من كتاب المسالك والممالك. (4) صحيفة 86 .

جنوباً للريف وقلوع جارة هذه هي التي أسست فيها مدينة مليلية عام 98، أسسها مليل (1) أمير بنى يفرن الذي كان مع ادريس بن صالح مؤسس مدينة النكور، وهذه القلوع هي التي تنسب إليها قبيلة قلعية وقد قال فيها البكري: «انها حصن منيع لا متناول له ولا مطمع فيه (2). وذكر مرة لأخرى: (أن قلوع جارة هي لبنى ورتدى وانهم سكان مليلية (3) . وقبيلة قلعية هذه هي شبه جزيرة في شمالي كرطيباغ فيها جبل الكروكو البركاني 800 متراً، ولذا لما فتح مدينة مليلية عبد الرحمن الناصر لدين الله عام 314 هـ. وبنى سورها لاجل أن تكون معقلاً لموسى بن أبى العافية، قال فيها الشاعر احمد بن محمد بن موسى الرازي :

| | |
|--------------------------------|--------------------------|
| والملك (4) اناصر (5) لدين الله | فيما يحوط الدين غير ساء |
| بنى لموسى عدة مدينة | منيرة شاهقة حصينة |
| ذلت لها تاهررت والا فارقة | ولم يطق بنيانها العمائقة |

ولمناعتها لم يكن يدخلها أحد من التجار الا أن يكون على يد شخص من سكانها وقد كان ذلك بالافتراع وكان يقترع السكان فيما بينهم على يد من تكون مراقبة تجارة الشخص القادم (6) «فمن اصابته قرعة الرجل منهم كان تجره على يده ولم يصنع شيئاً الا تحت نظره واشرافه فيحميه ممن يريد ظلمه ويأخذ منه الاجر على ذلك والهدية لنزوله عنده».

(1) ذكر ذلك في التعليق على القرطاس في الطبعة على الحروف بسلا علم 1355 هـ. موافق 1936 م. كما ذكرها أيضاً في الترجمانة الكبرى لابي القاسم الزبياني صحيفة 79 طبعة وزارة الانباء بالمغرب. (2) المسالك ولاممالك صحيفة 88. (3) نفس الكتاب ونفس الصحيفة . (4) صحيفة 89 من الكتاب نفسه. (5) عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله صاحب مالقة. (6) المسالك والممالك صحيفة 89.

الوسط الطبيعي لهذا البلد

في الجنوب الشرقي من هذا البلد (يغلب نظام من طبقات بارزة) غير متواصلة اظهرها جبال كبدانة وبنى بويحيى، وفي هذه الكتل قيعان مفعرة كتقاع كرواوة في قبيبة بنى بويحيى وفي اراضى هذه القبيبة ترتفع كتلة (مسحوت) أو (مركوت) كما يلفظ بها الالهاسى وهى قرية مسطحه وجبل مركوت معزز من سهل مأوية بجبل كليز البركانى، وهو يمتد غربا في هضاب جيرية أهمها هضبتا (التدنى) و (التندرى) اللتان تضمّان الابار، والكهوف الطبيعية، وتلك الهضاب محفوفة بحافات من الصخور الوعرة كصخور بوحجر التى تشرف على بوصاب على ارتفاع ألف متر وتباين كتل هذه الجهة تباينا واضحا بقية أجزاء السلسلة الريفية بتكوينها واحوال نظورها فاتى وقعت بين كرط (1) ومؤوية قد بقى قسم كبير منها هادئا لم يتأثر الا ببعض الحركات وهى قليلة الارتفاع، فالقمم الشمانية لا تبلغ ألف متر ويبلغ جبل الكروكو في قبيلة قلعية أنبركانى 800 مترا، وهى ذات تركيب غير بسيط أى مختلط لان امتداده ناتج عن اتصال اجزاء متوازية مختلفة الاصول والطابع، سببتها الانكسارات والثورات البركانية، أما الجبال الجنوبية لهذه الجهة فتجاوز 1800 متر، كجبل (مركوت)، وبفضل الانخفاضات التى سببتها المياه التاركة للاثقال المتراكمة، فاسفرت عن سهول داخلية فسيحة سهلت المواصلات في هذه الجهة، ومن تلك الانخفاضات ذلك الذى يربط بين (المسون) و (الكرط) بسهول (بوصواب) وعين الاحمر، ومن ذلك الوادى الفسيح في انكرط المتوسط فهو يتجه نحو الشمال الشرقى ويفتح على سهل سلوان .

أما ناحية الريف الاوسط فتتكون أراضيها من مجموع جبال معقدة التركيب تنتشر على شكل اكليل تتمركز في خليج الحسيمة مفصولة عن بعضها، فسلسلة جبال بقبوة المنفردة على شاطئ البحر المشرقة عليه بحافات العظيمة ناشئة عن الصلب الجيرى الغائص في البحر وهى مفصولة

(1) وادى كرط ومؤوية .

عن بقية السلسلة الكبيرة بسهول بنى ورياغل التى تتسع شرقا فى أراضي أجدير وتحمل فى منبسطها نهري غيس والنكور، ويحدها شرقا بتمسامان وبنى توزين وباتجاه هذه السهول من الجنوب الى الشمال على شاطئ البحر تكون الطرف الشرقى لخليج الحسيمه ويحد جنوبا بجبل حمام وهى الكدية التى تشرف على توريرت التى ذكرها ابن خلدون (1) وهذا الجبل ينفصل انفصالا بينا عن السلسلة العليا وتطل على هذه الكدية قمة آزرواقشار، وهى جبل عال الارتفاع ينيف على ألفى متر، وهو أعلى جبل فى ناحية الريف الاوسط الذى تسكنه القبائل الريفية الخالصة ويشرف على مركز لتوزيع المياه يسترعى الانظار، فالمياه التى تذهب الى البحر الابيض المتوسط مباشرة تصب فى نهري كرط والنكور، والتى تنحدر اليه بطريق غير مباشر تصب فى السواعد العليا لنهر المسون، أما الذاهبة منها الى المحيط فتفرغ فى فرع نهر ورغة، وهذا الجبل جزء من الجناح الشرقى للسلسلة الريفية .

العرب والنكور

أول من نزل الريف من العرب هم الحميريون وقد جاءوا مع العرب الفاتحين للمغرب مع حملة موسى بن نصير وطارق بن زياد، ونتيجة لفتحهم فانهم قسموا المغرب أقساما جعلوا على رأس كل قسم منها عائلة من العرب، ونصبوا منها عليه أميرا وكان بلد النكور قسما منح للعرب الحميريين، وقد سماهم موسى بن نصير أمام الخليفة الاموى لما مثل عنده بدمشق (الابطال المغاور) (2) حين سأل عنهم وقد يكون لشجاعتهم منحوا

- (1) فى تاريخه المعروف (بالعبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر) المطبوع بمطبعة بولاق على الحروف عام 1282 هـ. موافق سنة 1865 م. فى سبعة أسفار ماعدا المقدمة، وابن خلدون هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون المتوفى بمصر عام 808 هـ. موافق سنة 1405 م. وهو شيخ المؤرخين .
- (2) المسالك والممالك.

سواحل البحر التي هي معرضة للاخطار التي تاتيها من البحر، وقد كانت قرصان المجوس تجوب عبابه من دون رقيب .

وأول من نصبوه أميرا عليهم هو صالح بن منصور اليمنى، وقد كان يعرف فيما بينهم بالعبد الصالح (1) وقد استمر فيها مستخفا اياها لنفسه ثم رفع أمرها للخليفة اتوليد بن عبد الملك الاموى، فأجابته هذا باقراره على الامارة فيها وذلك سنة 91 هـ. وأول موضع نزل فيه هو مرسى بتامسان على البحر يدعى واد البقر، ولعله محرف عن واد امقران المعروف به الآن، وبين هذه المرسى ومدينة النكور عشرون ميلا وهى مرسى صيفية، ويقابلها من بر الاندلس، قال البكرى: (مدينة طنيانة) (2) واستوطن صالح هذا، بلد النكور ونشر الاسلام فيه وكثر نسله واجتمعت عليه غمارة وصنهاجة البربريه واسلموا على يده وخضعوا له (وايدوه)، الا أنهم عادوا فثاروا عليه وخلعوه وولوا أمرهم رجلا من نفزة يعرف بالرندي، وسبب ثورتهم استتقالهم للتكايف الشرعية التي رفضوها باخراج صالح، ثم رجعوا وعادوا الى الاسلام وأرجعوا صالحا الى امارته وبقي فيها الى أن توفى بتمسان عام 123 هـ. قال (3) البكرى (ودفن بقرية يقال لها اقطى بتمسان بواد البقر، وقبره يعرف الى الآن، وهذه القرية تعرف الآن بالقصبة السفلى بواد ولعله هو واد البقر، أو واد امقران، وهذه القصبة هى مدينة تمسان على ما لابن خلدون، ولما مات صالح خلف من الاولاد المعتصم وأدريس وأمهما صنهاجية وعبد الصمد، وقد تولى امارة النكور بعد وفاته، (صالح) ابنه الاول المعتصم وقد سار مسيرة حسنة فى امارته، الا أنه توفى بعد آبيه بأيام يسيرة، وكان متدينا غفيرا يؤم الناس فى الصلوات الخمس ويخطب يوم الجمعة، وكان فوق ذلك شجاعا شريف النفس على الهمة .

الامير ادريس مؤسس مدينة النكور

ثم تولى بعد المعتصم شقيقه ادريس حفيد صنهاجة واخت مدينة

(1) ابن خلدون ج.س.ص. 312 . (2) المسالك والممالك صحيفة 91 .

(3) المسالك والممالك صحيفة 91 .

النكور ولم يتمها، ومات سنة 143 هـ. غير أنه لم ينتقل إليها، بل استمرت عاصمته هي مدينة تمسامان، كما كانت أيام أبيه وأخيه المعتصم والدى جعلها (1) عاصمة لأمارة النكور، هو الأمير سعيد وهذا يخالف ما جاء في ترجمانية الكبرى لأبى القاسم الزيانى من أن مدينة النكور أسست عام 80 هـ. (2) .

ومدينة النكور هذه تقع على الضفة الغربية لوادى النكور في فرقة بنى بويعاش من قبيلة بنى ورياغل حوالى 25 و26 كيلو متر من أنحسيمه، يشقها وسطا طريق السيارة العمومى الرابط بمليلية، ويقابلها من الضفة الأخرى حوض ماء يدعى عند الأهالى بحوض حواء وهو عين ماء غزيرة في منبسط من الأرض وماؤها عذب المذاق يجرى منها الى الوادى ثم تحملته السواقي الى أجنات لسقى خيراتها، وهي معلومة بلذات الطعم، ويقابلها أيضا شمالي الحوض ربوة كأنها صومعة لحراسة المدينة وفي رأس الربوة ضريح شخص يدعى بالسيد البرقى ولا يعرف شئ عن تاريخ هذا الرجل، الا ما تدل عليه نسبته الى برقة الامر الذى يدل على أن الرجل رحل من برقة ويظن أنه أتى مع انقافلة، وفي أسفل الربوة حجر يدعى بحجر العروس تحكى على السنة الأهالى خرافات في تسميته بذلك، منها أنه يوجد في الحجر أثر قدمى عروس ومن حوض حواء كان آل صالح جروا ساقية الى المزمة، ولا زال أثرها موجودا عندما تمر بقرية أمزور، ويقال أن هذه الساقية كانت كبريد بين النكور والمزمة ترسل الكتب من النكور مقفلة في قصب مشمع ويؤخذ في المزمة وقد اندثرت الآن معالم المدينة وأصبحت اطلالا ولا زالت رسوم سورها المحيط بها ظاهرة والمحل أصبح أرضا حراثية نصفها يسقى بماء الوادى والنصف الآخر بعلى وعندما كانت العملة تشتغل في تعبيد طريق السيارات عشروا على آثار مهمة من انحيطان وأوانى الخزف وغير ذلك، وقد كان بدىء فيها بالتحفريات الاثرية فعثر فيها على نقود ذهبية مهمة من الوجهة التاريخية، وعندما يكون الفلاحون يعمقون في الخدمة يعثرون كذلك على الاوانى وغيرها، وقد استخرج بعض الفلاحين أخيرا رحي مائبة صغيرة .

(1) مدينة النكور. (2) صحيفة 79 .

وقال ابن خلدون في التعريف بمدينة النكور ما يأتي (1) : (تقع في عدوة وادي النكور التي تقع بين الوادي المذكور ووادي غيس ينبع الاول من كزناية من جبل نيركويس ويتحد منبعه مع منبع وادي ورغة والثاني ينبع من بني ورياغل ويجتمعان في آكام ثم يفترقان الى البحر)، وقال: (انها تسمى بهذا العهد المدة ومثله للبكري وبين الاكام التي تجتمع فيها بأنها يقال لها أكدا) وزاد قائلا (وعلى (2) نهر غيس بنى سعيد ابن صالح مسجدا على صفة مسجد الاسكندرية بمحاربه وجميع منافعه، وعدوة غيس هذه يقال لها (تكر اكرى) وهى منيعة وفيها يتنتاج كراع آل صالح).

الامير سعيد

ولما توفي ادريس بن صالح الذي اختط مدينة النكور قام من بعده ابنه سعيد، وأول عمل قام به اتمام مدينة أبيه فأتمها وانتقل انيها في أول ولايته وجعلها عاصمة عمله بدلا من عاصمة أجداده قال ابن خلدون: (بعد (3) ان كانت مدينة تكسمان) أى تمسمان .

وقد ازدهر عمرانها في أول حياتها ثم طغت عليها موجة من الحروب الى أن خربت كما يأتي مفصلا، وقد كان جمالها الطبيعي الذي اكسبته اياها العدوتان وحوض حواء الرقراق والوادي الجارى اذى سطر بجنيبها اشرقى والشمالي سطرا ثعبانيا يلتوى بين الربي منحدر الى المنبسط الفسيح الذي خلفه طفو الماء حاملا لأكداس الرمال حافظا لقرائح الشعراء فاذكروا قرائهم متغزلين بمحاسنها ومذكرين بمائها العذب ورزقها المستطاب، فقال ابراهيم ابن أيوب النكوري :

أيا أملى (4) الذى أبغى وسؤلى وديناى التى أرجو ودينى
أأحرم من يمينك رى نفسى ورزق الخلق من تلك اليمين

-
- (1) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر الجزء السادس صحيفة 212. (2) المسالك والممالك صحيفة 89 .
(3) الجزء السادس صحيفة 212. (4) المسالك والممالك صحيفة 91.

ويحجب عن يمينك لحظاً طرفي ونور الارض من ذاك الجبين
وقد جبت المهامة من نكور اليك بكل ناجية (1) أمون (2)

ثم بدا دور الغزو فأول من غزاها المجوس بأساطلهم في ولاية سعيد عام 144 هـ. وغلبوه عليها واستباحوها، قال ابن خلدون (تانيا) (3) ويظهر من ذلك أنهم غزوها مرة أولى غير أننا لم نعثر على غزوة أخرى للمجوس في المصادر التي اعتمدناها، وزاد قائلاً: وسبوا من فيها إلا من هرب وكان من جملة من سبى أمه الرحمان وقنوعة ابنتا واقف بن المعتصم بن صالح ففداهما محمد بن عبد الرحمن واجتمع البرانس الى سعيد واعانوه على اخراج المجوس من مدينته فتم له ذلك وأخرجهم ولم يبقوا فيها إلا ثمانية أيام وعادت غمارة فثارت على الأمير سعيد بعد واقعة المجوس، هذا ما في ابن خلدون والذي في المراجع الأخرى (وقامت البرانس على ادريس بن سعيد) غير أن الذي يتبين من مساق الواقعة ترجيح ما عند الأول لان نظام أسلوبها، وانتقضت غمارة وولوا عليهم رجلاً غمارياً منهم اسمه (بسكن بالباء، وفي المسالك مسكن بالميم)، إلا أنهم لم يثبتوا في حروبهم معه فتراجعوا واخضعهم وفرق جماعتهم وقتل مقدمهم (بسكن) واستوثق أمره إلى أن توفي عام 188 هـ. لسبع وثلاثين، قال ابن خلدون من أيامه: والذي يتبين من تاريخ ابتداء امارته الذي هو 143 وتاريخ وفاته الذي هو 188 أن مدة امارته 45 عاماً، إلا أن يكون لا يعد له أيام استيلاء المجوس على امارته وأيام انتفاض غمارة عليه، وقد خلف من الأولاد منصوراً وحموداً وصالحاً وزيادة الله والرشيدي وعبد الرحمن الشهيد، وسمى شهيداً قال البكري (4) (لأنه استشهد في غزوة أبي العباس القائد، وكان فقيهاً على مذهب الامام مالك وتقياً حج أربع مرات ومجاهداً عبر الاندلس للجهاد ففقطع عليه ابن حفصون الطريق فقتل من كان معه وتخلص عبد الرحمن على فرسه) وخلف أيضاً معاوية وعثمان وعبد الله وادريساً.

-
- (1) الناجية، الناقة السريعة تتجو بمن يركبها. (2) المطية المأمونة العثار.
(3) الجزء السادس صحيفة 213. (4) في المسالك والممالك.

الامير صالح بن سعيد

ثم تولى الامارة بعد سعيد ابنه صالح وكان شديد التمسك بمذهب سنه في الاستقامة، وكانت له مع أهالى النحور الاصليين حروب ووقائع، من تلك الحروب قال البكرى (1): (ما وقع به مع بنى ورياغل وكزنايه حيث انضموا الى أخيه ادريس (أصغر اخوانه) فانقضوا عليه والتقى معهم بجبل كزنايه المعروف بجبل «كروين» - منبع وادى النكور وورغة -، ولم يثبت صالح امامهم، بل انهزم وتبعه ادريس ينهب معسكره وذهب الى فتح مدينة النكور مكتسحا لأقربى ولما وصل اليها امتنع عليه وألى المدينة الذى خلفه عليها صالح، ولما لم يتمكن من الدخول ارسل اليه بأن صالحا قد مات فماذا تمتع على، فأجابه الوالى بأنه اذا ثبت عندى مقتل صالح فانى لا أدافع عن المدينة، ولما لم يقم له الدليل على مقتل صالح تنكر ونزل الجبل المطل على المدينة (وهو الى الجهة الغربيه لمدينة النكور فى رأسه قرية «بنى بوقياضا» ولما جن الليل جاء صالح ودخل المدينة خفية مع خاصة من أصحابه، وفى الغد ارسلوا الى ادريس ليتسلم المدينة، فاقبل ادريس على فرسه وعليه درعه وهو لا يدري ما دبر له، ولما توسط المدينة أحاط به فتيان صالح فأنزلوه عن الفرس وأرجلوه الى أن دخلوا به على صاحبه أخيه فأمر بحبسه فحبس فى داره ولم يكن يريد أن يقتله ولكن اقترح قاسم الوسنانى صاحب «صاع والكدية» والحاحه عليه جعله يعدل عن الحبس الى القتل فأمر مواليه بقتله، وامتنع هؤلاء من تنفيذ الامر فأمر فتى من فتيانه يقال له عسلون فقتله .

ثم استعصت عليه مكناسة أيضا وامتنع أهلها من دفع المغاوم التى كانوا يدفعونها له فكتب اليهم كتابا يدعوهم فيه وختم الكتاب وجعله فى مخلاة وعلقها على حمار له كان معروفا عندهم وبعثه مع أحد ثقاته وأوصاه اذا توسط بلاد مكناسة فانه يترك الحمار بما عليه ففعل ذلك فأصابته مكناسة حمار صالح المعروف لديهم فأخذوا المخلاة، فلما قرأوا الكتاب ائتمروا على عقر الحمار والتمادى على الامتناع، وأخيرا عدلوا عن هذا.

(1) نفس المصدر صحيفة 92 .

الرأى واجمعوا أمرهم على أن يجمعوا ما كان عليهم لصالح من المغارم، فجمعوا ذلك وجللوا الحمار بملحفة مروية وأتوا صالحا بالحمار مجللا وبمغارمهم كاملة فاستعقبوه فأعتبهم واستمرت الفتن في أيامه الى أن توفي عام 250 وفي تاريخ ابن خلدون (1) لاثنين وسبعين سنة من ملكه ولعله غلط مطبعي في سبعين والا فالذى يبقى بعد اسقاط 188 من 250 هـ و62 وفي البكرى ومات صالح بعد أن ملك ثمانية وعشرين عاما، غير أنه لم يذكر تاريخ وفاته، فالذى يظهر أن الصحيح هو الاول، لانه ذكر تاريخ التولية والوفاة معا .

الامير سعيد بن صالح

وقام بالامر من بعده ابنه سعيد وكان أصغر أولاده ونافسه على الامارة أخوه عبد الله وعمه الراضى فثارا عليه ووقعت بينهم حروب ووقائع وبسبب تلك الفتن دخل عليه عبيده الصقالبة فسألوه العتق وأجابهم هو بأنهم جنده وأنهم كإحرار، غير أنهم لا يرثون ولا تجرى عليهم المقاسم فلم يقتنعوا بذلك وتمادوا في الحاحهم وتمادى هو في الامتناع، ولما يئسوا من اجابته طلبهم لحقه منهم جفاء وغلظة، فانتهازها أخوه عبد الله وعمه الراضى المكنى بابى على (وهذا الراضى لم يوجد من أولاد صالح فى المصادر المرجوع اليها) فرصة سانحة فانضمما اليهم مؤيدين عليه انجند المكون من الصقالبة وزحفا بهم الى قصر الامارة فحاربهم سعيد من أعلى القصر مع فتيانه ونسائه حتى انهزموا وقامت عليهم العامة فأخرجوهم من المدينة الى قرية فوق المدينة تعرف بقرية الصقالبة وتحصنوا بها سبعة أيام فخرج اليهم سعيد مع القوم وظفروا بهم بعد حروب شديدة، والمراد بالصقالبة هنا هم الارقاء الذين صحبوا العرب اليمنيين في فتحهم لانه في القرون الوسطى كان الاسترقاق من الأمة الصقلبية عادة وكان اسم الصقلبي معناه الرقيق كما هو في اللغات الافرنجية، وقد كان الاصل في الصقالبة يطلق على أمة السلاف التى تسكن على شواطئ البحر الاسود وضاف الطونة ومعنى السلاف الشرفاء، ثم انقلب عن معناه الاصلى

(1) الجزء السادس صحيفة 213 .

وجاء من لفظة السلاف لفظة اسكلاف ومعناها عبد، وأيام زحفة البرابرة الكبرى على الدولة الرومانية كان السلاف يقسمون الى سلاف غربيين وسلاف شماليين وسلاف جنوبيين وهم الذين سكنوا على شطوط بحر الادرياتيک وأول ما عرف العرب هذه اللفظة كان بسبب مجاورتهم للدولة البيزنطية وكان كثيرا ما تمتد سلطانتها على السلاف الجنوبيين، ولما كان ان العرب لا يوجد عندهم حرف الفاء الفارسية وكانوا يقبلونها باء فلفظوا لفظة الاسكلابيين اصقلابيين، ومنها جاءت لفظة صقلابي وصقالبة وقد جاء هؤلاء الصقالبة مع الفاتحين كجنود واسكنوهم قرية فوق المدينة دعوها قرية الصقالبة ولما عصوا أمر الامير وحاربهم انهزموا فقبض على أخيه وعمه اراضى المذكور فنفى الاول الى المشرق، قال البكري (الى بلاد بكة وكل به من أوصله اليها وبقي فيها حتى مات) أما عمه الراضى فانه عفا عنه لما بينهما من المصاهرة، وهى أنه تزوج ابنته وطالت تحته وكان عفوه بعدما حبسه مع أخيه عبد الله فنفى هذا وعفى عن ذاك ولعل هذه الواقعة هى التى توجد عند الاهالى من أن عامل المزمة كان متزوجا بابنة أمير مدينة النكور ثم أنه وقع بينهما خلاف فخرج الاول مع خيله والثانى كذلك الى أن تلاقيا بالقرية المعروفة الآن بقرية بوكدارا الواقعة أسفل امزورا وايكدارا باللهجة المحلية الخيل مفردها اكيذار، فانهزم عامل المزمة أما الباقي من عمومته وأقاربه للذين كانوا انضموا اليهما أيام الفتنة فانه أعدمهم جميعا ومنهم الاغاب وأبو الاغلب ما عدا سعادة الله ابن هارون قال ابن خلدون (1) فانه لحق ببنى يسلتين أهل جبل ابى الحسن ودلهم على عوراتهم وبيتوا معسكره وأخذوا الآلة وقتل منهم وبسبب ذلك قال البكري (2) انه لما قتل الاغلب وهو ابن عم سعادة الله وترك أخاه عبد الله وعمه الراضى مع أن ذنبهما واحد، امتعض سعادة الله وشكا ذلك لبنى يسلتين فى جبل ابى الحسن وهو فى تمسمان فالبهم عليه وعقد معهم على سعيد وهو لا يعلم بذلك، فلما أعلن بنو يسلتين بالخلاف على سعيد جمع أصحابه وخرج اليهم ومعه سعادة

(1) الجزء السادس صحيفة 213. (2) المسالك والممالك صحيفة 49 .

الله، فلما التحمت الحرب تحيز سعادة الله فيمن تبعه الى بنى يصاتين فخذل سعيدا فانهزم وأخذت بنوده وطبوله وقتلوا من مواليه نحو ألف رجل وأتوا مع سعادة الله حتى حاصروه بنكور واستجمع سعيد قواه وكر عليهم فهزمهم وأسر ميمون ابن هارون أخا سعادة الله وقتله وسار سعادة الله الى تمسمان وحرق سعيد دوره وخربها ثم صالح سعيدا فأنصرف الى النكور، وفي ابن خلدون (1) تقبض — يعنى الامير سعيدا — على أخى سعادة الله ميمون فضرب عنقه ثم سار سعادة الله الى طاب الصلح فأسعفه وأنزله معه مدينة النكور بعد الصلح (وهو كذلك لان بنى يطاتين غابوا أولا سعيدا وأخذوا بنوده وطبونه ثم استجمع قواه وتغلب عليهم وهرب سعادة الله الى تمسمان ثم صالحه وسكن معه مدينة النكور) .

وبعد ذلك جمع الامير سعيد قومه وأهل ايلته من غمارة وقام بغزو (بلاد بطيوة) (وتيسف) وقاوع جارة (وهى قبيلة قلعية) وبنى ورتدى (وهم أهل ملينية) وانه نهّد بهم قال البكرى (الى مرنيصة وزناتة فقتل واستقاد له جميع ذلك البلد) وقد انتصر فى هذه الغزوة التى قام بها بمختلف القبائل شرقا وجنوبا، لانه حارب أولا بلاد بطيوة وهى قبائل تمسمان وبنى وليشك وتفرست كما حارب قلعية وأهل مليانية ثم عطف على القبائل الجنوبية من مرنيصة واكرناية، وفى ابن خلدون ما يدل على أنه عقب هذه الغزوة سكنت ايلته والقت قيادة الطاعة فقال (انه توطد له الامر فى تلك النواحي (نواحي النكور) واصهر بأخته (أم السعيد) الى احمد بن محمد بن سليمان (ابن عبد الله بن الحسن بن الحسين (2) بن على) صاحبه وأنزله مدينة النكور، ولم يكدر عليه عيشه الرغد واستقراره المكين الا قيام عبد الله المهدي الشيعى مناوئا اياه، فكتب هذا اليه يدعوّه الى الخضوع له وكتب فى أسفل انكتاب ينذره أن لم يستجب دعوته أبياتا كثيرة منها البيتان اللذان هما :

وان (3) تستقيموا استقم بصلاحكم وان تعدلوا غنى أرى قتلكم عدلا
وأعلو بسيفى قاهرا لسيوفكم وادخلها عفوا واملؤها قتلا

- (1) الجزء السادس صحيفة 213. (2) كذا الاصل والصواب الحسن .
(3) تاريخ ابن خلدون الجزء السادس صحيفة 213 .

فأثر ذلك فيه وفي عائلته فأمر أخوه يوسف بن صالح شاعرهم
الاحمى الطليطلى أن يجيبه، فاجابه بالمثل أو أشد في أبيات كثيرة منها
الابيات التالية :

كذبت (1) وبيت الحق ما تحسن العدلا
ولا علم الرحمان من قولك انفصلا
وما أنت الا جاهل ومنافق
تمثل للجهال فى السننة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمد
وقد جعل الرحمان همتك السفلى

فأغضبت هذه الابيات الشديدة اللهجة عبيد الله المهدي القسيعي
وكتب الى مصالة بن حبوس صاحب تهرت يأمره بغزو النكور فأغزاها
سنة 304 غرة ذى الحجة ونزل من مدينة النكور على مسيرة يوم بموضع
يقال له تاسفت (وهو موضع جبل بقبيلة بنى توزين يسكنه ربع تاسفت
المعروف بهذا الاسم الى الآن) فخرج اليه سعيد بن صالح فحاربه ثلاثة
أيام متكافئا معه وكان مع سعيد رجل من شجعان البربر واعلامهم يقال له
حمو بن العياشى قال فى المسالك «من بنى يطوقت» (وهى قبيلة بنى
يطقت التى تقع فيها قسبة اسندة) (2) دعتة نفسه الى أن يقصد معسكر
مصالة فيفتك به فوافى المعسكر فى سبعة فوارس واقتحم على مصالة
فتصايح الناس وكاثروهم فأخذ حموا سيرا ومن معه فأمر مصالة بضرب
أعناقهم فقال حمو ليس مثلى يقتل فقال مصالة ولم؟ قال لانك لا تطمع
فى سعيد الابى وعلى يدى فاستبقاه وقربه والطف مكانه حتى أنس به
ثم أعطاه قطعة من العسكر فقصد بها من جانب كان يعلم اغرة منه حتى
دخل معسكر سعيد من المأمن من حيث لا يظن ففرق جمعه وغشى سعيدا
مالم يأتأهب له، وتتابعت عليه العساكر فنظر أمرا لا يستطيع المقام عليه
فبعث من مدينة النكور كل من كان فى قصره وما معهم وصاروا الى
جزيرة فى مرسى النكور (وهذه الجزيرة هى التى تقع قبالة مسجد أجدير

(1) ابن خلدون الجزء السادس صحيفة 213. (2) الممالك صحيفة 95 .

الناطق للسحاب بصومعته في الفضاء على ربوة المزمة وهي على شكل بارجة حربية تسترعى أنظار ركاب السيارات المناسبة بين هضاب المزمة الملتفة التي يجدد شبابها وادي غيس بجداوله الممتدة بين اليمين والشمال، غادية ورائحة وهو منظر خلاب زاده رونقا المنبسط الفسيح ذو الاشجار بينما وادي النكور يقوم بقسطه الوافر ويسابقه في اثاره الحياة مرسلا جداوله أيضا من مدينة النكور الى حيث يلتقي بجداول غيس فتتحد لمصلحة واحدة وهي اخراج مخبئات الارض لخير البشر ويبلغ هذا المنبسط من الهكتارات تقريبا تسعة آلاف، والجزيرة بدورها تمدها من بحرها بالسماك الطرى اللذيذ، فاستقر في الجزيرة آل سعيد ومعهم صالح وادريس والمعتصم أولاد سعيد وظاهر سعيد بين ذرعين هو وفتيانه وخاصته وقاتل حتى قتل واستبيح عسكره ودخل مصالة مدينة النكور يوم الخميس لثلاث خاؤون من المحرم عام 305 هـ. وعليه فقد بقيت بينهما الحرب سنة كاملة وسبعة وعشرين يوما) وانتهب مصالة مدينة النكور وسبى النساء والذرية وبعث بالفتح الى عبيد الله الشيعي وبعث برأس سعيد بن صالح ومنصور بن ادريس بن صالح وغيرهما من بنى صالح بن منصور فطيف بها في مدينة القيروان ونصبت بمدينة رقادة وفي تلك يقول أبو جعفر احمد بن المروزي في أرجوزة له :

| | |
|--------------------------------|-----------------------------|
| لما (1) طغى الارذل وابن الارذل | في عصبة من الطغام (2) الجهل |
| من الاله كالحريق المشعل | فحل أرضا طالما لم تحل |
| حطم أهل كفرها بالكاكل (3) | وجاء رأس رأسها المبذل |
| على القنا من الرماح الذبل (4) | ذو لمة شاعثة لم تغسل |
| ولحية غبراء لم ترجل (5) | |

(1) الابيات في المسالك والممالك صحيفة 95 (2) اوغاد الناس للواحد والجمع (3) الجمع: كلاكل وهي الجماعات ويطلق على الصدر أو ما بين الترقوتين (4) صفة للرماح يقال الرماح الذوابل أى الدقيقة. (5) يقال رجل الشعر : سرحه

وقد كان النصر أولا حليف سعيد ثم تغلب مصالة أخيرا وقتل منهم وشرد وبعث الرؤوس الى رقادة وطيف بها كما تقدم .

أما البقية من أولاد سعيد فانهم قطعوا البحر من جزيرة النكور فارين انى مالقة وكان صاحبها اذ ذاك عبد الرحمن بن محمد ائناصر لدين الله فرحب بهم وتقبلهم أحسن قبول وبالغ في اكرامهم وحباهم بالكسوة الرفيعة والصلات الجزيلة وخيرهم بين المقام بدار مملكته أو المقام بمالقة فاختاروا الاخيرة لقربها من بلدهم رجاء أن يجدوا غرة فيرجعوا انيها . وبقي الفاتح مصالة في عاصمة النكور ستة أشهر ثم قفل راجعا الى مقره (تهررت) وولى عليهم رجلا من كتامة يدعى دلولا وهو من أصحابه ولم يستعمل هذا التدبير اللازم مع جيشه فانفضوا حوله وكان بفارغ انصبر للانقضاء عليه .

الامير صالح بن سعيد

ولما بلغ الخبر الى اولاد سعيد الذين كانوا بمالقة وعلوموا ثورة جنوده عليه، كانوا هم ثلاثة ادريس والمعتصم وصالح، وكان معهم قومهم بمالقة تلقوا الخبر بغاية الابتهاج فتسارعوا بقطع البحر فسبق صالح ونزل بمرسى تمسمان بوادى البقر - واد امقران - وهى القصبة السفلى المدفون فيها جدتهم صالح المعروف ضريحه هناك قال البكرى (1) (وذلك أنهم اتفقوا على أن يركبوا فى ليلة واحدة ووقت واحد وبريح واحد، فمن سبق منهم فهو الذى يتولى امارة النكور خلفا لابييه، فسبق صالح وعاق الاخوين البحر فبقيا فى البحر شهرين، وهما يترددان ثم وصلا بعد ذلك سالمين الى «النكور» واجتمع البرابر اليه هناك، وبايعوه سنة 305 هـ ولقبوه «بالقيم» لصغره هكذا فى ابن خلدون، والذى فى المسالك والممالك «باليقيم» من اليتيم وهو الصحيح، لقول ابن خلدون لصغره فدل على أن لفظة القيم عنده تصحيف ومن هناك أى تمسمان) هجموا على دلول الكتامى قائد مصالة على النكور وانتصروا عليه وقبضوا عليه وأعدموه

(1) المسالك والممالك صحيفة 97 .

وصلبوه مع جماعة على ضفتي نهر النكور، وكتب صالح رسالة الى اناصر لدين الله صاحب مالقة وبشره بفتح بلاد آباءه وأعلمه بأنه يقيم الدعوة له فقبأته هذا بالشكر وأرسل له هدايا وتحفا وآنة حربية كعربون على شكره ووصل الى صالح جميع أخوته وقومه انذين بقوا في مالقة معلنين له طاعتهم، وقد كان صالح هذا شديد الاقتداء بسلفه في الظهور بالمظهر الديني الجدى واستمر كذلك الى أن توفي سنة 315 فتكون ولايته حسبما تقدم عشر سنين وفي ابن خلدون ما يأتي (1) (ولم يزل على هدى أوليه من الاقتداء الى أن هلك سنة 15 (يعنى وثلاثمائة) فحاصره وتغلب عليه فقتله واستباح المدينة وخربها سنة 17 (يعنى وثلاثمائة) ثم راجع اليها وقام بأمرهم أبو نور اسماعيل بن عبد المالك ابن عبد الرحمان بن سعيد بن ادريس بن صالح بن منصور واعاد المدينة التي بناها صالح ابن منصور وسكنها ثلاثا هـ؟ كلام ابن خلدون وفيه من الغموض ما لا يخفى .

أما أولا فلم يبين المحاصر (كسرا) من المحاصر (فتحا) لانه كما ترى ويظهر من كلامه أن الواقعة كانت بعد موت صالح لقوله انه خرب المدينة سنة 17 وموته سنة 15 وهل كان قام بالامر من بعده أخ من أخويه المار ذكرهما، ولما قتلتهما قام بالامر من بعدهما ولد عمهما :

وأما ثانيا: فان قوله راجع اليها لم يلتزم مع قوله، وقام بأمرهم أبو نور اسماعيل الخ. لان هذا من عائلة الامراء اليمنيين، ولعل المقصود رجع عن المدينة وتركها لاصحابها الشرعيين .

وأما ثالثا: فان الذي بنى المدينة هو ادريس بن صالح كما مر والواقع في كلامه هو صالح بن منصور ويمكن أن يجاب عن هذا بأن صالح ابن منصور كان صاحب فكرة بنائها فلذا يصح نسة البناء اليه مجارا .

مقتل الامير ابي أنور اسماعيل بن عبد الملك

وبعد أن تولى الامر الامير اسماعيل أوعز ميسور مولى أبي القاسم ابن عبد الله الى صندل مولاه عندما أناخ بفاس فجهازه بمعسكره وأمره بالتوجه لمحاربة امارة النكور، فتوجه صندل وحارب جراوة وعطف على

نكور، وكان اسماعيل استعد له في قلعة أيرى وحصنها وشرع صندل يرسل له الرسل من طريقة يفاوضه للاستسلام، فعضب اسماعيل لذلك وقتل الرسل، فلما علم صندل بذلك أسرع المسير الى أن وصل الى القلعة وانشب الحرب معه واستمر القتال ثمانية أيام فظفر صندل به وقتله وأباح القلعة للجند فعاثوا فيها فسادا وسبوا النساء والذراري وقتلوا الرجال وولى عليهم رجلا من كتامة اسمه مزمازو ورجع هو الى فاس ولكن أهل النكور لم يرضوا بالفاتحين فانقضوا على الكتامي هذا .

موسى بن المعتصم

وبايعوا موسى بن المعتصم بن صالح بن منصور اليمنى وكان مقيما عند بنى يسلتين أهل جبل أبى الحسن (ولعله من بقية اللاجئتين الى بنى يسلتين أهل جبل أبى الحسن عندما اضطهدهم أخوهم الامير سعيد ابن صالح بن سعيد كما تقدم) وموسى هذا كان يعرف بابن الرومى وقال صاحب (1) المقياس هو موسى بن رومى بن عبد السميع بن رومى ابن ادريس بن صالح بن ادريس وقد انتقم الامير موسى من أعدائه فظفر بمزمازو الكتامي ومن معه فقتلهم وبعث برؤوسهم الى الناصر لدين الله صاحب مالقة (يظهر أنه اقتدى بأسلافه في الدعوة للناصر مكافأة له على تقبله له واحسانه) .

الامير عبد السميع بن جرثم بن ادريس بن صالح

ثم أنه ثار على موسى بن صالح عبد السميع من أعيان بيته وخلعه وأخرجه من النكور سنة 329 وارتحل موسى بأهله وولده وكثير من عمومته ومعه أخوه هارون بن رومى الى الاندلس ونزل هو المرية، وأما قومه فممنهم من نزل هناك ومنهم من نزل في مالقة، أما الامير عبد السميع فانه بقى في امارته الى سنة 336 وفي هذه السنة ثار عليه أهل النكور وقتلوه .

الامير جريح بن احمد بن زيادة الله بن سعيد بن ادريس

ابن صالح بن منصور

وبعد ما انتفضوا على عبد السميع وقتلوه استدعوا جريحا من

(1) نقلا عن تاريخ ابن خلدون الجزء السادس .

مأققة وولوه أمرهم، واستقر له الامر الى أن توفي آخر سنة 360 وكانت مدة ولايته 25 سنة وكان سافيا شديد الاقتداء بأوليه متدينا على مذهب الامام مالك كأسلافه وبقيت الامارة متصلة في اولاده الى سنة 406 فانقرضت دولتهم من النكور بعد أن استمرت 314 سنة من ندين تأسيسها في تمسمان سنة 91 هـ. على يد صالح بن منصور المدفون ثمة، وقد كان سبب انقراضها أن ازداجة الذين تغلبوا في نفس التاريخ على وهران والذين كانوا جيران امارة النكور أرادوا توسيع ملكهم فزحف الامير يعلى بن أبى الفتح الازداجي على النكور واستولى عليها وخرّب مدينة النكور وبقيت امارة النكور بعد في أولاده قال، ابن خلدون (1) الى أعوام 460 ثم أن يوسف بن تاشفين وجه وجهته نحو بلاد الريف سنة 473 قال في القرطاس (2) (وفيها فتح مدينة أجرسيف ومدينة مئيلية وجميع بلاد الريف وفتح مدينة النكور وخرّبها ولم تعمّر بعد) .

هنا نصل بهذا البحث عن قيمة هذه المدينة التاريخية التي كانت المحور الاساسي في هذه الزاوية من المغرب طيلة قرون أربعة تقريبا، وقد طالوت الايام في استقرارها رغم الغزوات الموجهة اليها شمالا بغزو المجوس اياها بأساطلهم بحرا، فلم يملكوا فيها سوى ثمانية أيام، كما غزاها عبيد الله الشيعي شرقا بواسطة قائده على تهرت مصالة ابن حبوس وكانت النتيجة اخراج عامله على النكور ودحره كما غزتها مكناسة ثم فاس جنوبا ولم يملك عامل صندل عليها المدعو مرمازو الا قليلا وقبض عليه .

ولم يحل عقدتها الا الهرم الذي يعتري الامم والدول كما يعتري الافراد، فكان عوننا لامراء ازداجة على القضاء على امارة النكور العربية وذلك بسبب الفتن الداخلية التي كانت تنشب ما بين فترة وأخرى سواء التي بين العائلة نفسها تارة وبين السكان والعائلة تارة أخرى :

- (1) من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر الخ .
- (2) لأبى العباس احمد بن أبى زرع توفي في بضعة عشرة وسبعمائة .

وقد كانت نهاية الانقراض محتمة على هذه الامارة وذلك نتيجة تكوينها من عرب بدو لم يالفوا الحضارة ولم يصبحوا شيئا من قانون الحضارة تتمركز عليه امارتهم وتتسع دراسه برامجها باتساع نفوذها، بل اقتصرت فقط على الصبغة الدينية التي اعتمدوا عليها في حكم الاهيين، فكان سبب استقرار أحوالهم والتفاف السكان حولهم وقد تجلّى ذلك في تعريف بكل شخصية من شخصيات هذه الامارة انتى أسلفنا ذكرها، فلا يكاد يخلو تاريخ أى فرد منها من وصفه بالمتدين المتمسك بأهدافه والمقتدى بسلفه في المذهب، وهذه الصبغة الدينية كما عند (1) ابن خلدون هي اسبب في حصول الملك للامم المتوحشة .

ولذا اعتمد عليها كثير من انقاثين للمغرب وكان سبب نجاحهم في تأسيس اماره أو دولة وهى ظاهرة غالبه على أهل المغرب، فانهم انقادوا للإسلام انقيادا لم ترزعهم عنه مطاولة العصور والاجقاب ومنه هذه الزاوية التي كان الفصل الاكبر للعرب اليمنيين في ذلك، وقد دللنا بهذا اببحث على قيمة هذه المدينة التي لم يترك منها الزمان الارسوما بعد ما قوضها يوسف بن تاشفين تقويضا شأن اعماله في التهديم لما بناه غيره ولو في انقطر الاندلسى الشقيق مهد الحضارة، ولو ترك يوسف بن تاشفين هذه المدينة وعمرها ونقل اليها الحضارة لما كان من شأنها معه الاتخليد ذكره، ووصل جنوب بلاده بشماله وضبطه بها ضفة هامة من البحر الابيض المتوسط، وأظهرنا هذه الامارة العربية التي ساست بلاد الريف، فكانت الشغل الشاغل للممالك المجاورة لها، وقد كان لها شبه استقلال في ادارتها غير ما كانت تقوم به طوعا من الولاء ثارة للخلفاء الامويين في الجزيرة العربية لانهم القائمون بالخلافة الاسلامية وهم في درجة تقديس كبرى في عقيدة الاسلام، وثارة لملوك الاندلس لحسن الجوار ولطف المعاملة كما تجلّى في مقابلة عبد الرحمن الناصر لدين الله بالاكرام وانتجلة للعرب الفارين انيه أيام اضطهادهم .

ومن نتيجة الفتح المذكور ظاهرة أخرى غير ترسيخ العقيدة

(1) فى المقدمة .

الاسلامية في الافئدة وهي ترك السلالة العربية تشارك السلالة البربرية وتمتزع بها امتزاجا تناسليا فتكون من سكان الريف العربي وللبربري والمزيغ منهما رغم جهل أية نسبة من النسب تمت بها الآن السلالة المذكورة وان كان يغلب على الظن أن السلالة العربية قوية أيضا لما انفصل عايه علم الاجتماع كما في مقدمة ابن خلدون (من ان الرياسة لا تكون الا بالغلب والغلب انما يكون بالعصبية فلا بد للرياسة من أن تكون عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة لان كل عصبية منهم اذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالاذعان والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسبة انما هو ملصق لزيق) .

ولو كان عدد الفاتحين دون السكان لما كانت عصبيتهم تقوى على عصبية السكان فيكون لهم الغلب ثم الاستقرار ولو أنه بعد الاستقرار كان انجاح الاكبر راجعا الى العصبية الدينية، فانما ذلك بعد حين وبعد ذوق حلاوة الدين افتاح، ويزاد على ذلك ان السلالة العربية قد تسالت الى الريف فسكنت بلاد النكور في شخص بعض الاشراف الادريسيين في حين دولتهم بعد انقراضها، (1) وسيأتى تفصيل ذلك .

مدينة بادس

ان اسم بادس يطلق في التاريخ الاسلامي بحوض البحر الابيض المتوسط على مسميات أربع، اثنان منها لقائدين بربريين احدهما قائد صنهاجي بشمال افريقيا وهو بادس بن منصور بن بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، وكان أميرا على صنهاجة افريقية الشمالية تابعا للفاطميين الذي تكونت دولتهم عقب انهيار الدولة العباسية في هذه الاقطار، أسسها عبيد الله بن المهدي الشيعي الفاطمي نسبة الى فاطمة بنت رسول الله (ص) حسب ادعائهم، وكان ذلك بتاريخ 868 ميلادية — أى حوالى النصف الاول من القرن الثالث الهجرى — .

أما القائد الثانى فهو بادس بن حبوس أمير غرناطة الذى قضى على ملك الاشراف الادارسة المعروفين بالحموديين بمالقة عام 449 هـ . حيث

(1) هنا ينتهى الجزء الاول من بحث الريف بعد الفتح الاسلامى .

اضطر بعضهم الى الانتقال الى بطيوقة بمليزية ونواحيها لمحاولة تأليف امارة الادارسة هناك عام 456 هـ. ولكن لم يحالفه النجاح .

أما الاسمان الآخران فأحدهما لموضع بالزاب قال فى معجم البلدان (1) قال السلفى سمعت الاصم النوتى يقول: الزاب الكبير منه بسكرة وقسطنطينية وطولقة وقفصة ونفراوة وخطة وبادس .

وثانيهما لمدينة على ساحل البحر الابيض المتوسط قال فى الصدر المذكور (وبقرب فاس على البحر مدينة يقال لها بادس) وهذا الاخير هو الذى يعيننا هنا وهو اسم المدينة المدعوة بهذا الاسم، واطافة بهذا الاسم هناك جزيرة تصاقب المدينة تدعى عند جغرافيين انعرب بجزيرة بادس، وتدعى عند الاسبان «بانينيون» وهى احدى القلاع الخمس التى على شواطئ الشمال التى لازالت ماسورة باحتلال الاجنبى لها، وهى من الغرب الى الشرق حسب التالى: سبتة، جزيرة بادس، جزيرة انكور (الحسيمية)، مليزية الجزر الجعفرية (وهى ثلاث جزر متقاربة أعظمها جزيرة الكنغريس).

وقبل الكلام على مدينة بادس وتأسيسها يجدر أن نشير الى أنه وقع خلط عند بعض الكتاب، فلم يفرق بين المدينة وجزيرتها، فاعتبر أن انجزيرة هى نفس المدينة، حيث استشهد بقول المؤرخ الشريف الادريسي السبتي فى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

«بادس مدينة متحضرة فيها أسواق وصناعات وهى آخر بلد غامرة، ويؤجأ اليها أهل غامرة لقضاء حوائجهم) وسيأتى تفصيل ذلك عند الكلام على الجزيرة .

وانواقع أن مدينة بادس التى ورد فيها نص المؤرخ المذكور هى غير جزيرتها التى سنخصصها فيما بعد ان يسر الله بابحث مستقلة نظرا للاحداث التاريخية المهمة التى تعرضت لها باستهدافها لصراع عنيف بين المغاربة من جهة واثراك الجزائر واسبانيا من جهة أخرى، الى أن انفصلت عن المغرب انفصالا جائرا .

ففى معجم البلدان (2) : بادس بكسر الدال المهملة وسين غير

(1) لياقوت الحموى — صحيفة 364 . (2) صحيفة 29 الجزء الثانى .

معجزة اسم لموضعين بالمغرب (المغرب العربي) قال أبو طاهر أحمد بن محمد سمعت أبا الحجاج يوسف بن عبدون بن حفاظ الزناتى بالاسكندرية يقول سمعت أبا عبد الله البادسى الفقيه وهو من بادس فاس لا من بادس الزاب وبادس فاس على البحر قرب فاس» .

ومدينة بادس هذه تقع على الضفة الجنوبية للبحر الابيض المتوسط بين حافات جبال قبيلة بقيوة غربى مدينة الحسيمة بعد حوالى 25 كلم بحرا وحوالى 45 كلم برا، وتقع جزيرة بادس قبالتها ولذا نسبت اليها ويفصل بينهما قنال من ماء البحر .

أجل كانت هذه المدينة بمثابة اكيل على هامة الشاطىء اشمالى للمغرب، وكانت صلة الوصل بين العدوتين الشمالىة والجنوبىة، فهنا المغرب تحت سلطان قادة برايرة عظام من مصامدة وصنهاجة وزناتة، وهناك الاندلس موطن انفاتحين الاولين من العرب الذين خلفهم فى نفس المهمة أولئك البرابرة من المغاربة، كما طار اليه صقور قریش من الامويين لتأسيس الحضارة العربىة على الاسس المتينة نشرالالوية الاسلام وفخائل القرآن الكريم ونقلنا حضارة الشرق من بغداد عاصمة العباسيين ومدينة أبى جعفر المنصور التى أسسها مدورة، والتى كانت تضم يوما ما مائة مترجم لكتب الحكمة والفلسفة مارة تلك الحضارة عن طريق القيروان مدينة الفاتح انبقرى المنقشف «عقبة بن نافع الفهرى» بقصر تونس لتصل تلك الحضارة الى الغرب العربى بالعدوة الاخرى، حيث تستقر بطليطة وغرناطة وقرطبة واضرابها لاجل تعزيز صولة الفتح العسكرى بالفتح الثقافى فى شبه الجزيرة الايبيرىة شمالى بحر الزقاق وكان موقع بادس من الاندلس لا يقل أهمية من موقع سبتة، فاذا كانت هذه رابضة على مدخل الممر المائى العالى انهاء، فان بادس معززة بجزيرتها كانت احد الروافد المغربىة لذلك الاشعاع العربى الاسلامى الذى هاجر الى غرب أوربا، وفضلا عن ذلك فقد كانت الحارسة الامامىة لذلك الممر المائى كى لا يؤخذ على غرة .

وبالنسبة للمغرب فقد كانت مرفأ هاماً لتصدير السلع وتوريدها من العدو الاخرى والىها، ولتصدير المجاهدير الاشداء، وكانت الزوارق

تجوب عباب البحر بهم حيث مواقع نفع السيوف التى يطلبون الشهادة تحت ظلانها ولرفع راية الاسلام هناك خفاقة .

ففى توارىخ بادس التى دونت أحداثها وعمرانها - وأغلبها مخطوطات ذات أهميه - حبرها فطاحيل من علماء ذلك العصر من رجال نفس المدينة أو من غيرها يتبين الدور الرئيسى الذى قامت به لصالح العلم والعرفان والعمران الحضارى أسوة بسبته وغيرها من مدن السعور الاسلاميه .

وقد كانت ظاهرة تلك التواريخ الاساسيه هى التى كانت سائدة فى بيئة ذلك العصر من تسجيل حوادث العلم والصلاح، وباتالى همم الصلحاء الذين يستكملون صلاحهم بفضل الجهاد فى سبيل الله وسد شعور البلاد الاسلاميه .

ويبدو منها أنها كانت تتأثر فى حياتها التاريخيه بعوامل ثلاثة :

أولها: انها كانت كما أسلفنا معبرا للحضارة الشرقية الى أوروبا.

ثانيها: انها كانت بابا مطروقا بل منفدا هاما ومرفقا للمغرب

يستعمله لصلة الوصل بين العدوتين وبالاخص عن طريق فاس وتازا، ولأجل التدليل على ذلك نورد هنا قصة وردت فى مخطوط ألفه قاضى اجماعة بفاس الشيخ الجليل أبو عبد الله محمد الأورابى (ترجم لهذا المؤلف صاحب سلوة الانفاس صحيفة 301 وقال عنه: انه قاضى الجماعة العالم الجليل كما ذكر شيوخه الذين أخذ عنهم وتلامدته الذين أخذوا عنه، وكلهم من فحول علماء المغرب ومثله فعل صاحب نيل الابتهاج وجودة الاقتباس) .

وكان الغرض من تأليف هذا الكتاب التعريف بمناقب أبى يعقوب

انبادسى، ولهذا المؤلف قيمته التاريخية خصوصا وان مؤلفه من النقاد المتبصرين فقد قال فى حقه صاحب سلوة الانفاس (1)، «انه عارف بأحوال أهل زمانه خاصة وعامة وتواريخهم وانسابهم كثير الحكايات فى مجالسه، ناهيك وأنه أخذ عن الشيخ أبى الحسن الغرناطى وأبى عبد الله محمد بن

أحمد يوسف الطنجاوى وأخذ عنه سيدى أحمد السراج الكبير وأبو الوليد اسماعيل ابن الأحمر، وله فتاوى فى المعيار، ولد بتاريخ 701 وتوفى فى ليلة الاثنين 16 ذى القعدة عام 782 هـ .

وهذه القصة التى نستدل بها تدل على كون بادس مرفأ بالمغرب الداخلى، فقد جاء فيه (1) «أن السلطان أبا الحسن على بن أبى سعيد عثمان المرينى وجه خادمه غازى بن الكبأس الى بادس برسم جواز المجاهدين الى الاندلس فى قاربين سمى احدهما باسم غراب والآخر باسم طريرة وعندما وصل انخديم الى قائد بادس لاعلامه بأمر السلطان تجمع هناك تجار يريدون أن يجتازوا بسلعهم الى الاندلس للاغراض التجارية، ولما لم يجدوا المراكب فقد تجمعوا وذهبوا الى أبى يعقوب البادسى أى بصفته وليا صالحا ورجل بادس الاوحد الذى يفزعون اليه فى ملماتهم حيث يهتم بشؤونهم، فتدخل أبو يعقوب لدى الخديم واعتذر هذا بأنه رسول فقط الى الوالى، فأرسل أبو يعقوب الى هذا الاخير وطلب منه تلبية رغبة التجار، فرفض الطلب وقال فى صيغة «مليح والله السلطان أمرنى على الاجفان (القوارب) برسم الجهاد وأنا أحمل فيها التجار» فغضب الشيخ أبو يعقوب وقال: «لابد أنهم يجتازون فيها فتوصل الى ربه وعلم السلطان بأمر التجار، فما لبث أن جاءت الاغاثة الانبية بأن أرسل السلطان يأمر الوالى بأن يحمل التجار، وهى منقبة حفظت للولى الصالح .

وفى المعجم التاريخى للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله صحيفة 12 كانت بادس مدينة تجارية مهمة تعتبر ميناء لفاس على البحر الابيض المتوسط، وكان الاسطول التجارى البندقى يأتى مرة كل سنتين الى هذه الميناء .

أما العامل الثالث الذى تأثرت به المدينة، فهو هذا الحجيج من انعماء والصلحاء، سواء من الاندلس أو من المغرب، بل ومن المشرق، وهنا نكتفى بأن نورد عائلة مهمة من عائلات الاندلس العالمية التى اختارت هذه المدينة كما نأتى بعده بشهادة عالم ناقد مشهور، وهو لسان الدين بن الخطيب .

(1) أى فى المقصد الشريف .

أما العائلة الاندلسية فقد جاء في مخطوط (المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف) وهو الذى ألفه أحد أفراد هذه العائلة وهو أبو محمد عبد الحق بن القاضى اسماعيل الخزرجى المتوفى أوائل القرن اثنامن الهجرى، وعبد الحق هو اسمه أما كنيته فهو أبو محمد وليس كما جاء في كتاب دليل مؤرخ المغرب من قوله محمد بن عبد الحق، وجاء في هذا المخطوط تعداد أفراد هذه العائلة، ويتبين من ذلك أنها هاجرت من الاندلس فى زمن كان الاندلس لا زال فردوسا غير مفقود ونظرا الى أن بادس كانت نسخة طبق الاصل من حضارة الاندلس ومدنه، بل كان الاندلسيون يفضلونها لما اتسمت به من الصلاح وما يشاع عنها من أنها مقبرة الاتقياء، ولذا نرحت هذه العائلة وأمثالها .

وتتحدث العائلة فى الاصل عن قيس بن سعد بن عبادة للخزرجى وهم أحد الذين آزررو النبى (ص) وأصحابه فى مطلع النبوة بيثرب التى دعيت فى الاسلام «بالمدينة المنورة» مع الحى الآخر الذى هو حى الاوس، وقد خلدوا جميعا أمجادا اسلامية أولى لما نبغ فيهم من الايمان الصادق عند ما جحدت قريش ونصبت العداء للدين الحق، فرفع الحيان راية النجدة وآوت النبى (ص) وأصحابه المهاجرين ضد طغيان بنى عمومتهم، ثم أسلاف هذه العائلة الخزرجية كانت تسكن فى مدينة غرناطة وقد دعاها سمعة بادس العلمية والصلاحية أن ترحل إليها، فاستقرت فيها .

ورغم أننا لم نعثر على الظروف التى نرحت فيها عن غرناطة ولا تاريخ استقرارها ببادس ولا من هو الرجل الاول الذى حل بها، الا أنه من المعروف جيدا حسبا يأتى، أن العائلة تركت شهرة فى العلم وانصلاح والقضاء، كونها الاشخاص التالون الذين من عائلة بنى الاحمر الخزرجيين.

1) أبو العباس احمد بن الخضر الخزرجى الغرناطى :

كان فقيها واماما فى جامع بادس وهو الجامع الكبير . وهذا القدر من التعريف به، هو الذى يؤخذ من المصادر المخطوطة التى بين أيدينا، ولا يعرف شئ عن ظروف حياته وتاريخها، الا ما يؤخذ من كون ولد أخيه الآتية ترجمته بعد، خلفه فى امامة المسجد ببادس وولد أخيه

هذا كان حيا في النصف الاول من القرن السابع الهجرى، وعليه فيكون حيا في أواخر القرن السادس الهجرى .

(2) أبو العباس احمد بن محمد بن الخضر الخزرجى :

كان حيا في أول القرن السابع الهجرى وتوفى عام 615 هـ.

حياته اليومية : روى عن بنته زينب (المرجم له) وكانت عجوز صدق، راوية للأخبار، وقالت كان أبى الفقيه أبو العباس يصوم النهار ويقوم الليل ويعلم كتاب الله، فلا يجالس أحدا ولا يخاطبه أحد، ويوما الخميس والجمعة يلازم منزله فلا يخرج الا الى الصلاة، وهو كان الامام الخطيب ببادس بعد عمه أبى العباس احمد بن الخضر، وكان وافقه فى الاسم .

حياته العائلية : تزوج مرتين، أولا تزوج بنت عمه - أى أبى العباس بن الخضر المتقدم الذكر - وهى أم الفقيه حيون و ابراهيم، ثم ماتت فتزوج ثانيا صفية بنت ستر بن مسعود، فولد له معها محمد وزينب واسماعيل (انقضى اسماعيل بعده)، وهذا الاخير كان أصغر اخوانه تركه أبوه رضيعا، والفقيه حيون أكبرهم .

صلاحه وتقواه: كان كثير التصدق، روى عن بنته زينب قالت: كان اذا خرج لقضاء مآربه فوجد انسانا عريانا كساه ثوبا من ثيابه التى عليه، وربما اعطى فى اليوم الواحد ثوبين أو ثلاثة .

وكان فى بعض الايام يصنع أبياتا من الشعر، ويكتبها فى كفه، ثم يكررها وييكى، وكان لا يعمل شعرا الا فى الزهد .

مماته: سبق أنه توفى عام 615 هـ. وقد روت بنته زينب المذكورة فى شأن موته، قالت وكنا ليلة نائمين فاستيقظ فقال لامى صفية، قرب الوقت، فقالت له وما ذاك، قال رأيت الساعة النبى (صلعم) وأبا بكر رضى الله عنه، فأبوبكر يمشط رأسى بمشط فى يديه، والنبى (صلعم) يصب الماء على رأسى، انما ذلك طهارة من الدنيا، قالت فأصبح متوضئا وتوالى وصاله، فمات دون سبع من ليلة تلك الرؤيا .

(3) الفقيه حيون بن أبي العباس :

لا نعلم عن حياته الا ما حلت به أخته من الاب زينب، لقونها الفقيه حيون، وهو أكبر أولاد احمد بن محمد ابن البخر، يليه ابراهيم وهو شقيقه، ثم محمد وزينب واسماعيل أبناء صفية بنت ستر بن مسعود كما تقدم .

كما لا نعلم شيئاً عن ترجمة ابراهيم ومحمد .

(4) القاضي الشيخ اسماعيل بن احمد الخرجي البادسي :

ولد بتاريخ عام 614 هـ . بمدينة بادس، تركه أبوه ابن سنة، ينتمي نسبه الى سعد بن عبادة الخرجي وهو من علماء بادس الصالحين، تولى القضاء ببادس وكان مثال العدالة والنزاهة وكان كريماً جواداً، كان أولاً يقرأ القرآن للصبيان الى أن أجبر عن تولي القضاء، فتولاه بحقه الا أنه تمسك بعبادة تعليم القرآن، فقد قال ان ضيعة عيالي فأنا لما سواهم أضيع وذلك أنه يرى ان ترك أولاده وأقاربه بدون تعليم القرآن ضياع لهم . ففقهه وورعه: ويحكي عن نزاهته في القضاء أعاجيب، فمن ذلك أنه ذات يوم أتاه شخص بجراب مملوء لوزاً وأربعة رؤوس من اندجاج وآنية من السمن وشيئاً من البصل مظهراً أن ذلك هدية له لغير سبب، ولكن القاضي رد عليه ذلك، وامتنع من أخذه بل زجره، وبعد انصلا في ذلك النهار أتى بذلك الانسان شخص في دعوى دين له عليه وثيقة بسكة قديمة غير السكة المتعامل بها حين المحاكمة، فقال له القاضي انما أتيت بما أتيت به الى من الهدية لاجل أن تقضى الدين بالسكة الحالية، ثم حكم عليه بأن يرد الدين بقيمة السكة القديمة ذهباً، لانها معلومة (وهو الوجه الشرعي في مثل الديون الذهبية والفضية التي لا يجوز فيها التفاضل والنسأ)، غير أنه أوصى رب الدين أن يحسن من التقاضي .

كراماته: كان والي بادس في وقته اراد أن يخاطب له على شهادة زور فامتنع القاضي من ذلك، وكان هذا الوالى سلف للقاضي قبل أن يتولى القضاء خمسة عشر ديناراً، جهز بها بعض بناته، الا أنه قاضاه في أجر تعليم أولاد الوالى القرآن سنة، وبرأه من الدين بوثيقة، ولكن الوثيقة ضاعت من يد القاضي، فطلبه الوالى بخمسة عشر ديناراً، منكراً

أن يكون قاضاه باقراء الاولاد، ولكن القاضى استنكف من اليمين، فما كان من القاضى الا أن عقد سلما في شعير له بثمانية دنانير، ودفع الدراهم الى الوالى الظالم وصرها هذا في طرف حزامه، وذهب الى البحر وقعد فى ظل قارب على الساحل لينفذ بعض أشغاله، فمال عليه القارب بدون سبب فشدخه وانكسرت يده وحمل عانى أسوء حال، ودراهم الشيخ مصرورة فى حزامه، وتعذب عذابا أليما، وتعطلت يده، ومع ذلك فإنه لم يرجع الدراهم الى أن مات وأتى ولده الى القاضى حاملا الوثيقة التى أبرأ فيها والده.

ومما يحكى فى كراماته أن شخصا معروفا بالغضب والتعدي يدعى محمد بن جعفر، أقام عرسا فى داره، فأهدى حسب العادة بعض لحم لعائلة القاضى، ولم يكن عارفا بذلك، فقام من نوم القياولة فرأى كأن نارا تخرج من تحت الاناء الذى يحلب فيه، فأفاق، وسأل زوجته عما تحت الاناء، فأخبرته بهدية محمد بن جعفر، فأمر انخادم برمى ذلك فى الزقاق . وفاته: توفى رحمه الله فى العشر الثانى من ذى الحجة عام خمسة وثمانين وستمائة هجرية (685 هـ - الموافق 1286 م)، وفى أثناء مرضه الذى توفى به أخبر ولده العالم الجليل المؤلف الشيخ عبد الحق بوقت وفاته وذلك انه لما ثقل عليه المرض عاده جمع من الصالحين، فلما خرجوا من عنده، تعرضوا لصلاحه، وقالوا ان مرضه ثقل عليه وربما لا ينجو من الموت، فسمعت بناته ذلك فجعلن يبكين فقال لولده قل نهن يسكتن ولا ينحن، فان يوم الاربعاء تنقضى الحاجة، ثم أخذ فى النزاع، فلما أصبح أفاق فقال لى ناولنى تراب التيمم لاصلى صلاة الصبح، فتيمم وصلى الصبح، ثم غاب غيبة عظيمة، فأما كان وقت الزوال فتح عينيه، وقال اسندنى الى الحائط ثم اضجعت فاستقبل القبلة ليمتدد وتشهد ومات، ولم يتمكن من دفنه ذلك اليوم بل الى غده، كما قال، وظهر على وجهه اشراق وضياء .

(5) أبو محمد عبد الحق بن اسماعيل الخزرجى :

هو العازم العلامة المؤلف المتصوف المحقق صاحب كتاب القصد الشريف فى التعريف بصلحاء الريف، توفى أوائل القرن الثامن الهجرى وكان حيا بتاريخ 722 هـ.

وقد اختلف عن صاحب كتاب دليل المؤرخ فسماه محمد بن اسماعيل مع أنه أبو محمد كنية واسمه عبد الحق كما أشرنا .

مكانته العلمية: ومن خلال تأليفه هذا يعلم بابعه في علم الحقائق وغوصه عن المعانى الرقيقة، وإذا قال رأيا في المسألة قال قولاً سديداً، مع احاطته بما ورد في الموضوع، ولأجل الايضاح نأتى بجمل من نظرياتة في الجدل الذى يقع بين الائمة، ففى ميدان ما قاله الفيلسوف ابن سبعين المرسى فى: أن الروح الكلى هو جوهر بسيط يلتقى اى الاجسام البشرية من نوره ما تلقىه الشمس من شعاعها الى المرايا الصقلىة، وقد تبع فى ذلك أبا حامد الغزالي الذى تبع عبد الجليل بن موسى القصرى. قال عبد الحق وما قاله أبو حامد وعبد الجليل باطل، وقد استند قائله الى الحدس والتخمين ويتحقق بطلانه انه لو كان كذلك لما تميزت النفوس بعد موت الاجسام، ولا ترتب عليها حكم من ثواب وعقاب الخ...، ثم قال: والقائلون بالروح الكلى هم الفلاسفة، ولا دليل لهم على ذلك الا محض التحكم، وعندهم الاجساد لا تتعدد، وانما تتعدد الارواح، ثم قال الصحيح ان الارواح محدثة متعددة الاجسام، وانها باقية في البرزخ الى حين النشر فتقاد الى اجسامها وان ارواح السعداء منعمة واوراح الاشقياء معذبة الخ. وله تدخلات في مواضع دقيقة بعد نقله المستفيض لما ثبت في الموضوع من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية أو كلام طفاحيل العلماء في الميدان أى ميدان كان .

حياته العلمية والصوفية :

من خلال كتابه هذا تبين قدم الرجل في العلم وانصلاح، فقد ألف هذا انكتاب، كتاب «المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف»، في جزأين الاول يتضمن اصطلاحات الصوفية في علوم العقائد، ومراحل الصلاح مبنية على ما ورد في الموضوع من كتاب وسنة ورواية كبار الائمة وآرائهم المبينة على الشريعة .

وقد قسم كتابه الى أقسام ثلاثة، الاول في مقامات الاولياء وكراماتهم وما قيل في ذلك عن علماء الميدان، بعد أن يأتي بما يستدل به

على ذلك من القرآن الكريم وما ورد فيه من الاحاديث ثم أقوال القوم، وقد رتب هذا القسم على أربعة فصول، يذكر أول كل فصل المعنى اللغوي، ثم المعنى الشرعي ثم المعنى الاصطلاحي وهذه الفصول هي: الفصل الاول: الولاية، الفصل الثاني في الفقر والفقراء، يعنى انفقر الاصطلاحى الذى هو لزوم طريقة من طرق التصوف، الفصل الثالث فى التصوف واصطلاحه ومأخذه وكيفية ابتداء أمره الى غير ذلك، الفصل الرابع فى اثبات الكرامات للاولياء .

أما الجزء الثانى فقد خصه بتراجم العلماء والصلحاء الذين كانوا فى الجزء الشمالى من المغرب الذى سماه بالريف وعينه من سبتة الى تلمسان، وفى ضمن هذا الجزء يأتى بتكليف الحياة الاجتماعية: ذلك العصر مع ذكر اخبار استطراذية مهمة فى معرفة البيئة التى كانت سائدة وعلاقة بأدس مع الاندلس ورحالات رجال بادس الى المشرق وما شاهده هناك، وذكر علاقة رجالها مع الدولة المغربية الى غير ذلك، مما يستفاد منه من أحوال المغرب التى تأتى فى خضم التعريف بالصلحاء والعلماء، كما يستفاد منه ان للمؤلف مؤلفات أخرى منها ما سماه «بطبقات الاولياء» لم نعثر عليه الى الآن كما ذكر بعض مؤلفات لغيره .

وعلى كل فقد أتينا هنا بذكر هذه العائلة، لانها تتضمن سلسلة من الافراد انحدروا عن غرناطة وما ادراك ما غرناطة فى ذلك التاريخ، على أنه هناك من هو أشهر وأغزر عرفانا وصلاحا منها، ونحن هنا نضرب أمثالا فقط لما توخيناه من ذكر الحضارة التاريخية لهذا الجزء، ولا يمكن أن نستقصى كل شئ الا أنه سيأتى انكلام عن حياة أفراد العائلة مفصلا ضمن تراجم بعض رجال الشمال .

فمثلا نجد فيه قصصا فى مغامرة المجاهدين فى الاندلس، ولا تخلو تلك القصص من الطرافة والغرابة ذلك أنه جاء فيه أن المجاهدين كانوا يتعرضون للكلاب البوايس، فقد نقل عن أبى العباس احمد بن يحيى الزهيلي عن أبى على بن عمر الطنجى وكلاهما ممن عرف بهم فى الكتاب، قال: أى أبو على الطنجى توجهت الى الاندلس غازيا فخرجت فى سرية فدهمنا جيش عظيم فاسر من السرية أكثرها واستخفى بعضهم وكنيت

ممن استخفى^١ في شظية (الشظية ليست كلمة عربية فصحي والمراد هنا حفرة أما الفصحى كما في المنجد فتطلق على القوس وعلى عظم الساق وفاقا انعود) غير سائرة كانت رجالا بارزة منها، وما قدرت الا انى ماسور، قال فكانت خيل الروم — القصد من الروم النصارى على العموم كما هو شائع عند القوم — تمر بى فلا يرانى أحد منهم، ووقفت بالقرب منى جماعة ولهم كلاب أرسلوها للبحث، قال: فاقد أنت تلك الكلاب حتى لحست قدماى ثم انصرفت عنى فسترنى الله وكنت أقرأ سورة «يس» فلما جن الليل خرجت ومشيت فيسر الله على فى الحاق ببلاد المسلمين.

تأسيس مدينة بادس :

يبدو من نصوص بعض الكتاب أن تاريخ تأسيس مدينة بادس غامض، فقد قال الاستاذ المرحوم احمد المكتاسى مدير الخزنة العامة بتطوان سابقا في بحث القاء في مؤتمر الاثارات بفاس تحت عنوان «المدن الاسلامية المندرسة في الشمال» ان تاريخ تأسيس بادس يرجع الى زمن سحيق، وهى عبارة كما يبدو لا تقى بالمتطلب في تحديد هذا الزمن السحيق، ويتبادر الى الفهم انها مدينة ازلية أى قبل الفتح الاسلامى، مع أن عنوانه بنفسه يقتضى انها مدينة اسلامية أى تأسست فى احضان الاسلام، وهو على كل حال زمن غير سحيق .

وقرأت لبعض الكتاب فى جريدة الميثاق أنها تأسست بعد فتح جبل طارق عام 92 هجرية، أسسها أحد أمراء لواته وهكذا كانت العبارة أيضا غامضة شيئا ما، وقد يكون مرجع الغموض لدى هؤلاء الكتاب أنهم لم يعثروا على النص الصريح فى تاريخ تأسيسها ولا شخصية مؤسسها بالضبط .

الا أن الثابت تاريخيا، حسبما جاء فى تاريخ الترجمانة الكبرى (1) فى أخبار المعمور برا وبحرا لمؤرخ الدولة العلوية أبى القاسم الزياني، انها ثانى مدينة اسلامية تأسست فى المغرب بعد مدينة النكور، فقد قال:

(1) صحيفة 79 طبعة وزارة الانباء بالرباط بتاريخ غشت 1967 .

«وأما بعد ظهور الاسلام فأول مدينة بنيت بالمغرب مدينة (1) النكور، أسسها ادريس بن صالح الحميري عام ثمانين (هجريه)، وجهه حسان ابن النعمان الغساني أمير عبد المالك ابن مروان بافريقيا لفتح المغرب فنزل الريف وعليه اسلم قبائل لواتة وأقام بتلك البلاد وورثها أولاده من بعده إلى أن انتقلوا أعوام الفتنة إلى الاندلس» .

«ثم مدينة بادس أسسها أمير لواتة الذي كان مع ادريس بن صالح الحميري واسمه بادس عام تسعين هجرية ثم مدينة مليلية أسسها أمير يفرن الذي كان مع ادريس بن صالح واسمه أمليل عام 92 هـ» .

وعليه فان تأسيسها وتاريخه ثابت لا غبار عليه ولا يخدش في ذلك عدم ذكر اسم والد بادس مؤسسها، لانه يكفي أنه كان مع الامير ادريس بن صالح الحميري أي ممن آزروه من قواد لواتة وهي شعب من برابرة المغرب حسبما عند ابن خلدون حيث قال «وتفرع من البربر الاولى: المصامدة، البرانس، صنهاجة، كتامة، أوربة، لواتة، زناتة كما آزره أمير من بني يفرن فكانت الحكمة أن يحمي كل أمير منها جناحا من امارته فكان أمليل اليفرنى على الجناح الشرقى وبادس أمير لواتة على الجناح الشرقى فأسس كل منهما عاصمة امارته» .

أما بادس بن منصور بن بلكين الصنهاجي قائد العبيديين في شمال افريقيا فان دولة العبيديين الذين يدعون بالفاطميين والشييعين لم تقم الا سنة 868 ميلادية أي في النصف من القرن الثالث الهجري، وان بادس هذا تأخر كثيرا عن تاريخ قيام الدولة، ذلك أن جده بلكين كان قواد حملة في زمن قائد الفاطميين جوهر الصقلي أحد قادتهم العظام انذى احتل مصر وبنى القاهرة باسم المعز العبيدي الفاطمي قادها ضد المتأخرين من الادارسة الذين كانوا تحصنوا في قلعة حجرة النسر بشمال المغرب، وبالضبط عند تولية أمر الادارسة الحسن بن القاسم المعروف بكنون، حسبما جاء في تاريخ ابن خلدون .

ومن المعروف أن مولاي ادريس اثناني توفي عام 213 هـ ،

(1) سبق الكلام مستوفى عن هذه المدينة .

فقامت أمه كنزة البربرية الاوربية وقسمت اقاليم المملكة المغربية على أحفادها وان عمران ولد مولاي الادريس اختص ببادس كما جاء في تاريخ الدرر السنية في السلالة الادريسية للثرييف سيدى محمد السنوسى الخطابى، وعزیه فانه بتاريخ 213 هـ. كانت بادس موجودة ومعروفة .
فاذا كان بلکین جد القائد بادس الصنهاجی تأخر الى أواخر الادارسة، فان حفيده بادس يكون قد تولى أمر الفاطميين فيما بين 387-406 هـ.

وفى هذا التاريخ كانت بادس عامرة وكانت معروفة بهذا الاسم، أما بادس بن حبوس أمير غرناطة فهو مستبعد بالدرجة الاولى عن اعتباره له يد في تأسيسها أو تسميتها لانه لم تكن له علاقة مع المغرب، عكس الصنهاجيين الذين آزرُوا الفاطميين الى آخر حياتهم التى امتدت قرابة ثلاثة قرون، وكان لهم في المغرب بالذات صراعات وجولات وبالاخص مع الادارسة الذين وان كانوا أهل بيت النبوة وان الفاطميين قامت دولتهم حسب الظاهر للتشيع لآل البيت، الا ان هذا الصراع مع الادارسة أفادنا بأن المذهب الذى اعتنقوه كان لاجل الاستيلاء على أقطار شمال افريقيا فقط، وانهم لم يتأخروا ان يسفكوا دم المتشيع لهم، فقد جردوا لهم حملات متعددة تارة بقيادة العدو اللدود للادارسية وهو موسى بن أبى العافية الكناسى (من مكناسة تازا) وتارة بقيادة قائدهم على تهرورت بالجزائر مصالة بن حبوس .

ثم لما طمع موسى بن أبى العافية فى الاستبداد بالمغرب والولاء لعبد الرحمان الناصر لدين الله سيروا اليه حملة تحت قيادة حميد بن يصلتين الكناسى أيضا فاذاقه هزيمة لم تقم له قيامة من بعده، وذلك بتاريخ 321 هـ.

وهنا نرى أن الادارسة خضعوا بولائهم للعبيدين وانضموا الى قائدهم ميسور الخصى .

وعلى كل فان المغرب كان مسرحا لصراعات عنيفة، وكان امرؤه من الادارسة ينقلبون وبالاخص عندما ضعف أمرهم لما تحصنوا بقلعة حجر النسر فى عهد يحيى بن ادريس بن عمر بن مولاي ادريس سنة

309 هـ. الى عهد ابراهيم بن محمد القاسم فتارة يدينون بالولاء للامويين بالاندلس وتارة يُفاطميّين، فاذا خطبوا للامويين كانت الحملات ضدهم غير رحيمة، ولا يتقيد الفاطميون بشعار التشيع لآل البيت .

وكان المغرب يتأثر بهذا الشعر أيضا حتى أننا نجد أحد المتصوفة من رجال بادس، وكان يدعى احاج العباس الكميلى (من قبيلة كميل الريفية) حاول بتاريخ 685 هـ. اقامه نظام شيعى فى اريف تابع لفاطميّين، فاستولى على قبائل صنهاجة بادس، واحتل هذه المدينة نفسها ثم جمع جموعه وحاول اخضاع مدينة المزمة التى كانت توجد بقبيلة بنى ورياغل بساحل جزيرة النكور (الحسيمة) وهناك قتل فى 20 صفر الخير عام 686 هـ. وجز رأسه وبعث به الى مراكش عاصمة المرينيين زمن السلطان أبى يعقوب يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق، فعلق ابرأس بباب مراكش مع رأس أبى عامر عبد الله بن محمد بن على بن محلى البطيوى القائم بمراكش، أما جثته فقد صلبت بباب المزمة، كما سبق .

أما مساحة هذه المدينة أى بادس فاننا نجد أيضا قصة طريفة فى مخطوط المقصد الشريف تعطينا نظرة تقريبيه عن المساحة البنية فى أواخر القرن السابع الهجرى .

ويستفاد من القصة أن المدينة كانت عبارة عن حوائى 320 دارا، ذلك أنه فى هذا التاريخ كان يعيش فى بادس العالم الجليل التقى الورع الصالح وهو يوسف بن محمد بن عبد الله أزهينى المعروف «بأبى يعقوب البادسى أصله من غرناطة» انتقل اسلافه الى بادس للاغراض السالفة الذكر، وكان صوفيا وعالما متبحرا قرأ أنقرآن على العالم القاضى اسماعيل الخزرجى المذكور آنفا وقرأ العربية والأدب واللغة على الاستاذ أبى القاسم الاندلسى وقرأ الرسالة وتهذيب البرادعى على انشيخ أبى زكرياء المدفون ببقية، وقرأ ببادس تهذيب البرادعى على الفقيه العلامة أبى ابراهيم الاعرج الورياغلى جد الشرفاء الغلبوريين بالريف ورحل الى فاس، وقرأ موطأ الامام مالك على قاضيه وامام الفرخين فيها الفقيه المزدغى، ثم عاد الى بادس وظهرت عليه مخايل العرفان فى التصوف، حتى عرف بالولاية واصلاح، ألف فى مناقبه قاضى الجماعة بفاس الشيخ الامام أبو عبد الله محمد الأورابى المتقدم الذكر .

ومفاد القصة التي تروى عدد ديار بادس أن تلامذة أبي يعقوب ابيادسي الذين كانوا يجانسونه للاستفادة منه عما وعملوا قالوا انه قال لهم ذات يوم (ان اولى يشفع في أربعين دارا امامه واربعين خلفه وأربعين عن يمينه وأربعين عن يساره) ففهموا أن انقصد من الولي هو نفسه بالذات، متسابقوا لعد ادور فالفوا أن ديار مدينة بادس كلها داخلة في شفاعته. وهنا يؤخذ من انقصه أن أصحابه لو عرفوا أن الديار عن جهاته الاربع أقل من أربعين فبالضرورة لا يتسابقون لعددها، ولكن عندما اشتبهوا في كثرتها ازالوا الثلث بالعد .

وبالطبع فان العملية الحسابية التي تعطى النتيجة هي أن كلا من النخطين العمودي والافقي يتكون كل واحد منهما من 160 دارا، فاذا أضيف إلى ذلك اديار التي يشغل الاضلاع التي بين العمودين، تكون اديار لا تقل عن 320 دارا، على أن الاضلاع تتسع لأكثر عند وسط ورأس العمودين. أما المرافق الاخرى التي تتوفر عليها كل مدينة متحضرة فانها متوفرة أيضا في بادس وكان فيها الجامع الاعظم الذي كان مقر التدريس وملتقى الرواد من علماء الاندلس وفاس وسبتة وغيرها من مدن المغرب، ويوجد كثير من النصوص في المخطوطات التي تكفلت بحياة الصحاء والعلماء الذين عاشوا في مختلف الاحقاب في المدينة، فمثلا قال المؤلف أبو الحسن علي المراكشي أصلا البادسي قرارا في مخطوطه الذي ألفه في مناقب شيخ زمانه الحاج حسون البقيوي الادوزي، قال: «انني كنت جانسا بمدينة بادس أيام اقامتي بها عند الشيخ الابري الولي الصالح أبي محمد عبد الله التستوري في جامعها الاعظم، وكنا نتكلم مع أهل بادس عن كرامة الاولياء .»

وجاء في مخطوط مناقب أبي يعقوب البادسي، قال: «أبو الحسن على خديم الشيخ ان والده كان في المسجد الجامع ببادس جالسا مع سارية من سوارى المسجد والشيخ أبو يعقوب جالس مع الحائط» الى غير ذلك من النصوص وذلك لان المسجد الاعظم لا يتوفر عليها الا المدين المتحضرة والا فهناك مساجد أخرى مثل مسجد المقبرة وغيرها .

كما كانت تتوفر على دار للصنعة التي توسعت طبق حاجة العمران

حتى شملت رباطة، كانت تدعى رباطة ساحل البحر، ففي مخطوط المقصد الشريف، «كان أبو يعقوب انبادسى يتعبد في الرباطة التي على ساحل البحر خارج المدينة وهي التي ادخلت الآن بدار الصنعة» .

كما كانت تتوفر على قلاع مثل قلعة صنهاجة ورباطات للمجاهدين والانتقاء، وكانت توجد في هذه المنطقة رباطة أم ايمن انشأتها امرأه سالحة، ولذا دعيت بها، ورباطة تمدي (وكلمة تمدي تعني انسر في اللهجة المحلية)، ورباطة ساحل البحر، ورباطة لالا منانة انشأتها هذه المرأة الصالحة، ورباطة الزمة ولا زالت اتي الآن تسمى بمسجد المجاهدين قبالة جزيرة النكور، ورباطة أبي داود، انشأها شيخ زمانه أبو داود البليدي التمساني، وله ضريح مشهور، ورباطة النكور، ورباطة الصيد ورباطة حجارة السودان، الى غير ذلك، ذلك أن شواطئ البحر كانت مملوءة بهذه الرباطات للعبادة والحراسة من طرق العدو البحري للشواطئ .

ولتوضيح تلك المرافق عدا المسجد الاعظم نذكر هنا مقتطفات من تلك المخطوطات التي ذكرتها .

مسجد المقبرة : وكان فيها مسجد آخر يدعى مسجد المقبرة، ومن الاضافة يعلم أنه كان بمقبرة بادس ففي «المقصد الشريف» وكان على بن محمد الفعجة اماما لمسجد المقبرة .

قصة بادس : وكان فيها قصة تدعى قصة بادس كان محلا للتجارة والعمران، ففي المقصد الشريف وحدثني بعض تلامذته أنه قال وجهنا الشيخ أبو عبد الله (اليستثنى) رحمه الله الى بادس لنشتري له زيتا، فقال اقصدوا بقصة بادس تاجرا اسمه موسى بن عطار فاشتروا منه جرة زيت اشبيلي هي عنده في قعر مخزن حانوته .

قلعة صنهاجة : ففي مكان آخر من المصدر نفسه قال «فلما كان وقت العصر نادى مناد على جبل العقبة المشرقة على بادس من جهة قلعة صنهاجة» .

دار الصنعة : كما كانت فيها دار للصنعة توسعت على ممر السنين بمقتضى الحاجة اذ دخلت فيها رابطة الساحل، ففي المصدر نفسه «بالرباطة التي على ساحل البحر خارج المدينة وهي اتي ادخلت الآن

بدار الصنعة»، فيقتضى هذا النص دار الصنعة كانت خارج المدينة، حيث تكون بعيدة عن السكان، خوف اذابتهم واحتراما للسكنى .

رباطات المجاهدين على شواطئ البحر المتوسط :

ببادس لم نعر في كتب التاريخ الا على ثلاث رباطات، الاولى رباطة ساحل البحر، الثانية رباطة أم ايمن، الثالثة رباطة تسمى تخص ببادس فالاولى كانت على ساحل البحر، وهى التى ادخلت بدار الصنعة وكان يتحنث فيها الشيخ أبو يعقوب البادسى بعد رجوعه من فاس واستقر ببادس، فكان يختبئ فيها ويتصوف، ويقضى فيها الايام موحدا ربه الى أن لاحت عليه بوارد الحق، واعتزته الحقائق الباطنية .

أما الثانية فكانت أيضا قرب البحر، ولها غرف كان يتعبد فيها العالم المؤايف أبو الحسن على بن محمد المراكشى .

وأما الثالثة رباطة أم ايمن، فانها انشأتها امرأة صالحة تدعى أم ايمن فنسبت اليها، وكانت فوق الجبل المطل على ساحل البحر المدعو ساحل مكرم .

وحدث عن الشيخ الصالح الرضى ابن العباس احمد بن سوسان انه قال: كان من عادة عباد بقبوة، وصلحاتهم ومشايخهم أن يجتمعوا ليلة النصف من شعبان وليلة سبعة وعشرين من رمضان وليلة عاشوراء فى الرباطة المعروفة بأم ايمن الكائنة فوق الجبل المطل على ساحل مكرم وهى رباطة فاضلة أمرت ببنائها امرأة صالحة اسمها أم ايمن فعرفت باسمها .

وعدا هذه الرباطات الثلاث فانه كان على طول ساحل البحر الممتد من بلاد الريف الى سبتة رباطات أخرى كانت بمثابة مركز حراسى يربط فيها المجاهدون الصالحون لمراقبة أنفسهم ولمراقبة العدو المباغت بحرا .

وكانت القرصنة البحرية التى توجه غاراتها ضد البلاد لنهب المال وأخذ الاولاد تجوب خلال المراسى وقد أسس رباطة بتمسمان الشيخ

الصالح أبو داود البلبندى (1) وكن هذا الشيخ من تلاميذ أبى مدين، ولما رجع من عنده الى بلده بتمسامان بنى هذه الرابطة .

وكانت اذ ذاك تدعى بنى ورتدا وكان موضع داره يدعى باحلاس على ساحل البحر الذى كان يدعى ساحل تيقلال، بنى على ساحل البحر بتقلال رباطة بينها وبين المزمة خمس فراسخ، يتحنث فيها مع أصحابه وتلامذته، وكانت فى مكان مخوف من عدو ابهر المقاتل للمسلمين (2) .

وحدث عن أبى عقيل حفيد ابن داود قال: سمعت جدى الحاج ابراهيم يقول سمعت جدى الشيخ ابا داود يقول: كان موضع هذه الرابطة يعنى الرباطة التى أقام بناءها ملكا لبعض جيراننا فكنت أصلى فيه فاذا جاء ربه وجد فيه محرابا مبنيا، فيقول لى يا أبا داود من حل لك أن تبني محرابا فى أرضى بغير أذنى، أتريد أن ترد أرضى مسجدا، فأقول له ما بنيت ولا أمرت به فيهدمه وينصرف، فلما طال عليه ذلك وعلم صدقنى قال لعل الله أراد أن يكون فيه مسجد، قد وهبته له، قال فبنى فيه أبو داود الرباطة المعروفة له التى اتفق له فيها مع النصارى القصة الآتية وانفق فى بنائها بالآجور والخشب الطيب وصرف مالا جسيما اعانه فيها رجال صالحون ميسورون نفهمهم الله بذلك .

ومن هذه الحكاية تظهر فوائد هذه الرباطات، فكما كانت محل عبادة وخلوة، كانت مركزا حراسيا يحرس فيها هؤلاء الصالحون طوارق البحر حتى لا يباغتهم العدو اذى كان يأخذ أبناء المسلمين لبيعهم فى الاقطار الاخرى، أو لتحصيرهم أو لتدميرهم على الملاحه والصوصية، ورغم أن كثيرا ما يعتمد المتجردون للعبادة فى تلك الرباطات على التكرامات وطرق العوائد، الا أنه لا يخلو وقتهم من فض الحسام والدفاع عن جورة الوطن. أما القصة التى اتفقت لابى داود فى رباطته هذه فان حفيد حفيده ابا عقيل (وسياتى التعريف بالجميع) قال: حدثنى من مشيخة أهلى

(1) يوجد فى مدشر كزناية من قبيلة فحص طنجة عائلة من تمسامان لا زالوا الى الآن يدعون بالبلبنديين .

(2) المقصد الشريف للتعريف بصالحاء الريف .

وجيرانى وحدثنى جدى الحاج أبو اسحاق ابراهيم بن عيسى بن أبى داود، وكان (أبو اسحاق) أدرك اباداود، وقال استفاض عندنا ما اتفق لأبى داود مع اعدو البحرى قصمه الله، وذلك كان الشيخ أبو داود بات ليلة من الليالى فى رباطه فحبسه العدو بها، وتحمل أسيرا فى سلورة للروم، فلما حاولوا المسير به توقفت السلورة، فما زالوا كذلك حتى أصبجوا وهم فى موضعهم الذى كانوا فيه حين تحمل الشيخ فقانوا له: قم فانزل فأنت طالق، قال لهم لا أنزل حتى تخلوا سبيل كل اسير عندكم من المسلمين، ففعلوا، ثم راموا الحركة بالسلورة فلم تتحرك، فأشاروا انيه بالضرعة والتذلل أن يخلى سبيلهم فأشار اليهم أنه قد بقى فى سلورتكم عماى، وقيل نعلاه، فلما ردوا عليه عماه أو نعله نهض جفنه (1).

ثم قال أبو عقيل وما زال الشيخ أبو داود يتعبد فى رباطه حتى مات وحفيده الحاج ابراهيم، وما رأينا فيها قط عدوا بحريا يتسوغ عليها، وهى ظاهرة يراها كل من هو على الساحل، قال ويظهر أن أسر الشيخ أبى داود، انما كان فى حق من استقر فى تلك السلورة أسيرا من المسلمين، حتى خلصهم الله ببركته، وهذه الرابطة فى قبيلة تمسامان ولا زالت الى الآن تدعى الرابضة وهى قرية من قرى آل بوداود الى الجهة الموالية نوادى النكور على ساحل البحر، وهى قريبة لمدينة المزمة التاريخية بمالا يزيد عن خمسة فراسخ، أما سيدى أبوداود، فانه مدفون بتمسامان وقد سميت الفرقة التى دفن فيها بآل بوداود الى الآن وضريحه مشهور ثمة، وسيأتى التعريف به .

موضوع الرابطة نفسه أقيم فيه مسجد الرابضة وعندما أسس المسجد على انقاضها كان العملة يعثرون على آجور وجير ابناء الاول .
رابطة المزمة : وهذه الرابطة حولت الآن الى مسجد ويدعى

(1) الجفنة فى المنجد: القطعة الكبيرة ومنها أخذ الجفن للزورق وهو الذى عبر عنه بالسلوة وهى بكسر السين المشددة وفتح اللام كذلك مع سكون الواو، ان الكلمة أخذت من اسم سمك قال فى المنجد السلور اسم سمك بحر .

مسجد المجاهدين، هى بهضة على رأس المزمة قبالة جزيرة انكور التى تسامتها، وفى أسفل قرية أجدير وقد كان الموضع مهما جدا، لكونه بقرب جزيرة انكور، ومنه كان الاهالى يراقبون حركات الاسبان فى جزيرة النكور، وكان صلحاء بنى ورياغل يرابطون فيه ليل نهار، وحتى فى المدة الاخيرة لما كانت الحروب منشوبة بين الاهالى والاسبان، كانت الحراسة فيه متناوبة بين المجاهدين، وكان انزعيم ابن عبد الكريم يحشر اليها فقراء الطرق لبحراسة فيه ومن امتنع منهم يخرج أعوانه من طائفهم فلا يجد مقاما بينهم .

أما الآن فأصبح على حسب العادة الموروثة عندهم تقام حفلات دينية بمناسبة عاشوراء والمولد النبوى الشريف، ويقصده القبائل المجاورة، ومع الاسف فقد اختير الموضع أخيرا لاقامة نادى البحر الابيض للسياحة مما عفى صلاحه ومكانته .

رباطة للامنانة : وفى عهد بادس كانت هناك ما بين موضع انحسيمة الآن وبادس قرية عامرة ومرسى لسوق المراكب منها الى الاندلس، وهى غير بادس وغير المزمة وهى بمقدار خمسة أميال بحرا من الحسيمة وتدعى هذه القرية بوسكور وليست هى مدينة النكور التى التبتت على البعض، فقد قلّد صديقنا الاستاذ احمد المكناسى الامير شكيب أرسلان فى الحلل الهندسية فقال: «ان بوزكور كانت مدينة فيما سلف لكنها خربت ولم يبق لها رسم وتسمى فى كتب التواريخ «نكور»، وهذا غلط عن شكيب أرسلان تبعه فيه الاستاذ احمد المكناسى مدير الخزانة العامة بتطوان سابقا، والواقع أن بوسكور موضع آخر قرب بادس، وبعيد عن النكور بحوالى 30 كم، وبوسكور مرسى على البحر بين حافات بقوة، أما مدينة النكور فهى بعيدة عن البحر بحوالى 15 كلم تقريبا، وتقع فى قبيلة بنى بوغياش والحقيقة أن الذى ذكرها هو الشريف الادريسى فى نزهة المشتاق، اذ قال: «ومن بوزكور الى المزمة 20 ميلا، وكانت قرية عامرة ومرسى توسق منها المراكب» .

وتوجد شرقي بوسكور قمة عالية كانت فيها رباطة تدعى رباطة

للامانة، ولا زالت معروفة بهذا الاسم الى الآن، وهى فى علو شاهق داخل فى البحر مشرف عليه اشرافا تاما .

وبوسكور هكذا بالسين، وليست باذراى كما جاء فى الحلل السندسية نقلا عن نزهة المشتاق، وقد كانت قرية عامرة بين بادس والمزمة، ولا زال الموضع يعرف بهذا الاسم الى الآن، وهى غربى مدينة الحسيمة الآن بحوالى 10 كم بحرا، وليست هى مدينة النكور كما ذكر فى المصدر نفسه (1) نقلا عن نزهة المشتاق للادريسي .

وتقع مرسى بوسكور أسفل قرية تدعى الآن التسولاين، وانما سميت بذلك لانها مسكونة بقوم أتى جدھم الذى يدعى محمد بن عبد العزيز من قبيلة التسول بأحواز تازة .

ونلقية عادة فى الصيف يقيمون فى مرسى بوسكور حفنة الصيف، ولعل هذه العادة موروثه عن أهل بوسكور، لانها كانت قرية عاصرت مدينة بادس، وكان بها مسجد قديم لا زال قائم الاثر، وقد عثر البنائون عند ترميمه عن قرمود قديم، كما توجد آثار لصومعة فى موضع يدعى الخندق، وهذه الصومعة لهم تكن للمسجد الاول، بل تدل على أنه كان هناك مسجد آخر بالخندق ويدعى الخندق الاسفل كما يوجد هناك خندق آخر يدعى بالخندق الاعلى .

وهناك ضريحان اثنان، احدهما يدعى بسيدى يعقوب والثانى لولده يدعى الحاج داود وهما شريفان بقاليان، ترك الثانى ولدا هناك يدعى الحاج ياسين، وفى شرقى بوسكور جرف يدعى بجرف الجمل وفى أعلاه، تقع رباطة نلا ميمونة، وهى قمة كما أسلفنا داخلة فى البحر يصعب الصعود اليها .

رباطة النكور : وعدا سواحل البحر فكانت توجد أيضا محل الرباطات يقوم فيها حراس المدينة ففى قرية الرابضة من بنى بوغياش، (وهى مسقط رأس عائلتنا) كانت توجد رباطة تدعى الى الآن أم الرابضة وهى فى أعلى قمة بالجنوب الغربى لمدينة النكور التاريخية،

(2) من الحلل السندسية صحيفة 69 طبعة فاس .

وتشرف هذه الرابطة على سهول النكور جميعاً، كما تشرف على هضبات بنى توزين وتمسامان وغيرها، بحيث أن الحراسة ثمة يمكن لها أن تطلع على ما يجرى في الجهات الأربع لمدينة النكور، وكانت على خط الطريق الذي يربط بين مدينة النكور والجنوب ماراً في أعلى قمة جبل حمام وبنى عمرت إلى فاس .

وهكذا كانت رباطات على السواحل والمواقع الهامة من البلاد حتى تصل إلى سبتة فنجد ثمة أيضاً رباطات منها :

(1) رباطة الصيد : فقد حدث الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن الصبان عن أبيه قال أنه كان من أهل مدينة فاس فانتقل منها مرتحلاً إلى المشرق ثم رجع من المشرق فاستوطن مدينة سبتة إلى أن مات بها، قال ابنه المذكور كنا معه يوماً في رباطة الصيد وجماعة من الناس قد حضروا فقال أن العوام في البحر يجمعنا فقال الحاضرون سمعنا وطاعة فنزلنا إلى البحر وعمنا الخ. (1)، وذلك أن أحدهم كان جنباً فأراد بالعوام في البحر أن يغتسل الجنب .

(2) رباطة حجارة السودان : وكان بات ذلك الفقير ليلة وروده برباطة حجارة السودان خارج البلد (2) .

الاندلس تحيي بادنس :

ان علاقة بادنس بالاندلس كانت وثيقة كما أسلفنا، فالمراتب ذات الشراع الأبيض تأتي بحركة بين العدوتين محملة من هنا وهناك بالسلع والمجاهدين، فالزييت الاثبيلي الجيد مما يستورد إلى بادنس ومعجون الترنج كان يتهدى به الاصحاب والخلان، فقد حدث الشيخ أبو الحسن ابن ماخوخ قال: كان بين الشيخ ابن عبد الله (اليستثنى) وبين الشيخ أبي اسحاق مراسلة ويرسل بمعجون الترنج (3)، والمجاهدون يفدون إلى الخطوط الامامية لاجل انجهد في العدو وربما تعرضوا للكلاب

(1) المقصد الشريف للتعريف بصالحاء الريف للمؤلف عبد الحق الخزرجي.

(2) المصدر نفسه. (3) المصدر نفسه.

البوليسية، كما رحل الى بادس كثير من العلماء والصالحين ولهم فيها مقام حسن سنأتى على التعريف بهم فى محله ان شاء الله.

أما التحية التى أرسلتها الاندلس مدوية صادقة تحمل الاشواق اليها، فهذه القصيدة الرنانة التى تعد من روائع لسان الدين ابن الخطيب، ذلك البلبل الصداح أنقى غنى بشعره ونثره منتقلا من غصن الى غصن، متخيلا الاغراض الشقيقة، فقد قال فى مدينة بادس : (1) .

عسى خطرة بالركب يا حادى العيس (2)
على الهضبة الثمراء من قصر بادس
لنظفر من ذاك الزلال بعلة
وننعم فى تلك الظلال بتعريس (3)
حبست بها ركبى فواقا (4) وانما
عقدت على قلبى لها عقد تحبيس
لقد رسخت أى الجوى فى حوانحى
كما رسخ الانجيل فى قلب قبيس
بميدان جفنى للسهاد (5) كتيبـة
تغير على سرح الكرى (6) فى كراديس (7)
وما بى الا نفحة حاجرية
سرت والدجى ما بين وهى وتغليس (8)
ألا نفسى يا ريح من جانب الحمى
تنفـس من نار الجوى بعض تنفيس
ويا قلب لا تلق السلاح فربما
تعذر فى الدهر اطراد المقاييس

(1) أزهار الرياض. (2) الابل البيضاء يخالطها سواد خفيف الواحد العيس والواحدة عيساء (3) عرس القوم نزلوا فى السفر للاستراحة ثم يرتحلون. (4) ما بين فتحة اليد وضمتها على الضرع. (5) الارق. (6) النوم. (7) طائفة عظيمة من الخيل. (8) ظلمة آخر الليل.

وقد تعتب الايام بعد عتابها
 وقد يعقب الله النعيم من البؤس
 ولا تخش لـح الدمع يا خطرة اكرى
 الى الجفن بل قيسى على صرح بلقيس
 تقول سليمان ما لجسمك شاحب ؟
 مقالة تانيب يشاب بتانييس
 وقد كنت تسطو كلما هبت الصبا
 بريان فى ماء الشبيبة مغموس
 ومن رابح الايام يا بنت عامر
 يجوب الفلا راحت يداه بتفليس
 فلا تحسبى والصدق خير سجية
 ظهور انوى (1) الا بطون النواميس
 وقفراء أما ركبها فمضلل
 ومربعها (2) من آنس غير مأنوس
 سنحننا بها من هضبة لقرارة
 ظلالا وملنا من كناس (3) الى خيس (4)
 اذا ما نهضنا عن مقيل غزالة (5)
 نزلنا فعرسنا بساحة عريس (6)
 أدربنا بها كأسا دهاقا من السرى
 املنا بها عند الصباح من الروس (7)
 وحانة خمار هدانا لقصدها
 شميم الحميا (8) واصطكاك النواقيس

-
- (1) البعد. (2) محل الربيع انذى ترعاه الابل وغيرها. (3) عرين الضباء
 الوديعه. (4) عرين الاسد الشرسة. (5) الشمس عند ارتفاعها.
 (6) نزلنا للاستراحة ثم ارتحلنا. (7) المشى بالتبخر (8) صورة
 الخمر أو الخمر نفسه .

تطلع بانيتها من جداره
يهيم فى جنح الظلام لتقديس
بكرنا وقلنا اذ نزلنا بساحة
عن الصافنات (1) انجرد والضمير العيس (2)
ايا عابد الناسوت انا عصابة
اتينا لتثليث بلى ولتسديس
وما قصدنا الا المقام بحانسة
وكم البس الحق المبين بتلبيس
فأنزلنا قوراء (3) فى جنباتها
محاريب شتى لاختلاف النواميس
بدرنا بها طى الختام بسجدة
أردنا بها تجديد حسرة ابليس
ودار العذارى بالمدام كأنها
قطا (4) تنهادى فى رياش الطواويس
وصار فنانيها نضادا بمثلها
كأننا ملأنا الكأس ليلا من الكيس (5)
وقمنا نشاوى عندما متع الضحى
كما نهضت غاب الاسود من الخيس (6)
فقال : لبيس المسلمون ضيوفنا
أما وأبيك الحبر ما نحنن بالبيس (7)
وهل فى بنى مثواك الا مبرز
بحلبة شوى أو بحلقة تدريس

-
- (1) الصافنات من الخيل التى تقف على ثلاث قوائم. (2) الابل البيضاء
يخالطها سواد خفيف. (3) الخيل الضامرة من التعب. (4) انحامام .
(5) العقل والظرف. (6) العرين. (7) لا يقال فى حقنا بيعس القوم .

إذا هز عسال (1) اليراعة فأتكبا
أسال نخيع (2) الحبر فوق القراطيس
يقطب تحت النقع (3) مقلة ضاحك
إذا التقت الأبطال عن مقل شوس
سبيناً عقار الروم فى عقر خاننا
بحيلة تمويه وخدعة تدليس
لئن أنكرت شكلى ففضلى واضح
وهل جائز فى العقل انكار مجوس؟
رسبت بأقصى الغرب ذخر مظنة
وكم درة علياء فى قاع قاموس (4)
واغریت نفسى بالعذيب وبإداس
على وطن دانى الجوار من أسوس

هذه هي القصيدة الرائعة التي حيا بها لسان الدين ابن الخطيب هذه المدينة التاريخية وقد أحسن فيها واجاد، وغاص على ذرر البلاغة فيها وأفاد، وقد انتقى المقرئ هذه القصيدة فى ازهار الرياض وعزق عليها فقال: قال بعض الاعلام شعر ابن الخطيب ما بعده مطمع لطامع، ولا معرج على شاعر بعده للأذان والمسامع، فمن ذلك قوله سامحه الله: (واتى على القصيدة برمتها) فالقصيدة تعبير صادق لما كانت عليه المدنية من عزة واكبار فى أعين الانطلسيين، فهضبتها شماء — أى منيعة — وعزيزة، لأنها وعرة المسالك، ولكن بالرجال الأشداء الذين تحصنت بهم من حاملى السيوف والاقلام والصلاح معا .

لذلك فانه يترجى أن ينهل من معين عرفانها وصلاحها ولو بعلقة،
— بفتح العين — ما يتعلل به وان ينزل تحت ظلال السيوف أو الفلاح
ولو آخر الليل .

-
- (1) رمح يهتر لنا كناية هنا عن القلم. (2) نزع العود جرى منه الماء.
(3) الغبار المتطاير من القتال. (4) البحر .

ثم تحسر على أنه لم يحط بها ركابه الا فواقا — بضم الفاء وفتح
الواو — ما بين فتح اليد وضمها على الضرع وهو كناية عن أن الوقت الذى
قضاء فيها قصير، ولو كانت أياما، لان ذلك بالنسبة لمزاياها لا يستكثر،
الا أنه سلى نفسه بأنه حبس قلبه، فالتحبيس لا يبدل ولا يغير، ثم ذكر
الباعث على التحبيس والنتائج الملموسة للتحبيس اذ رسخت آى الجوى
بجوانبه، ثم استغاث فى تضرع المحب وتذلل الا نفس ياريج من جانب
الحمى، ومع ذلك فقد قوى من عزائمه وترك اليأس جانبا، شأن المثبث
الصارم كى لا يدخل اليأس الى نفسه فتتهار معنوياته، ويا قلب لا تلقى
السلاح وربما تعذر فى الدهر اطراد المقاييس، وضرب لاقتناعه أى القلب
حكما وأمثلة مما لا ينكرها، وأمره بالتأسى بقوله «تعالى ادخلى الصرح»
مع ما فيه من تشبيه بادس بصرح بلقيس، ثم رد ردا منطقيا صارما على
بنت عامر، التى تزيد فى تجريك ما كمن من نار الجوى اذ تذكره بالشحوب
وتغير اللون، فشرح لها أى عزة هى التى يشتملون عندما ينحدرون من
الكناس — أى موضع الضباء الوديعه — الى خيس الاسد — أى عرينها —
ليعرسوا بعريسها، فأى فخار هذا وأية سعادة تلك، حينما يتبادلون السرور
كوؤسا دهاقا، ثم ما شئت من وصف بارع لحالة السرور التى صاغها فى
الفاظ لم يرد منها الا التعبير الصادق لتلك الحالة، فالتثليت والتسدیس
والعذارى والمدام والنواميس ونشأوى، كل ذلك أضفى صورة بليغة ممتعة
لحالة الابتهاج والانس بالاقران فى ميدان الصفاء، ثم ابان عن تلك المعانى
اللغوية فى صراحة واعتزاز «وهل فى بنى مثواك الا مبرز — بحلقة ثورى
أو بحلقة تدريس»، ابان أن الرفاق من عليه القوم من ايوان حكم أو شرف
علم وصاحب قلم، لان المدينة ليست الا مأوى لامثال هؤلاء القوم فانكار
صورة لا تزيح عن صاحبه فضله كوقوع اندر فى البحر لا ينقص من
قيمتها .

ومع ذلك فانه لا يزال يغرى سجيته ويمنيها عن هذا الوطن بالبارق
والعذيب، أى يغريها بمواضع أخرى محبوبة عندها حتى تتأسى عن الوطن
القريب من سوس .

وأنت ترى أية تحية هذه التى أرسلها، وأى وصف هذا لهذا المعقل

الحصين من هذه العدو المباركة، ويرجح أن يكون صدرت عنه بفتح القرن الثامن لأنه توفي سنة 706 هـ.

ابن سبعين الفيلسوف بياس :

اسمه عبد الحق ابن سبعين المرسى من مرسية بالاندلس، ولد سنة 614 هـ. وتوفي سنة 669 هـ. وكان باديء ذى بدء تصوف فاستقر بسبته وشغفت به امرأة موسرة فتزوجها وبنت له زاوية فى داخل دارها وانفقت عليه أموالا طائلة، ثم أنه اشتغل بالفلسفة، وكان له باع طويل وبالاخص أن عهد الموحيين كان حافلا بالعلوم والفنون، وكس المغرب (1) من الاقطار التى يفرع اليها فى مشاكل الفلسفة، فكان ابن سبعين هذا بمن برز فى افلسفه واحرز قصب السبق حتى ان عماء سبته ندبوه للجواب على سؤال ملك ايطاليا فدرىك الثانى الذى رفعه الى علماء سبته فى مسائل فلسفية، فانتدب للجواب عنها وكان يعتبر اذ ذاك من الفلاسفة المسلمين الكبار، فألف كتابا سماه المسائل العقلية، وقد اشتمل على 19 صفحة، وتوجد منه نسخة خطية فى اكسفورد وألف كتابا آخر سماه الفقرية (2) قال فيه «انفقير ليس متصلا بالعالم ولا منفصلا عنه ولا داخلا فيه ولا خارجا عنه» وقد شيع عليه عاماء الوقت فى ذلك، لان هذا الكلام لا معنى له كما اعترض عن الغزالى فقال انه مضطرب وعاب عن ابن سينا، بأنه حائر وقال ان اتصوف لم يدركه احد ممن سلف .

نفية عن سبته : وفى أثناء اشتغاله بالفلسفة بسبته. قام أعداؤه بالوشى به عند حاكم المدينة ابن خلاص طاعين فيه من حيث علاقته بالمرأة المثرية، ومن المعلوم أن الفلاسفة يعيشون فى عالم من حرية التفكير وربما يسخرون من العالم المادى وربما اطلقوا لسانهم العنان ليعبر عن تلك الافكار، فاذا بهم أمام مصاعب متأفة .

وذلك ما وقع لهذا الفيلسوف المتبحر، ووشى به أقر أنه من العلماء وجعلوا تأليفه الذى ألفه تحت عنوان «أبد» سندا للاطعن فيه، فإنه

(1) نفع الطيب ج.أ.ص. 418، والمستشرقون ص. 17 وكتاب العلوم والادب والفنون فى عهد الموحيين للمتونى. (2) المقصد الشريف .

حشره بالنظريات الفلسفية، وانكروا عليه تسمية الكتاب «بالبد» وهو اسم صنم، يقول المعري: «ويعبد القاب من أهوائه: ما يعبد الكافر من بده». فنفاه ابن خلاص عن سبتة وجمع رحله فنزل ببادس، وكان يجنس في الجامع الاعظم للمحاورات، فيأتيه العلماء والقضاة لالتحاور معه (1)، قال القاضي اسماعيل بن احمد الخزرجي البادسي المتوفى عام 685 هـ. ببادس، كان ابن سبعين قد استقر بمدينة سبتة، فشاع عنه أنه فيلسوف فنفاه ابن خلاص منها فمر علينا ببادس متوجها الى المشرق فدخلت عليه بجامع بادس فسألته، عن قوله تعالى «قل ان كان للرحمان ولد، فأنا أول العابدين»، فقال لي أول الجاحدين، قلت وهذا القول أضعف ما قيل في ذلك، فانه انفراد أبو عبيدة بنقل العابد بمعنى الجاحد، قال: تقول العرب عبدني حتى - أى جحدني - ثم أنه ارتحل الى المشرق فاستقر بمكة وكانت له أخبار في الطب والفلسفة حتى انه صنع لابى نمر أمير مكة ثوبا في رأسه كان أصيب به في حرب بقشر القرعة، وحضى عنده واتسع ذكره واتصل خبره بالملك المظفر ملك اليمن فدرس عليه من سمه فمات بمكة، وقد مدحه اوحد زمانه شعرا وأدبا وظرفا نجم الدين في قصيدة بارعة منها، وشيخ غدا في الفضل منقطع الند أمام المعالي والمراقى ومن له الفضل ما أربى عن الحصر والعد

البرغواطيون بباس :

من هم البرغواطيون هؤلاء؟ : انهم من المصامدة، كان لهم نفوذ على البلاد التي كانت تعرف اذ ذاك بتماسنا، وهى ما بين سلا شمالا الى أسفى جنوبا، أسسوا مملكة هناك تعاقبوا عايتها من أوائل القرن الثانى الهجرى الى أواسط القرن الخامس، وقد بنوا أمرهم هذا على خرافة التنبأ، أول من تنبأ منهم طريف البرغواطى، الا أنه لم يوطد أركان تنبئه على قواعد، ولعله لضيق الأزمن الذى عمل فيه مستقلا، لانه كان تابعا لمسيرة الخفير الصفري، فلما توفى ميسرة خلفه، وانما الذى وسع في تلك المخرفة

(1) المقصد الشريف .

ولده صالح بن طريف البرغواطى فانشأ ديانة وحال وحرم كانت هذه
الديانة لصالح الديك، لانها حرمت ذبحه وأكله فعظم شأنه وأصبح اماما
في صيحاته يتباهى ومن ذبحه اعتق رقبة، كما رفع الحجر عن الزواج
والطلاق، فليتزوج البرغواطى من شاء، وليطلق كذلك الى غير ذلك من
الخرافات .

وبسبب هذا التنبؤ فتحت في هذه انجفة من المغرب جبهة للجهاد،
مكان المغاربة، وبالاخص المتسابقون الى الاستشهاد يغزون في سبيل الله
ويقتلون الرغواطى اينما ثقف ويتوغأون في تخوم البلاد التى استحوذوا
عليها، ويردون هم الهجمات الى جهات المغرب الاخرى، غير تماسنا، وهكذا
يكون المد والجزر وقد ظل الى ما شاء الله، الى أن قامت دولة المرابطين،
فظهرت المغرب منهم نهائيا .

ومما كان من هذا المد أنهم استولوا على مدينة بادس، الا أننا لا
نعلم بالضبط أول استيلائهم ولا مدة بقائهم فيها، ماعدا ما وقفنا عنه من
مخطوط لمناقب الشيخ الحاج حسون الذى كان حيا فى أواسط القرن
الخامس الهجرى، وحج عام 466، فيكون استيلاء البرغواطيين عليها كان
أواخر ايامهم بالمغرب، لانهم انقرضوا بأواسط القرن الخامس وان ذلك
كان قبل حج الشيخ حسون .

على ابن العافية البرغواطى والشيخ الحاج حسون :

كان على ابن العافية هذا قائدا للبرغواطيين على بادس وكان له
وزراء وجنود وفي ضواحي هذه المدينة من قبيلة بقيوة بقرية ادوز،
كانت تقع زاوية الشيخ حسون الذى تلمذ للشيخ أبى داود التسمانى
الذى تلمذ لابى مدين ورجع حسون الى بلده بادوز وقعد باذن شيخه
ليربى التلاميذ المنقطعين الى العبادة وترويض النفس، فشاع خبره
وصلاحه في أواسط القبائل واثر فيهم ذلك الصلاح فأوجس منه القائد
البرغواطى خيفة وخشى تفاقم أمره واستعظمت له بطانته أمر الشيخ،
فاستشار رئيس البرغواطيين بتماسنا، وقد قال فى كتاب «كشف
انقلاب في مناقب الشيخ الاواب الحاج حسون المبين فضله لدى كل من

أناب وقد صحت لدى كل من قد صدق ومن تاب» لمؤلفه أبى الحسن على المراكشى الذى توفى ببإدس كما سيأتى عند التعريف به، ان قائد البرغواطيين هذا أرسل الى أخيه البرغواطى يعنى رئيس البرغواطيين—، فقد أجابه رئيسهم بأن يغير بجنوده وأهالى القبائل على الشيخ وأمره فوق هذا بأن يقرأ كتابه على رؤوس الاشهاد ويطلق المنادين فى أسواق المدينة . فأرسل الى القبائل لتتقاطر اليه ليؤلف حماة فأتت انيه مآت من الأجناد وأرماء من قبائل بنى يطفث وهنتوتة وبنى ورغين وبنى بويفرح وغيرها، ولما تكاملت قوته وهم بانخروج من بإدس الى جهة الحاج حسون بآدوز، دخل عليه الزاهد العابد الشريف الورع سيدى عبد الله (ولعله والد أبى عبد الله محمد الشريف المذكور فى مؤلف المقصد الشريف، لانه ذكر ثمة أنه محمد بن عبد الله الحسنى) وهو — أى عبد الله هذا — مدفون بأعلا مقابر بإدس وروضته مشهورة تزار، دخل عليه — أى عنى قائد بإدس البرغواطى — وكلمه ليكيف عن التوجه الى الحاج حسون قائلاً: ان الرجل من الناصحين وانه لم يفعل ما يفعله على هواه، وانما متبع للسنة وانه مشتغل بأوراده وتلقين تلامذته وانه ان تركه فانه يكون منه مطمئنا من جهة السياسة، وأما اذا توجه اليه فانه لا يأمن أن تأتى منه اذاية الالهية، وذكر له حديث «من أذى وليا من أوليائى فقد بارزنى بالمحاربة» غير أنه لم يسمع منه شيئاً، بل زاد غيضا، فانصرف الشريف مغاضباً .

أما البرغواطى فانه فى الصباح خرج بالقوة التى معه متوجها الى الحاج حسون، وعند الزوال وصل الى الموضع الذى كان يدعى «بتجرجرت» فنزل وأمر بضرب الخيمة ودخل البرغواطى الى خبائه وأرسل الى كاتبه أنفقيه احمد التوزانى وبعض وجوه القبائل ورؤساء أجناده وأمرهم بأن يأتوا الى الشيخ الحاج حسون ليعرضوا عليه أن يأتى اليه فى تلك الليلة أو فى غده بمن معه من تلامذته، فان لم يمثثل فانه يهجم عليه صباحا بجنوده التى لا قبل له بها ويخرجهم من الزاوية اذلة وهم صاغرون، فتوجهوا حالا ولما وصلوا الى الزاوية وجدوه فى خلوته يعبد الله ولا يبالي والفقراء فى انزاوية بالمسجدسمى بمسجد الحاج (وهو الحاج على

التذكنتى البقوى) ولما وجدوه فى الخلوة لم يقدر أحد أن يدخل عليه، فأرسلوا ولده الصغير عبد الحليم، لأن الحاج محمد ولده الكبير اختفى منذ ثلاثة أيام، فلما دخل عليه ولده عبد الحليم القاه فى خلوته ساجدا متضرعا الى الله، فكلمه أولا فلم يجبه ثم ثانيا فثالثا، ثم قال له ولده يأتى ان قائد بادس والاعيان يريدون ان يدخلوا عندك ليبلغوك ما أمرهم به ذلك القائد فاذن بدخول الفقيه التوزانى عليه وحده، فدخل عليه، فلما سلم عليه صافحه الشيخ وأجلسه معه وقال له ما تريد، فاستحى التوزانى من ابلاغه أمر القائد، ولكن الشيخ بادره وقال له قل ولا عليك فانك رسول، وحينئذ أعلمه التوزانى بما أتى من أجله وقال له ان هذا الخبيث المطرود من رحمة الله عازم على الفضيحة الا أن الله يحميك منه، فأجابه الشيخ ثابتا بأن يعلمه بأنه غدا يسير اليه وأوصاه فى خاصة نفسه أن لا يخشى شيئا، فان الله سيكفيه مؤنته، فخرج الكاتب وأمر القواد والاعيان بالركوب متوجهين الى محل البرغواطى، فلما وصل أعلمه بعزم الشيخ على المحيىء غدا قائلا له ان الشيخ لا يخلف وعده، فأمر بنشر الخبر فى الاجناد والقوة فاستبشروا خيرا وباتوا فى سرور .

عمل الشيخ غده :

ان الشيخ لم يتوان فى غده أن وفى بوعده فذهب فى ثلثة من فقرائه لا يتجاوزون الخمسة عشرة والباقي الذى كان يبلغ اربعمائة اختفوا وجنن، وكان معه ولده الحاج محمد وعبد الحليم وعبد الرحمن بن الشماس (خديمه) والمعلم عبدون، فذهب الشيخ متكئا على عصاه وهو يدعو بالدعاء الآتى: «يا من له العظمة والجبروت يا ذا الملك والملكوت، يا من هو حى لا يموت، انصرنا على من يموت»، وكان أصحابه يرددونه بعده انى أن أتى موضع الصفاح يدعى صف الحمام، فقال للفقراء من يذهب لياأتينا بخبر المحلة، فقال المعلم عبدون انا لها، وذهب فوجدهم نائمين قد أخذ الله على أبصارهم، فرجع وأعلم الشيخ بذلك، فكان الشيخ يردد «هكذا، هكذا، والا فلا طرق الجد غير طرق المزاح» ثم تقدم الشيخ بعصاه والفقراء وراءه الى أن وصل الى شجرة عرعار ثمة، وقال هذا حد زاويتي، وركز حدودا

ثمة، ثم أمر المعظم عبدون وولده الحاج محمد وعبد الرحمن بن الشماس وقال لهم ايتوا هذه الحطة وخذوا من ترابها وانشروه عليهم، ثم ادخلوا على قائدها وكلموه بأن يذهب الى حال سبيله، فانه يستجيب لذلك ان شاء الله، ففعلوا، فما كان من القائد بعد سماع موعظتهم الا أن أمر بركوب الجميع والتوجه الى بادس، فرجع الشيخ وتلامذته الى مقر عبادتهم مستأنفين نشاطهم .

هذا في كتاب مناقب الشيخ، وهو أمر لا يستبعده عقل ولا بقل، لان الايمان بالشيء، والعزيمة القوية هما أحد من السيف وأمضى، فالشيخ كان ثابتاً على مبدئه متحدياً هذا الظالم الذي يريد هتك حرمة في معبده فأتاه من حيث الموعظة وعدم الامبالاة له، فكانت حكمة الله أن رده على أعقابها خاسراً، ومثل هذه الواقعة موجودة عند أولي انعزم من الصالحين أسوة بالنبي محمد (صلعم) .

تغلب العرب على بادس :

ففي حدود عام 635 هـ. تغلب العرب للمرة الثانية على بلاد الريف، واستولوا من جملة ما استولوا عليه مدينة بادس، وكان الاهالي يخافون منهم ويختفون عن أنظارهم فقد حدث عبد الحق بن اسماعيل انبادسى أن أهالي بادس اختفوا عن أنظار العرب المتغلبين، حينما احتلوا مدينة بادس، وكان الشيخ أبو الحسن المراكشي يذهب ويجيء من دون مبالاة ولا رؤية العرب، وحدث عبد الله المعري البادسى قال: كانت العرب قد تغلبت على الريف عام 35 (أى وستمائة) (635 هـ) فخفنا منهم فارتحل جميع أهل بادس بأموالهم وأمتعتهم الى انجزيرة انتهى في بادس وكنا نحرس الديار رجالاً بالاسلحة لا غير، فاذا جاءت العرب غدوة انبسطوا في انوادى وتقطع الناس من العدوتين عدوة الصف وعدوة الركينة، لا يقدر من يدخل الوادى من أجل العرب وكنت أرى الشيخ أبا احسن المراكشي جائئاً ذاهباً من احدى العدوتين الى الاخرى، ويشق في وسط العرب وعليه ثيابه فما ناله من احدثهم منه شيء» .

ان هذا النص يدل على أن العرب في احتلالهم للريف كان بصفة المتغلب المتسلط، بحيث أن الاهالي ينفرون من وجوههم ولا يخالطونهم،

كما أن العرب يعاملون الاهالى بالقسوة والقتل، فلم يكن هؤلاء ان العرب العرب قد امتزجوا بعد مع الاهالى امتزاجا روحيا يعدونهم منهم واليهيم، بل كان احتلالهم للبلاد شبه اكتساح لها، يقتلون وينهبون ثم يذهبون، ومن المعام أن مؤوك بنى مرين الاولين كانت لهم حروب مع عرب رياح في المغرب، فالامير عبد الحق ابن محيو المرينى انذى أمر المرينيين الاولين عام 613 هـ. قام بحروب ضروس مع عرب رياح لقي حتفه بوقعة وأدى سبوا، وقد طاف ولده عثمان انذى تولى من بعده أمر المرينيين على قبائل المغرب، ووصل فيما وصل اليه بقبائل بطيوة من الريف وقد انتصر المرينيون على العرب (1)، الا أنه رغم هذا الانتصار فانه لم يقض على عرب رياح، فقد بقوا بقاء النار تحت ازماد، ففى عام 621 هـ. غزاهم أيضا ببلاد الهبط وأزغار واثخن فيهم، وهكذا استمر في العراق معهم الى أن توفى سنة 638 هـ. (2)، ومما ذكر، يعلم أن استلاء العرب على بادس والريف كان أيام أبى سعيد عثمان بن عبد الله المرينى، لان الاستيلاء كان عام 635 هـ. وهو في ذلك الوقت كان يقوم بالحرب في أطراف المغرب الشمالية ضد هؤلاء العرب، وبما أن أهالى الريف كانوا يعتزون بان الدولة المرينية الجديدة، كانت دولتهم لانها نشأت بين أحضانهم، فالوقعة الاولى أنتى انتصر فيها المرينيون على الموحيدين والتي تدعى وقعة المشعة، كانت بوادى النكور، وكان معقلهم انذى درجوا فيه ومنه ترعرعوا حصن تزوطا (قرب الناظور) من شعب بطيوة، فان تسلط العرب عليهم بمثابة احتلال لبلاد موالية لاعدائهم المرينيين، فلذا كان الاهالى يفرون من وجوههم ويحرسون ديارهم بالاسلحة، وكان العرب يفرضون على الاهالى مغارم ربما وقعت بينهم حروب بسبب تلك المغارم، فقد حدث (3) عن ابن عقييل بن عبد الرزاق بن عبد الواحد بن النجاج ابراهيم بن عيسى بن الشيخ داود القسمانى، أن العرب في حياة جده الحاج ابراهيم - المولود عام 560 والمتوفى 650 هـ. - الذين تغلبوا على الريف، فرضوا

(1) الاستقصاء، ج ٣ ص 9 (2) الاستقصاء، ج ٣ ص 10 .
 (3) المقصد الشريف .

مغرما على قبيلة بنى ورتدا، - وهى من قبيلة تمسامان - فامتنع أهالى انقبيلة من اداء ذلك المكرم وتحصنوا بمعاقلهم بساحل البحر، فلما رأى العرب توتر الحالة بينهم وبين القبيلة، طلبوا من الحاج ابراهيم، وكان يسكن فى دار جده أبى داود، ويتعبد فى رباطته - المتقدمة الذكر - أن يتوسط بينهم وبين القبيلة، حتى يؤدوا المغارم المفروضة، وقد الح عليه العرب انحاحا بعد ما امتنع، فذهب الى أهالى القبيلة وأبلغهم أمر العرب فامتنعوا ولم يجيبوه لشيء ثم أنه لما رجع أسر على ساحل البحر، أسره قراصنة النصارى .

وهذه القصة نفسها كانت فى التاريخ نفسه، فان العرب لما شردهم بنو مرين احتلوا الاماكن القاصية، وكانت لهم مع الاهالى مناوشات وحروب، ولم يتفقوا قط .

تخريب بادنس :

وهكذا كانت مدينة بادنس مرفأ للمغرب الى أن تعرضت لحملات عدائية من قبل أترك الجزائر والاسبان الذين تنافسوا على اكتساب جزيرتها للاستيلاء عليها، وتكررت تلك الحملات مرات متعددة، فكانت قراصنة (1) الاسبان من مليية يغيرون عليها، بينما قراصنة الجزائر الاتراك يتخذونها مقرا للهجوم على سواحل الاندلس واقتناص السفن المتوجهة الى انهد يعاونهم فى ذلك قراصنة تطوان والعرائش، وكانت (2) قراصنة مليية يؤدون لملك اسبانيا خمس اسلابهم ولولائهم كانوا يحملون اسبانيا والبرتغال سنويا أزيد من مليون من العملة الذهبية، وكان الجند اريفى يتصدى للاسبان انذين يحتلون جزيرة بادنس، وقد طردوهم منها عام 929 هـ. وبقي الوطاسى أبو حسون ثم السعديون مائكن لبادنس الى عام 1554 م. (961-962 هـ، حيث احتلها الاتراك نحو من عشر سنوات، ثم استرجعها الاسبان وهدموا مدينة بادنس، فتخربت واحتفظوا بجزيرتها معززين بـ 92 سفينة برتغالية واسبانية،

(1) ج.ل.ص. 243 من السلسلة السعدونية. (2) السلسلة الاولى السعدونية ج. لث. ص. 15 .

مع جنود مرتزقة من الالمان والصقليين والايطاليين، ثم استرجعها
الأتراك (1)، وقد رفض السلطان امضاء معاهدة للاعتراف بالامر الواقع
ووجه قائدين لاسترجاع انحصن .

مدينة المزمة :

هناك في منتهى سهل وادى غيس بالشط الشمالى الغربى أمام
جزيرة النكور، وفي احضان رباطة المجاهدين عند أسفل هضاب أجدير،
كانت تقع مدينة المزمة، يقال أن الاسم عربى مصحف عن الخزامى اسم
لعشب كان ينبت فى تلك الجهة، ولما وصل العرب فى الفتح الاول ووجدوه
بكثرة سموها المدينة به، وهكذا بانميم والزاي والميم، وفى بعض هوامش
التاريخ المزمة - بالذال وهو خطأ صراح - لان اسماء الاعلام تتخبط
بالنقل، وبه تثبت فالسنة الاهالى لا زالت تتقل خلفا عن سلف تسمية
مرافق هذه المدينة باسم المزمة، فهذه ساقية المزمة، لساقية تخرج من
وادى غيس وتتجه صوب موقع المدينة الذى أصبح الآن من الخصوبة
بمكان، بحيث ان ذلك الماء موزع برسوم لها قرون باساعات، بل والدقائق،
فلولاد فلان مثلا كذا على ساقية المزمة، لان ماءها فى الصيف يخرج من
عنصر معين يدعى «بويا حريش» فيقسم على اسهم لساقية المزمة، وهى
التي على الشط الشمالى الغربى لوادى غيس، كذا، ولساقية تقضنة كذا،
وهى التى على الشط الجنوبى الشرقى، وكان من جملة محاكم ابن
عبد الكريم «محكمة المزمة» التى كانت تعتبر المحكمة الرئيسية لقبيلة
بنى ورياغل، أما محكمة أجدير فهى خاصة بابن عبد الكريم وهى المركز
العام لحركة التحرير، كما سيأتى مفصلا، وأما لفظة مزمة بالذال، فانه
تحريف لحرف الزاي الى الذال وهما كثير الشبه .

واذا كانت لفظة المزمة المصفة هى تحمل معنى لا يليق بمقام
هذه المدينة التاريخية المجاهدة فانه يحق للسان حالها أن ينشد :
واذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وذكر الادريسي في نزهة المشتاق، انها كانت قرية عامرة ومرسى تسوق المراكب منها، وذلك لانها كانت بمثابة ميناء لمدينة النكور التي تبعد عنها بحوالى 15 كم، وفضلا عن ذلك فانها المنفذ الوحيد لمحصولات سهول النكور الخصيبة، فمنها تستصدر البلاد حاصلاتها الى بادس والى الاندلس، وكانت صلة الوصل بين مدينة النكور عاصمة الامراء العرب وبين بادس عاصمة الصنهاجيين والعلماء والصالحين .

مرافق المدينة :

كان بالمدينة جامع أعظم كما في سائر المدن المغربية، وفي وقت ما كان الخطيب فيه محمد بن أبى بكر بن الفقيه عبد الله، ففى المقصد الشريف قال: وحدثنى احمد بن محمد الطائع الشهير بالادباس قال : سمعت محمد بن أبى بكر بن الفقيه عبد الله خطيب المزمة يحدث عن أبى طاهر السخ .

رباطة المجاهدين :

وقد تقدم الكلام عن رباطة المجاهدين التي على ربوة لاصقة بمدينة المزمة ولا زالت الى الآن محولة الى مسجد للصلوات الخمس، وتقام فيها حفلات عيد المولد النبوى الشريف يقصدها طلبة القبائل المجاورة.

رباطة أبى داود :

وقد تقدم أيضا الكلام مستوفى عن رباطة أبى داود التي هى على خمسة أميال شرقى مدينة المزمة، وقد بناها أبو داود حوالى عام 550 هـ.

جزيرة النكور :

وتوجد قبالة المدينة جزيرة النكور وكانت من معاقل تلك المدينة ولا تبعد عن ايباسة الا بمقدار 500 متر فقط، ولهذه الجزيرة مقام خاص فقد كان أهالى مدينة المزمة وقبيلة بنى ورياغل يرابطون فيها خوف مباغته العدو من جهة البحر، وكانت القراصنة يجوبون البحر ويغيرون على الشواطىء، وبالاخص محل العمارات فكانت جزيرة النكور رباطة لحراسة المدينة، وفي اثناء امارة النكور كان أمراؤها ياجأون اليها عندما تقع حرب بينهم وبين اعدائهم الجنوبيين، فعندما غزا مصالة ابن حبوس عامل العبيدين على تاهرت مدينة النكور سنة 304 هـ. التجأ سعيد ابن صالح

اليمنى النكور بأهله الى جزيرة النكور وتحصن بها، ثم عبر البحر الى مالقة اذ تلقاه عبد الرحمان الثالث الاموى الملقب بالناصر لدين الله بالتبجلة والمكرمة كما سبق .

علاقة المزمة بباس :

كان لكل من المدينتين استقلالها عن الاخرى، الا أن علاقتهما كانت حسنة على ما أطلعنا عليه من نفث تاريخية .

ففى عام 566 هـ. نجد أنه لما رجع الحاج حسون البقيوى - كان يسكن ضواحي بادس وتقدم موقفه من قائد البرغواطيين - من حجه مر على مدينة المزمة، وبقي فيها ثلاثة أيام، استضافه أهل تلك المدينة وهرع اليه جميع المحبين من تلامذته وأصدقائه وفرح به أهالى المزمة فرحا عظيما (1) .

وفى كتاب مناقب أبى يعقوب البادسى «أن أحد السراق سرقوا حوالى أواسط انقرن الثامن كيبا لاحد الاندلسيين ورد على بادس وأخذها السارق وهرب الى المزمة، وبعد يومين من وقوع الحادثة وصل رسول من المزمة بكتاب من واليها يقول فيه وصل هنا رجل من الغزاة وببده شكارة انكرناها عليه وسأنا عما فيها فتوقف فثقف وثقفت الشكارة، فان كان هناك من ضاع له شئ، فليأت، فتوجه الرجل للتاجر - الذى ضاعت منه شكارتة - الى المزمة وأخرج زمامه وذكر فيه جميع ما فى الشكارة، ورجع الى الشيخ - يعنى أبا يعقوب البادسى الذى كان دعى لتاجر برد ضالته - ، ومن هذين النصين نستنتج العلاقة التى كانت بين المدينتين الساحليتين، كما نستنتج من النص الاخير مدى يقظة ولايتها وحصافة أحكامهم، فان النص مستند هام لكون والى المزمة استعمل سياسة رشيدة فى القبض على السارق والبحث عن السرقة حتى تتجلى له حقيقة الامر .

لجوء الادارسة الى الشمال :

وكما ذكرنا، فقد ترك الفتح العربى الاسلامى اثرا ذا جدور

(1) المقصد الشريف .

عميقة في نفوس السكان الاصليين البرابرة في عموم المغرب، وتأثروا بالتعليم الاسلامية تأثرا قاوم العصور والاعصار معا، وكان نصيب هذا الجزء الذي نؤرخه لا يقل عن غيره من الاجزاء في نفس الاتجاه، بل أن انشرفاء وجدوا هنا ملاذا أمنيًا ونصرا مؤزرا حبتهم هذه الجهة وجعلت منهن نواة الخير، واستمطروا بهم بركات الله، ذلك ما جعل لهم من المكانة محل الصدارة واعتزوا من الدعامة الاوثى للعرب الفاتحين، وقد امتزجوا مع الاهالي زيبس فحسب بالمعاملات والاعتقاد، بل بالتزاوج والتناسل وبذلك تكون منهم ومن الذين تقبلوا وفادتهم برحابة الصدر دم مزيج، مما زاد في نسبة الدم العربي الذي تركه العرب الفاتحون غير الاشراف في هجراتهم الاولى، ولذا يعتبر اريف عربيا، ولا يؤثر فيه اللهجات المحلية، وفي هذا الصدد كنت نشرت في جريدة الريف التي كانت تصدر بتطوان باشراف مديرها الشريف المبجل صديقنا الهمام المحرم سيدي انتهامي الوزاني، في عدد 194 بتاريخ 25 يونية 1939 م. تحت عنوان «الريف وعروبتة»، بينت فيه تمسك اريف بالعربية وذلك ردا على كتاب نشره مراقب اسباني برتبة كولونيل يدعى «اميليو بلانكو» ضمن هذا الكتاب قوانين كانت قبائل الريف تعقدها ضبطا لعرقتها فيما بينها عندما انحسرت سلطة الدولة الايام التي قبل الحماية عن هذه الاصقاع وسماه «قانون الريف»، وكان قصده تحضير جو ادماج الريف في الظهير البربري، أو استصدار مثله ضربا على نعمة الاستعمار الفرنسي، فكتبت هذا المقال، وكان له صدى بعيد الاثر في دوائر المراقبة، كما كان عمل هذا الكولونيل سببا في تنحيته عن هذه المنطقة وتغريبه الى «فرناندوبو» — بصحراء افريقيا —، حيث توفي هناك، وكان فحوى الذي نشرته ان اللهجة المحلية الريفية لا تغير من عروبتة في شيء، لان لغة الكتابة والدراسة والدين بل حتى اتخاطب الرسمي هي لغة القرآن وام توجد للهجة المحلية أية قواعد تنظيمية يكتب بها، ولم يوجد في التاريخ لها كتابة ومعرفتة هي من باب معرفة الاشياء أفضل من جهلها، وان القوانين التي كانت تحرر في علاقات القبائل بعضها مع بعض هي راجعة الى مسائل سياسة غير اجتماعية، وذلك كتتظيم لعلاقة الاتصالات في الاسواق وحفظ الجوار وعدم اخفاره وما الى ذلك .

وعليه فيصح أن يلاحظ على اقبال العرب، وبالاخص الشرفاء منهم على الريف التأثيرات التالية :

1 — التأثير الديموغرافى الذى خافقه اختلاط النسب من هؤلاء وأولئك، بحيث لم يكن يعتبر هناك فارق بين مراتب الكفئية فى الزواج، فالمسلم كفؤ المسلمة من أية سلالة كانت فاقبل الطرفان على الاندماج فى انعادات والبيئة اندماجا كلياً، جعلت حالتهم الاجتماعية على قدم المساواة ولم ير أى طرف غصاصة فى اعتناق مبادئ الآخر الاجتماعية، وقد أخذ الجميع ما صلح من تقاليد كل، وذلك ما خلف فى هذه الجهات حياة اجتماعية راقية نسبياً عن جل البوادي الأخرى وهو ما يشاهد عياناً لمن جال فى تلك الاصقاع، فالعيش نضيف واحترام الاعراض موقور وكرم الضيافة وانوفادة وحماية الجار الى أنواع الشهامة الأخرى مما يضرب به المثل .

2 — التأثير الدينى وذلك لمقام العترة الطاهرة التى انحدرت عن السلالة النبوية، والتى حملت مشعل الاسلام الى أقطار المغرب فى مبدىء هجرتها عند فرار المولى ادريس الأكبر امام تعسف العباسيين الذى أصاب آل البيت النبوى بدعوى تأثير محبتهم لدى المسلمين على الاتجاه السياسى فى المشرق، الامر الذى يخشى منه أن يعصف بعرش العباسيين، وبالاخص أن جمهور المسلمين فى ذلك الوقت كان دينهم الصراحة وعدم اللف والدوران، لاعتقادهم بأن ما يصيبهم لم يكن ليخطئهم وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، تلك مشيئة هى بيد الله وحده، ولهذا الاعتبار نفسه احتضنت هذه الجهة الشرفاء الوافدين الذين يعتبرون خيراً وبركة على حياتها، وأن ذلك الاحتضان والحب هو قسط دينى يعتقدونه، كما اعتقدوا مبادئ التبشير الاسلامية الذى قام به الشرفاء .

3 — التأثير السياسى الذى خلقه جو امارات محلية للادارة من لدن تولية عمر بن ادريس اتواحي الريف من قبل أخيه محمد الأكبر، حيث جعل عاصمته «تيكساس» بغمارة، وكانت شاطئاً واحداً مع بادس وسبتة، بحيث كان الاتصال ميسوراً والاحكام نافذة والمسافة تقطع بزورق صباحاً حيث يمسى فى بادس ومنها الى المزمة الى غساسة برأس ورك والى مليلية،

الامر الذى ضمن شمول النفوذ الادريسي شمولاً كاملاً حيث كانت الاوامر لا تخالف، لأنها صدرت من سلطة شرعية من الوجهة الادارية ومن اوجهة الدينية التى كانت المحور الاساسى والوازع الاهم فى ضبط البلاد وحكمها.

ولهذه المزايا تدفق الاشراف الادارية على هذه الجهة فعمروها وبالاخص فى أيام اضطهادهم فى مغرب الارض، كما اضطهدوا فى مشرقها، فعندما تسلط على تشريدهم موسى ابن ابي العافية الذى يعتبر ألد أعدائهم والذى تولى كبر الفتنة عليهم فى مواقع طويلة مستوفاة فى المصادر التاريخية، انحاشوا الى الريف فى طرفين اثنين، أولهما فى ظرف تأسيسهم لامارتين اثنتين قاومت أعداءهم بجنودهم المخاضين الذين تكون اخلاصهم من محبتهم لآل النبى (صلعم)، ثانيهما فى ظرف اختيار هذه الجهة للسكنى والاستقرار بعد التشريد شرقاً وغرباً، وقد تقاطروا عليها من جميع الجهات، فخلفوا عائلات واحفاداً، واستوطنوا أسوة بالسكان لا يجدون فارقاً، بل يجدون محبة متغلظة فى النفوس، كانت اثرها ان تكاثر الواردون عليها، وتسابقوا فلم تشذ أية قبيلة من قبائل الريف وغمارة ونواحي سبتة، حتى أن جبل العلم بنى عروس أصبح محجاً يحج اليه السكان، وفى فترات من الوقت كان محجاً لسائر المغاربة يقصدونه لانتبرك والتعرف على ملاذ آل النبى المختار (صلعم).

أما نواحي بادس، فان الحالة الدينية التى عاشت عليها هذه الجهة جعلت اقبال الشرفاء عليها استكمالاً لحرية دينهم، يترجون منها أن تكون مقبرتهم لأنها مقبرة الصالحين .

المنطقة الاولى لنفوذ الادارية :

على اطلاق الريف الشامل لاراضى سلسلة جبال الريف، كما أسلفنا، أصبحت الامارات الادريسية فى الشمال ريفية بعد انقراض دولتهم بفاس وتسنى لصاحب الاستقصاء كالمعجب أن يترجم بقوله «الخبر عن ادولة الثانية لادارية ببلاد الريف» .

لأنهم كانوا يحكمون هذه الاراضى جميعاً، وكانت قاعدتهم مدينة البصرة التى قال عنها البكرى وابن حوقل «أنها تأسست مع أصيلاء، أوائل

القرن الثالث الهجري، وكانت عامرة ولها شأن، ثم خربت أواخر القرن الرابع الهجري، ولا يعلم موضعها بالضبط، ومن الممكن أنها كانت بنواحي حد كورت وقد خربها بأكين الصنهاجي لما قفل فارا من هضاب تطوان أمام جعفر بن علي ابن حمدون قائد منصور بن أبي العامر الاندلسي الذي خيم بسبته ضده كما كان معقلهم قلعة حجر النسر التي قال عنها انبكري أنها بناها محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم - صاحب طنجة وسبته - ابن ادريس عام 317 هـ. وكانت شامخة الى السماء .

وقال عنها صاحب الاستقصاء «انها موجودة قرب سبته (1) ثم خرج غائب - أي الاموي - من قرطبة في آخر شوال عام 362 هـ. فاتصل خبر قدومه بالحسن بن كنون (الادريسي) فخاف منه وأخلى مدينة البصرة وحمل منها حرمه وأمواله ودخل الى قلعة حجر النسر القريبة من سبته واتخذها معقلا يتحصن به» .

وقد كانت هذه القلعة من المناعة بمكان لعادو بنائها حتى أن الحسن بن كنون الادريسي الذي عرف عنه الشدة والقسوة، كان اذا ضفر بأحد أعدائه يدفعه من أعلى الحصن بعود فلا يطل الى الارض الا واشلاؤد ممزقة. ويظن الآن أن هذه القلعة كانت بقبيلة سماتة، حسبما انفصل عنه السيد احمد المكناسي مدير الخزانة العامة بتطوان سابقا، في بحثه الذي القاه بالمؤتمر الثالث للأثار العربية بقاس (2) .

ومن المعزوم تاريخيا، ان أولاد مولاي ادريس الثاني اقتسموا بعد موت أبيهم المملكة المغربية مناطق نفوذ عين لكل ولد من الاولاد التسعة البالغين جهة يحكمها، بينما بقيت المملكة لمحمد ابن ادريس وبقي غير انبالغين في، كفالة الاميرة كنزة (3) .

وهذا ان تقسيم كان من وحي هذه الجدة البربرية اذ رأت ان تقسيم المملكة مناطق نفوذ على أولاد المولى ادريس كعمال للدولة، يجعل الوارثين

(1) الجزء الاول ص. 183. (2) صحيفة 8. (3) حكى لي القائد الخلافي البرنوصي أنها من قرية أوربة من هذه القبيلة ولا زالت معروفة بها الى الآن .

للعرش لا يتنافسون، بل يشتغل كل واحد منهم بالجهة التى يدير شؤونها، على أن يحتفظ أكبرهم (محمد) برئاسة الجميع .

ولا غرو فان هذه الجدة العجوزة قد عايشت الأحداث وعاركتها من منذ ما دخل زوجها مدينة ولىلى سنة 172 هـ. وشاهدت مصرعه والملك لم يلتئم بعد، فحفظت ذلك التراث الثقيل فى بطنها يوم كان المغاربة أقرب الى الارتداد من التأييد، وقد صبرت على مضض واحتسبت العمل لله ولآل بيت نبيه التى تعد الحارسة الوحيدة للامانة اذ لا يعدو سره بطنها ثم بيتها يتيما غريبا فى آن واحد فربته وأحسنّت التربية واحترسته من شر الاعداء وكيد الكائدين ومن يدري عن المستقبل المجهول؟ عاقبة الامر . ثم شاهدت ولدها يافعا مباليا سنة 188 هـ. يخطب فى القوم ولو لم يتجاوز عمره أحد عشر سنة يقول: فلا تمدوا الاعناق الى غرنا، فان الذى تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا، ثم شهدت الملك الشاب يستأثر به الله سنة 213 هـ. ولم يتجاوز عمره 36 سنة .

شهدت كل هذا وشاهدت تدبير ذلك الملك الفتى وأوخت الى زوجها وابنها بكثير من حكمها الغالية، فكيف لا تسير نفس الخطة فى حفظ التراث بين احفادها الذين قرت بهم عينها وهم العزاء الوحيد لها وقد ملأوا عليها الدار أنسا بعدما كانت وحيدة الاهل والعشيرة . وكان توزيع مناطق جهات الريف — وهى التى تهمنا فى بحثنا هذا حسبما يأتى :

- (1) مولاي عمران — بادس وبلاد الريف .
 - (2) مولاي عمر — تيكساس وترغة وهما فرضتان بساحل غمارة وكانتا قريتين عامرتين وما اليهما من قبائل غمارة .
 - (3) القاسم — سبتة وطنجة وقصر مصمودة — القصر الصغير — وقلعة حجر النسر وتطوان وما بين ذلك من القبائل .
 - (4) يحيى — أصيلا العرائش البصرة، بلاد ورغة وما بين ذلك من القبائل .
- أما الاخوة الخمسة الآخرون فقد أخذوا أقساما أخرى من

المغرب من سوس غربا الى تلمسان شرقا، ففي تاريخ ابن خلدون (1) أنه لما اجمع أمر محمد بن مولاي ادريس، على قسم المملكة بين أخوته (2) جاءت في قسمة أخيه القاسم طنجة وانبصرة وسبتة وتطوان وقلعة حجر النسر وما الى ذلك من البلاد القبائل، وجاءت في قسمة عمر تيكساس (3) وترغة وما بينها من قبائل صنهاجة وغمارة، وجاءت في قسمة عيسى أصيلا والعرائس وبلاد اروغة — هكذا بتقديم الراء على الواو ولعل القصد منها ورغة بالواو ثم الراء — .

أما بادس والريف فقد أعطى لعمران بن مولانا ادريس، وهذا ما جاء في كتاب الدرر السنية لآخبار السلالة الادريسية قال (4) ولكون عمران أيضا أعطى من بين أخوته أرض الريف وبادس، وانتقل هو إليها وتناست أولاده هناك بها، ويظهر أن الشريف عمران هذا كانت سلطته دينية أكثر منها سياسية وكان عمر صاحب تيكساس هو الذي يحكم سياسيا هذه الجهات .

وذلك ان عمر هذا كان محاربا وسياسيا ماهرا وذلك ما جعله أهلا لان يستولى على اقسام عيسى والقاسم .

وقد قال ابن خلدون (5) ان عيسى خرج على أخيه محمد طالبا الامر لنفسه فبعث لحره أخاه عمر، بعد أن دعا القاسم نذك فامتنع، ولما أوقع عمر بعيسى وغلب استبد به الى أعماله باذن أخيه محمد ثم أمره أخوه محمد بالنهوض اثر أخيه القاسم، لعوده عن اجابته في محاربة عيسى، فزحف اليه وأوقع به وضم ما كان تحت امرته الى ما بيده، فصار الريف البحرى كله بيد عمر هذا من تكساس وبلاد غمارة الى سبتة ثم الى طنجة وهذا ساحل البحر الرومى — البحر الابيض المتوسط — ثم يعطف الى أصيلا ثم سلا ثم أزموور وبلاد تمسنا، وهو

-
- (1) تاريخ ابن خلدون ج. 4 ص. 14. (2) يعنى سنة 213 هـ. لانه فيها توفى أبوه مولاي ادريس. (3) هى فرضة بلاد غمارة بالموضع الذى يدعى الآن ببو احمد وهى قريبة من ترغة .
- (4) ص. 108 للشريف سيدى محمد السنوسى الخطابى المتوفى سنة 1272 هـ؟ (5) تاريخ ابن خلدون ص. 14 ج. 4 .

ساحل البحر الكبير - المحيط الاطلسي - ثم قال، واتسعت ولاية عمر بعمل عيسى وانقسام وخلصت طويته لآخيه محمد الامير، وهلك في اماره أخيه محمد ببلاد صنهاجة بموضع يقال له فج الفرت سنة 220 هـ. ودفن بفاس ثم عقد الامير محمد لولده علي بن عمر على عملاته .

ثم قال ابن خلدون (1) وانقطع الملك من عقب محمد بن ادريس وبلغ الخبر بشأن يحيى الى ابن عمه علي بن عمر صاحب الريف واستقدمه أهل الدولة من العرب والبربر والموالي، فجاء الى فاس ودخلها وبايعوه ثم حكى فتنة بينه وبين عبد الرزاق الخارجي، وأنه هرب واغتاله الربيع بن سليمان سنة 292 هـ. وقام بالامر مكانه يحيى بن ادريس بن عمر صاحب الريف وهو ابن أخ علي بن عمر (2) .

هذا هو التدبير الذي وضعته تلك العجوزة الصالحة ذات القلب انفلاذي الا أن الاقدار قد خانتها في احتياطها فما لبث أن تنكر عيسى صاحب البلاد الغنية بالمال والرجال (سلا وأزمور وما بينهما) لآخيه محمد زعيم الاسرة، فأعان البيعة بمدينة أزمور ودعى لنفسه، مما اضطر محمد الى اتخاذ تدابير وقائية ضد أخيه اللئيم عصا الطاعة علناً، والذي فتق فتقاً لا يعلم مغبتها أحد، فأمر كلا من القاسم صاحب طنجة وعمر صاحب تكساس بالتوجه الى عيسى لرده عن غيه وربما كان محمد بهذا الامر يعجم عود أخويه ليلعلم موقفهما، فما كان من عمر الا أن لبي أمره وصار في جموع من برابرة صنهاجة الريف وغمارة وامده السلطان بألف من رجال زناتة، بينما تنكب القاسم عن قتال أخيه عيسى وعصى أمر السلطان .

وقد جرت الرياح بما تشتهي نفس محمد فانكسر عيسى وفتح عمر بلاده جميعاً فجازاه أخوه محمد وضم اليه بلاد المهزوم، عملاً بالمثل «من قتل قتيلاً فله سلبه» . الا أنه كلفه بمهمة أخرى وهي القضاء على القاسم (3) صاحب طنجة وسبته والقلعة المنيعه الذي يبدو من تأخره عن

(1) ص. 15 ج. 4 من تاريخ ابن خلدون. (2) نفس الجزء والصحيفة والكتاب - نفس المصدر - (3) ضريح سيدي قاسم معروف بضواحي طنجة على البحر، جنوبها.

امثال الاوامر المركزية انه متواطىء مع عيسى، ومرة أخرى امثال أمره واستعان بالله لرتق فتق العائلة الادريسية التى شاعت الاقدار أن تأخذ المعول لهدم صرحها بنفسها، ففى الاستقصاء (1) وأمره مع ذلك بالمسير الى قتال القاسم الذى عصى أمره أولا فزحف عمر الى القاسم، واستولى عمر على ما بيده من البلاد فصار الريف البحرى كله فى عمل عمر من تيكساس وبلاد غمارة الى سبتة ثم الى طنجة وهذا ساحل البحر الرومى ثم ينعطف الى أصيلا والعرائش ثم سلا وهذا ساحل البحر المحيط - ولا ندرى شيئا عن يحيى صاحب أصيلا وما آل اليه ، هل سلم نفسه أم ماذا فعل ؟ .

وبهذا أصبح عمر بن ادريس صاحب الريف ذا امارة تمتد على سواحل البحرين الابيض المتوسط والمحيط الاطلسى، وصفى الجول هذا الامير القائد، وقد اخلص فى عمله لزعيم الاسرة السلطان محمد، وبقي كذلك انى أن توفى سنة 220 فى امارته، وحمل الى فاس ودفن مع أبيه . وبهذه الكيفية تأسست امارة الريف الادريسية بزعامة عمر بن ادريس الثانى، وقد خلفها ارثا لاولاده من بعده، فقد شهدت المملكة المركزية الادريسية بفاس هجمات من العبيديين من الشيعة تتوجه اليها من الشرق، ففى سنة 305 هـ. هجم قائد العبيديين بتاهرت والمغرب الاوسط، مصالة بن حبوس المكناسى وزحف على يحيى بن ادريس بن عمر بن عمر بن ادريس الثانى بفاس، ولما تلقاه هذا بقرب مكناسة انهزم مفلولا امام القائد العبيدى الى فاس وتبعه مصالة فحاصر فاسا، وما الكشف عنها الا عند ما أذعن يحيى للبيعة للعبيديين، على أن لا يتعدى نفوذه أسوار فاس، بينما أطلق يد ابن عمه موسى بن أبى العافية المكناسى صاحب تسول وبلاد تازة على نواحي المغرب الاخرى، عدا امارة الريف .

ومع ما انطوى عليه موسى بن أبى العافية (2) من حقد وعداوة لآل ادريس، فانه لم يفتأ يكيده ليحيى، فعندما رجع مصالة الى المغرب

(1) الجزء 3 ص. 157 . (2) من مكناسة تازا .

سنة 309 التقى القبض على يحيى واستصدر أمواله ثم نفاه الى بنى عمه بالريف، ففى تاريخ ابن خلدون (2) وكان بين موسى بن أبى العافية وبين يحيى بن ادريس شحنا وعداوة يضرها كل واحد لصاحبه، حتى اذا دعى مصالة الى المسيرة فى غزاته الثانية سنة تسع - أى 309 هـ - اغزاه موسى بن أبى العافية بطلحة بن يحيى بن ادريس صاحب فاس فقبض عليه مصالة واستصفى أمواله ودخائيره وغربه الى أصيلا والريف عمالة ذوى قرباه ورحمه .

وقال فى نفس النصيفة «واستولى ابن أبى العافية على جميع المغرب واجلى بنى محمد ابن القاسم بن ادريس وأخاه الحسن الى لريف، فنزلوا البصرة واجتمعوا الى كبيرهم ابراهيم بن محمد بن القاسم أخى الحسن وولوه عليهم واختط لهم الحصن المعروف بحجرة النسر سنة 310 هـ، ونزلوه وبنو عمر بن ادريس يومئذ بغمارة من تيكساس الى سبتة وطنجة .

ومع ان الحسن الحجاج الادريسي قام بمحاولة استرجاع الدولة الادريسية، فانه لم يلبث موسى بن أبى العافية أن عاود الكرة على فاس وانتزعا منه .

وبذلك انقرضت الدولة الادريسية بفاس وتقاطر الادارسة من كل صوب وحذب من جهات المغرب الى أبناء عمهم بالريف بقلعة حجر النسر، فأرين من وجه عدوهم اللدود الذى لم يراع فيهم الا ولازمة، فاخلوا جميع انجهاى التى كانت بيدهم، وحتى التى كانت بيد عمر ابن ادريس من أصيلا وسلا وأزمور ولم يبق بيدهم الا القلعة التى انكشموها اليها متحصنين تحت مناعتها، مع تقدير الاهالى الذين يحفظون دمهم الزكى الطاهر، لانهم عترة آل بيت النبوة الى بلاد الريف التى لم يصل اليها نفوذ موسى ومع ذلك فانه تبعهم الى معقلهم وحاصرهم وقد خلف لحصارهم قائده أبا الفتح التسولى، واستمر فى حصارهم مدة أربع سنوات الى أن انهزم موسى ابن أبى العافية أمام حميد بن يسلين الكناسى قائد عبيد الله

(2) الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ص. 14.

الشيعة صاحب القبروان سنة 321 لما تنكر موسى بن أبي العافية لاولياء نعمته وقلب الدعوة الى الامويين بالاندلس، فخطب لعبد الرحمان الناصر على منابر انمغرب :

فانتقض الادريسيون من معقلهم وقتلوا أبا الفتح التسولي المخيم قربهم ونهبوا معسكره، ففي الاستقصاء (1) «ولما اتصل ببني ادريس المحصورين بحجر النسر خبر هزيمة موسى ابن أبي العافية وفرار ابنه من فاس وولاية حامد بن حمدان عليها، قويت نفوسهم وتظاهروا على أبي الفتح التسولي، فنزلوا اليه وقتلوه وهزموه ونهبوا معسكره وخرجوا الى الفناء بعد انحصارهم بالقلعة المذكورة أربع سنوات» .

ومع ان الادارسة انضموا الى الشيعة وتولوا أكبر مقاومة عدوهم اللادود موسى ابن العافية، وأصبحوا في صف ميسور الخصى قائد الشيعة قنبا وقالبا حتى شرد الى الصحراء، فانهم فكروا جيدا في تأسيس دولتهم بانريف بمعزل عن اطماع الجميع فأسسوها وبقوا يتوارثونها خافا عن سلف. الا أن الميزة الظاهرة في هذه الدولة الثانية انها لم تكن مستقلة استقلال تاما، بل كانت على وجه التبعية ثارة للشيعة وثارة للامويين بحسب الغلبة، وهذا ما فقد مركزها كدولة تعمل لصالح المغرب، بل أصبحت هذه الدولة أمانة تابعة للمتغلب .

وحيث أن دولة حالتها هذه، فانها لم يطل أمرها، كما أنها لا ينتظر منها أن تقدم خدمة للبلد، لان ضعف مركزها زعزعها وأصبحت تنام باحدى مقلتيها وتتقى المنايا بالآخرى، وتتملق المتغلب لكي يرضى عنها .

فالقاسم المعروف بكنون، وكان يقيم بحجر النسر تابع ميسور الخصى ودان للعبيدين بالطاعة ما دام ميسور في المغرب، ثم جاء ابنه العايب احمد الذي كان يدعى بين بني ادريس بأحمد الفاضل، فكان ميالا للامويين فقطع دعوة الشيعة في جميع أعماله، وبايع لعبد الرحمن الناصر (1) .

(1) الجزء الاول ص. 176 .

(1) الاستقصاء ج.ل.ص. 178 .

ورغم هذه الطاعة وهذا الميول فإن عبد الرحمان الناصر لم يقنع منه، بل طلب منه ضم طنجة رسميا الى الدولة الاموية، أى جعلها مستعمرة في المغرب، كما استعمر سبتة قبلها، ولما أبى أبو العيش من اجابة مطالبه وجه اليه حملة مزودة بأسطول بحرى فحاصره في قلعته ملاذهم النيع اذا حاربهم الامر، وتحت هذا التهديد رضخ لمطالبه ولم يقف مطمع الامويين عند هذا الحد، فان الناصر عين واليا من قبله على فاس وذلك ما دعى أبا العيش بأن يقترح على الناصر جوازه الى الاندلس برسم الجهاد فجاز وبنى له في كل مرحلة قصرا حتى وصلت قصوره ثلاثين.

أما الحسن بن كنون الذى خاف أخاه أبا العيش على عمله في المغرب، لما انقطع هذا الى الجهاد بالاندلس، فانه ما فتى أن بايع للعبديين حينما تغلب جوهر بن عبد الله قائد الشيعة على المغرب، وكانت هذه البيعة مؤقتة بوجود جوهر في المغرب، فلما قفل هذا راجعا الى القيروان سنة 349 نكث بيعتهم وانضم الى الامويين، فبايع الناصر ثم ولده الحكم المستنصر، الا أنه عاد فنكث بيعته هذه مرة أخرى وبايع الشيعة لما حضر بلكين بن زيرى الضنهاجى الى المغرب، وعندئذ لم يقبل منه الامويون بيعته مرة أخرى، فصيروا ابيه حملة سنة 362 بقيادة قائد أموى مشهور بالنجدة والشهامة والدهاء مزودا بالاموال، وبعد معارك في أراضى فحص طنجة هرب الحسن بأمواله وحرمه من البصرة الى حجر النسر ليتحصن فيه، الا أن ذلك لم ينفعه فانه قرع عنه رجاله الذين فرق فيهم غالب الاموال الطائلة، فطلب الحسن الامان ونزل هو وجميع الادارة فغربهم الى الاندلس ولم يترك بالمغرب رئيسا يذكر .

ورغم محاولة الحسن هذا أن يعيد الكرة بعد ما طرده المستنصر عن الاندلس الى المشرق في حادثة عنبرة لم يرد أن يسلمها له، لاجل أن يسترجع شيئا من دولته تحت حماية العبديين مرة أخرى، فانه فشل ولم ينفعه طلبه الامان مرة ثانية، لان الحكم لم يقبل منه فقتله، وبموته انتهى أمر الادارة ولم يعد لهم ذكر في المغرب كأمرء أو أصحاب حل وعقد، بل اندمجوا كأهالى في الشمال .

المنطقة الثالثة :

وفي شعب بطيوه من قبائل مليية أسس ادريس آخر سنة 449
أماره ادريسية، الا أن هذا الادريسي لم ينجى الى هذه القبائل عن طريق
فاس أو حجر النسر، وإنما عبر البحر من الانطلس، وكانت لاجداده
هناك دولة وصوبة مركزها مالقة وتدعى «دولة الحموديين» .

ففي نفح الطيب، لمقرى أن ادريس بن يحيى العالى لم يكن آخر
أمراءهم (الحموديين) فقد بويغ من بعده ولده محمد بن ادريس ولقب
بالمستعلى، ثم سار اليه بادس بن حبوس (صاحب غرناطة) سنة 449
فغلب على مالقة وسار محمد المستعلى هذا الى المرية مخلوعاً، ثم
استدعاه أهل المغرب إلى مليية وبايعوه سنة 449 فظل الى أن مات سنة
470 (1)، ولذا فإنه تعتبر هذه اماره أخرى بالريف وهى احياء للامارة
الثانية، لان هؤلاء الحموديين احفاد لصاحب انريف عمر ادريس المتقدم
انذكر، وذلك أن رجلين من أحفاد عمر بن ادريس احدهما يدعى القاسم
وثانيهما يدعى عليا وهما ابنا حمود بن ميمون بن احمد بن علي بن عبد الله
ابن عمر بن ادريس كانا من جملة جنود سليمان بن الحكم الاموى وقد
رقاهما الى أن صارا قائدين على المغاربة لنجدتهما وشهامتهما، ثم ولى
القاسم وهو الاكبر أعمال الجزيرة الخضراء وولى عليا أعمال سبتة وطنجة.

ثم أن عليا هجم على مالقة باتفاق مع العبيد، فدخلها وملكها ثم
زحف على قرطبة فملكها أيضاً وقتل بيده سليمان بن الحكم بالسيف صبرا
أيام 407، وبذلك انقرضت الدولة الاموية بالاندلس ونشأت دولة الادارسة
الحموديين من هذا التاريخ واستمرت فى الاندلس الى سنة 449 وانتقلت
لأريف واستمرت فيها الى ما شاء الله فانقرضت، وقد اعتمد المستعلى فى
نقل دولته من الاندلس الى الريف على المحبة التى تغمر هؤلاء السكان
لجانب الادريسين آل أبييت الذى حفظوا دمهم الزكى الطاهر وناضلوا
عليه لانهم انعتروا الطاهرة من آل النبوة، فلذلك لما أجلى بادس بن حبوس
المستعلى هذا الى المرية طالبه شعب بطيوه بالمجيء اليه ليعتر به، وحنانا

(1) هامش العجب ص. 68 - م.ل .

أيضا الى دولتهم القديمة التي تأسست على يد عمر الادريسي جد المستعلى هذا، فهو منهم واليهم وأخوهم وأميرهم في الحقيقة، والواقع، فلم يقطع البحر الا الى وطنه الصميم ومهد أبائه وأجداده الذين طالما قاتلوا تحت رايتهم ضد الاعداء الخارجين .

فهم الذين قتلوا عدو الادارسة اللدود موسى ابن أبى العافية بضفاف وادماوية لما أجلى عن فاس الى الصحراء، ثم رجع الى اكرسيف ونكور فانقموا منه لاشراقهم الاعزاء عليهم الذين يقدسونهم .

الا أننا لا يمكن أن نجزم بما يمكن أن يكون قامت به هذه الامارة الجديدة في هذه المدة الوجيزة من الاصلاح والخير لصالح البلد .

والمعتقد أنها لم تقم بشيء لان المدة كانت وجيزة، مع الفتن التي كانت انتشرت في طول انبلاد وعرضها، فغاية هذه الامارة أنها تحصنت بجزيرة مليية يخضع لها شعب بطيوة روحيا أكثر منه عمليا لأنها من عمل يدهم وعلى الاخص أنهم داثوا عجرة موسى بن أبى العافية في حملته ضد جزيرة النكور ووحشيتها، لانه في عمله يعتبر نفسه فاتحا لبلد موانية لاعدائه الادارسة، بل هم جندهم الاقربون المخلصون وفي كتاب (1) البيان المغرب «ثم قام بالامر ولد أخيه وهو ادريس بن يحيى ابن ادريس بن على ابن حمود، وسمى بالمستعلى بالله، ثم أخذ نفسه وخرج كأنه تاجر، ففي غمارة قبض عليه وسيق الى سبتة وقتله البرغواطى سنة 444» وبناء على ذلك فان ادريس الحمودى الذى كان آخر ملوك الحموديين فى الاندلس، خرج الى الريف متنكرا وبغمارة قبض عليه لان البلد كانت عامرة بالبرغواطيين انذين احتلوا مدينة سبتة وباقى النواحي، ولذا لما قبض عليه قدم للبرغواطى فى سبتة فقتله ثم أتى بعد ذلك ولده محمد وهو الذى أسس الامارة الادرسية الثالثة بالريف، بشعب بطيوة بقبائل كرط من نواحي مليية .

المريضيون فى الريف

حصن تزوزا وبنى مريـن :

هناك غربى مدينة الناضور بحوالى 10 كلم فى الجنوب الغربى لمدينة مايلىة تقع ربوة عالية مطلة على البحر المتوسط، بينما يتسع منبسط «بوعاك» أمامها، يعززها جبل «أكسان» شمالا، ذلك الجبل الذى يخزن بين أحضانه المنبع الذى لا ينبض بمعدن الحديد الصلب وتدعى هذه الربوة «تزوزا» بمعنى القصعة باللسان المحلى، وقد بنى عليها بنو مريـن حصنا حصينا دعى «حصن تزوزا» كان معقلا لدولتهم، وفى هذا الحصن وجهوا «ضربة القاضية لدولة الموحيدين الذين انكسروا أول ما انكسروا فى مواقع ثلاثة هامة (1) موقعة المشعلة على وادى النكور التى سميت بهذا الاسم نسبة لاعشاب المشعلة التى يتميز الحل بها، (2) موقعة تازة برباط تازة، (3) موقعة سبو .

الامير عبد الحق المريـنى :

كان الامير عبد الحق بن أبى بكر بن حمامة بن محمد المريـنى أميرا على المريـنيين، وهؤلاء هم شعب قوى الشكيمة من شعوب زناتة، اخوان بنى عبد الواد ملوك تلمسان، وبنى توجين وغيرهم، كانوا ينتجعون الصحراء شتاء للصيد وركوب الخيل، وفى الصيف يضطرم قبيض الحر الى الانحياز الى سواحل الريف باكرسيـف ونواحيه، الامر الذى ربطوا صلات وثيقة فى الريف أدت بهم تلك الروابط الى توسيعها على حساب دولة الموحيدين، فانشأوا حصن تزوزا معقلا لهم، وقد شملت امارة عبد الحق هذه الجهة وأصبحت خاضعة له ومن هناك كانت قبائل بنى مريـن تنـسـن غاراتها على أطراف المغرب، حيث لا تأخذ سلطة دولة الموحيدين .

وقد زاد فى تقوية نفوذهم فى المغرب الشرقى الشمالى النكبات التى حلت بدولة الموحيدين فى عام 609 هـ. فقد اصابـت الدولة فواجع ثلاث عجت بالقضاء عليها، وقيام دولة أخرى فتية، فالاولى كانت الهزيمة

الذكراء التي نحقت بالملك الموحدى اناصر في وقعة العقاب بالاندلس، اذ هلك الحاميه العربيه عن اخرها وهلك معها جمهور من المجاهدين المعاريه، والثانيه كانت الوباء الذي اعقت تلك الوقعه، فأتى على البقيه اباقيهم، وفنى جمهور السكان، وثالثها، كانت المصيبه القاصمه التي قصمت ظهر الدوله بوفاة ابراس المدبر الملك الناصر في عام 610 هـ. وخلفه ابنه الصبى المستنصر الذي حمله شبابه على أن يغرق في اللذات والملاهي واصبحت الدوله بلا رئيس مسؤول يحس بثقل المسؤوليه .

وقد عجلت هذه الفواجع اثلاث بانقراض دوله وقيام دولة أخرى، ذلك أن القبائل المرينية العاتيه التي عاشت على ركوب الخيل وطرد انصيد، وشظف العيش، اوجفت برجلها وخيلها على قبائل أخرى فسي شمال المغرب واستولت على ما تبقى منها من المعقل والحصون، التي كانت ملئ بالملتجئين اليها من الفرع اندى أصابهم من جراء الغارات المتتاليه من طرف الصحراويين هؤلاء، أما الملك الصبى المستنصر بن الناصر الموحدى الذي كان يتلهى في مراكش، فانه بعد الصراخ المتعالى الذي كان يرسله عقلاء الاهالى اليه، والذي كان مليئا بانتظلمات من هذه القبائل الصحراويه المكتسحه لاطراف الجهات، فانه لم يعبأ بها ولم يعرهما أذنا صاغية، الا عندما فات الاوان ولات حين مندم .

وقعة المشعلة :

كان قدر للمستنصر أن يجر الخراب لدولته ولنفسه بنفسه، اذ عندما فات الاوان سرح الى بلاد الريف لمحاربة بنى مرين والقضاء عليهم، جيشا قوامه عشرون الفا فقط، وهو بالنسبة لهذه القبائل المائجة التي ترى اللذة للتصدي في طراد الخيل وركوب السنن لعبة محببة قد تتلهى بها هذه الالباليس وقتا ما، وفعلا كانت وقعة المشعلة نزهة طريفة، اذ ما وصل قائد الجيش الموحدى أبو على بن وانودين معززا بعامل فاس أبى ابراهيم بن يوسف ابن عبد المومن على العشرين الف من أولئك الجنود الى فحص الواد بوادى النكور، حتى لقيتهم تلك القبائل من بنى مرين والريف في جيش خضم من البشر يتسلقون انجبال والمسالك الوعرة، حتى كأن الارض تلدهم، بينما كانت محارم المرينيين محصنة في معقلهم المنيع

بقرضا، بمنجى من كل أذى، فما هى الا جولة أو جولتان حتى كانت الهزيمة النكراء قد لحقت بالموحدين، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وكانت النذير العريان، فقد تركوا أمتعتهم وذخيرتهم واسلابهم وامتلات بها أيدي بنى مرين والقبائل الموالية لهم، ورجع الموحدون الى فاس حفاة عراة يخصفون من أوراق المشعلة، وهى نبات يعرف عند أهل المغرب بهذا الاسم، وقد سمى ذلك العام - وهو عام 613 هـ - 1213 م - عام المشعلة، لان البلد اخضبت وأخضب هذا النبات .

موقعة رباط تازة :

أما الموقعة الثانية فكانت نتيجة حتمية للاولى، لان بنى مرين لما رأوا أنفسهم منتصرين عملوا لتصفية الحساب مع غرمائهم، وفعلا جهز عبد الحق حملة من هذه الجنود الغفيرة التى أصبحت تواقه الى التلاقى مع الاقران لكسب البطولات الحربية وللاستيلاء على الغنائم التى يخلفها أولئك الذين يلقون حتفهم أثناء المعارك، فتلاقت مع الموحدين برباط تازة فى ذى الحجة عام 613 هـ. وكان عامل تازة الموحدى على رأس قوة الموحدين المتجمعة من الجيش الكثيف والعرب وقبائل تسول ومكناسة وغيرها، فلما وقعت الموقعة قتل عامل تازة، وبقتله انفل أنجيش الموحدى ففر الجميع ولم يبق الا الاسلاب من الخيل والدخيرة غنيمة باردة لتلك الجموع المتدفقة والمفعمة حيوية ونشاطا، فقد فرقها عبد الحق فى قبائل اريف كلها ولم يدع لنفسه او ذويه شيئا منها .

وقعة وادى سبو :

لما انهزم الموحدون هذا الانهزام الشائن، كان عليهم - كسلاح آخر - أن يعمدوا الى طريقة تفرقة صفوف أعدائهم، وهى طريقة سياسية يعمد اليها قواد الحرب لتفتيت صفوف الخصم عندما تعجز القوة العسكرية أو تضعف وهكذا بدا للموحدين أن يسلكوا نفس المسلك، وقد كانت قبائل بنى مرين تنتسب الى فخذين اثنين: فخذ بنى حمامة بن محمد، هم الذين لهم الرياسة فى القبائل ومنهم عبد الحق الامير المرينى، وفخذ بنى عسكر بن محمد، وقد استطاع الموحدون أن يستميلوا اليهم

بنى عسكر من المرينيين مع عرب رياح الذين عمروا المغرب بخیلهم ورجائهم، وكانوا شديدي الشكيمة والقوة لقرب عهدهم بالبدواة انتى تركت فيهم اثرا للشهامة وتجشم المشاق، فانشق شعب المغرب على شقين، شق يناصر الماوك الشرعيين وهم الموحدون حتى ذاك الوقت، وهذا الشق هو بنو عسكر بن محمد ومن سار في ركبهم انذين ينافسون ابناء عمومهم من بنى حمامة وينقمون عليهم تفردهم بالرياسة، وقد تعضدوا بجموع العرب من بنى رياح، وشق ضد الموحدین الذين ينعنون أنفسهم حتى ذلك الوقت بالماوك الشرعيين، وهذا الشق هو بنو مرین أولاد حمامة، معززین بقبائل الريف العاتية التي ايدتهم وانغمست في الخلاف الاناشيء بين الفريقين، وكان لها القدح المعلى واليد الطولى في نتيجة المعارك السابقة، كما أسلفنا .

واذا وصلت الحالة الى ما ترى، فان الطرفين المتنازعين استعدادا استعدادا تاما لخوض المعركة الفاصلة، وقد جرب عبد الحق قومه مقدما فأمر بجمع جموعهم والقى عليهم الاسئلة التالية :

— ان العدو في جموع غفيرة، فهل أنتم مستعدون للموت ؟

— نعم: ان القضية قضيتنا ، أما الانتصار أو الموت .

— هل أنتم متحدون متضامنون ؟

نعم : نحن نجدد البيعة للامير عبد الحق ونموت دونه جميعا .

— يا معشر بنى مرین أما ما دمت في أمركم مجتمعين، وفي آرائكم متفقين، وكنتم على حرب عدوكم أعوانا، وفي ذات الله اخوانا، فلا أخشى أنلقى بكم جميع أهل المغرب، وان اختلفت أهوائكم وتشتت آرائكم ظفر بكم عدوكم .

وبعدما استيقن من صدق طوية قومه، نهض بهم من الريف قاصدا فاسا، فالتقى مع جموع الموحدین بمقربة وادى سبو على أميال من المحل الذي كان يعرف «بتافراطت»، فدارت بين الفريقين حرب لم يعهد مثلها من قبل، مات خلالها الامير عبد الحق المريني، كما مات ولده ادريس، ومع ذلك فان الامر لم يزد بنى مرین الريف الا صبرا وثباتا، فقد أبوا دفن الرئيس عبد الحق وولده الا بعد أن يأخذوا بالثأر، وهكذا استأنفوا ولم

يتركوا لعدوهم سبيلا للراحة الى أن انتصروا، فنشئت عرب رياح شذر مذر، وقتلوا منهم خلقا كثيرا وتفرق الباقي في الاودية ورؤوس الجبال وتركوا خيلهم وأسلحتهم وأموالهم غنيمة لبنى مرين الريف، وكانت هذه الموقعة الحد الفاصل والمجهود الاكبر لانقراض دولة الموحيين، ورغم أن هذه الاخرة بقيت حية بعض الوقت بعد ذلك، الا أنها كانت في النزع الاخير تستسلم تدريجيا للأقضاء المحتوم .

عثمان بن عبد الحق المريني :

كانت تولية عثمان بن عبد الحق امارة المرينيين بالريف، حادثا هاما في تحويل مجرى تاريخ المغرب الداخلى والسياسى، ففيه فكر عثمان هذا في تقوية جانب المرينيين الداخلى جديا، ولم يعان شيئا عن نيته في توليته الملك، بل بقى كما كان أبوه خاضعا للدولة الفحشية، متمسكا ببيعته حاكما للجهات التى خضعت له تحت اسمها .

الا أنه حول جهوده الجبارة لتنظيم صفوفه تنظيميا جذريا والاعتناء بضبط الاحوال فى النواحي التى تحت نفوذه، فجمع شيوخ بنى مرين وندبهم للقيام بأمر الدين، والنظر فى مصالح المسلمين بصورة عمالية وجدية، تقوم على أساس العدل والاثمارة والانفة، وأمرهم بأن يعودوا الناس على ذلك كما يعودونهم على البطولة وركوب الخيل، فأسرع الاثياخ الى اتباع نصائحه والاقتداء بعمله، وقاموا بأعمال هامة فى هذا السبيل تنفيذا لتلك الوصاية .

وفى أثناء ذلك قام برحلات متتابة فى القبائل الخاضعة له، وهى: هواره وزكاره وتسول ومكناسة وبطيوة من قبائل الريف، وفشتالة وسدراتة ومهلولة ومديونة، فتقرى القرى واتبع مسالك البلاد وأمر باصلاح ذات البين وتقوية الاخوة بين الاهالى .

وقد ملك هذه القبائل العجب مما رأوه من تبدل ما ألفوه من حكامهم الاقدمين من العسف والجور والاستبداد وعدم المبالاة واختلال الاحوال، فازدادوا تقربا الى هذا المصلح الجديد، ففتحت له القبائل قلوبها وأحبته من صميمها، لأنها رأت فيه منقذها من المفسد .

وبعد أن وطد الامن في الجهات الخاضعة له، اكتفى منها بفرض الخراج يجبيه عماله الذين فرقهم فيها بصفة مصالحين لا حكام مستبدين. أما المدن ، مثل فاس وتازة ومكناسة وقصر كتامة - القصر الكبير - فانه فرض عليهم ضريبة معلومة على رأس كل سنة، وتركهم ولم يستعمل عليهم أحدا من العمال، بل شرط لهم مقابل ما ذكر ان يرفع عنهم النغارة من القبائل المجاورة ، ويصلح سايلتها .

وهكذا انقضى عهد عثمان هذا في نشر الإصلاح وضبط الداخلية واستمالة القبائل، وقد توفي عام 638 هـ . 1240 م قتله علي غيلة كان رباها .

عين الصفا ودولة بنى مريـن المستقلة :

تقع عين الصفا في قبيلة بنى يزناسن بأريف الشرقى غربى مدينة وجدة حيال جبال تفوغالت الوعرة المسالك على رأس سهل انكاد المنبسط أمامها الى حدود البحر المتوسط، وتعمر على الضفة الجنوبية اشرقية لمصب نهر ملوية .

عندما توفي عثمان خلفه أخوه محمد المعروف بأبى المعرف، ورغم أن زمن هذا الخلف لم يكن حسنا بالنسبة لبنى مريـن، لانهم تكبدوا أوى هزيمة في موقعة صخرة بوباش بأحواز فاس بتاريخ 642 هـ ؟ 1244 م . أمام الموحدين الذين جاءوا في جيش عرمرم، يقدر بعشرين ألفا أو يزيدون، فقد اجتمعت فيه قبائل المصامدة وعرب بنى رياح وجموع الافرنج وقد كانت الاقدار نفسها عوناً لهم، فقد تردى فرس أبى معرف وسقط من أعلاه، فتمكن أحد زعماء الزنوج الذين صحبوا الموحدين وطعنه طعنة مات بها عشية يوم الخميس 9 جمادى الاولى عام 642 هـ . فلم ينج أصحابه الا ليلا، حيث تستروا بالظلام فانفلتوا الى جبال غياثة المنيعه فتحصنوا بها ريثما طاروا الى الصحراء .

أبو بكر بن عبد الحق :

بعد موت أبى معرف تولى أبو بكر بن عبد الحق أمور بنى مريـن وقد استطاع أن يضع الحجر الاساسى لاستقلال ملك بنى مريـن فى الريف بعين الصفا عام 646 هـ . 1248 م . ففى هذا التاريخ قطع أبو بكر دعوة

انفحصين أصحاب افريقيا، ودعا لنفسه، واتخذ آلة الملك، وبهذا أصبحت دولة بنى مرين ذات كيان داخلي مستقل .

ذلك أنه نما تولى الامر بعد أخيه أبى معرف، التجأ الى الصحراء مع من بقى من بنى مرين، فاتخذ رمالها وقاية من تتبع الموحدين له وهى متسهم الفسيح الذين ترعرعوا فى هضابها الرملية، حيث كانوا يطاردون غزلانها، وحيث لا يقتفى لهم الاثر، فهم فى مأمن من الاعتداء .

الا أنه لم يكد يمر عام واحد حتى جمع شتات ذويه وقومه ومن تلك الرمال استطاع أن يقود غارة على جبال زرهون ومكناس ودعا أهلها لمبايعة أبى زكرياء بن أبى حفص الحفصى، وقد فعل ذلك لاجل استمالة السكان اليه، وفعلا تمكن من اخضاع هذه الناحية وبقيت خاضعة له من سنة 643 هـ الى 645 هـ وفى هذه السنة نهض ملك الموحدين سعيد من مراكش قاصدا استئصال شافة أعدائه الالاء الثلاثة: 1 - بنى مرين، 2 - بنى زيان ملوك تلمسان، 3 - الفحصيين بافريقيا، وقد مهد لذلك بأن جمع الجموع المغيرة التى لا قبل لها، وعندما وصل الى وادى بهوت غربى مكناس، استعرض تلك الجيوش الجرارة، وقد ملكت عليه كثرتها اعجابه، ففوى عزمه على القضاء على خصومه الذين اقضوا مضجعه، ولم يتركوا له راحة .

أما أبو بكر المرينى فانه هالته كثرة المحتشدين ولم ير له قدرة على التغلب عليها ولالجل استقصاء الامر فقد تنكر ذات ليلة وذهب بجوش خلال القوة القادمة فى معسكرها فرأى بعينيه أمرا مهولا، وجمعا كثيرا، ففى صباح غده جمع أشياخ قومه وعقد مؤتمرا ودارت المحادثات التالية :

— ان جيوش اعدو فى الكثرة كما ترون، فماذا نعمل ؟
اننا نقاتل للموت ،

— ليس ذلك هو التدبير الناجع، ان موتنا يريح أعداءنا وتلك بغيتهم .

— اذن فما هو الحل الناجع ؟

— ان لنا معقلنا الذى لا يرام بالريف، فما علينا الا أن يرحل اليه قومنا جميعا، واكن بصورة فجائية، بحيث لا يعلم العدو بذلك، حتى لا يقتفى أثرنا، وعلى الاشياخ أن يتدبروا اعلام المحلات اينما كانت وان تسلك كل جماعة مسلكها الخاص، على أن تكون الملاقاة بحصن تزوسا . — اتفقنا على هذا رأى ، انه الرأى الوحيد السديد الذى يمكن لنا معه النجاة والبقاء على قوتنا الى وقت ما، وقد نفذ أشياخه هذه التعليمات بحذافرها، فقد تسابقت المحلات الى الحصن بصورة سرية .

أما الموحدون فما أن علموا بالامر حتى اقتفوا أثرهم، ولكن بعد أن توقفوا فى مكانس، حيث خرج الاهالى متذللين خاضعين حاملين الصبيان ارضع، ومقدمين الاطفال والشيخوخ العجزة أمامهم فقبلت شفاعتهم وعفى عنهم كما توقفوا فى فاس أيضا لنفس الاسباب الا أنه احتراما لمدينة العلم لم يشاءوا أن يدخاوها، بل بقوا خارجها، ثم رحلوا الى تازة، وهناك عسكر الملك الموحدى بجيوشه، وفى هذه الفترة وصلتة رسل الامير أبى بكر بن عبد الحق المرينى من حصن تزوسا بالريف حاملين اليه بيعته وبيعة قومه طالبين العفو والامان. فعفا عنهم .

ويظهر أنه لم يرد ان يتحرش بهذه القبائل التى نقل الركبان مخاطرتها فى الحروب ولانه قليل الاطمئنان الى جموعه التى جمعها أحلاسا وشتاتا من شتى القبائل التى لا تربطها به الا صلة الاسلاب والنهب، ولانه أيضا كان أمامه اعداؤه الخارجون، وهم: ملوك بنى زيان التلمسانيين وملوك النقصيين يتربصون به الدوائر، فأى خلاف داخلى فى ترابه يسدى اليهم خدمات جلى .

وهذا ما دعا أبا بكر المرينى أن يستهويه حيث عرض عليه — فوق البيعة — أن يتكلف بقتال يغمرسن بن زيان صاحب تلمسان قائلا: أرجع يا أمير المؤمنين الى حضرتك — عاصمتك — وأنا أكفيك أمر يغمرسن وافتح لك تلمسان، الا أن الملك سعيد الموحدى — جريا على عادته — استشار خاصته فى الامر، فكان جواب الخاصة «لا تفعل يا أمير المؤمنين فان الزناتى أخو الزناتى لا يسلمه ولا يخذله وانا نخاف أن يصطلحا على حربك»، وقد استجاب الملك لخاصته وأرسل اليه أن يمكث فى مكانه،

وان يمدد بجماعة من قومه فأمدّه أبو بكر بخمسائة من رجائه ساروا معه الى تلمسان تحت قيادة ابن عمه: أبي عباد بن أبي يحيى ابن حمامة، واثّر ذلك نشب خلاف بين الأمير أبي بكر وبين أولاد الوزير الوطاسي الذين اختصوا بالمعقل بعدما اتخذ المرينيون عين الصفا مركزاً لهم، فقد دبر هؤلاء مؤامرة لاجل اغتيال الأمير أبي بكر، وقد كشف هذه المؤامرة له بعض الشيوخ الوطاسيين، وبعد ما أعلموه بذلك ارتحل إلى عين الصفا مركز المرينيين من جديد، وقد كانت هذه المؤامرة التي رحل عنها سبباً لانتصاره على الموحيدين، ذلك أن سعيداً ملك الموحيدين لما ولى وجهته نحو تلمسان بعد أن اطمان إلى طاعة المرينيين ومهادنتهم التقى في موضع يقال له «تامزردكت» قرب تلمسان مع قوة يغمرسن الزياني، فدارت معركة حاسمة واسفرت عن مقتل سعيد ماك الموحيدين، فانهزم قومه واولوا الادبار راجعين من حيث أتوا، فما كان من الخمسمائة الرجال الذين أمدّه بهم أبو بكر الا أن طاروا بالنبا يعلمونه برجوع فاول الموحيدين المنهزمين ومقتل ملكهم، فاعترض أبو بكر بقومه من عين الصفا التي هي قريبة من مركز الجنود، فالتقى بهم في نواحي كرسيف، حيث جرد القوم من الآلات والمعدات الحربية التي كانت معهم وضم اليه جموع الافرنج الذين صحبوا الحملة واختص بهم لنفسه وبذلك دعم حركته وقوى جانبه، وحينئذ دعا لنفسه ملكاً على المغرب، واتخذ الموكب الملكي وضربت بين يديه البنود شعار الملوك، وذلك سنة 646 هـ. وأسرع الى مكناس فاحتلها واحتل باقي معاقل نهر ملوية، وبهذا أصبحت دولة بني مرين دولة مستقلة قطعت علاقاتها مع الحفصيين وتقاتلت تحت شعار الملك بعد ما كانت تدعو لغيرها .

أما ما كان خبأه أقدر في انتقاله من معقل تروضا الى مركز عين الصفا، فانه لو بقي مكانه لما تأتى لقومه الخمسمائة الذين شارك بهم في حملة الموحيدين على تلمسان، أن تهتبل فرصة رجوع الحشد الذي بقي بلا قيادة، وأن تقتفى أثره لاعلام أميرهم، ولما تأتى لهذا الاخير أن يلتحق بهذا الحشد ويعترض سبيله بسهولة، حيث لم يفته الاوان عندما قر عزمه على الانتقام واهتبال الغرة عكس ما لو كان بقي في حصن

تزوجوا، فانه لبعد المكان عن كرسيف بمراحل، كان لا يمكن له أن يدرك العدو المقاتل وان يأخذه على غرة ولو أطلعتم على الغيب لوجدتم أن ما فعل بكم خيرا .

الوطاسيون في قلعة تزوزا :

يعتبر الوطاسيون من المرينيين، الا أنهم فرعيون، لانهم ليسوا أولاد عبد ابحق بن محيو، وكانوا قد استولوا على حصن تزوزا عندما كان المرينيون الاصيليون مشغولين بالاستلاء على المغرب وارتياح المراكز المهمة في الدولة مثل فاس ومكناس وزرهون .

وقد كان الوطاسيون هؤلاء يدعون بأبناء الوزير، ولما احتلوا هذا المعقل كانت الرئاسة في هذا المعقل ونواحيه بيد عمر وعامر ابني يحيى ابن الوزير الوطاسي، وقد استغل الوطاسيون المذكورون انشغال المرينيين الاصيلين بالاستلاء على المغرب وانقضاء على الموحدين، فطمعوا بأن يستقلوا بنواحي الريف، وبالاخص أنهم قد نزلوا بحصن تازوزا وجعلوه حصنا ومركزا لاعمالهم، وفعلا نظموا أمرهم وجعلوا يجبون الخراج من قرى الريف وامصارها كبادس والمزمة وقد علم بنو مرين الملوك تشوق أبناء الوزير الى الرئاسة، فتوجسوا منهم خيفة وحسبوا لهم ألف حساب، ورغم أن الحالة وصلت الى هذه الدرجة في العلاقة من انفريقين، ورغم أن الوطاسيين كانت لهم السلطة الفعلية في نواحي الريف، الا أن المرينيين كانوا لا يهتمون هذا المعقل الحصين الذي لا يوجد له نظير في سائر أنحاء المغرب ، ذلك ما دعاهم الى انتقاء أصدق قوادهم ليتولى شؤون المعقل ونواحي الريف، وان يكون كفتا مخلصا للوقوف في وجه مطامع الوطاسيين، فقد اقتنفت هذه السياسة المرينية ان لا تسند الولاية الا الى أشخاص من العائلة المالكية، ففي عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني عقد لابن أخيه المنصور بن عبد الواحد بن يعقوب ووجهه الى الحصن ليكون واليا وقائدا عاما على الريف ليحد من سلطة الوطاسيين الذين كان يرجع اليهم في أمور الريف .

ثورة عمر بن يحيى الوطاسي :

وبهذا الأسلوب الذي يدعو إلى التحذر، أدرك الزرئيسان أنوطاسيان ما يراد بهما من تولية ابن أخي السلطان ولم يخف عليهما شيء من نوايا المرينيين، فاستعد عمر لمجابهة الحاجة، قبل أن يقات الزمام من يده، فأعلن الثورة ضد الوائى أجديد، ومنعه من تسلّم أمور الحصن ونواحيه .

ففى شعبان عام 691 (1291 م) أعلن عمر بن يحيى بن النوزير أنوطاسي الثورة، وشملت جميع أنحاء الريف، وطرد المنصور بن عبد الواحد، بل لم يقتصر على طرده وحرمانه من تولية مهامه التى وكلت ابيه وانما فتك بحاشيته ورجاله، واستولى على ما فى الحصن من اعتاد الحربى والامتعة التى كانت موضوعة باسم ملوك المرينيين وجيشهم، واعشار كانت مخزونة ثمة، وقام بضبط الحصن ضبطا كاملا، وحشاد برجاله ووجوه قومه من أبناء الريف الصناديد، أما المنصور فانه رجع مطرودا ولحق بالسلطان المرينى الا أنه لفرط حزنه على ما أصابه فى حشمه وقومه لم تطل حياته، بل مات غما وكيدا مما أصابه .

السلطان يوسف يهتم بالثورة :

نزلت ثورة الوطاسيين على السلطان المرينى نزول الصاعقة، وخصوصا انفتك بذوى اخوانه وجمع من قومه، فاهتم بها اهتماما بالغاء، وقد جهز جيشا كثيفا لمناجزة الثائر والقضاء عليه، ولو كلفه ذلك ما كفه، وقد سرح الجيش الى الريف تحت قيادة وزيره اناصح المخلص له: أبى على عمر بن السعود بن خرباش، فتوجه هذا لمانزلة الحصن .

عامر ينقلب :

أما عامر بن يحيى الوطاسي الذى كان مع أخيه عمر فى الحصن، فانه حدث أثناء استعداد السلطان لمهاجمة الثائر، أن لحق به فى مراکش، وعاب على أخيه عمله الثورى، ويظهر أنه هو الذى أغرى السلطان ليكون قريبا من أخيه، ليفيد فى التماس العفو عليه عند الحاجة، وربما أيضا كان افتراقه عن أخيه لم يكن الا عملا ظاهريا مصطنعا، وخدعة حربية، ومن يدري ؟

وكيفما كان الامر، فان السلطان توجه بنفسه، ليتولى القضاء على

الثورة، وشد الحصار على الثائر في معقله، أما الثائر عمر فانه لما وجد أنه لا قبل له بمقارعة السلطان، أرسل الى أخيه عامر يطالب منه أن يتوسط بينه وبين السلطان لأعفو عليه، وربما كان أعده لمثل هذا من قبل، كما أسلفنا، ولما عرض عامر على السلطان مطلب أخيه أجابه السلطان بالقبول، وتركه يصعد الى المعقل ضامنا له أن ينزل عند إرادته ويستسلم، الا أن الثائر بعدما اجتمع بأخيه في مناجاة سرية، فر ليل الى تلمسان، اختفاء حتى عن أخيه عامر الذي تركه في الحصن يضرب أخماسا في أسداس، وحمل ما قدر غايه من الذخيرة وعند الصباح سقط في يد عامر، حيث لم يجد أحاده، وخاف من السلطان أن يتهمه بانتواطىء مع الثائر، فبقتله، وكان القتل عقوبة عادية، فامتنع عامر في الحصن، واستعد للدفاع على نفسه، متمثلا في قول القائل :

إذا لم تكن الا الاسنة مركب فلا يسهل المضطر الاركوبها

ابن الاحمر ووساطته عند السلطان :

بقى السلطان محاصرا لعامر بعد فرار عمر الى تلمسان، وبقي عامر معتصما بالحصن خائفا من بطش السلطان به .

وقد سمع صاحب مالقة: أبو سعيد فرج بن اسماعيل ابن الاحمر بوجود السلطان في الضفة الغربية المقابلة لضفة الاندلس محاصرا حصن تروضا، وكان ابن الاحمر قد غدر السلطان يوسف ابن يعقوب في مدينة طريفة، وظاهر ملك اسبانيا: «سانجة» على الاستلاء على طريفة، وكانا اتفقا على اقضاء السلطان عن هذه المدينة انقضى كانت الممر الاقرب الى الضفة الغربية، وفيها كانت ترسو القوارب الحربية المحملة بالمجاهدين لغزو الاندلس .

وقد كان السلطان بتاريخ رمضان عام 690 هـ. (1290 م) احتل مدينة طريفة، بعد ما نشبت معركة حربية بين أسطول السلطان المريني ، وأسطول الطاغية، كانت النكبة أولا حلت بأسطول المغرب، ولكن السلطان جدد عمارة أخرى، وقصد طريفة، الا أن الطاغية الاسبانية تنكب أن يتأقوى معها، فانزلت العمارة المجاهدين ونزل السلطان بنفسه فيها، وغزا جهات أرض العدو، وقتل واثخن، وحاصر الى فاتح سنة 691 هـ. (1291 م)،

رجع السلطان الى الجزيرة الخضراء، ثم قطع البحر الى المغرب وبعد رجوعه تواطأ ابن الاحمر والطاغية على اقصاء ملك المغرب عن شبه الجزيرة، وكان الاتفاق فيما بينهما على ان اسبانيا تغزو طريف وتحتلها، وعندما تتخلص من امغاربة يسئما «سانجة» الى ابن الاحمر، وفي مقابل ذلك يقدم ابن الاحمر لحملة ما تحتاجه من المال والذخيرة، ويتنازل لسانجة عن معاقل ستة من معاقله المنيعه بالاندلس .

الا أنه لما ظهر للطاغية الاستيلاء على مدينة طريفه، وحيازته لمعاقل الموعود بها، غدر ابن الاحمر، وضرب باتفاقه معه عرض الحائط، فترك ابن الاحمر بعض أطرافه ندامة، ولات مندم — فلا حصونه بقيت بيده، ولا ذخيرته احتفظ بها، ولا مدينة طريفه بقيت اسلامية، وبعد ضربه اخماسا في اسداس رأى أن رد الفعل الوحيد الذى يمكن له أن يرد به على الطاغية، هو مصالححة السلطان المرينى فكون وفدا تحت رئاسة ابن عمه أبى سعيد فرج ابن اسماعيل ابن الاحمر، ووزيره عزيز الدانى، فخرج الوفد في أسطول بحرى الى أن نزل بمرسى غساسة — وهى فرضة على البحر المتوسط غربى مليلية ازاء رأس ورك فى قبيلة بنى بوغافر القلعية، وكانت مدينة عامرة، ومرسى هامة بها ترسو انفسن القادمة من العدو الاخرى، ومنها تصدر الى الضفة المقابلة — .

وقد مثل الوفد أمام السلطان فى معسكره حول الحصن، وقدم له الاعتذار عن ابن الاحمر صاحب مائقة على تواطئه مع الاجنبى .

وقد اغتنم عامر المتحصن بالمعقل وجود هذا الوفد، فأرسل اليه يلتمس منه أن يتوسط بينه وبين السلطان، ويستشفعه فيه، فقبل الوفد ذلك، وقام فعلا بمساعى حميدة، كانت النتيجة أن عفا عنه السلطان مشرطا أن يغادر المغرب تماما الى الاندلس بحاشيته وعائلته، فظهر عامر القبول والرضى وأخفى كراهية ذلك، مضمرا الفرار الى تلمسان، حيث ياتحق بأخيه عمر .

وعلاوة على قبول شروط السلطان ظاهريا، ارسل الى الاسطول الراسى بمدينة غساسة بعض جماعته فركبوا منتظرين وصول عامر، الا

أنه عندما أرخى الليل سدوله، تنكب الى جهة تلمسان، فارا بعائته وترك قومه عرضة للاقتل وانفتك بهم .

فلما أصبح الصباح، وتبين للسلطان خديعته أمر خيالة لاقتناء أثره، فطاردته الخيالة في مفازة بوعاك وصبرة، وانكاد، غير أنها لم تعثر له على أثر، الا ما كان من ولد له يدعى أبها الخيل، فانه تاخر ولحقت به الخيالة، فانتبه اليه، وبعث الى فاس، حيث قتل هناك وصلب جثمانه على أسوارها، كما استنزل من بقى في الحصن، ومن ركب الاسطول، وبعد ما جمع الجميع أمر بقتلهم، ولم يعف ولو على واحد، بل قتل حتى النساء والذراري في يوم مشهود، وتملك السلطان يوسف حصن تروضا، وانزل بها عيانه ومسلحته، وقفل راجعا الى حضرته بفاس، آخر جمادى الاولى سنة 692 هـ. (1)، وقد استمرت الثورة عشرة أشهر، لانها قامت بتاريخ شعبان 691 هـ وانتهت في آخر جمادى الاولى سنة 692 هـ.

هدية افرنج جنوى :

واثناء مقام السلطان يوسف محاصرا حصن تروضا، وفد عليه أيضا رجل من نصارى جنوى بايطاليا، مصحوبا بهدية قدمها سكان المدينة، وكان مما تضمنته تلك الهدية شجرة مموهة بالذهب على أغصانها طيور من ذهب أيضا تصوت بحركات هندسية، مثل ما صنع المتوكل العباسي، وقد تقبل السلطان من الوفد هديته، وأمن وفادته، وكان ذلك تقريبا من هؤلاء الافرنج الى ملك عظيم بالمغرب طارت شهرته الى الآفاق، وبذلك أقيمت علاقات حسنة اتصالات بين ايطاليا والمغرب .

نكبة أولاد الامير ابى بكر المرينى :

لما تم للسلطان القضاء على ثورة الريف كما أسلفنا، وكان أولاد الامير أبى بكر فى عين الصفاء حيث تركهم ابوهم المتوفى بربح عام 656 هـ. (1257 م) وقد سعى الوشاة بين هؤلاء الاولاد وبين السلطان يوسف، فوشوا اليه بأن هؤلاء الامراء يريدون الانتفاض على السلطان، والقيام بثورة أخرى، فصدقهم فى ذلك، (وليس بأقرب الى التصديق من أخبار

(1) الاستقصاء ج.7.ص.47. (طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء) .

الانتقاض على الملك، وبالأخص في تلك الظروف، وبالأخص من أولاد أمير، كان سبق أن تسلط على بعض البلدان، كما تقدم، وإذا يقال أن الملك عقيم، فهم الأساطان بأفتك بهم، إلا أنهم عُموا بذوايا السلطان فهربوا الى تلمسان، وكان ملكها يغمرس ابن زيان الزناتى، يتقبل كل لاجىء سياسى من المغرب، لان علاقته بملوك المغرب لم تكن حسنة، ويظهر أن السلطان تحقق من كذب الوشاية، فندم على ما كان عزم عليه، أو لانه رأى أن فرار قرابته اى أعدته، يفسر تفسيرات سيئة، ولذا بعث الى أولاد الامير المذكور بالامان، طالبا منهم الرجوع الى بلدهم، فاستبشروا بذلك، واقبلوا برجلهم وخيلهم، عائدين الى الوطن .

وعندما وصلوا الى صبرة موضع قرب نهر مزوية من المغرب الشرقى من بلاد الريف، اعترضهم ولده أبو عامر عبد الله ابن يوسف، ففتك بهم فتكا ذريعا، في مجزرة يندى لها الجبين، وهو يعتقد أن عمله هذا يرضى أباءه، وانه قام باهلاك عدوله، كانت سياسة الملك الظاهرة تقضى عليهم باستدعائهم، أما في الباطن فانه سيكون مرتاحا الى عمله الجرى، ولكن أبوه كان صادق انطوية، ولم يستدعهم للغدر بهم، فانزعج لعمل ولده ايما انزعاج، وحزن على ما فعله حزنا كبيرا، لان في فعل ولده معرة له داخليا وخارجيا، فهم من القرابة بالمكان، جاءوا بهامان الملك .

ولذا أعلن السلطان غضبه على ولده واقصاه عن حظيرة الملك، فانجلى هذا طريدا في بلاد الريف، وجبال اغمارة ينتقل شريدا الى أن مات بقبيلة بنى سعيد الريفية، آخر سنة 698 هـ. (1297 م) ونقل جثمانه الى فاس، حيث دفن بزاوية باب الفتوح .

وقد خلف ولدين احدهما يدعى عامر، والآخر سليمان، تولى الاول الملك بعد وفاة جده يوسف وتولى الثانى بعد وفاة أخيه عامر .

نكبة تفرسيست وأحوازها :

تقع قرية تفرسيست بين قبائل بنى توزين وبنى اوليشك وتمسامان في منخفض من الارض، تخرج فيه عين معين من الماء الصافى، تسقى منها جناتها وبساتينها، وتعتبر جنة بطيوة .

وكما أسلفنا، فان تلمسان كانت مأوى للفارين الناقمين على دولة

المغرب ورجال الحكم فيها، سواء أيام الموحدين أو المرينيين، وكان يقوم بشؤون تلمسان ملوك بني زيان الزناتيون، ورغم أن دوله بنى مرين زناتية أيضاً، وقد سبق عن خاصه الملك سعيد الموحدي أن قالوا له: «لا تقبل يا أمير المؤمنين، فإن الزناتى أخو الزناتى لا يسلمه ولا يخذله، وأنا نخاف أن يصطالحا على حربك» فإن الخلاف ظل قائماً بين الدولتين الأخنتين، لأن الملك عقيم، وكان سبب الخلاف ما كان عليه اعتقاد بنى مرين من أن بنى زيان اغتصبوا تلمسان، وأحوازها، لأنها من جملة المملكة المغربية في أيام الموحدين، فيجب أن يرثوا المملكة بأجمعها، كما ورثوا المغرب عنهم، وقد كان نفس الاعتبار بالنسبة للدولة الحفصية في إفريقيا أيضاً، وبنو مرين لم يهدأ لهم بال، ولم يستكينوا إلى الخلود ما دام هاتان الدولتان قائمتين على انقاض الموحدين في الشمال الإفريقى .

على أن مما كان يزيد في شقة الخلاف طمع سلطان تلمسان بتملك المغرب، أسوة بتلمسان، فقد كانت له مطامع في المغرب أيضاً، فعندما توفى الأمير أبو بكر ابن عبد الحق المرينى سنة 656 هـ. (1257 م) طمع سلطان تلمسان يغمرسن في المغرب، أذ ظن أنه بموت هذا الأسد من المرينيين يمكن له أن يهتبلها غرة ليطمك المغرب، في حين أن أبا حفص عمر بن الأمير أبى بكر المتوفى قد اختلف مع عمه يعقوب ابن عبد الحق، وحشر كل منهما أنصاره، للقتال على الارث الذى خلفه بهما الأمير أبو بكر وهو فى حالة غليان لم يستقر به المقام بعد، فتبارز القربيان، يقتتلان، ولكن رجحت كفة الأمير يعقوب، لأنه كان بجانبه، وفى صميم جيشه، أنصار بنى مرين الاولون، الذين على بطولتهم قامت دولتهم، وهم أبطال الريف الذين آزرُوا الدولة من أول وهلة، فهم أذ يقاتلون الآن فى صف يعقوب، فانما يقاتلون لأمر هو منهم واليه، أما عمر بن أبى بكر فإنه جمع أعياصاً لم يؤمنوا به ولا بدولته التى يحاربون من أجزائها، بل هم يعتبرون دخيلين فى صفوف هذا القتال، ولا يعنيه من الأمر إلا أنهم يتفرجون .

وسبب انحياز يعقوب للريف، أنه لما تملك الأمير أبو بكر، كان أول ما فعله أنه (1) قسم بين قومه بلاد المغرب وقبائل جبائته، وأنزل كلا منهم

(1) الاستقصاء ص. 11 ج. ث .

بناحية سوغها اياهم سائر الايام طعمة لهم، وأمر كل واحد من أشياخ بنى مرين أن يستركب الرجال .

وكان ما قطعه لآخيه يعقوب تنازرة وما والاها من بطيوة ملوية وارييف الى البحر المتوسط، فكانت هذه الجهات تعد من أقوامه وأنصاره الذين استركبهم الخيل، وعلمهم افروسية والنزال. وقد كان الامير يعقوب أول وفاة أخيه أبى بكر واستيلاء ابنه أبى فحس على الملك، اذ كان حاضرا فى فاس لما توفى أبوه، وكان يعقوب غائبا فى ولايته بتازة، أراد أن يركن انى ايلته، ويكتفى بها عن القتال عن الملك، الا أن أنصاره أرغموه على الطلب بالملك، لانهم يرونه أوبى من ابن أخيه .

وقد يكون من دواعى ذلك أولا: ما أسلفناه من أنه كان دربهم على افروسية، وثانيا، لانه حفيدهم، فأمه ريفية صميمة من بطيوة، تدعى أم الايمن بنت عنى البطوى، وثالثا: فان استلاء عنى الملك معناه أنهم الوزراء والانصار وأصحاب الكلمة العليا فى الدولة، شأن ذلك شأن جميع الامم .

فلم يجد الامير يعقوب بدا من اجابتهم، والقيام بالامر، فبويع بتازة ونهض باتباعه الى ملاقاته ابن أخيه، وكما أسلفناه من كون هذا الامير جمع الاعياص والشذاذ من الناس، فانه لما رأوا قوة الامير يعقوب، خذلوا أبا حفص، ففروا عنه من دون قتال، فرجع الى فاس مفلولا، واكتفى من الغنيمة بالاياب، وطلب من عمه أن يقطعه مكناسة، وينزل له عن الامر فأجابه لذلك (1) .

تقدم ان يغمرسن ملك تلمسان، كان يطمع فى المغرب، ولذلك فانه انتبذ هذا الخلاف، وجمع قومه من بنى عبد الوادى، وآزرهم بقبائل بنى توجين ومغراوة وأطمعهم فى الاسلاب والمناصب، ووعد ومن، فقادهم جيوشا جرارة، ودخل المغرب الى أن وصل الى موضع يدعى «كلدمان»، ولكن السلطان يعقوب كان قد أنهى خلافه مع أخيه، فجمع قوته، وصمد له، فكانت الغلبة للامير يعقوب، ورجع يغمرسن على أعقابيه .

(1) الاستقصاء ج. ث. ص. 20 .

الا أنه لما كان أمر قوات الامير يعقوب مرجعه الى الريف، وهم الذين هزموا يغمرسن، فان هذا الاخير اراد أن ينتقم منهم، فلما رجع من معركة كدمان، دخل قلب الريف وعسكر في قرية تفرسيت، وجعل ينتقم ويحرق ويقتل ويهتك الاعراض، ويسبى النساء، ويرسل قواته الى جهات مختلفة من الريف، مطلقا لها العنان للتخريب والتتكيل، فلم يدعوا وحشية الا ارتكبوها، وكانت نكبة عظيمة لحقت بالريف، وعندما أشبع وحشيته قفل راجعا الى تلمسان، وذلك سنة 658 هـ. (1279 م) .

الحياة الاجتماعية في مختلف فترات تاريخ الريف

يضم هذا الفصل جملة من العلماء والقضاة، والصلحاء، وأهل البيت من الشرفاء، الذين تواجدوا في الريف في مختلف الفترات من التاريخ .

كما يضم النص الكامل لمخطوط من مخطوطات عصر مدينة بادس، التي ازدهرت أيام الموحدين والمرينيين، وذلك كله لاثبات الحياة العامة الراقية في ذلك التاريخ .

الوسط الاجتماعي للريف :

بعد الموجز عن الاحداث السياسية في عصر مدن النكور وبادس والمزمة، يجدر أن يكون ختم هذا القسم، بسرمد بعض رجال العلم والتصوف والشرف في الفترة التاريخية التي عاشت فيها تلك المدن للنظرة السريعة التي أردنا القاء الضوء بها ولو بصيما عن الحياة العامة، قبل أن نلم بالاحداث الكبرى التي هي محور هذا الكتاب، وهي أحداث الحرب التحريرية الريفية، ليكون وقع اخبارها لدى القارئ خالصا مستوعبا ولو باجمال لماجريات تلك الحياة، وكيف كان أثرها عند السكان الذين حجبته تلك الجبال الشاهقة في فترات التاريخ، عن معرفتهم لدى غالبية سكان الجنوب، حتى أنه أقصى ما وصلت اليه معرفتهم بهم أنهم أناس يخشى بأسهم، وأنهم في حياة لا تطاق، من حيث عدم الاستقرار، ذلك ما دعاهم الى أن يدعوها بلاد السيية، وعسى أن تكشف هذه العجالة من القول على عكس تلك المعتقدات التي ظلمت قوما، لهم في مكارم الاخلاق والصفات النبيلة ما لغيرهم من أبناء جلدتهم من البرابرة والعرب، والذين تشبثوا بحياة الدين الحنيف الى الرمح الاخير .

وهذه ترجمة بعض أولئك الرجال غير العائلة الخزرجية التي تقدم الكلام عليها مستوفى .

أبو يعقوب البادسي: (17 دى الحجة 1164 11 ربيع الثانى 734هـ.)

افتتحت هذه السلسلة من العلماء والصلحاء بهذا العالم الصالح الفذ فأذكره أولا: تبركا به وان كنت سأخصه بنشر مخطوط كامل عنه وعن التعريف به وبمناقبه في آخر التراجمة اختتاماً به، نظراً للفائدة الهامة في هذا الموضوع، إذ أن المخطوط، زيادة عن كونه يفيدنا عن حياة المترجم له وباعه في العلم والتصوف، فانه يلقي ضوءاً ساطعاً عن الحياة في ذلك العصر، وبالاخص ان المخطوط من بنات فكر فحل من فحول علماء فاس وقاضى الجماعة فيها في وقته، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد الاوربي، الذي عرف به صاحب كتاب سلوة الانفاس - جلدث - ص. 301، كما عرف به أيضا صاحب النيل ومؤلف جذوة الاقتباس .

وفى المخطوط ذكر لبعض رجال ذلك العصر، ممن لهم اتصال بالترجم، أو لهم احتكاك برجاله .

أبو يعقوب بن الشفاف البادسى :

هو يوسف بن الشفاف البادسى أصله من قصر كتامة - قرب القصر الكبير - وكان من أعيان وجهائها، فرفض ذلك الجاه، وخرج مهاجرا الى بادس، وسكن بها الى أن توفى فيها رحمه الله .

تاريخ حياته : كان حيا زمن القاضى اسماعيل الخزرجى، فقد قال هذا دخلت عليه يوما فأخرج لى ورقة من كتاب المستصفى وقد أحرق وسطها، فقال لى أجبر هذه الورقة، فقلت له وما حرقها، فقال لى كنت البارحة أنتظر فيها فقربت من القنديل فسقطت عليها نقطة من الزيت، فأردت أن أنشفها لشعاع السراج، فاحترقت .

وبما أن القضى اسماعيل توفى عام 685، فإنه يكون أبو يعقوب هذا حيا فى أواسط القرن السابع الهجرى .

مكانته العلمية والصلاحية :

قال القاضى اسماعيل، كان الشيخ أبو يعقوب الشفاف عالما بالفروع والاصول وكتب التصوف، وكان أوجد زمانه ورعا، وعرف به صاحب المقصد الشريف، فقال: محكم الاصول والفروع، المحافظ على كل مسنون ومشروع الشيخ الفذ، وكان كثير الحياء .

وحكى عنه خديمه الشيخ الصالح المؤذن يوسف بن عبد الله، قال: أقام سنين لا يرفع رأسه حياء من الله، وفى بعض الليالى يسألنى هل السماء مصحبة أو مغممة، فأخبره بحالها .

تحكى عنه كرامات سخرها الله له بسبب صلاحه وتقواه .

وأبو يعقوب هذا غير أبى يعقوب يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلي المعروف بأبى يعقوب البادسى المعروف بأبى الغماز صاحب الضريح بالمصلى ببادس، خلف قبر أبى على المراكشى، وان كان كل منهما عاش زمن القاضى اسماعيل، إلا أن الذى يؤخذ من ترجمتهما معاً، أن أبا يعقوب ابن الشفاف أكبر من أبى يعقوب الزهيلي ابن الغماز،

فالأول كان شيخا للقاضي اسماعيل، والثاني كان تلميذا له، وهذا الأخير سيأتى التعريف به بنشر ترجمته برمتها، التى ألفها أبو عبد الله الأوربى.

الشيخ أبو على الحسن الخراز :

أصله من أهالى مالقة بالأندلس، وكان فى بادئ أمره مشغلا خرازا ينسج الديباج، وتزوج بمالقة ببنت عمه، وهو ابن أخت أبى العباس القنجيرى الملقب، وفى آخر حياته رفض الدنيا وخرج من مالقة مهاجرا الى مدينة بادس، (مقر الصالحين)، وحين وروده على بادس كان عمره حوالى ثمانين سنة .

اعتكافه : وقد نزل فى رباطة البحر ببادس، فاعتكف بها مدة من الزمن، وبسبب وجوده فى هذه الرباطة لاحظ النازلون خصب العيش فيها، وذلك أنه لا يصل قارب من قوارب التجارة الى مرسى بادس الا بادر باعطاء هدية الى فقراء الرباطة، وكانت هذه العادة جارية عند وراد هذه المرسى .

بركاته فى هذا الشأن : وكان له خديم يدعى موقفا، وحكى هذا أنه فى يوم من أيام اعتكافه بهذه الرباطة ورد قارب من أنشيلية الى بادس موسقا بالتين والزيت، مارا بذلك الى جهة وهران، فأقلع القارب ولم يعط شيئا للرباطة، فأتى الخديم الى الشيخ وأعلمه بأن القارب أقلع من المرسى من دون أن يعطى رسوم الرباطة، فقال له الشيخ لابد أن تأكل من تينه وزيته، فردته الرياح الشرقية التى عاكست القارب الى مرسى يالش، وهذه المرسى الى غربى بادس، فمكث هناك الى أن ساعدته الرياح، فسافر فأعلم الخديم الشيخ، وقال له هذا لابد أن تأكل من تينه وزيته، وفعلا قامت ريح عظيمة فردته الى يالش بعد أن تكسرت بعض الواح القارب، فأرسل وكيلا له الى بادس لشراء الخشب لاصلاحه، فأعلم الوكيل بقولة الشيخ فبادر الى ارسال التين والزيت، وحينئذ سهل عليه السفر .

سفره الى سبتة : ومع كبره كان يسافر الى سبتة عن طريق البر، فقد حكى المؤذن يوسف أنه تلقاه فى سوق مسطاسة — وهى قبيلة جبال صنهاجة بادس غربيا —، فقلت له ما حاجتك هنا، فقال أريد زيارة

سبته ثم اشتريت له خيارا وذهب، وقد تلاقيته بعد ما رجع الى بادس فسأله أين بات، فقال أنه بات في ترعة - وهي مرسى في آخر قبائل غمارة - والمسلك اليها وعمر كثيرا بالجبال والصخور، لا يقدر على سلوكها أقوى الأشخاص، فكيف لمن جاوز الثمانين .

حياته : كان حيا في حدود 685 هـ. وذلك يؤخذ من قول المؤذن يوسف، وهو أبو الحجاج يوسف المؤذن، انه تلاقاه في سوق مسطاسة، لان هذا المؤذن كان حيا في هذا الوقت بالذات، وهو تاريخ وفاة القاضي اسماعيل الخزرجي، فقد قال الشيخ عبد الحق بن اسماعيل، القاضي أن أبا الحجاج يوسف المؤذن تولى غسله وأنا أصب عليه الماء، فلما كشف عن وجهه رآه اشراقا وبهجة فقبله بين عينه وبكى .

أبو الحسن علي بن محمد المراكشي نزيل بادس :

هو مراكشي أصلا، نزل ببادس بعد ما رحل الى المشرق وحج، فقد قال عن نفسه في كتابه «مناقب الاولياء» قعدت يوما بمكة أنظر فني البيت وأتفكر فيه وأرى له أربعة أوجه والناس يصلون الى كل جهة فيه، فألهمني الله تعالى الى أن قرأت : فأينما تولوا فثم وجه الله .

مكوثه بمصر :

وبعد الحج رجع وبقي في مصر باحثا عن الاشياخ الصالحاء، فقد قال عن نفسه أيضا في كتابه المذكور، سكنت بقوص مدة فذكر لي عن شيخ في الاقصو يعرف بأبي الحجاج يوسف الاقصو، فأردت زيارته، فتخلفت عنه أياما، فنمت يوما فسمعت قائلا يقول لي قم الى الشيخ يوسف فانه خرج ليجمع بك، فلم أكذب - أي الرؤية - فخرجت أما أن ألقاه وأما أن أمشي الى منزله على وجه الزيارة، فمشيت على ساحل النيل حتى انتهيت الى موضع المعديّة، الى أن أتى على الحكاية التي ذكره فيها أنه لقيه ثمة، وانه طلب منه نصيحة شافية، فقال له عليك بمحاسبة نفسك ومراقبتها، وعليك بالصمت بين يدي العلماء، وعليك بالتواضع وقلة الدعوى ثم انصرف .

زيارته لبيت المقدس :

حدث عن نفسه في الكتاب المذكور، قال: مشيت الى بيت المقدس (وذلك في صدر المائة السابعة) وأقمت فيه يوما، وخرجت الى زيارة أبينا ابراهيم عليه السلام، فأتيت الى قبره، وهو مدفون في مسجد صغير، فصليت ركعتين ثم خرجت لاسلم عليه، فاذا انا بثلاثة نفر وهم يتلون هذه الآية: «وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه الى الظالمين» وهم يكررونها فسلمت عليهم وبقيت متعجبا من كونهم لم يجدوا ما يقرءونه على أبينا ابراهيم الا هذه الآية، فأتى الى رجل منهم، فقال يا هذا لا تعترض نحن من قومه الخ .

رجوعه الى مصر :

قال دخلت سنهورا (1) بينها وبين الاسكندرية يوم وبعض يوم، فركنت وتجردت للعبادة، فأويت الى مسجد آخر البلد، فاجتمع حولى فقراء بغير اختيارى وكانوا لا يبرحون عني وضيقوا على في العبادة، فعزمت على الانتقال الى بلد غيرها، فلما كان العشاء الاخيرة من ذلك اليوم رأيت رجلا دخل علينا المسجد وأولئك الفقراء قعود، كل واحد في موضعه، فأخذ الرجل بيدي وأخرجني من المسجد، وقال لى امش معى الى أن قال وأخذ بيدي وأدخلنى الى منزل في غرفة لم أجد فيها الا حصيرة من الحلفاء أقعدنى عليها، ثم دار في زاوية الغرفة فأنزل بين يدي عسل نحل ولبنا معقودا وخبزا حارا، فواكلنى ثم قال، فسألته عن اسمه، فقال اسمى زرغام بن مخلوف، فقلت له ما حرفتك، فقال لى قزاز وبعده أراد الانصراف فقال له الضيافة ثلاثة الخ ...، ثم تركه عنده شهرا كاملا وقال قلت متمثلا: نزلنا على أن المقام ثلاثة فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا

تيهه في صحراء مصر :

قال: صاحبني شاب اسمه يوسف، وكان ذاتية، وحرفته يدور ويطعم الفقراء، فلما كان ذات يوم، خرجت للسياحة، ففطن بى فتبعنى

(1) سنهور بلد بمصر .

وبيده أبريق لا غير، فسأنى فعله، فقلت له ما حملك على هذا — أى صاحبتة — ارجع الى الفقراء، فلم يفعل ورغبنى وبكى، فتركته معى وكنت أردت أن أصل الى أسوان الى رجل يعرف بالهرغى، واسمه عبد الله وكنت رأيته بقوص، فمشى معى الشاب ونحن على ساحل النيل لا نفارقه، ثم وصلنا الى موضع بدمامل فبتنا فيه عند رجل من الفضلاء اسمه مفرج، والشاب يوسف معى لا يفارقنى، فلما كان فى السحر أردت المشى الى الاقصو، فسرقتنا طريق صغيرة والشاب معى، فما شعرنا الا ونحن فى صحراء والغزلان أمامنا، اذا بوادى، ثم انقطعت عنا الطريق التى أخذنا عليها، فلم نعلم حيث نحن من الارض، فسرنا النهار كله فبتنا ثم أصبحنا وتيممنا وطينا، ثم مشينا الى وقت الزوال وقعدنا الى الارض، ولا شىء بقى من الشمس، وأخذنى العطش الشديد، والابريق بيد الشاب يوسف، فقلت له أصابنى العطش، فقال لى ياسيدى اقعد مكانك فتوارى عنى، ثم أتانى وابريقه مملوء ماء، ثم قال: فقلت والله لا شربت من هذا الماء نبيئا حتى تعرفنى، فقال لى يا سيدى انى أعرف فى هذا الموضع مكان الماء الخ القصة، حيث شربا وتوضيا ثم قعدا الى صلاة العصر، ثم مشيا الى المغرب، فباتا تلك الليلة قال ولم نعلم حيث نحن، فلما أصبح طينا الصبح ومشيننا حتى رأينا النخيل، فلما خرجنا من النخيل عرفنا البلاد الذى هو الاقصو، فبتنا تلك الليلة عند الشيخ أبى الحجاج الاقصوى، ثم مشينا الى أسوان، وكان قريبا من العيد الكبير، فعيدنا عند الشيخ أبى محمد الهرغى، ثم أراد الشاب أن يمشى، فخليت سبيله، وهو الآن بمكة يبعث لى السلام مع كل من يعرفنى .

رجوعه الى المغرب :

بعد رحلته الى المشرق رجع الى المغرب، وقد اختار أن يستقر فى مدينة بادس، لانها مقبرة الصلحاء، كما قال، فقد حكى تاجر ببادس كان يدعى محمد بن ادريس، وكان يتردد بزورقه على مراسى البحر الابيض المتوسط لوسق سلعه مع ابن عمه الرئيس يوسف البحرى، قال كنا حملنا فى قاربنا خشبا من بادس برسم التجارة — أى الى مرسى هينين بنواحي

الجزائر — فلما بعنا وحضر سفرنا، أتاني شيخ رضى بهي السيمة، فقال لي من أين جئتم فقلت له من بادس، فقال نعم بادس مقبرة للصالحين، ثم قال لي وأي وقت تحاولون الرجوع إليها، فقلنا له الساعة، فأنا مسافرون إن شاء الله، فقال إن بدا لي التوجه صاحبكم إليها في قاربكم، قلت له نعم، فقال لي أنا ومن معي وهي مملوكة، فقلت له أنت ومن معك، قال فعرفت إذ ذاك شريكى وابن عمى الرئيس يوسف وكانت فيه شراسة، فقال لي ما يطلع معنا إلا بالكراء فقلت له قد أذنت له في طلوعه، ولا يمكن نقض الوعد معه، فحاسبني بواجبك من الكراء عليه، قال فأتى الشيخ أبو الحسن وخادمتهم فطلع معنا في القارب وأقلعنا من هينين وسرنا فأصبحنا يوماً على حرف بادس فنظرنا في الغبش، فرأينا شيطياً — باخرة — حربياً قاصداً إلينا من البر فدهمنا أمر عظيم، وسار بعضنا يمشي في بعض، والشيخ أبو الحسن واضع رأسه بين ركبتيه، فسمع ضجيجاً وما نحن فيه، فرفع رأسه وقال ما شأنكم، فقلت له أظنك مصاباً في عقلك، نحن الساعة أسارى للعدو، ثم قال فقام فكانت منه التفاتة إلى جهته، فرأيته قد أمسك طوقه بيده، وأخذ به كالخائف لنفسه، ثم رفع رأسه إلى السماء، قال فغشينا في الوقت ضباب كثيف لا يكاد الإنسان يرى يده، وهبت علينا ريح طيبة سوائع، فغاب عنا الشيطى وما كان إلا يسير حتى وصلنا إلى بادس سالمين.

حالاته ومكوثه ببابس :

نزل ببابس بعد رجوعه من المشرق كما تقدم، فأقام بها محترفاً بالخياطة، وكانت هيئته في لباسه كما حكى القاضى اسماعيل، قال قدم على بادس الشيخ أبو الحسن على بن محمد المراكشى، وعليه جبة صوف خضراء رائقة اللون، واحرام صوف تلمسانى، وعمامة بيضاء، ونعلان، طليطلان، وهو شيخ بهي رضى يظن من رآه أنه أحد عمال الموحدين، وكانت له مملوكة سوداء تعمل الخبز وتبيعه .

وكان يجالس تاجراً بزازا اسمه على بن محمد الزهيلي، ويعرف بالنعجة، فكان يعطيه أثواباً من حانوته يخيطنها له بالاجرة وما زال متستراً بما ذكر حتى مات رحمه الله .

تأليفه :

له تأليف سماه كشف النقاب، فى مناقب الشيخ الاواب الحاج
حسون المبين فضله لى كل من أناب — لم نعثر عليه، وقد ذكر فى مخطوط
للجلاب فى مناقب الشيخ حسون — .
وله تأليف آخر سماه «مناقب الاولياء وصفة سلوك الاصفاء»
(مذكور فى المقصد الشريف فى التعريف بطحاء الريف لعبد الحق الخزرجى)،
وقال انه نقل عنه فى كتابه طبقات الاولياء، كما نقل فى مقدمة المقصد .

وفاته :

أقام ببادس فى حدود الاربعين وستمائة 640 هـ. وذلك انه لما رجع
من المشرق استقر ببادس وتستر بالخياطة واللباس الفاخر الى أن توفى
ودفن بالمقبرة التى بمشرق بادس، وقبره مشهور بها يزار ويتبرك به،
وكانت قصة وفاته كما يأتى: كان التاجر البزار الذى كان يأخذ منه الثياب
ليخيطها له بالاجر، يتهمه بعلم الكيمياء، فكان يبالغ فى اكرامه والبر به
للطمع، وذلك ان مملوكته السوداء الخبازة كانت تشتري القمح بدراهم
سكة جديدة ليست من سكة ذلك الوقت، وكان الشيخ المراكشى يسكن
برباط «تمدى»، (لفظة تمدى هو اسم النسر بالريفية) بمقربة من البحر
فى غرفة هناك، فلما حان وقت وفاته، وكان على بن محمد النعجة الزهيلى—
أى التاجر — اماما فى مسجد المقبرة، وكان ذلك الوقت وقت صلاة الظهر،
فقال له يا أبا الحسن، قم صل بالناس، فان اجماعة تنتظرك، فقال له
يا سيدى لا أريد فراقك — يظهر أنه كان مريضا مرض الموت وان لم يرد
فى النص ذلك — فقال له قم فان قدر لك رزق فى شىء ادركته، (فهم الشيخ
غرض التاجر من مكوثه معه وهو ان يحوز دراهم الكيمياء عند موته قبل
أن يعلم بموته أحد). فذهب للصلاة فلما عاد وجده ميتا رحمه الله، فلم
يجد عنده شىئا غير كتابه المعروف بمناقب الاولياء وصفة سلوك الاصفاء.

الشيخ أبو الحجاج يوسف القصرى

كان من الشيوخ الملتزمين برباطة البحر يتعبد فيها مستترا

بالاصطياد في البحر، وذلك أنه كان يتعيش من البحر، يذهب كل يوم بسلة يصطاد الحوت ليقتات منه .

عادته: كان من عادته الصيد في البحر، كما أثرنا، وذلك لجرد الاقتيات، ومن عادته أيضا أن يذهب الى سبتة في كل شهر رمضان ليقضيه ثمة صائما .

مناقبه : حكى عنه الشيخ أبو علي ارحسن بن هنا البادسي الزهيلي (يظهر أنه من عائلة أبي يعقوب البادسي)، قال: حدثني يوسف بن احمد البادسي، أنه اتفق أن سافر هذا الاخير الى سبتة في شهر رمضان، قال وبعد ما صلينا ليلة 27 من رمضان عزمت غده وكان يوم الجمعة أن نسافر بعد صلاة الجمعة، فتلاقنا الشيخ يوسف القصير، وقال لي متى تسافرون، فقلت له بعد صلاة الجمعة، فقال أنا أسافر معكم ان شاء الله، فأحضر اسقاطا له قليلة من متاع البيت، قال فلما صلينا قلنا له اركب معنا فقال ظهر لي أن أصلى العصر هنا مع المسلمين، سيروا في حفظ الله، قال يوسف البادسي، فلما وصلنا الى مرسى يليس قرب مدينة بادس في نصف الليل بتنا فيها الى السحر، ولما وصلنا الى مرسى بادس في الغبش رأينا ماشيا على الساحل قاصدا الينا، فاذا به الشيخ أبو الحجاج القصير، فأخذ ماعون بيته وذهب، قال وذهلت ان أسأله الى ما بعد مدة تذكرت فقلت له في ذلك فقال نعم وما أبطأني الا بقرة وجدتها لبنى يذر، ذلك أنه في تلك الليلة ضاعت بقرة لأولاد يذير بنواحي مرسى يليس فبقى أولاده عامة الليل يبحثون، فلم يجدوا لها أثرا، وعندما رجعوا الى دارهم ويئسوا منها، فاذا هم مناد من الخارج يا بنى يذير اخرجوا الى بقرتكم، ولما خرجوا وجدوا البقرة ولم يجدوا معها أحدا، وكان ضياع هذه البقرة هو سبب عدم ركوب الشيخ أبي الحجاج في الزورق لكي يعثر عليها ويردها لاربابها.

حياته : كان حيا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري،

لأن الشيخ أبا علي الحسن بن هنا، كان في حياة الشيخ عبد الحق البادسي الذي كان حيا في أوائل القرن الثامن الهجري وقد حكى في ترجمة أبي الحسن المراكشي أن ابن هنا هذا كان شيخا مسنا .

الشيخ أبو زكرياء حسون بن علي البادسي :

عرف به صاحب سلوة الانفاس (1) فقال: هو الحاج الابي الولي الصالح الزاهد الورع المتقشف .

حياته ووفاته : وهو بادسي مولدا ومنشأ وقرارا، الا أنه في أواخر حياته زار غاسا وبها توفي في أواخر القرن السابع الهجري، حسون ليس هو الشيخ ابا علي الحاج حسون الادوزي، الذي كان شيخ وقته في التصوف والكرامات، فهذا الاخير من بادية قبيلة بقيوة كما سيأتي التعريف به مفصلا، والمترجم له هنا هو من أهالي بادس، ولم يعرف شيء عن حياته الا ما تقدم عن صاحب سلوة الانفاس من الاوصاف، وما يذكره صاحب المقصد الشريف من كون والد الشيخ عبد الحق اسماعيل مهره اذ تزوج ببنته، لانه كثيرا ما يقول في الكتاب المذكور، حدثني خالي ان حاج يحيى بن حسون .

ولده الحاج يحيى :

وكان ولده هذا في أول أمره مسرفا على نفسه، وكان من شبان مدينة بادس المترفين الذين مالوا الى التكسب والاحتراف الى أن هداه الله الى ترك ما هو عليه من الترف، وكان سبب ذلك أنه طالع كتاب الشيخ أبي الحسن علي بن محمد المراكشي في التصوف، وبالاخص ما حكاه عن الشيخ أبي الحاج الاقصوري من الكرامات، فتاقت نفسه الى الهجرة الى مصر لزيارة الشيخ الاقصوري .

رحلته الى الحج : فعلا فقد رحل الى المشرق التي هي سنة الصالحين في ذلك الوقت وزار زاوية الشيخ الاقصوري وقبره وسأل عن وارث سره، ف قيل له انه الشيخ الشماس النوبى، فذهب اليه، وكان الشيخ الشماس هذا مكفوبا أسود اللون فبقى عنده الشيخ الحاج يحيى وخدمه خدمة قيل عنه أنه لم يكن بالزاوية أكثر منه مجاهدة وتقشفا وانقطاعا، وفي هذا الاثناء حج الى بيت الله الحرام، ثم رجع الى المغرب ولم يعرف أنه رحل رحلة أخرى .

مشايخه : أخذ الطريقة عن الشيخ الشماس النوبى المتقدم الذكر، وقال عن نفسه أنه تلاقى فى تلك الرحلة مع الاكابر من أصحاب الشيخ أبى الحجاج الاقصوى، منهم احمد بن الخطيب، خطيب منى وأبو الحسن الافواهى وغيرهما .

بعد رجوعه : وبعد رجوعه حاول ان يتكسب من التجارة، فأخذ رأس مال للتجارة من شخص يدعى احمد بن على البطوطى، وجعل يتاجر، الا أنه لم يفلح فى التجارة، بل اثقل كاهله برأس مال البطوطى الذى تلف له، ثم تذكر ان العهد الذى أخذه عن شيخه الشماس الخروج من الدنيا عند فراقه له، فاقطع عن التجارة ولبس المرقعة، وتعيش مما يفتح الله به عليه، وما زال كذلك الى أن رحل الى قاس ومات بها كما تقدم، وهو من أهل القرن السابع ووفاته كانت فى أواخره (1) .

أبو العباس احمد بن يحيى بن سعيد :

كان رجلا عبدا لا ينام لاجتهاده، وكان يلزم الصلاة فى مسجد بادس وقد حكى عن نفسه أنه كان يسمع من أبى عبد الله محمد بن انصان العالم الكبير، أن قبلة مسجد بادس مائلة عن القبلة الى المغرب، قال مؤلف المقصد الشريف، وما زلت أراه هو والشيخ أبا عبد الله بن الصبان فى حالة الصلاة، ينحرفان الى المشرق .

حياته : كان حيا زمن الشيخ عبد الحق بن اسماعيل الخزرجى الذى تقدم انه كان حيا عام 722 هـ . ويستفاد من رواية الشيخ عبد الحق أن هذا الشيخ كان أكبر منه سنا، وكان يقتدى به حيث قال انه رآه والشيخ الصبان يميلان عن المحراب الى المشرق .

صلاحه : حكى عن نفسه أنه ذات يوم كان يتأمل فى انحراف القبلة فى المسجد، قال فحركنى رجل الى جانبه فرفعت رأسى فأشار بيده وقال القبلة هكذا، فنظرت فرأيت الكعبة، قال فطلبت الرجل فلم أجده، والله أعلم .

(1) من سلوة الانفاس صحيفة 317 - ج - لث .

أبو القاسم سيدى أحمد بن يحيى البانسى :

عرف به فى سلوة الانفاس وقال انه كان يعرف بأبى كماشة، كان بفاس توفى فى رابع محرم عام 1100 هـ. ودفن فى فاس بعرة الخياط رحمه الله .

الشيخ أبو شعبان اليرزيجا :

كان أسود اللون أبيض القلب، يعرف ببوشعبان، ورد على بادس وتعبد فى رباطاتها، ولم يعرف بلده الذى أتى منه الا أنه كان معروفا باغترابه، وقد لازم التعبد فى رباطة البحر، وممرض فيها مرة مرضا أشرف على الموت .

مناقبه : حكى عن نفسه أنه لما مرض فى رباطة البحر حتى أشرف على الموت سقطت قواه ولم يقدر على التحرك، قال ولما كان بعد جزء من الليل دخل على شخص لا أعرفه ببادس، وأتى بطعام، فقال لى كل فاشرت اليه انى لا أقدر، فاطعمنى بيده، فانتعشت فى الحال وبقيت متصرفا فى مصالحى بعد ذلك، وأنا أعرف جميع أهل بادس، فلم أعرفه فيهم .

انتقله الى سبتة ووفاته بها: بقى ببادس برباطة البحر، وكان الصبيان يتبعونه ويقولون ارحم بوشعبان فيبتهج لذلك ابتهاجا حتى صار يعرف بكلمة ارحم بوشعبان، ثم انتقل الى سبتة ولزم الاذان فى مساجدها المختلفة الى أن توفى رحمه الله، ولا يعرف تاريخ وفاته، الا أنه كان حيا أواخر القرن السابع الهجرى .

الشيخ أبو العباس احمد بن الناهظ :

لا يعرف مسقط رأسه. كان شيخا فاضلا صاحب يقين واخلص يؤثر عن نفسه ولو كان به خصاصة وعالما حليما مجاب الدعوات، الا أنه كان من عادته أن لا يدعو لاحد الا بشرط شىء معين يدفعه طالب الدعاء . رحلاته : كان يجوب أقطار المغرب ولم يعرف عنه أنه ذهب الى المشرق، كما كان يتردد على سبتة وذلك كله للتعرف على الصالحاء

والعلماء، كما كانت العادة في ذلك الوقت، وقد رحل الى فاس ورجع من هناك قاصدا سبته، وكانت معه كتبه العلمية والدينية، فقد حكى الشيخ أبو محمد عبد الله بن البرائس على البيهقي قال أتى ابن الناهض من فاس قاصدا سبته، فنزل عندنا بمنزل تازجا الى أن قال فأمرهن بتثقيب اسقاطه وكتبه .

مناقبه : قد قدمنا انه كان مجاب الدعوة، الا أنه كان يشترط شرطا معيناً يأخذه من طالب الدعاء لقضاء مآربه، ومن جملة ما وقع له في ذلك مع الشيخ حسون بن علي والد الشيخ الحاج يحيى قال كان لابي أخ يدعى محمد بن علي أسر في مالقة، ففيل له أن الشيخ ابن الناهض له دعاء لقضاء الحوائج، فذهب اليه، فقال له تعطي أربعين دينارا ويخرج أخوك، فقلت له عسى أن تخفف عني، فقال لا يخرج بأقل من أربعمئة دينار، قال فذهبت فلم أستطع اخراجه الا بأربعمئة دينار، وقضيت العجب من ذلك .

كما حكى عنه أنه كان بسبته رجل قزاز وله ولد في مالقة سافر اليها، فما زال أبوه يطلبه بالرجوع وهو يمتنع، ففيل أنه أتى ابن الناهض فطلب منه الدعاء لرجوع ولده، فقال له تعطي ربع قنطار من السميد قال ففعل، فأول ما أتى جفن من سبته وصل ولده فيه .

حياته : كان حيا أوائل القرن السابع الهجري لانه عاشر حسون والد الشيخ يحيى الذي توفي أواخر القرن السابع، ولا يعلم أين مات، الا أن الذي يظهر توفي ببادس .

الشيخ أبو القاسم ابن الصبان :

الشيخ الجليل العلامة العلم والمدرس المتصوف صاحب أحوال ومكاشفة، المتعبد المتحنث المتخلع في دراسة التصوف وتفسير القرآن . هو من علماء فاس، ارتحل عنها ومكث في بادس مدة ثم انتقل الى سبته وبها توفي رحمه الله .

تدريسه ببادس : كان يدرس التصوف بمسجد المحلة ببادس وكان في تدريسه التصوف يفضل أبا حامد الغزالي على ابي طالب المكي،

الى ان وقعت له رؤيا سالحة، فأقلع عن التفضيل، وذلك أنه بينما هو نائم ذات ليلة فرأى نفسه كأنه في مسجد، وشيخ بهي الطلعة رضى المظهر بناس مسند الى القبلة، فدخل رجل من الباب ويده الى خلفه وعقد هما شبه التكتف، ومشى حتى قبل يد ذلك الشيخ الجالس، ثم رجع القهقري الى خلفه ووجهه مقابل للشيخ، فلما بلغ اليه قال أتدرى من ذلك الشيخ ومن أنا، فقال له لا، قال ذلك هو أبو طالب المكى وأنا حامد الغزالي، وقد رأيت حالى معه، فلا تفضلنى عليه، ومن ذلك الوقت، أقلع عن تفضيل الغزالي عن أبى طالب المكى .

مؤلفاته : قال الشيخ عبد الحق بن اسماعيل الخزرجى، رأيت بيد ولده أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم الصبان سفرا فيه شرح أسماء الله الحسنى بخط أبيه أبى القاسم الصبان، فقال ان والده جرد ذلك من تفسير أبى محمد عبد الجليل للكتاب العزيز، وان ذلك التفسير فى ستين مجلدا، لكل حزب مجلد . .

رحلاته : رحل الى المشرق لاداء فريضة الحج وزيارة المشايخ المقتدى بهم، وقد طاب له أن يجلس فى جزيرة خالية - لا ندرى بالضبط اسمها أو موقعها - الا من امرأة وابنها يتعيشان فى غنيمات لهما يتعبدان فى الجزيرة، وأقام عندهما وصام هناك شهرين من رمضان، ثم سافر بعدما عيد هناك العيد الثانى برفقة رجل غريب أتى الى الجزيرة لقضاء شهر رمضان، كما هى عادته، وفى برقة مكث سنة على عين ماء يتعبد هناك، وبعد ما قضى مناسك الحج رجع وذهب الى فاس، وكان يوما بمسجد القرويين فدخل عليه صاحبه الذى رافقه من الجزيرة وكان بهيئة حنة وثياب فاخرة وتعرف عليه فاذا هو من أعيان فاس .

منأقبيه : منها ما ذكر من ركونه الى الخلوة متعبدا، ومنها أنه كان ابن السبعين الفيلسوف ألف كتابا سماه بد العارف، وكان مملوءا بهذيان، وكان ابن السبعين هذا ممن اتهم بامرأة مثرية انفقته عليه أموالها، وكان هذا الكتاب لم يطلع عليه أحد فكاشفه الشيخ ابن الصبان .

وقال له مزق الكتاب فانه مذموم، فكان ابن السبعين يقول لولد ابن الصبان انه لم يطلع أحد على كتابه، وان الشيخ كاشفه بذلك .

ومما يحكى عنه أنه كان بفاس وطلب كراء دار فقصد السمسار، فقال ليس هناك الا دار مسكونة بالجنون لا يدخلها أحد الا خرج منها حالا، قال فالتزمت كراءها على ذلك الشرط، وسكنتها، فلما كان بعد العشاء قمت أتتهجّد، فسمعت صفعا عظيما في وسط الدار وأصوات مهولة، فما عرجت على ذلك، ثم دخل على في البيت تمثال ثعبان، وبعد ساعة دخل على شخص على صورة الافعى، فلما فرغت من الصلاة قلت من أنت قال أنا من الجن المؤمن، ونحن ساكنون بهذه الدار، قلت له فما شأنكم تسيئون جوار من يسكن قال انما يسكن معنا من لا أخلاق له، قال فاقمت معهم وكانوا يأتون في جوف الليل فيصلون خلفى بصلاتى .

أشيأخه : تلمذ للشيخ أبى زيد الدهمانى فى مصر، والشيخ أبى محمد عبد الرزاق الجزولى كذلك، وقرأ بعض التفسير على الشيخ عبد الجليل بن موسى القصرى .

تلامذته : تلمذ له شيخ سبته فى وقته أبو عبد الله الدبأغ وولده الشيخ أبو عبد الله محمد الصبان .

حياته : كان حيا فى أواسط القرن السابع وتوفى بمدينة سبته، التى لها اتصال وثيق ببادس .

أبو عبد الله محمد الصبان :

هو ولد الشيخ أبى القاسم الصبان المتقدم الترجمة، كان شيأفا فاضلا، وكان يقتدى بكتاب أبيه فى أسماء الله الحسنى، وكان يروى عن أبيه حياته وكراماته وعلمه .

ولم يعرف له صاحب المقصد الشريف وانما ذكره فى ترجمة أبيه ووصفه بقوله الشيخ الصالح أبو عبد الله كما وصفه بأنه تلميذ أبيه الشيخ ابن القاسم الصبان .

حياته : كان حيا زمن أبيه الذى عاش فى أواسط القرن السابع الهجرى، وبناء عليه فانه كان حيا فى هذا التاريخ، كما لا نعلم أين توفى هل ببادس أو بسبته، وقد كان يتردد على هذه الأخيرة، فقد حكى

عن كرامات والده أبي القاسم، أنه قال، كنا يوما في رباطة الصيد (ومعلوم أن رباطة الصيد هي بسبته كما تقدم)، وجماعة من الناس قد حضروا فقال (أبو القاسم الصبان) ان العوم في البحر يجمعنا، فقال الحاضرون سمعا وطاعة، فنزلنا الى البحر، وعمنا، فلما خرجنا أقبل على رجل من الجماعة فقال له سرا ما حملك على ما صنعت، جامععت أهلك وأتيت الى المسجد جنبا، لا تعد، فكان الامر كما كان .

من رجال كتامة (القصر الكبير)

أبو محمد الشيخ عبد الجليل بن موسى الكتامي :

من قصر كتامة كان آية في تفسير القرآن الكريم وكان يتولى تدريس التفسير بقصر كتامة، فقد حكي عنه الشيخ أبو محمد عبد الرزاق الجزولي الذي كان شيخا بمصر، أنه جال في أقطار المغرب، قال فما قرع سمعى فيها مثل رجل يفسر كتاب الله العزيز بقصر كتامة اسمه عبد الجليل بن موسى .

وهو الذي تقدم في ترجمة الشيخ الصبان بأن له تفسير القرآن في ستين مجلدا لكل حزب مجلد قال الشيخ ابن الصبان، فلما رجعت الى المغرب قصدت زيارة عبد الجليل، فرأيت رجلا عالما، فأقمت عنده سبعة أيام، أول ليلة بت عنده استفتح بعد العشاء الاخيرة الكلام في شرح سورة ق. فأقمت عنده السبع الليالى وهو يتكلم في معنى القاف .

أبو عبد الرحمن عبد الرحيم بن احمد الكتامي :

يعرف بابن العجوز من أهل سبتة، ومن كبار قوم قصر كتامة، وكانت له ولابيه فيهم وفي المغرب رئاسة في العلم، واليه كانت الرحلة في المغرب في وقته، وعليه كانت تدور الفتيا، وله عقب نجباء في العلم بلغوا الى خمسة أئمة امام ابن امام في عصرهم (1) .

(1) سلوة الانفاس - ج لث - ص 298 .

رحل الى الاندلس وافريقيا :

أشيأخه : لازم أبا محمد بن أبى زيد واختص به وسمع منه كتبه: النوادر والمختصر وجاء بهما وبغيرهما الى سبتة، وسمع من الشيخ الدراق بن اسماعيل فقيه فاس، وأبى محمد الاصيلى، ووهب ابن ميسرة الحجازى .

وكانت رحلته الى القيروان من سبتة فى نحو عام 380 هـ. وأخذ عنه الناس بسبتة علما كثيرا وتفقهوا عليه، وسمعوا منه، وكان من حفاظ المذهب المالكى العالمين به .

تلامذته : روى عنه جماعة من فقهاء سبتة منهم أبو محمد قاسم بن المامونى، ومنهم محمد بن عبد الرحمان بن سليمان، ومنهم خلف الله ومنهم ابراهيم بن يعقوب الكتامى، ومنهم أبو عمران بن أبى سوار من قلعة حماد وجماعة من أهل سبتة وفاس .

قال فى الديباج توفى سنة 413 هـ. وقال فى الانيس عام 417 هـ. والله أعلم .

من علماء بنى يزناسن :

الشيخ أبو سالم ابراهيم بن عبد الله اليزناسنى :

هو الفقيه الصدر العلامة الصالح الولى المجاب الدعوة العارف بالسيد أبى سالم ابراهيم بن عبد الله بن أبى زيد بن أبى الخير اليزناسنى، قال فى الجذوة، لما عرف به انه أحد أعيان أصحاب الشيخ أبى الحسن الصغير .

كان مفتيا بفاس فاضلا منصفا حافظا يقضى حوائج المسلمين ماضيا فى مصالحهم وكان حيا بعد 740 هجرية. (1) وهو والد سيدى ابراهيم اليزناسنى الذى كان قاضى الجماعة بفاس وسيأتى التعريف به.

(1) سلوة الانفاس — جلد ثلث — 254 .

الشيخ سيدى سليمان الزناسنى :

هو الشيخ سيدى سليمان بن عبد الله كان عالما فاضلا مشاركا بارعا لم نعثر على حياته أو وفاته والراجع أنه كان حيا في القرن السابع الهجرى .

وقد ترجم له في سلوة الانفاس ج.لث.ص. 3-7 من دون أن يذكر بيانا عن الحياة أو الوفاة .

أبو اسحاق سيدى ابراهيم بن محمد الزناسنى :

هو ابراهيم بن الفقيه الصدر أبى عبد الله محمد بن العلامة الصالح الولى أبى سالم المتقدم الترجمة كان فقيها قدوة في العدل، أوجد في النزاهة، الامام العلامة الحافظ قاضى الجماعة بفاس، يكنى أبا اسحاق. وكان فقيها نظارا بارعا في الفقه محصلا ولى القضاء بمدينة فاس مدة في دولة احمد بن ابى سالم واثنى عليه الامام الحفيد بن مرزوق، وذكر انه من مفاخر القطر الذى حل به .

وله فتاوى كثيرة شهيرة ناظر فيها وحقق، ذكر جملة منها فى المعيار، وحلاه بالسيد الفقيه المفتى المدرس العالم المحقق العلامة، الصدر العلم الشهير قاضى الجماعة بفاس (هكذا حلاه صاحب المعيار، وهى أوصاف لا يطلقها الا على من اتصف بها حقيقة) .

توفى رحمه الله بفاس يوم الخميس 18 رجب عام 794 هـ ، ذكره الونشريسي في وفياته، وترجم له في الجذوة والدرة والنيل والكفاية وروضة النسرین في دولة بنى مرين (1) .

عبد الرحيم بن ابراهيم الزناسنى :

هو ولد سيدى ابراهيم بن محمد الزناسنى المترجم قبله وكان من قضاة أمير المسلمين احمد ابن أمير المسلمين أبى سالم . كما كان من قضاة أمير المسلمين المنتصر بالله وولده أمير المسلمين المولى عثمان المرينى (2) .

(1) صحيفة 36 .

(2) المصدر نفسه ونفس الصحيفة .

من علماء بطيوة :

أبو الحسن سيدي علي بن قاسم :

هو أبو الحسن علي بن قاسم بن عبد العزيز الزياتي الريفى
البطوى، ولد بفاس سنة 967 هـ. وكان اماما عالما محققا زاهدا ورعا
مولعا بالخلوة والذكر والمطالعة والتقعيد تاركا للأسباب ملازما بيته .

عرف به صاحب سلوة الانفاس (1) فقال الشيخ الامام الفقيه
العلامة المدرس النبیه المحدث الصوفى المتفنن الدراكة المحقق المتقن
المشارك فى المعقول والمنقول، الرجوع اليه فى حل المشكلات وتحقيق النقول
وكان له خط حسن جيد نسخ بخطه عدة كتب .

أشيأخه : أخذ عن القصار، والبدوى والمنجور والحميدى
والاستاذ احمد القدومى وسيدي الحسن الدراوى وابى الحسن بن
عمران وابى زكرياء السراج وابى عبد الله الزيانى وابى القاسم بن
القاضى وسيدي رضوان الجنوى وابى المحاسن الفاسى وسيدي محمد
بن منصور .

سيرته : صحب الشيخ احمد الشاوى، وكان حسن النية فى
التعليم. ذا خلق حسن وحلم وحياء ينتفع بالقراءة عليه فى الايام اليسيرة
مالا ينتفع على غيره فى الايام الكثيرة من سهولة تعبيره وعدم تكلفه ولى
قضاء الجماعة بفاس مدة فحمدت سيرته .

انتأجه : له تقاييد حسنة على المطول، وعلى مختصر
انسوسى وعلى تحفة ابن عاصم وله كتاب فى التصوف، حسن فيه نحو
15 بابا وغير ذلك .

تلامذته : أخذ عنه ابن عاشر والشيخ ميارة شارح
المرشد المعين والقطب مولاى عبد الله الشريف الوزانى، قرأ عليه عدة
مصنفات فى عدة من العلوم .

وفاته : توفى ليلة الجمعة 28 ربيع الثانى عام 1039
ودفن بروضة سلفه بباب الجيسة بفاس رحمة الله عليه .

(1) ج - لث - ص 17 .

من رجال كبدانة : الشيخ أبو اسحاق البطال :

كان شيخا فاضلا ذا فراسة دقيقة لا تخطيء، وله براعة فى ابطال شبهات المبطلين .

أصله من قبيلة كبدانة على خفاف ملوية، وكان كثيرا ما يزور بلاد قلعية، ومدينة غساسة التى هى فرضة الى جهة رأس ورك بقبيلة بنى بوغافر وكانت مدينة عامرة فى وقته .

صلاحه : ومن صلاحه حسبا حكى صاحب المقصد الشريف انه كان يقطع المفازة ما بين داره بكبدانة، وبين مليلية وحده رغم ان هذه المفازة كانت غابة كثيفة مسكونة بالسباع والوحوش الضارية، وفى ذلك الوقت لم يكن يطرقتها الا الجمع من الناس .

وحكى عن نفسه أنه بات ذات مرة بمفازة «أزگران وريغ» — ولعلها ازغمان — وقال انها كانت مفازة عظيمة بين مليلية وكبدانة — بات أمام سدوة فلم يقع له ولا لدابته التى كانت رمكة أى سوء من الوحوش .

ومما يحكى عن هذه الدابة أنها كانت مشهورة بأن من ركبها وذهب الى قضاء أى حاجة قضيت حينما ببركة هذا الشيخ .

واقعة له مع شخص من بنى يزناسن :

كانت زوجته من قبيلة كبدانة، ولد له معها بنت أصهر بها الى رجل من قبيلة بنى يزناسن، وفى بعض الايام خرجت البنت مع زوجها الى فدان يشتغلان فيه، الرجل يحصد والزوجة تلتقط السنابل خلفه، فوقع بينهما خلاف كان الزوج هو الظالم، فاستغاثت الزوجة بأبيها الشيخ أبى اسحاق، فلما أغاثها ذهب اليهما فسمع منهما ظلامتهما، فقال الشيخ أهلك الله الظالم منكما، قيل فنهشت حية الزوج ومات من حينه، والله أعلم .

حياته : كان حيا فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى على ما يؤخذ من كلام الرجل الصالح الحاج احمد تلميذ المعلم عبدون الذى كان حيا أواسط القرن السادس .

من رجال بنى ورياغل :

أبو ابراهيم الاعرج :

هو جد الاشراف الغليزوريين الموجودين فى بنى ورياغل الذين سأذكرهم مفصلا بعده وحسب مخطوط مجهول المؤلف، فهو من ذرية مولاي ادريس الاصغر دفين فاس بن مولاي ادريس الاكبر دفين زرهون حفيد سيدنا الحسن رضى الله عنهم، وهناك سلسلة أخرى من الشرفاء أولاد سيدنا الحسين رضى الله عنه وهم من ذرية موسى الكاظم، وقد جاءت هذه الذرية الى الشمال عن طريق تلمسان، ذلك أن شريفا كان يدعى عبد القوى بن عبد الرحمان بن ادريس بن موسى بن اسماعيل بن موسى الكاظم جاء من تلمسان وسكن قبائل بطيوة وانتشرت ذريته هناك، وهو شريف موسى حسيني، وقد اعتمدنا على ذكر هؤلاء فى لائحة الشرفاء لما تقدم فى المعيار، من أن من كان يدعى بالمرباط وادعى الشرف يقبل منه، على أنه جاء فى كتاب (1) حادى الرفاق «أن ابا ابراهيم الاعرج هو شريف ادريسى وهو جد المرباطين ببني ورياغل .

أما المترجم له فاسمه اسحاق بن يحيى بن مظهر (2) الورياغلى من قبيلة بنى ورياغل من فخذ بنى يملك (لا زالت الفخدة تدعى الى الآن ببني ملوك) .

حياته : كان مثالا للرجل الشريف النفس والنسب، ففى سلوة الانفاس قال (3) ومنهم الشيخ العلامة الصالح، الحافظ الحجة الواضح، كان رحمه الله بعد قدومه لفاس اماما بجامع الشطة منها، وهى الكائنة فوق باب الزربطانة يسار الطالع الى ناحية المدرسة البوعنانية من

(1) حادى الرفاق الى فهم لامية الزقاق للفقير سى احمد الرهونى التطوانى ص. 9 .

(2) هذا هو ما جاء فى المقصد الشريف أما فى سلوة الانفاس فقد جاء فيها مطر بالميم والطاء والراء .

(3) الجزء لث - ص - 144

طلعة فاس، وكان اماما من أئمة الدين والعلماء المهتدين آية الله عز وجل في المدونة وهو صاحب الطرر عليها وفقهه فاس في وقته، قال الشيخ سيدي بومدين الفاسي في كتابه «الحكم في الحكم» حكى أن الشيخ أبا ابراهيم بن يحيى بن مطر الورياغلي عرف بالاعرج رفيق أبي الحسن الصغير، والدعاء عند قبره مستحباب .

شيوخه : أخذ عن الشيخ أبي محمد صالح الهسكوري صاحب الشرح على الرسالة وهذا الشيخ هو أبو محمد صالح دفين أسفى وهو غير أبي محمد صالح دفين الرباط، وقد كان هذا الشيخ (أى الهسكوري) ممن يضرب به المثل في التبريز، وكان داعية كبيرا للإسلام، حتى أنه نظم سياحة قارة للحج الى بيت الله الحرام، حسبما ذكره كتاب العلوم والاداب والفنون في عهد الموحدين (4)، فقد قال ولئن دل ما سبق على اهتمام المغاربة بسياحة البحث والاستكشاف، فان هذا يدلنا على اهتمامهم بنوع آخر من السياحة وهى سياحة الحج الى الاراضى المقدسة، وان الفضل في الدعوة الى هذه السياحة، يرجع للشيخ أبي محمد صالح المتوفى سنة 651 هـ. فقد كون الركب الحجازى لأول مرة في تاريخ المغرب، وكان مهمى انتهى اليه أحد يطلب الانخراط في طريقته يجعل أهم الشروط لقبول اياه حج بيت الله الحرام، أو على الأقل برهن على أنه خدم طريق الحج، ولقد جعل من أصحابه كجمعية تبشيرية تدعو الناس لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر رسول الله عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وتبنى منازل نزول الحجاج في ذهابهم وايابهم وكانت تبتدىء هذه المنازل من بلاد حاحة بالمغرب من أسفى الى الحجاز، أنظر المنهاج الواضح صحيفة 352-353-375، وانظر أسفى وما اليه صحيفة 19-400 .

وقد كان هذا الشيخ - أبو محمد صالح - يقول في حق أبي ابراهيم الاعرج انه أوجد زمانه في الفقه والسفء واحفظ خلق الله لاسباب الايحاء، ومع ذلك فلم يلب جانب لسلطان قط (5) .

(4) للاستاذ محمد المنونى ص - 95 .

(5) سلوة الانفاس - لث - ص 144 .

تلاميذته : تلمذ للسيد (1) أبى ابراهيم الاعرج، الشيخ أبو الحسن الزرويلي وجماعة .

مناقبته : قال في سلوة الانفاس (2) نقلا عن أبى مدين الفاسي كان يأمر الامير يعقوب ابن عبد الحق المريني بالمعروف وينهاه عن المنكر، فأكثر عليه مرة، فقال له الامير اخرج من بلدي، فلما خرج أصاب الامير وجع شديد فأمر برده، فقال لا أدخل حتى يخرج هو، ولا أكون أنا وهو في بلد واحد، فخرج - أى الامير - في الحين وسكن وجعه، وقد ذكر هذه القصة جمهور من المؤرخين كصاحب الروضة وصاحب تحفة الوارد والصادر وغيرهما، ومن مناقبه كما في المقصد الشريف، انه حدث له أن وقعت له منازعة في مسألة فقهية مع فقهاء فاس كان الصواب معه، الا أن هؤلاء الفقهاء بلغوا عنه الى السلطان يعقوب المنصور بن عبد الحق المريني، الذى تولى ملك المغرب بعد وفاة أخيه فكان من جملة ما بلغوا عنه أن طلبه البربر يريدون المخالفة على السلطان، (ويظهر من هذا أن المسألة الفقهية كانت تمس البيعة ولم نقف على صورة المسألة الفقهية) فأمر الملك بنفى الفقهاء عن فاس ومنهم أبو ابراهيم الاعرج هذا، (وانما أدرج من جملة فقهاء البربر لانه ساكن معهم) وأبو يعقوب المحاسنى وأبو عبد الله بن عمران، وقد ذكر أن الشرطى الذى وكل باخراجهم، وكان يدعى ابن العطار سلب الله عليه حكة على لحمه فجعله يحكها حتى مات، ولما بلغ ذلك الى علم السلطان أمر بردهم، وصار السلطان يعظم أبا ابراهيم الاعرج، ولما بنى السلطان المدرسة التى فى قبلة جامع القرويين من رحبة البقر (ولعلها مدرسة العطارين) دخل للصلاة فى جامع القرويين يوم الجمعة، وكان أبو ابراهيم الاعرج يصلى فى الجانب الغربى فى الصف الاول، فلقى عليه الملك بعد صلاة الجمعة وعانقه، ثم قعد معه فطلب منه أن يجيبه على ثلاث مسائل، الا أن الشيخ أجابه بأن لا فائدة له فى الجواب، لانه لا يعمل به والحق عليه فامتنع فما وسع الملك الا أن طلب منه الدعاء فدعى له وانصرف .

(1) ج - لث ص - 144 من سلوة الانفاس .

(2) نفس الصحيفة .

ومما اتفق له مع الشيخ اسماعيل بن احمد — تقدم التعريف به — أن هذا الأخير كان يريد أن يتوجه الى تيكساس بغمارة (وكانت عاصمة عمر الادريسي الذي تولى امارة الشمال بعد وفاة المولى ادريس الاصغر كما تقدم) فاركب عياله وزوجته وبنتيه مركب صيد ولما وصلن الى حجرة يليش خرج عليهن القراصنة واسر الاناث واعلم الشيخ اسماعيل أبا ابراهيم الاعرج — ولعله ذهب اليه الى فاس — وكان القصد اعلام السلطان بالاسر وطلب قيمة الفداء منه، وكان عند الشيخ أبى ابراهيم نصف دينار ولم يملك غيره فدفعه اليه وفى الغد رجع اليه فقال له ارفع طرف المطرح فرفعه ووجد تحته 26 دينارا ذهباً، قال له خذها فان الله أتى بها بواسطة محب عرفته بقضيتكم فدعى له وتوجه الى السلطان فدفع له الدنانير، وكانت الفدية 230 دينارا ففك الله اسر العائلة .

سبب عرجه : قيل فى سبب عرجه حكايات أولاهـا أنه دخل عليه لصوص فى مسجد ببلاد سدارة لما كان طالبا ينتقل للتحصيل فأصيب بعرج فى رجله عرجا شديداً، وهذه الحكاية موجودة فى المقصد الشريف وثانيتها: أنه كان فارساً لا يقدر عليه أحد على محاربته، فكان ذات يوم يلعب فى وليمة فعثر فرسه به فقام ناهضاً — أى الفرس — فالتوت رجله فى الركاب بعدما سقط عن الفرس فتعرج بذلك، الا أنه لم يكن عرجه شديداً، وهذه الرواية موجودة فى مخطوط تحت يدى بين فيه سلسلة الشرفاء الادارسة ومن نزل منهم فى الريف .

ومن مناقبه أيضاً أنه كان سبياً فى بناء مدينة فاس الجديدة وكانت تدعى المدينة البيضاء، ففى سلوة الانفاس، لما ذكر وجع السلطان يعقوب المرينى وسكونه بعد خروجه من مدينة فاس قال «وأمر ببناء» مدينة الدار البيضاء — أعنى فاسا الجديدة — ثم حكى عن روض النسرين أنه ركب — يعنى يعقوب المنصور — فرسه من قصبة مدينة فاس القديمة فى ضحى يوم الاحد الثالث من شوال عام 674 الى ضفة وادى فاس ومعه أهل المعرفة بالهندسة والبناء فوقف عليها حتى حدث وشرع فى حفر أساسها .

وكان الذى أخذ له طالعهـا الفقيه العدل محمد بن الخياط زاد فى

القرطاس وأبو الحسن بن القطان فكان تأسيسها في طالع سعيد ووقت مبارك ميمون ومن سعادة طالعا أنه لم يمت بها خليفة منذ أسست ولا خرج منها لواء الانصر ولا جيش الا ظفر (1) بفضل الله .

تدريسه : تقدم أنه كان آية الله عز وجل في المدونة، وذلك لتعاطي تدريسيها، كما كان يتعاطى تدريس تهذيب البرادعي، في كل من جامع بادس الكبير وقاس، ومن جملة من قرأ عليه تهذيب البرادعي الشيخ أبو يعقوب البادسي حسبا يأتي في كتاب مناقب أبي يعقوب البادسي لأبي عبد الله الاوربسي .

تأليفه : مما عثرنا عليه من بين ما أشير اليه أنه كانت له طرر على المدونة الا أنه لم نعر هل كانت هذه الطرر كتابا مستقلا بالمعنى المتعارف عليه أو كانت طررا على هامش نسخة المدونة التي كان يدرس بها.

نسبه : حسب البحث الذي استقصيناه من بين المخطوطات انتى عثرنا عليها عند أحفاده من الشرفاء الغلبزوريين، أنه أبو ابراهيم اسحاق ابن يحيى بن مظهر بن كتون بن السكناوى بن احمد بن عبد الله ابن حمزة بن ياسين بن محمد بن عبد السلام بن السكناوى بن عبد الله ابن عبدالواحد بن عبد الكريم بن عبد السلام بن مشيش - صاحب جبل العلم ببني عروص المشهور - وقد أخذ هذا المخطوط حسبا يظهر من كتاب التاريخ والاعتبار في نسب آل النبی المختار، لمؤلفه الشيخ الامام العالم العلامة الهمام سيدي احمد بن أبي عبد الله البكري الصديقي، والله أعلم .

سبب مجيئه الى الريف : كان جده السكناوى نازلا في نواحي سبتة ومن هناك انتقل حفيده هذا مرتحلا الى نواحي الريف، فنزل بجبل حمام (1) ببني ورياغل على وادي المزمة المعروف بوادي غيس - ولا

(1) قد أنكر هذه الفكرة المؤرخ النقيب مولاي عبد الرحمان بن زيدان في اتحاف اعلام الناس الجزء الاول واستشهد بقضية بوجمارة .

(1) بفتح الحاء والميم المخففة وهو معروف الى الآن بأعلى قبيلة بني ورياغل وهو معروف بالعسل البيضاء .

زال الى الآن بهذا الاسم — وقد خلف ذرية كبيرة في قبيلة بنى ورياغل عن طريق حفيده الشيخ العالم سيدي عبد العزيز بن موسى الورياغلي المعاصر للشيخ زروق الذي كان نازلا بالموضع المعروف «بأغيل أبزور» وبه دعى أبنائه واحفاده بالغلبزوريين .

وفاته : توفى رحمه الله بفاس عام 683 هـ. ودفن بباب الكيسة، قال في سلوة الانفاس «ورأيت بخط بعضهم قال وقبره معروف بباب الكيسة قبالة الباب، وقف عليه مولانا سليمان بن محمد» ثم قال: صاحب سلوة الانفاس «وأظنه والله أعلم صاحب الحوش المبنى قريبا من ضريح سيدي مبارك بن عبابو وراء قوسه الى ناحية المدينة المقابلة من الباب، وقد ذكره الدرر في منظومته عقب ذكره سيدي العريس فقال: بقربه الورياغلي ابراهيم غناه لا يحتاج للدراهم»

ومنهم سيدي عبد العزيز بن موسى الورياغلي :

صاعقة الارض : هكذا عبر عنه صاحب المعيار في فهرسته وانما وصفه بصاعقة الارض لان دعوته لم تكن لتخطى، أما الشيخ زروق فقد كان يسميه بالغندور وهو وصف للشجاع المقتحم الذي لا يخشى أحدا وهو من أحفاد سيدي ابراهيم الاعرج .

ولادته ووفاته : ولد حسبما ذكر نيل الانتهاج عام 802 وتوفى عام 881 هـ. وفي المعيار تولى الخطابة والصلاة بالقرويين عام 879 واستمر عليها الى أن توفى يوم السبت غرة رمضان عام 880 وعليه، فالخلاف بين نيل الابتهاج والمعيار في سنة فقط وحيث ان الاخير ذكر التاريخ بتدقيق باليوم والشهر والسنة فينبغي أن يعتمد دون غيره .

حياته : عرف به في سلوة الانفاس (2) فقال: «هو الشيخ الفقيه الخطيب العلامة المدرس الاديب الصالح البركة الأشهر الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر أبو الفارس سيدي عبد العزيز بن موسى الورياغلي وعرف به الشيخ زروق فقال: «كان رحمه الله فقيها عالما

صالحا زاهدا ورعا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم»، وكان اماما وخطيبا بجامع القرويين ومفتيا بفاس صلبا في دين الله يلقي بنفسه في العظائم ولا يبالي وله اخبار كثيرة .

مناقبه : قال صاحب سلوة الانفاس (1) وسيدى عبد العزيز هذا هو: الذى ثارت العامة بفاس على يديه على السلطان أبى محمد عبد الحق بن السلطان أبى سعيد المرينى فخلعوه وبايعوا مزوار الشرفاء — أى نقيبيهم — السيد محمد بن على بن عمران الجوطى بسبب توليته — أى السلطان — لليهود عليهم، حتى كانوا يتحكمون فى الشرفاء والفقهاء وأكابر الناس بما يريدون من الضرب والحبس وأخذ الاموال .

سبب تسميته بالغندور : كان الشيخ زروق رحمه الله يسميه مداعبة منه بالغندور ولما حكى صاحب السلوة هذا الوصف قال ان معنى الغندور هو الشجاع، وكان الشيخ زروق يقول: أنا لا أصلى خلف سيدى عبد العزيز، فانه غندور كالداعب لمن يذكر له شأنه، فيجمع بين تعظيمه والتبرى منه — أى مما فعل من تأليب العامة على السلطان حتى خلع وبذلك يكون مخالفا لليونة الائمة الذين لا يتدخلون فى الشؤون السياسية ولذا كان يسميه غندورا، أى الشجاع الغليظ الطبع المقتحم لعظائم الامور — .

سبب تسمية أحفاده بالغلبزوريين : كان ينزل فى موضع بأعلى قبيلة بنى ورياغل على نهر غيس يدعى «أغيل أبزور» وقد خلف أولادا هناك ثم انتشروا فى أفخاذ قبيلة بنى ورياغل، وسماوا بالغلبزوريين نسبة الى منزل جدهم هذا وذلك تمييزا لهم عن الشرفاء الآخرين الذين فى بنى ورياغل، وعليه فان تسميتهم بالغلبزوريين كانت تسمية متأخرة ولذا لم يعرف بهم بهذا الاسم فى كتب الاشراف، أما اتصاله بجده سيدى أبى ابراهيم الاعرج فقد ذكر المخطوط المشار اليه سابقا أنه عبد العزيز ابن موسى بن العباس بن الفاضل بن أبى ابراهيم الاعرج. الا أن الذى يظهر من تاريخ وفاة جده الذى هو 683 الى تاريخ ولادة المترجم له

(1) الجزء الثانى ص. 81 .

هذا الذى هو 802 هـ. أنه ربما هناك غير من ذكر من الآباء وعلى كل فان المخطوط مما يستأنس به فقط والله أعلم .

ومنهم سيدى عيسى بن عبد الكريم :

ومن أحفاد سيدى عبد العزيز الذين كانت لهم الشهرة فى بنى ورياغل من حيث الصلاح والتقوى سيدى عيسى بن عبد الكريم .

مناقبه : ففى كتاب مناقب ابن يعقوب البادسى الذى أشرنا اليه فيما قبل والذى وعدنا بنشره ضمن هذا البحث قال المؤلف الاوربى: ان فى بنى ورياغل رجلا مسنا من أولياء الله تعالى اسمه عيسى ابن عبد الكريم وانه من جماعة الشيخ أبى ابراهيم الاعرج وان له أسلافا صالحين أولياء فشققت الى رؤيته كثيرا الى أن يسر الله على فمشيت الى موضعه واجتمعت معه وبت فى بيته وأكلت طعامه ورأيت له بركة عظيمة وهو رجل أمدى لانه يحفظ من مسائل الفقه ما يحتاج اليه فى دينه من العبادات والمعاملات شيئا كثيرا ويتكلم فى دقائق الامور كلاما تعجبت منه تعجبا عظيما، فكنيت أتحدث معه فى كرامات الصالحين الى أن تكلمنا على الشيخ سيدى أبى يعقوب نفعا الله به، فقال سيدى عيسى بن عبد الكريم، نعرفكم بما رأيت فى كرامات سيدى أبى يعقوب، وسرد ما يأتى فى كتاب مناقبه .

مسكنه ومحل دفنه : انتقل من قرية بوزدور (تدعى الآن نيشتيون) واستقر بالقرية المعروفة الآن بزاوية سيدى عيسى عبد الكريم، وذلك أنه نزل بها وأقام بها زاويته التى اشتهرت به اشتهارا كبيرا . وفى هذه الزاوية كان يلقي تلامذته طريقة أجداده فى الصلاح والتقوى وقد تناسل عنه الاشراف المعروفون بالعلبوريين وقد جعل الله البركة فى ذريته فانتشرت فى أفخاذ بنى ورياغل وقد انتقل الى هذا الموضع من بوزدور فى القرن التاسع الهجرى حسبما رويت عن السنة النسابين من الاشرفاء، احفاده وهو مدفون بقرية زاوية سيدى عيسى التى تنسب اليه ازاء مجدها وله ضريح ثمة مع بعض أولاده، الا أنه لا يعلم تاريخ ولادته ولا وفاته .

سلسلة عقبه من بعده :

ولاكمال الفائدة نشير باجمال الى بعض احفاده .

سيدى بوبكر بن عمر :

ممن خلفه من الصلاح والولاية حفيده سيدى بوبكر بن عمر وفى زمنه تأسست قرية زاوية سيدى عيسى وتقرت كقرية وهو مدفون بنفس الضريح وقد خلف من الاولاد اثنين وهما: عمر وعبد الرزاق .

عمر : أما عمر فهو جد آل عمر أبو بكر القاطنين بزاوية سيدى يوسف وآل الحسن القاطنين هناك أيضا وآل سيدى عبد العزيز الساكنين قرب آل هشام وآل بوزمبو (الساكنين بايقينيا من بنى عبد الله من بنى ورياغل) ومنهم سيدى احمد المدفون بزاوية اقنيا .

تاريخ ولادته : ولد فى تاريخ 1012 هـ . فى نحو 65 سنة مضت منها بزاوية سيدى يوسف واستمر هناك الى مبلغ الرجال ثم صارت الكرامات تظهر على يديه وشهدا الحاضرون من زمانه بالتواتر، فذهب اليه جمع من الناس من بنى عبد الله وطلبوا منه الانتقال اليهم للسكنى عندهم رغبة فى صلاحه، فترددوا عليه الى أن استجاب لهم وانتقل فنزل بمنزل اقنيا الى أن توفى هناك عن عمر يبلغ 68 سنة ودفن هناك، ولا زال ضريحه مشهورا الى الآن، وله ذرية هناك يعرفون بالثرفاء القنبيين وبأولاد بوزمبو. واعثمانا قرب زاوية سيدى عيسى وافقيرا منهم الساكنون قرب أمزون بوطاء اقتييسا .

أما عبد الرزاق : فقد سكن بقرية تاورى بالموضع المدعو «تاغانيت» من بنى عبد الله، وهناك توفى وخلف من الاولاد اثنين هما: احمد وعبد الله .

امحمد : أما امحمد فهو سيدى امحمد الكبير المدفون بقبيلة بقبوة وهو جد ادروشا وهو معروف باستجابة الدعاء عند قبره وكان رجلا صالحا تقيا حافظا للعهد والسنة .

اما عبد الله فانه خلف من الاولاد خمسة :

سيدي يوسف : وهو أكبرهم واليه تنسب زاوية سيدي يوسف حيث نزل بهذا الموضع الذي كان يدعى «باجلمام» (حوض الماء) وقد كان أقام هناك زاويته للتعبد وجمع المتعبدين حوله وكان حيا في القرن الحدى عشر الهجرى، وتوفى في نيف وخمسين وألف .

وهو جد الافخاذ التالية: آل السى عمر — آل اماسين أولاد بلعلى . سيدي ابراهيم المدفون بضريح سيدي يوسف: وخلف ولدين سيدي يوسف وابلحاجا، وأولاد سيدي الحاج محمادى وآل امحمد عبد الله . وأما ابراهيم فهو جد آل تسعدونت وآل سعيد امحمد .

سيدي مسعود المدفون بزاوية سيدي يوسف وهو جد آل مسعود . سيدي احمد وهو جد ايكرودا بأيت عزيز وبعضهم بزاوية سيدي يوسف .

سيدي عيسى وهو المدفون بآل هشام وليس له من العقب الآن الا اثنان يعرف منهما واحد فقط وهو المدعو عبد العزيز بن دحمان من المخولين المهملين .

وهؤلاء هم احفاد سيدي عيسى بن عبد الكريم وقد تبين مما ذكر أن هؤلاء الاشراف أسسوا زاويتين اثنتين وهما زاوية سيدي عيسى وزاوية سيدي يوسف، الا أن الذين سكنوا في الاخرة يضاف الى لقب الغلبزوريين، لقب الجلماميين احترازا لهم من الغلبزوريين في الاماكن الاخرى، وذلك كما أسلفنا ان الموضع الذي نزل فيه جدهم سيدي يوسف كان يدعى باجلمام . نفوذ الزاويتين : قد عاشت هاتان الزاويتان في نفوذ كبير على القبيلة ذلك لما لهما من النفوذ الدينى والصلاحى وسط القبيلة، ففى المرحلة الاولى كانت الزاوية الاولى اليها يرجع أمر القبيلة، ثم لما أسست الزاوية الثانية انتقل النفوذ اليها وانكبت القبيلة على الشرفاء الجلماميين، فكان لهذه الاخرة صيت واعتبار حتى فى فض النزاعات القبلية وكان ذلك بطريق البركة والاعتقاد، لا عن طريق السيطرة الدنوية وقد دعى ذلك الى أن القبيلة كانت تخشى دعواتها، وكان يوجد فيها أخيرا شخص يدعى سيدي عمر الجبار (مشتقة من جبر لا من تجبر) كان آية في اللسان الدعائى.

وقد استمر الامر هكذا الى أن نبغ في الزاوية الاولى المجاهد العلامة الصالح النابغة سيدى محمد بن سيدى احمد العزوزى الذى سيأتى التعريف به مبسّطا وهو ليس من ذرية سيدى عيسى، وانما هو من ذرية أخيه وهو :

سيدى يعقوب بن عبد الكريم :

وقد أسس هذا الشريف زاوية أخرى فى بنى بوغياش بقرية ازاكرين اساسنو وقد انتقل من بوزدور الى هذه القرية فأسس فيها زاويته التى عمرت فى أيام حياته وكان رجلا صالحا متعبدا الى أن توفى ودفن بهذه الزاوية، وله ضريح فيها يدعى ضريح مولاي يعقوب، الا أن احفاده انتقلوا الى زاوية عمهم سيدى عيسى، وقد خلف من الفروع :

أولاد الحاج عيسى — أولاد امحمد عبد الله — أولاد سيدى احمد ابغليا — أولاد شندور بآيت القاضى .

الرجل الذى غير مجرى قبيلة بنى ورياغل :

سيدى امحمد بن موسى الصغير :

فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى، ظهر بفرقة المرابطين رجل صالح يدعى سيدى امحمد ابن موسى وبنى زاوية بجبل آل هشام على الضفة الغربية لوادى غيس وملك الاراضى على تلك الضفة وعمرها وازدهرت زاويته ازدهارا كبيرا .

وكانت ملجأ للمتعبدين الصالحين كما كانت مرجعا لفض النزاعات التى تقع بين عائلات القبيلة، وأصبحت رئاسة المرابطين ترجع اليها .

والمرابطون هؤلاء هم فرقة الشرفاء الغلبوزيين أولاد سيدى ابراهيم الاعرج المتقدم الذكر، ويذكرون باسم المرابطين، وقد تقدم أن اسمهم هذا لا ينافى نسبتهم الشريفة .

قد كان اسم المرباط ولا زال الى الآن يطلق فى عرف البلد على الشريف نظرا لكون أصل عمل الشريف ان يرباط فى زاويته أو فى رباطة من رباطات الجهاد، لكونه يدعو الى الصلاح والى الجهاد فى سبيله وهى

وظيفته الاصلية، ثم تطورت الى أن أصبح الشريف لا فرق بينه وبين الاهالى في قيامه بكل الاعمال الاجتماعية والسياسية .

نسبه : مع كون المتواتر عند القوم أنه شريف ادريسى كباقي المرابطين، الا أنه اختلف هل نسبه يتصل بسيدي عيسى بن عبد الكريم الذى هو جد المرابطين الغلبزوريين وحفيده سيدي عبد العزيز الغلبزورى، واذا كان هذا صحيحا فانه ربما وقع اغفال عن أحد أجداده من السلسلة التى ذكرنا، وهى التى رواها لنا نسابة المرابطين السيد التهامى بن علوش بن تهامى من احفاد سيدي ابراهيم ابن شعيب بن يوسف، وقد قال أن سيدي امحمد بن موسى هذا أصله من قرية ادردوشا التى ينتسب سكانها الى سيدي امحمد الكبير المدفون فى قبيلة بقبوية .

وتبدو هذه الرواية أقرب الى الصحة، حيث أن المترجم هذا يعرف بسيدي امحمد الصغير فهو حفيد سيدي امحمد الكبير تميزا لاحدهما عن الآخر .

سلسلة أولاده : وقد خلف سيدي امحمد الصغير من الاولاد ذكرين هما : حديق ومحمادى، وهذا الاخير لم يعقب أحدا، وكان رجلا صالحا وهو مدفون فى مقبرة سيدي امحمد وعلى بازاء أطلال المزمة وبأسفل جامع أجدير، وله ضريح هناك، وكان حيا فى أوائل القرن الثانى عشر .

أما سيدي صديق، فانه خلف من الذكور أربعة هم : سيدي مسعود والد سيدي احمد بورجلة .

سيدي حدو وهو جد أولاد سيدي حدو بالسوانى وتشتيون وبعضهم فى قبيلة كزناية وهم المعروفون، بأولاد سيدي محمد البوهالى وسيدي عبد السلام وهو جد سيدي الحاج عمر وسيدي محمد والريسولى .

سيدي محمد وهو والد عبد السلام ومحمد وعمر .

ومن رجال بنى ورياغل : الرباط موسى بن حدو :

هو من الشرفاء الذين نزلوا بقبيلة بنى ورياغل بجبال بنى بوعيش — جبل حمام — ويدعى فى التاريخ بجبل العمال .

وعلى ما يؤخذ من مخطوط لدينا أن أحد أجداده من الاشراف
الادارسة نزل فى قبيلة قلعية بالموضع المعروف بالحيانا من قبيلة بنى
سدال، وهو المحل الذى نزل فيه فرع من الشرفاء الوريثيين، ولا نعلم
هل هما نسب واحد أم لا ؟ .

وعلى ما ذكره المخطوط المشار اليه، فانه من هناك تفرعت فروعهم
ففرع نزل بجبل عيسى وفرع نزل بجبل حبيب (ولا زال الجبل يدعى
بجبل حبيب الى الآن عن طريق تطوان العرائش) وفرع نزل بجبل حمام
بنى ورياغل وهو الفرع الذى ينتسب اليه الم رابط موسى المترجم له، أما
الجد الاول الذى نزل بقلعية فهو حسب ذلك المخطوط محمد بن عبد الله
بن على بن منصور المرفوع الى مولاي ادريس .

وعلى كل حال، فان الذى يعول عليه فى نسب الم رابط موسى وأولاده
ما ورد فى ظهائر الملوك العلويين قدس الله أرواحهم وأول تلك الظهائر
هو ظهير شريف للسلطان مولاي عبد الله بن السلطان مولاي اسماعيل
ابن الشريف بن على بن الشريف .

فقد جاء فى الظهير بعد الحمدلة والتصلية ما يلى :

الى كافة من يقف على كتابنا هذا من أنياخ قبيلة بنى ورياغل
(تقطيع هنا) الامر فيها رعاكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد
فحامله الم رابط الخير الدين موسى بن حد ابقيناه على ما عهد له من التوقير
والاحترام وحاشيناه من جميع ما يطلب به العوام فلا سبيل لاحد عليه
فى شىء من الاشياء والواقف عليه يعمل به ولا يتعداه والسلام أوائل
الحجة الحرام عام 1149 هـ .

فمن هذا الظهير يستفاد منه امران: الاول منهما أنه كان محترما
احترام الشرفاء، لان مثل هذه الظهائر لا تصدر الا فى حق الشرفاء، أما
لفظة الم رابط فهى التى كانت تطلق أيضا على الشرفاء فى هذه الجهة
وكانت تعتبر أعلى الالقاب مكانة فى عرف القوم ، وذلك لان
معناها العرفى عندهم هو الشريف الصالح صاحب البركة والاحترام .
ولذا أطلق على الشرفاء الغلبزيين كلمة الم رابطين ولا زالت

فرقتهم تدعى الى الآن بالمرابطين من بين فرق بنى ورياغل حسبما تقدمت
الاشارة اليه .

كما جاءت هذه اللفظة في ظواهر الاحترام بالنسبة للشرفاء
الغلبوزيين، فقد جاء في ظهير السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام في
حق الغلبوزيين بعد الحمدلة والتصلية والطابع ما يلي :

جددنا بحول الله وقوته وشامل يمينه ومنته لحملته المرابطين حفدة
الولى الصالح سيدي ابراهيم الاعرج نفع الله له حكم ما بأيديهم من
ظواهر أسلافنا الكرام قدس الله أرواحهم في دار السلام وأبقيناهم
واخوانهم المرابطين أهل أغلبزورى على ما كانوا عليه من التوقير والاحترام
والمبرة والاكرام، واسقطنا عنهم ما يلزم غيرهم (خرق) عليهم عادة
ولا يحدث في أمرهم نقص ولا زيادة فالواقف عليه من عاملنا وولاة أمرنا
أن يعمل بمقتضاه ولا يتعداه صدر به أمرنا المعتر بالله في ثمانية وعشر
ربيع الاول عام 1264 .

وبالمقارنة بين الظهيرين المذكورين يدرك أن لفظة المرباط يراد بها
الشريف لانه كما أسلفنا كان كل شريف نزل في جهة من الجهات الريف
الا وجعل أول عمل له أن يقيم زاوية يتعبد فيها مع تلامذته ويقصدها
السكان للتبرك به والرباط في زاويته، فسموهم بالمرباطين وجارتهم الدولة
في ذلك .

والظهير الذى أصدره السلطان مولاي عبد الله في حق المرباط
موسى، كان في نهضته الاخيرة التى قضى بها على أخيه أبى الحسن على
ابن مولاي اسماعيل، وقد (1) كان هذا الاخير استولى على شمال المغرب
ودعى لنفسه، فما كان من السلطان مولاي عبد الله الا أن نهض في بحر
سنة 1149 هـ. من سوس واسترجع ما كان استولى عليه أخوه الذى فر
الى نواحي تازة الى عرب الاحلاف وأقام بين ظهرانهم عدة سنين ثم عفى
عنه السلطان مولاي عبد الله ورجع الى فاس بدار الدبيغ ثم أعطى له
الاجنات والمزارع بمكناسة وبعثه الى داره بها، فأقام يسيرا ثم وثب

(1) الاستقصاء - ج - السابع ص 141 طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء.

عليه العبيد فقبضوا عليه وبعثوا به الى أخيه السلطان المولى عبد الله وقالوا ان هذا قد أفسد علينا بلادنا فأخذوه وسرحه الى تافيلالت الى أن مات رحمه الله، ويوجد بين أيدينا ظهائر للسلطان مولاى محمد بن عبد الله والسلطان مولاى الحسن الاول وغيرهما وآخر ظهير للمولى عبد العزيز جاء فيه بعد الحمدلة والتصلية والطابع الكبير ما يلى :

يعلم من كتابنا هذا أسماء الله وأعزه أننا بحول الله وقوته وسامل يمينه ومنته جددنا حملته المرابطين أولاد السيد موسى بن حدود على ما بأيديهم من ظهير سيدنا الوالد وظهائر أسلافنا الكرام قدس الله أرواحهم فى دار السلام المتضمنة توقيرهم واحترامهم ومبرتهم واکرامهم تجديدا تاما حسب الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعلمه ويعمل بمقتضاه ولا يتعداه صدر به أمرنا الشريف المعتر بالله فى 25 محرم الحرام فاتح عام 1320 ونكتفى فى الصفحة التالية بصورة هذا الظهير .

ومن تاريخ هذا الظهير الاخير يستفاد أن صدوره كان اثناء تقلبات النائر بوحمارة فى نواحي تازة حيث تبين تشبث الشرفاء والعقلاء فى هذه الجهة بالعرش المجيد .

حياته : من الظهير الاول يتبين أنه كان حيا فى أواسط القرن اثنائى عشر، لان الظهير صدر فى حقه بتاريخ 1169 هـ . وقد كان أبوه توفى بقرية أجدير بنى بوقياظا، وهناك دفن حيث مسجد القرية الآن أما ولده المرباط موسى فانه توفى بزايوته بقرية وادى الحدادين أسفل جبل حمام وأقيم له ضريح ثمة لازال قائم الذات الى الآن .

وقد كان منحاه فى تدبير شؤون زايوته مبنيا على العمل لا على التوكل فحسب ولذا اقتنى أملاكا فى القرية وملك الفدادين كان يحرثها ويجمع محصولها للوافدين على الزاوية .

صلاحه : توجد بين أيدينا وثيقة شرعية كافية لمعرفة مدى صلاحه وتقواه، وقد حررت هذه الوثيقة بتاريخ 1288 لاثبات توقير احفاده لاجل استصدار ظهائر بذلك .

فقد جاء فى هذه الوثيقة ما يلى :
يشهد من يضع اسمه عقب تاريخه بمعرفته لحفائذ الخير الدين

الولى الصالح صاحب البرهان الواضح الم رابط موسى بن حدو المدفون
ببنى ورياغل من الجبل حذاء بنى عروص رحمه الله ونفع به وهم
— أى الاحفاد — :

الم رابط سليمان واخوانه .

والسيد الحاج محمد بن الحاج عمر (هو جدنا رحمه الله)
واخوانه .

والم رابط محمد فتحا بن المقدم واخوانه .

والفقيه العدل سيدى احمد بن الخير الدين سيدى محمد بن
الحاج وأخوه الم رابط عمر .

والم رابط احمد بن الفقيه سيدى مسعود .

والم رابط عمر بن احمد بن عبد الرحمان .

وولد الم رابط شعيب بن احمد بن عبد القادر وغيرهم من
اخوانهم كبيرا وصغيرا الساكنين بالبلدة المذكورة بربع بنى بو عياش فى
الموضع المسمى عند أهل المنزل بالرابطه معرفة كافية شرعا بها ومعها
يشهدون بأنهم من أهل الخير والديانة والاحوال الصالحة والتوقير
والاحترام والمبرة سلفا عن خلف حسبما بأيديهم من الظواهر الثريفة
الصادرة لهم من الائمة الكرام قدس الله أرواحهم .

أولاده رحمه الله :

قد خلف من الاولاد أربعة هم: محمد — الحاج عمر — صالح —
اسى اعلى — ومن هؤلاء الاربعة تتناسل سكان الرابطة مسقط رأس
كاتب هذا المؤلف الذى يصل نسبه الى أولهم حسب الترتيب التالى :
احمد بن عبد السلام بن الحاج محمد بن الحاج عمر بن احمد
ابن عبد السلام بن محمد بن الم رابط موسى بن حدو .

الحاج عمر بن الم رابط موسى :

كان وليا صالحا انتقل الى قرية الرابطة حيث خلف هناك أولاده
المعروفين بالثرفاء أولاد سيدى الحاج عمر، وقد توفى هناك ودفن

شمال المسجد وله ضريح هناك يقصد للتبرك به وبالاخص يوم الخميس حيث يعتقد فيه التبرك لداء التابعة .

وقد بنى ضريحه بأعلى قمة ذات أحجار صلبة تشرف على سهل النكور الى البحر الذى يحضن جزيرة النكور ويحد شرقا جبال بنى توزين ينساب بأسفلها وادى النكور، أما جنوبا فهناك قمة أم الرابطة التى بأعلاها مسجد عتيق ينسب الى سيدة كانت تتعبد فيه ولذا تنسب القرية اليها فقليل أم الرابطة لصلاحها ورباطها، الا أن الاسم الحقيقى للرابطة انها كانت رباطا أيام عمارة مدينة النكور التى تقع أسفلها .

ومن احفاد سيدى الحاج عمر هذا الولي الصالح سيدى الحاج شعيب وسلسلته هى الحاج شعيب بن سيدى عمر بن محمد بن الحاج عمر . أدركت هذا السيد المبجل وأنا صغير وهو شيخ كبير ذو لحية بيضاء ووجه ناصع البياض، حالته نظيفة ذو هيئة ووقار، وكان اماما حمزاويا يقرأ عليه الطلبة ما بين الثلاثين والخمسين كل على قدر حفظه وكان الطلبة يتفرقون بين صخور هذا المعقل الصالح، يقرؤون القرآن فى الواحهم جهارا بمختلف القراءات وكانت منطقة المسجد والضريح تقشع منهما الابدان ببركة القرآن الكريم .

وكان من خصاله رحمه الله البغض لليهود فهو لا يطيق أن يرى فى السوق يهوديا، فمهما رآه الا وهدهد بعصى بيده فى أسفلها حديدة حتى يكاد أن يخرق بطنه وله تصلب ضد جزيرة النكور التى كانت تستعمل لشراء الضمائر .

توفى رحمه الله فى العقد الثانى من هذا القرن (العشرين) .

الحاج محمد بن الحاج عمر :

خلف الحاج محمد هذا أولادا كثيرين أناثا وذكورا، ويبلغ الان احفاده ما يناهز عن الف نسمة وله مشاريع خيرية كثيرة فى قرية الرابطة، منها المسجد والجب الذين بناهما بماله .

وكان من أبرزهم السيد عبد السلام بن الحاج محمد الذى كان يتولى نظارة الحرب التحريرية .

وفاتسه : (أى السيد عبد السلام) توفى رحمه الله فى 24 رمضان عام 1365 هـ. عن سن يناهز 71 سنة ودفن بالمقبرة العمومية بالرابطة التى بازاء ضريح سيدى الحاج عمر .

صالح بن المرباط موسى :

أما صالح فانه خلف من الاحفاد قليلين منهم السيد امحمد بن علوش مقرر القرآن، قرأت عليه فى مبدأ قراءتى وهو اسى امحمد بن علوش بن حدو بن عبد القادر بن شعيب بن صالح بن المرباط موسى .

اسى على بن المرباط موسى :

أما اسى على فهو جد اسعليثا ومنهم الحاج بنعلى وهو الحاج محمد بن على بن حدو بن محمد بن السى على بن المرباط موسى . وهناك فروع أخرى تفرعت عن الاولاد والاحفاد لهؤلاء الاربعة الاولاد منهم من سكن فى بنى بوقياظا ومنهم من لا زال فى قرية الحدادين.

ومنهم الشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن صالح :

هو أبو ابراهيم بن صالح العربى الحميرى من أهالى مدينة المزمة ببني ورياغل ازاء جزيرة النكور، كان رجلا صالحا زكيا راضيا من أعيان المزمة ووجهائها وفى بادىء الامر لم يكن أحد يعتقد فيه الصلاح لانه كان يتستر، الا فى آخر عمره ظهر صلاحه على يد سارق وذلك انه كان للشيخ جنان رمان طيب حلو المذاق فعمد السارق وسرق منه كمية ولما أراد السارق أن يأكل منه وجده واحدة بعد أخرى مملوءا بالعفن مسودا مرا لا يוכל فجاء السارق الى الشيخ وعرفه بالسرقة وما وجد عليه رمانه وانه تاب مما فعل فقال له الشيخ اذهب فكله فأنت فى حل، فوجد الرمان رجعت اليه حلاوته وزال عنه التعفن وأكله فشاعت القضية فى البلد وعرف صلاحه مع ما عرف عليه ذلك الجنان من الخصب ولو فى زمن القحط، بينما الجنان بجواره فى قحط .

مناقبه : وعدا ما ذكر فقد كان أهله يحكون عنه أنه فى الليل ربما سمعنا جلجاح سطل وسط الدار، يقولون للشيخ ان سارقا

بالدار، فيقول لا انما متوضىء يتوضىء، وكان أصحابه يرون ان المتوضىء هو بعض الجن المومنون .

حياته : لم نعثر على زمن حياته وكان له ابن عم يقول له على بن ياسين بن صالح، وهو الذي حكى جل حياة عمه هذا، وقد قال في حقه صاحب المقصد الشريف :

أهل الحقائق ان نظرت وجدتهم متسرلين بكل فضل باهر
وتجوهرُوا بلطائف فتكللت تيجانهم بزبرجد وجواهر

من رجال بقيوة :

الشيخ الحاج حسون :

ذكره صاحب كتاب تحف تاريخية صحيفة 81 .

وهو الحاج حسون بن عبد الحليم بن اسماعيل ويرفع نسبه الى سيدنا أبى بكر الصديق صاحب النبى (صلعم) وخليفته الاول من بعده يصل اليه في 31 أبا حسب مخطوط بمناقبه .

وحسب نفس هذا المخطوط، فان سلسلته ذكرها أحد مشاهير علماء بادس يدعى ابا الحسن على المراكشى وقد تقدم التعريف به .

ولتعميم الفائدة من ناحية التعريف بالشيخ حسون هذا وللإطلاع على نموذج الحياة الاجتماعية في نفس الوقت، ننشر ملخص المخطوط، ويكنى الحاج حسون بأبى على وليس اسمه عليا كما لا يوجد بين أولاده من اسمه على، ومن هنا يتضح أن تسمية المدرسة الابتدائية بالحسيمة التي هي أول مدرسة بنيت فيها باسم على بن الحاج حسون، هو جهل بتاريخ هذا الشيخ وأودلاه، على أن المقصود من اطلاق الاسم على المدرسة هو اسم الشيخ أبى على، لانه الذى له تاريخ في الصلاح ، فهو الاجدر باطلاق اسمه على المؤسسات الوطنية .

ولادته ووفاته : لم تذكر المصادر شيئا عن تاريخ ولادته ولا وفاته، الا ما ذكره مخطوط مناقبه من أنه حج عام 566 هـ . وانه تلمذ للشيخ أبى داود البطيوى التسممانى، الذى توفى عام 578 هـ . حسبما يأتى في ترجمته . وضرجه مشهور في قرية ادوز من قبيلة بقيوة

حيث كانت له زاوية مشهورة تضرب إليها اكباد الابل للزيارة والتبرك بصاحبها .

وخلف عقبا في القرية منهم أولاد سيدى عمر الادوزى .

حجه وزيارته لقبر المصطفى (صلعم) :

وفى ربيع الثانى عام 566 هجرية أعلن فى زاويته لتلامذته أنه يسافر الى البقاع المقدسة للحج وزيارته قبر المصطفى (صلعم)، واختار أشخاصا ثلاثة لمرافقته وهم 1 - ولده امحمد فتحا، وكان من الصالحين المتقين على سيرة والده، وهو الذى عينه خليفة مكانه. 2 - وخديمه السيد عبد الرحمان بن شماس من قرية ادوز ببقيوة، وهى قرية الشيخ الحاج حسون 3 - والعالم الامام ابن الكماد ببادس ولم يكن معه فى الزاوية، ولكن جمهور من اتباعه اغتموا لعدم مرافقتهم اياه، وبالاخرى عدم اختيارهم لمرافقته مع الناس بفراقه هذه المدة التى قد تكون منة كاملة، لان الحج اذ ذاك لا يكون الا عن طريق البر مع استعمال الزوارق الصغيرة من مرسى الى مرسى، اذا لم يكن هناك خوف من القراصنة، وهى تجوب شواطئ البحر الابيض المتوسط، وهو كذلك فقد خرج فى جمادى الثانية عام 566 هـ. ورجع فى فاتح رجب عام 567 هـ. ولما علم باغتمام تلامذته أعلن أن مرافقته مباحة لكل من جهز نفسه، وذلك بعد صلاة الجمعة بمسجد الحاج على التذكائتى الذى كان مقاما على رأس عين تذكائنت، وشرع الناس يتهيأون بالزاد الى جمادى الثانية 566 هـ. واستدعى من بادس العالم ابن الكماد المشار اليه، فسافروا من أدوز ولم يمروا على بادس بل ذهبوا الى مرسى بوسكور وهى ضفة بين بادس والحسيمة الآن وكانت قرية عامرة وليست هى النكور، كما ذكره الامير شكيب ارسلان وتبعه السيد احمد المكناسى، كما سبق أن بينا، ومن هناك ركبوا زورقا بالمقاذف، ومن بسكور ذهبوا فى البحر الى مرسى قلعية، وهى مرسى غساسة التى كان مرسى عامرة ومن هناك تابعوا سيرهم برا الى مدينة الاسكندرية بمصر، وقد اتصل بمصر بالشيوخ الكبار، فاتصل بالشيخ العمرانى مريد الرفاعى، والشيخ العارف بالله الحاج يوسف الاقصورى فى قرية قوص، وبعد ما تلقى منهم تجديد الاذن

لتلقين الاوراد، تابع سفره الى الحجاز، وبعد ما حج واعتمر وزار قبر المصطفى (صلى الله عليه وسلم) رجع مارا على مصر أيضا .

وصوله الى بلدته : وعند رجوعه مع أتباعه الذين حجوا معه ولا نعرف عددهم، مر على مدينة المزمة التي هي شرقي بادي على 20 ميلا منها، تلقاه أهلها واستضافوه ثلاثة أيام في فرح عظيم، شملهم بوجود الشيخ بين أظهرهم وبالأخص تفضله عليهم باللقاء اثر رجوعه من الحج، وفي اليوم الرابع رحل الى قريته بادوز، ولم يمر على بادي، وقد هرع تلامذته من جميع النواحي بالهدايا والتحف وعندما تلقته زوجته أعلمها بأن ولدهما الحاج محمد الذي حج معه هو خليفته من بعده وكان شابا غير متزوج .

تزوج الحاج محمد : وعندما انصرم على وصولهما ثلاثة أشهر خطب لابنه المذكور بنت أخيه صفية فزقت اليه يوم عاشر شوال عام 567 هـ. وانجب معها ابراهيم ثم أبا بكر والزاهد .

بركاته : وقد تقدم في معرض الكلام عن البرغواطيين انكسارهم أمامه بسلاح الايمان والدعاء التالي: «يا من له العظمة والجبروت، يا ذا الملك والملكوت يا من هو حي لا يموت انصرنا على من يموت » .

ويقال أنه عند ولادته رأت أمه اسراراً علمت بها زوجها، فأمرها بكتمانها، الا أنه قام بعقيقة كبيرة ذبح فيها ابقارا وأغناما، وحضرت جماعة من العلماء والصلحاء ببادي حفلة العقيقة وكان منهم الشيخ العارف بالله العالم الفقيه أبو الكبير البادي .

مشايخه : تلمذ أول ما تلمذ وهو شاب للشيخ الصوفي العارف بالله وامام الحقيقة أبي داود البطيوي، وبعد ما قضى فترة من الزمن ثمة رجع ولزم الخلوة، وكان لا يأوى الا الى الفياض والقفار وقد أعد خلوة يأوى اليها في جبل أدوز، وأهله يتبركون بها، وكان يعتكف بها أشهراً الى أن أتاه الاذن من عند شيخه أبي داود بلزوم الجماعة في مسجده وبقبول كل من أتى اليه من الرواد وبإذن في الاوراد لكل من أتى تائباً، ومن ذلك الوقت وهو يتصدى لقضاء حوائج الناس بالانتساب والسدء والبركة .

ومن مشايخه أيضا أبو حجاج يوسف الاقصوى، وشيخ بغداد الرفاعى وذلك فى طريقه الى الحج كما أشرنا فيما قبل .

ومنهم الشيخ أبو محمد عبدون :

هو الشيخ العالم الصالح المتصوف المعلم أبو محمد عبدون بن على البقيوى من بنى يفراسين من قبيلة بقيوة ومن أولاد بنى منصور من قرية تيقيت، كان صاحب تحقيق وطاعة وصلاح وكان يخالط الصلحاء ترجم له مؤلف مناقب الحاج حسون الادوزى، وقد رفع بعضهم سلسلة مشيخته الى سيدى احمد الرفاعى .

حياته : ويؤخذ من كونه تلمذ للشيخ أبى على الحاج حسون أنه كان حيا فى أواسط القرن السادس الهجرى اذ أن الحاج حسون حج عام 566 وقد يكون رمز لوفاته صاحب المقصد الشريف فى البيت الآتى :

فبقاؤه للعالمين وجوده ومماته فيهم عين وحياة
فكلمتا عين وحياة، تتضمنان على حساب عدد الجمل 557 والله أعلم.

ومنهم أبو زكريا يحيى بن مخلوف البقوى :

من فخذ بنى يفراسن (ولا زال مدشر فوق بوسكور يدعى الآن افراس) من قبيلة بقيوة .

كما كان رحمه الله من الزهاد الذين جابوا فى الآفاق لاغراض دينية، فحج وغزا بالاندلس، وتمكن خلال تجواله من الاجتماع بجمع غفير من العلماء والصلحاء ومشايخ التصوف، وكان دأبه البحث عنهم للاجتماع بهم والاخذ عنهم سواء فى الريف أو فى الاندلس بمناسبة رحلاته للجهاد، أو فى المشرق فى رحلاته للحج، وقد سلك عند ذهابه من مكة لزيارة قبر المصطفى (صلعم) بالمدينة المنورة طريق المشى على الارجل، فقد حكى عنه نفسه أنه قال لما رجعت من مكة الى المدينة جئت عن طريق الماشين، وقال كان لى رفيق فوردنا بعض المياه فبتنا فيه فلما صلينا الصبح تزودنا ومرتنا .

سكناه ومهامه الفلاحية : كان يسكن بقبيلة بقيوة بالجبل الذى يطل على الوادى النازل الى مرسى بوسكور، وكان له مع داره مسجد يصلى فيه، فقد قال جئت يوما الى مسجدى هذا نصلى المغرب فوجدت فيه رجلا مسافرا توسمت فيه الخير، فلما صلينا قلت له قم بنا الى المنزل لنأكل شيئا، فقال آيت الى هنا قال فأتيته بما حضر فأكل ثم رفع يده، ثم قال فلما صلينا العشاء الاخيرة قلت له لولا شغل لى لبت هنا، قال وما شغلك فقلت له ان لى فداننا من قمح قد أضرنى فيه الخنزير، فأنا أبيت فيه فى ديدبان صنعته — الديدبان حوش — اطرده منه، فقال لى اقعد فانك لا تراه فيه ابداء، قال فلم اعمل بقوله ومشيت الى الفدان فبت فى الديدبان، فما رأيت للخنزير اثرا بعد ذلك .

حياته : جاء فى ترجمة الشيخ أبى طاهر ابن العلام، انه زاره فى داره ووجده يصب سمنا على طعام للفقراء وابن العلام هذا كان حيا أواخر القرن السادس الهجرى .

ومنهم أبو عبد الله الشريف الحسنى :

حسب ما قاله صاحب المقصد الشريف .

كان والده نزع عن البلاد الهبطية فنزل بمدينة بادس واستوطنها، وقد خلف ولده ابا عبد الله المذكور، ولما توفى أبوه انتقل الى الشيخ أبى يحيى اجدوم شيخ وقته فى التصوف، فتلمذ له وبقي معه الى أن توفى شيخه اجدوم، فاننتقل الى مسقط رأسه ببادس .

وقد قيل أنه اعطاه عصاه فصار يتصرف بها شئ قضاء الحوائج ، فظهرت بركته واصبح شيخا مباركا، وهو شريف النسب .

مناقبه : كان هذا الشريف من رجال الخير والصلاح، وكان مجاب الدعوة، قيل انه ما تدخل فى قضية ووقع الغدر به الا أخذ الله ثاره حيناً .

ومن ذلك ما حكاه صاحب المقصد الشريف، أنه وقعت فتنة فى قبائل ورغة بين بنى ونجان وبنى عيسى، لان هؤلاء أخذوا امرأة من بنى ونجان غصبا، فتدخل هذا الشريف لردّها، فوعده بنو عيسى بردها، ولاكنهم بعد ذلك غدروا فبقيت عندهم 18 يوما، فلما علم بذلك قال رحمه الله ان

كل ليلة بقيت عندهم بقتيل، قيل فقصدهم بنو ونجان في عدد قليل الى بنى عيسى وهم في عدد كثير، فقتل الاولون فيهم 18 قتيلا بعدد الياالى التى بقيت عندهم المرأة .

ومن ذلك ما حكاه الشيخ عبد الحق بن اسماعيل البادسى المؤلف انصالح، قال شاهدت ان رجلا سوقيا يعرف بابن تافيلالت من سكان حجر تغزا، وكانت زوجته صغيرة فسكن بها مع أبويه، فكان يصدر منها نشوز، فحملها زوجها ذات ليلة وذهب بها الى محل يقال له بويرمان، فجاء هذا الشريف يردها لزوجها، قال الراوى وكنت حاضرا معه فطالبهما برد الزوجة فامتنعا، بل أن أمها أغلظت له القول فتغير خاطر الشريف، قال الراوى فعلمت أنه ستنزل بالرجل نازلة، وكان كذلك، قال فكنت أربط دابتي عند أبوى الزوجة فذهبت لتفقدوها فوجدت الرجل قاعدا في وسط بيته وفيه اثر مرض فقلت ما بك، فقال لا أدري غسيت الساعة رأسى في العنصر وها أنا لم يبق بى عضو الا وتألم، ولم يمض أسبوع حتى توفى، وكان يحترف حرفة البناء، فطلب المؤذن ممن حضر الجنازة صدقة لاولاده، ورجعت الزوجة الى زوجها برورا بالشريف .

نسبه : أما سلسلة نسبه فلم نعثر على شىء صريح يدل على ذلك، كما لم نعثر على من خلف من الذرية، الا أن الذى وجدته في تقييد ان بعض الشرفاء من أولاد كنون بن محمد نزلوا ببادس، وهل هذا الشريف منهم؟، فإذا كان منهم فان له اخوانا نزلوا بقبيلة بنى ورياغل بالجبل ازاء المزمة ومن المزمة انتقل بعضهم الى قرية بو الماء، وهى قرية مشهورة في بنى عروص فرقة من بنى بو عياش .

كما نزل اخوان لهم بقبيلة كتامة الى جهة البحر، ونزل بعضهم بناحية المصامدة، هذا ما يوجد فى ذلك التقييد، وقال ان جد هؤلاء جميعا هو جعفر بن عمران بن حسن بن جنون بن محمد بن احمد بن مسعود ابن عبد الخالق بن عبد الكريم بن سعيد بن عبد الرحمان بن يحيى بن مولانا ادريس، ولكن لا ندرى بالضبط هل المترجم له من هذه السلسلة أم لا؟ والله أعلم .

من رجال بقیوة :

أبو العباس أحمد بن سوسن البوسکوری :

هو من فخذ بنی ورجین کأبى یحیی زکریاء الا أن هذا من أهالی
مرسى بوسکور التی هی احدى مراسی بقیوة شرقی بادس .
کان رحمه الله متحلیا باخلاق فاضلة جمه .
حرفته : کان يتولى مختلف المهن الحرة، فاحترف حرفة الخياطة
وتارة القصارة مع امانة وتجنب الشبهات .

كراماته : حکى الشيخ أبو یعقوب البادسی أنه قال ذهبنا
ونحن صبیان فی جمع منهم الى مرسى بوسکور — ذهبوا من بادس —
فوجدنا رجلا یضرب أثوابا على حجر — یغسلها — فعبث به أولئك الصبیان
وصاروا یقذفونه بالماء والرمل وهو ساکت، فلما انصرفنا قال أكبرنا، ذلك
هو الشيخ أبو العباس أحمد بن سوسن قال فرجعت الیه واعتذرت عما
فعل أقرانی من الصبیان، فقال لا بأس علیک الصبا شعبة من الجنون،
قال ثم لاعبنا مع صبیان بوسکور بالاحجار فجرح أصحابی کلهم وسلمت
أنا من بینهم، وأما الصبی الذی کان یعرفه فتنفل جرحه ومات .
حیاته : کان حیا فی أيام قیام أبی العباس الكمیلی بالدعوة
للفاطمیین ببادس وجبالها وذلك عام 685 .

ومن رجال بقیوة أيضا :

الشيخ أبو یحیی زکریاء بن یحیی التقیتی :

کان من صلحاء بقیوة من أهل مدشر تقیت بکسر التاء وتشدید
القاف المكسورة وسکون التاء الاخرة وکان منزله على خندق وعر المسالك،
یعرف فی ذلك الوقت عندما یصل (الخندق) الى البحر بوادی الحواری وتعرف
الفخذه التی ینتمی ایها بنی ورجین، ومنزله قرب رابطه أم ایمن على
فرسخ واحد .

احسانه : وللشيخ اليد الطولی فی الخیرات والعطاء وتلاوة
القرآن فی الحال والترحال ودوام وظیفة قراءة الاوراد .

حصافة عقله : كان الرجل الذى دعى للفاطميين أبو العباس الكميلى حوالى سنة 685 هـ. ينتسب الى المتصوفة وكان قبل حجه وقبل هذه الدعوة يقرأ بمسجد تقييت، ويأوى اليه، فحكى الشيخ أبو العباس احمد بن سوسان المتقدم الترجمة، قال كنت صبيا وكنت أجلس الى الكميلى هذا، فجاء الشيخ زكرياء ووجدنى جالسا معه فقال لى لا تقعد مع ذلك الطالب بعد هذا اليوم فانه فاسد العقل .

حياته : قد تلمذ الى الشيخ أبى موسى عمران امصول، وكان يجتمع معه فى رابطة أم أيمن، ويظهر من كونه نهى عن الجلوس مع الكميلى الذى قام بالدعوة الفاطمية حوالى 685 هـ. انه كان حيا فى حوالى أوسط القرن السابع الهجرى، لأنه لما نهى عن الجلوس معه كان الكميلى لا زال لم يحج وكان طالبا .

ومنهم أبو عيسى عمران امصول :

هو من قرية تغزى بفرقة تكيذيث بكسر التاء والكاف المعقدة وكسر الدال وسكون التاء الاخيرة، فرقة من قبيلة بقيوة .

وكان الشيخ فاضلا ملازما لرابطة أم ايمن يأتى الى هذه الرابطة صلحاء بقيوة للاجتماع بالشيخ وسماع أقواله وحكمه الماثورة التى ينتفعون بها، وله مجالات فى المقامات والعبادات .

مكاشفاته : وقد كانت له مكاشفات مروية صالحة لا تتخطى مقاييس الشريعة الاسلامية، فقد حدث عنه الشيخ أبو العباس احمد بن سوسان أنه توجه ذات يوم جمعة الى رابطة أم أيمن، وكان يواصل الصيام وقد قال عنه مؤذن صلاة المغرب أنه أمر الشيخ أبو موسى احد تلامذته أن يذهب ويأتى بالكيس الذى فيه الخبز ثم أنه قسم الخبز ولم يسهم لى (أى للقادم لأنه كان يواصل) .

وكان من عادة صلحاء بقيوة زمن هذا الشيخ أنهم يأتون الى رابطة أم ايمن ويجتمعون به لقضاء ليلة النصف من شعبان، وليلة سابع وعشرين من رمضان، وليلة عاشراء بصفة لازمة للعبادة، وكذلك كانوا يأتون فى غير هذه الاوقات، ومن مكاشفاته فى هذا الميدان ان الشيخ أبا يحيى

زكرياء المتقدم الترجمة ذهب الى الرابطة، وكانت زوجته طلبت منه قبل أن يذهب أن يحس الكلاء لعجلة لهما ولكنه امتنع وذهب الى الرابطة، فلما دخل على الشيخ أبى موسى قال له وما يدري أحدكم أن يكون حش الربيع للعجلة أفضل، فبهت الشيخ زكرياء وعلم أنها مكاشفة .

حياته : من ترجمة الشيخ أبى العباس بن سوسان الذي حكى عنه ما تقدم، ومن ترجمة الشيخ أبى يحيى زكرياء يعلم تاريخ حياته، فكلهما كانا موجودين من النصف الثانى من القرن السابع الهجرى، فهو كان حيا فى هذا الوقت .

ومن رجال بقیوة أيضا :

الشيخ أبو مروان عبد الملك الوحانسی :

أصله من الاندلس، وقد جاء الى بلاد الريف يتعبد فى رباطات بادس وغيرها، الى أن توفى فى بقیوة ودفن فيها قرب المكان المعروف بامريقا، وهو المعروف عند أهالى الريف بسيدي مالك، وقبره يزار للاستشفاع به الى الله للبرء من عاهات صرع الجنون وغيرها، ويقصده زوار كثيرون الى الآن بقوافل يعتكفون أياما وليالى، وهو معروف باستجابة الدعاء عند قبره والله أعلم .

كان رحمه الله عارفا محققا سالكا طريقة القوم المتصوفين غير مجذوب، وكان صاحب مجاهدة وبلاء .

ويظهر من قول الشيخ عبد الحق بن اسماعيل فى حقه من أبيات شعرية أنه كان من العلماء الصالحين فقد قال :

شمس العلوم يالها من شمس تبدو فتعلو ثم تسمى الى أن قال :

فذا وذلك من القياس قطعاً ضدان ليس البدر شبه شمس

وكان جواب الاتفاق خريتا لا يعرف سكونا وكان يتردد على أسفى لزيارة الشيخ المشهور أبى محمد صالح وقد قصده بعد أن ذهب الى المشرق وأراد أن يأخذ عن شيخ بمصر فوجه من هناك الى أبى محمد صالح، فقد حكى عن نفسه أنه قال أردت أن آخذ عن شيخ فى الديار

المصرية فقيل لى أن شيخك أبو محمد صالح بأسفى، قال فشدت وسطى اليه فلما دخلت عليه قال يا عبد المالك ما جئت حتى وجهت، كما حكى عن رحلته الى مصر ولم يصرح بأنه حج، كما لم يوجد في المصادر تسميته بالحاج، الا أنه من الراجح أنه حج لان الصلحاء كانت رحلتهم لامرين: الحج وملاقات الصلحاء، فقال انه دخل مصر وتلاقى مع الشيخ أبى الحسن على بن الصباغ. ثم قال انه ذهب الى أقطار الشام، وحكى انه بات يوما عند راهب بالشام في ديره، فلما أراد الخروج صباحا خفيت عنه الباب فجعل يدور والراهب ينظر اليه فقال الم تعرف الباب الذى دخلت منه فما زال يدور الى أن أراه الراهب الباب، وقال (الراهب) كيف تزعم أنى على باطل وقد تصرفت فيك، قال فسافرت مهموما الى مصر، فلما دخلت على ابن الصباغ قال تصرف فيك كافر ارجع اليه فقلت وهمة الفقراء معى قال وهمة الفقراء معك، قال فرجعت، فلما رآنى الراهب ارتعدت فرائضه لانه علم انى ما جئت الا لامر، قال فقلت له كم تواصل (أى من دون أكل) قال أربعين يوما، قال له نقصتك نصفها، فلما واصل عشرين يوما لم يقدر ثم قلت له نقصتك نصفها، وهكذا الى أن وصل الى لاشيء قال فلم يقدر الراهب أن يصبر على الطعام الى أن مات جوعا وتخرّب ديره .

وقد استقر بالشيخ المطاف الى مدينة سبتة فقد حكى عنه الشيخ يحيى بن حصون أنه استقر بمدينة سبتة وصار يطعم الطعام للفقراء ليلة المود، ويحيى تلك الليلة بالسماع يحضرها جمع من الفقراء وتوقد المصابيح بالزيت وتستعمل الشطحات الطرقية .

مناقبه : منها ما تقدم مع الراهب الذى مات جوعا .

ومنها أنه كان صاحب مكاشفة، ففى سبتة قيل أنه حضر اليه فقير ليلة المولد أتى من المشرق برسم زيارته، وكان مع الفقير جراب فيه حشيش تركه فى المقبرة وجاء لاهياء ليلة المولد فقال له الشيخ ان ذلك الشئ الذى فى الجراب هذا وقته فذهب الى المحل ليأخذ الجراب ويرمى به فى البحر، ولما رجع الفقير قال له الشيخ أكل جرابك الاحوات فاستحيى الفقير وتاب .

نفسه المنبسطة : كانت نفسه مرحة منسرحة يمازح أصحابه

وكان من لا يعرفه يقول عنه أنه ليس بصالح لكثرة مزاحه، لكنه يرد هذا الخاطر بمكاشفاته، فقد قيل أن جماعة من أهل بادس ذهبوا إليه بسببته فقتلوه، فظهر لهم بسطا كثيرا فقال احدهم (ولعل الشيوخ عبد الله بن الرئيس على البيدق) في خاطره اين هذا من سيدى أبى يعقوب الشافى (أى من ناحية الوقار والرزانة) قال فحينما قال لى فى صدور احكم غيرة فعلمت أنه كاشفنى .

أشيأه : أخذ عن الشيخ أبى محمد صالح الهسكورى كما أخذ فى مصر عن الشيخ أبى الحسن على بن الصباغ وتلمذ عليه الشيخ يحيى بن حسون وكان حيا فى أواخر القرن السابع ولا يعلم بالضبط وقت وفاته ولا ولادته .

ومنه الشيخ أبو محمد المسارى :

أصله من بنى مسارة ولا يعلم كيفية ولا أسباب انتقاله الى الريف، الا أنه كان من صلحاء قرية اسكرام بقبيلة بقيوة .

وكان رجلا صالحا كثير الاستقامة والانابة، لا يتقيد بمقام فى مكان دون مكان، وله كرامات يرويها جمهور قبيلة بقيوة من صلحاء زمانه. وقد قال فى حقه الشيخ عبد الحق بن اسماعيل :

من كان لله العظيم مطيعا أضى به نور الرشاد سطيحا

وفاته : ومع أنه لا يعرف شىء عن تاريخ حياته ولا وفاته، الا أنه توفى بقرية اسكرام ودفن بـصحن جامعها وقبره يزأر، يقصده الاهالى .

من رجال بنى توزين :

أبو الحسن الحاج على بن مخوخ :

الذى يوجد بين أيدينا من المخطوطات والظواهر أنه شريف ادريسى،

الا أنه ليس من أولاد مولاي عبد السلام صاحب جبل العلم ببنى عروس الجبلية، بل أسلافه كانوا من سكان تافيلالت، ومنها نزح جده يعلى بن سالم ونزل بقبيلة الاخماس بجباله، وهناك خلف سبعة أولاد منهم عبد الحليم الذى خلف السيد المخوخ والد السيد الحاج على بن مخوخ المترجم له، ويقال أن جده الاعلى هو سليمان بن على بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن الحسن بن طلحة بن جعفر بن مولاي ادريس والله أعلم.

ثم أن هذا نزح من الاخماس ونزل بجبل بنى عيسى (لم نعرش الى الآن ما هو هذا الجبل وأين موقعه والراجح أنه جبل بتمسمان، وسيأتى الكلام عليه عند ترجمة الشيخ اليستثنى) ومن هناك انتقل الى قبيلة بنى توزين بعد وفاة شيخه اليستثنى، فنزل بجبل تسفت (بهذا الاسم يعرف الآن) وكان يدعى فى ذلك التاريخ بجبل بنى وزاب .

زاويته ومشيخته : كانت له فى القرية التى يسكنها والتى تدعى الآن بزاوية سيدى الحاج على، زاوية وكانت عامرة معروفة بالفضل والرجوع اليها للعبادة، وهى قرية فى قبيلة بنى توزين لا زالت الى الآن لها صلاح واحترام وقبيلة بنى توزين من قبائل بطيوة المنحدرة عن زناتة وهى التى تعرف من فرقها ببنى توجين بالجيم كما أسلفنا .

وكان أبو الحسن هذا شيخ وقته من المجاهدة والوصال والبركة، وكان نسيج وحده فى التقرب الى الله تعالى بأعمال البر والتقوى وملازمة الذكر .

وكان أول الامر أميا، لكن استدرك ذلك بعد كبر سنه، فتعلم الكتابة وحفظ القرآن الكريم، قيل عنه أنه طيلة خدمته للشيخ أبى عبد الله اليستثنى لم يكن أحد أكثر منه نقشا ولا أشد منه خدمة فى الزاوية وللفقراء، وكان نازلا عند شيخه المذكور بجبل عيسى موطن ذلك الشيخ، وبعد وفاة شيخه انتقل الى بنى توزين وهناك استقل بالمشيخة، فشيخه الوحيد هو اليستثنى ولم نعرش على شيخ آخر له .

حياته ومحنته : فى تاريخ حدود 685 كان قام الشخص الذى يدعى أبا العباس الكميلى بالدعوة للفاطميين كما أسلفنا وكان يزعم أنه رسول المهدي المنتظر، الى غير ذلك من الخرافات، وتبعه على ذلك رعا

الناس، وكان العلماء والصلحاء استتکروا عليه ذلك، ومن جملتهم الحاج علي بن مخوخ، فقال لما بلغه خبر الكميلي، قولوا له يلزم الخلوة ثمانية أيام فيظهر له الحق، ولما بلغت الكلمة الى الكميلي، قال قولوا للحاج علي أن هذا الشأن ليس شأنه (يعني أنه بعيد عن السياسة) فلما بلغ ذلك للسيد الحاج علي قال لا بد من قارعة تنزل به، فكان الامر كذلك، فانه لما استفتح أمر هذا الكميلي ببادس بعد القتل والسبي هجم على مدينة الزمة بقبيلة بنى ورياغل فقتل هناك بتاريخ 20 صفر الخير عام 686 هـ. وصلب بباب الزمة وبعث برأسه الى السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، فعلق الرأس بباب مراکش مع رأس أبي عامر عبد الله بن محمد بن علي بن محلي البطيوي صاحب مراکش .

ورغم ما قام به الشيخ ابن مخوخ ضد الكميلي، فان السلطان تغير خاطره على المتصوفة لكون الكميلي كان ينتسب الى التصوف، فجعل السلطان يذكر المتصوفة عامة بأقبح الذكر، وذلك ما دعى الشيخ المخوخي ان يغيب عن الريف الى المشرق، فغاب نحو شهر كما فعل جميع الفقهاء والشيوخ الى أن يتحقق الامر عند السلطان .

عبوره الى الاندلس : واثر رجوعه من هذه الغيبة توجه أيضا الى الاندلس للجهاد عن طريق بادس، وقد حكى عن نفسه في ذلك أنه بات في سطح رابطة البحر ببادس منتظرا السفر الى الاندلس، غير أننا لم نعثر في المصادر التي اعتمدناها في ذلك عن ذكر شيء من حركاته في الاندلس ولا مدة مكوثه هناك .

سجائوه : حكى عنه صاحب المقصد الشريف، أنه زاره يوما في بيته فروى له بنفسه هذه القصة، قال له أنه : صب بين يدي على البساط ثلاثة آلاف دينار عشرية فضية، فما قمت الى صلاة العصر حتى فرققتها على الفقراء .

مناقبه : خلف عقبا كثيرا من الشرفاء الذين تعتر بهم هذه الجهة لمقام صلاحهم، فقد انتشرت ذريته منهم أولاد سيدي الحاج علي وهم سكان موضع زاويته، ومنهم الوكيليون الذين نزل بعضهم على ضفة وادي ملوية السفلى وبعضهم بقصبة العيون سيدي ملوك، ومنهم على

وادی النکور بقرية غلبون، ومنهم المرحوم المجاهد سيدى محمد بن على بويحيا المجاهد المشهور فى الحرب التحريرية الريفية، وبأيدى الجميع ظهائر ملوكية علوية نثبت هنا نسخة من ظهير السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمان الصادر بتاريخ 1276 هـ. ونصه :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله
جددنا بحول الله وقوته وشمال يمينه ومنته لماسكيه الشرفاء أولاد
السيد الحاج على بن مخوخ الوكيلى الحسنى حكم ما تضمنه ظهير سيدنا
الوالد رحمه الله الذى بأيديهم المتضمن التوقير لهم والاحترام والرعى
الجميل المستدام والحاشات بما يطالب به العوام من الوظائف المخزنية
والتكاليف (نقطيع) فلا تخرق عليهم عادة ولا يحدث فى جانبهم نقص ولا
زيادة فنأمر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعمل بمقتضاه ولا
يتعداه الى ما سواه والسلام فى 23 من ربيع الثانى عام 1276 ونسخة
من الظهير الاخير لمولانا عبد العزيز وهو بتاريخ 21 جمادى الاولى عام
1329 .

ومنهم الشيخ أبو الربيع سليمان بن يحيى :

ويعرف بابن ستهم وهو مدفون بمدشر اعزوزن من قبيلة
بنى توزين ربع تسفت يقال لقومه بنى محسن.
صفاته : كان فاضلا متقشفا ومع ذلك فان لباسه كان حسنا
ولم يلبس الاسمال قط وكان فى وجهه تآكل لم يستعمل دواء لعلاجه
الى أن مات به .

جهاده : تمشيا مع سنن الصالحين فى ذلك الوقت الذى تقضى
ان يساهم كل أحد فى الجهاد بالاندلس وهى سنة الصالحين، وكان الاندلس
موضع الجهاد، وفى هذا الشأن قام وركب من مرسى قصر المجاز وهو
القصر الصغير قال بعض أصحابه الذين رافقوه فى تلك الرحلة سرنا معه
عام الغزوة بالاندلس للجهاد، فنزلنا بقصر المجاز ننتظر الجفن (المركب)
لنجوز فيه فأتى فقير أسمر اللون عليه مرقمة وبيده ركوة فسلم على
الشيخ أبى الربيع وهو جالس على ساحل البحر، فأعرض عنه الشيخ الى
آخر حكاية كرامة جرت له معه .

بركاته : كان له أخ يدعى الشيخ أبا يحيى زكرياء، وكان تاجرا في الاسواق فتح الله عليه في تجارته، وكان ينفق على زاوية الشيخ أبي الربيع فضجر من الانفاق، وتكلم بكلام خشن أمام الشيخ أبي الربيع، فقال له ان الفقراء هم الذين ينفقون عليك، فغضب أبو يحيى وقال لا ينفق أحد على أحد فقيل انه ما أتت عليه الا أيام قلائل حتى ذهب ما بيده وركبته ديون، فأتى الى الشيخ أبي الربيع وأعلمه بحاله، فقال له عد الى حالتك والفقراء ينفقون عليك فقيل فعاد وعاد الرزق عليه الى ما كان (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) .

استقبله للحجاج بزايوته : وكما هي العادة التي كان الصالحاء في ذلك الوقت رتبوها لاستقبال وفود السائحين أما للحج أو لمجرد الاعتبار، انهم جعلوا زواياهم محطات لايواء الوفود . .

وفي هذا الميدان فقد حكى السيد عبد الكريم بن ورشون، وكان يتولى اقرار القرآن في الزاوية للصبيان، انه ذات يوم لما صلينا الصبح قال الشيخ لأصحابه، فرقوا القمح للطحن واذبحوا ثورا واضنعوا الطعام، فان ضيوفا واردون علينا، قال وبعد جزء من الليل سمعنا التكبير والتهليل، غورد علينا جمع من حجاج المصامدة قاصدين زيارته والتوجه للحج .

حياته : كان حيا أواخر القرن السابع، ويؤخذ ذلك من كون الشيخ بوشعبان وهو الرجل الاسود الذي كان راتبا برابطة البحر ببادس، حكى أنه وقعت له معه كرامة، وبوشعبان هذا عاشر الشيخ عبد الحق بن اسماعيل الخزرجي الذي كان حيا بتاريخ 772 هـ .

ومنهم أبو عقيل حفيد الشيخ أبي داود :

وهو عبد الرزاق بن عبد الواحد بن الحاج ابراهيم بن عيسى بن أبي داود شيخ الشيوخ في وقته الآتى :

ترجمته : وكنى بأبي عقيل باسم ولد له وهو جد جماعة ابو عقيل من قبيلة بنى توزين وهو كما تقدم من أحفاد الشيخ أبي داود المدفون بتمسامان من فرقة بوداود، ولا يعرف من ذهب الى قبيلة بنى توزين هل هو، أو أحد آبائه، وكان رحمه الله تقيا صالحا ورعا متقينا للعبادة واقفا عند حدود الشريعة لا يبالى بشيء في ذكر الله ولا تأخذه فيه لومة

لائم، وقد ورث الصلاح عن أجداده، فجده الحاج ابراهيم كان من فحول الصالحين كما تأتى ترجمته وهو الذى كفله وعنه أخذ الصلاح .

حياته : سيأتى أن جده الحاج ابراهيم توفى عام 650 هـ . ويظهر من الحكاية التى ستأتى فى ترجمته التى يوردها حفيده ابو عقيل ان هذا الاخير عاش بعد جده أى فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ولم نقف على تاريخ وفاته ولا ولادته بالضبط .

ومنهم بعض الشرفاء وهم :

أولاد زيان (ولعلمهم الساكنون بجبل اعزوزن الى جهة وادى النكور) ومن علمائهم الفقيه العلامة المشارك الخير الدين الصالح سيدى محمد بن الحاج حدو بوزيان توفى حوالى 1968 بالحسيمة ودفن فى مقبرة آجار ازكاغ وهو من افذاذ الرجال فى التقوى والصلاح والمعرفة .

ومنهم أولاد سيدى الحاج على بن مخوخ المتقدم الترجمة :

ومنهم أولاد عمران : نزل بعضهم فى موضع كان يدعى بجبل بنى عيسى، والبعض الآخر بجبل كان يدعى بوسماك، وجدهم حسبما فى المخطوط على بن يحيى من ذرية عمران بن مولاي ادريس والله أعلم . ومنهم أولاد يعلى : ولهم اخوان فى قبيلة بنى ورياغل يدعون بنى يعلى بحوز مدينة النكور وقريتهم تدعى الآن تزي يعلى، وجدهم حسب المخطوط هو سليمان بن على من ذرية حمزة بن مولاي ادريس ، والله أعلم .

ومنهم أولاد سيدى الحاج عبد الله : النازلون بقبيلة بنى توزين الى جهة القبلة بموضع كان يدعى ببني خالد، وجدهم حسب المخطوط على ابن امحمد من ذرية محمد بن مولانا ادريس وهم اخوان مع أولاد عبد القوى بقبيلة بنى سعيد بوادى كرت .

ومنهم أولاد عبد السرزاق : ببني خالد وهم من ذرية مولانا عبد السلام بن مشيش .

الشيخ ابو داود مزاحم بن على :

من رجال تمسامان :

اسمه مزاحم بن على بن جعفر بن سليمان بن على بن أبى

عبد العزيز يرفع نسبه الى جد يدعى البطيوى واليه تنسب القبائل
البطيوة من المزمة الى ملوية .

كان شيخا فاضلا زاهدا تقيا له في الكرامات مجال واسع، ومما
يحكى في حقه حسبا في المقصد الشريف، أنه اتفق لملك المغرب الموحدى
محمد بن عبد المومن بن على الذى كان أكبر أولاد أبيه والذى يبيع بعد
وفاة أبيه في السابع والعشرين من جمادى الثانية عام 558 هـ. ولم يبق في
الملك الا خمسا وأربعين يوما، اذ اتفقوا على خلعه في شعبان عام 558 لما
عهد عليه من ادمان شرب الخمر واختلال الرأى وكثرة الطيش وجبن
النفس (1) وكان به ضرب في الجذام، فلما اعجز شأنه الاطباء ذكر له أن
ببلاد بطيوة شيخا صالحا يداوى الادواء والعاهات (ببركة الله)، فوجه اليه
من خدامه من يشخصه اليه على جواد، فلما بلغه الرسول ومعه الفرس
ليركبه، أبى عليه ركوب الفرس وركب اتانا له، وكان الرسول والشيخ
في سيرهما كفرسى رهان، فلما وصل الشيخ وكان الرسول رأى من كراماته
في الطريق حكاها للسلطان فأمر بادخاله عليه وأعلمه بمكان الداء من
جسده، فأخذ الشيخ من ريقه بسبابته اليمنى، وقال للسلطان أمسك يدي
وامرر بسبابتي على الموضع الذى في جسدك موبؤا ففعل فشفاه الله،
فأمر الملك له بمال جزيل وامتنع .

ويحكى زيادة على ما تقدم أنه رافقه في سفره هذا ولد له يدعى
يوسف، وان أحد وزراء الملك أقنعه بأن يأخذ المال لنفسه، وكان قدرا هاما،
ولما رجع الشيخ وولده وكانا في الطريق التفت اليه من دون أن يعلمه
بشيء، وقال قد أخذت المال ودعى عليه بأن يميته الله فقيرا، فحكى انه لم
يمض عام عليه حتى افترق من دون اخوانه، وانه مات فقيرا كما دعى
عليه الشيخ .

وقد ذكر هذه الكرامات الشيخ أبو محمد عبد الحق بن اسماعيل
الخرجى وقد انشد في هذه الكرامات قوله :

جارى الجياد سابقات فبذها (كذا) من فوقها اسحاله
وأرى الخليفة من برء ما عزا الطبيب بنانه اخماله

(1) المعجب في تلخيص أخبار الغرب ص 236 طبعة الاستقامة بالقاهرة.

ومن حبه للخير، أنه كان أحد اخوانه في الانتساب يدعى أبا زيد هبة، من قبيلة مزيات بأحواز فاس كانا معا ينتسبان الى الشيخ أبى مدين، فبلغه أن أبا زيد يدعو على الناس اذا لحقه منهم ضرر، فربما هلك انمدعو عليه، فشد أبو دارد الرحال اليه لينصحه قائلا له يا أبا زيد اصلح ولا تفسد .

حياته ووفاته : ولد بقبيلة تمسامان في البلد المعروف فى ذلك الوقت ببنى ورتد، ويعرف الآن بربع آل بوداود، ورحل الى الاندلس لطلب المعرفة وأقام بها زمنا، ثم رجع واتصل بالشيخ الزاهد أبى مدين المدفون بالعباد (1)، وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الصوفية، ثم ارتحل الى بلاده (بنى ورتد) وأقام زاوية هناك كانت تدعى الرابطة، ولا زالت تسمى القرية بالرابطة بتمسامان وكان المحل يعرف فى ذلك الوقت باحلاس وكان الساحل يدعى بساحل تيقلال، وكان يتحنط فى هذه الرابطة وبين داره ومدينة المزمة خمسة فراسخ غربا على ساحل البحر .
وقد عمى رحمه الله فى آخر عمره وتوفى بتاريخ 578 هجرية .

ومنهم أبو ابراهيم اسماعيل بن سيد الناس :

شيخ من شيوخ بطيوة من فخذ بنى عيسى، وكان رجلا صالحا مستجاب الدعوات، وهو تلميذ الشيخ أبى داود المتقدم الذكر، كان عارفا بالله صوفيا ذا كرامات، وكان يسكن فى الحصن الذى يوجد ببنى عيسى بقرروت، وهذا الحصن كان معقلا فيها ومن تلامذته الشيخ أبو عبد الله اليستثنى الآتى ترجمته .

ومن بركاته ولو بعد موته كما حكى الشيخ عبد الحق الخزرجى أن القبائل المجاورة لجبل بنى عيسى اذا هاجمت هذه الاخيرة فى معقلها وتحصنوا فى المعقل خلف ضريح الشيخ أبى ابراهيم هذا لا تنال منهم تلك القبائل منالا، فاذا خرجوا من الحصن وابتعدوا عن الضريح أخذت منهم القبائل قتلى وسبايا، واذا تكاثرت القبائل وهاجموا الحصن، فإن مبغلوهم

(1) بتلمسان بالقطر الجزائرى .

الروضة، وربما انهزموا، وعندئذ يصيح بنو عيسى ويكبرون ويقولون
يا بركة سيدنا أبى ابراهيم .

وانشد عبد الحق المذكور فى حقه قوله :

بدر بدا واليل ساج فاهتدى بسناء فى البيداء سارى الغيب

ولا يعرف شىء عن تاريخ وفاته، الا أنه معروف بأنه مدفون فى
روضة قبلة المسجد الذى هناك خارج الحصن وقبره مشهور للزيارة والتبرك
به ونظرا لكونه تلمذ على الشيخ أبى داود فيكون حيا فى القرن السادس.

ومنهم أبو عبد الله محمد اليستثنى :

كان بادىء أمره راعيا للغنم بالاجرة فى جبال بنى عيسى من قبائل
بطيوية (وهذه الجبال تدعى الآن بنى بويذر بتمسامان) بعدما رحل من
بلاده (بنى يستثنى) وهو صبى، وقد ألهمه الله التقوى والصلاح وقت
رعيه للغنم فحبب اليه الصوم والتقوى، وكان يتصدق بغذائه مستخفيا .

أما عن تاريخ ولادته أو وفاته فلا يعلم عنها شىء الا ما كان
من تلمذته على الشيخ أبى ابراهيم بن سيد الناس الذى كان حيا فى
القرن السادس، وعليه فيكون هذا الشيخ كان حيا فى أواخر القرن السادس
أو أوائل القرن السابع .

مشايخه : تلمذ على الشيخ أبى ابراهيم بن سيد الناس بعد
ما ضمه اليه، وقد بلغ بعد شيخه شأنا كبيرا حيث تصدى للمشيخة،
وناهيك أنه كان شيخا للعارف بالله السيد أبى الحسن على بن مخوخ
المتقدم الترجمة .

أحواله : قال الشيخ ابن مخوخ أن الشيخ اليستثنى تفوق
عليه بعلم الجبروت بمعنى أنه كان مسلوبا، ومثل ذلك ما قاله عنه الشيخ
الفقيه الحاج أبو عمران موسى بن عبد السلام وقد أدركه، قال كان
الشيخ اليستثنى مغلوبا جذب وهذب فاتصل بعالم الجبروت، مرتقيا فى
عالم الملكوت، ورفض جميع الملاذ من النساء والطعام والشراب، وكان
نحيف الجسم دائر الحس لا يكاد يحس بشىء من أحوال الدنيا وكان

يعتدل لكل صلاة، وكان الشيخ سليمان الورياغلى من تلامذته وقد حكى عنه كرامات .

علاقاته بالاندلس : حدث الشيخ أبو الحسن بن مخوخ أنه كانت بين المترجم له وبين الشيخ أبى اسحاق بن عبدیس مراسلة وكان هذا الاخير يوجه اليه كل سنة معجون الترنج من غرناطة، فتأخر سنة فقال لتلامذته من يصل منكم الى الشيخ أبى اسحاق ليأتى من عنده بمعجون الترنج، قال فتوجه أحد الفقراء .

وحكى أيضا عن آخر حياته ويوم وفاته قال سرنا معه قاصدين بلاد الغرب (يعنى من المغرب) فلما بلغنا الى فج العروص (هى فرقة آل عروص الآن) وهو آخر بلاد بطيو، وأول بلاد كزناية، نزلنا به على ماء برأس الفج، فنظر الى جهة الغرب وقال ردونى فانى عندما نظرت الى جهة الغرب أظلم قلبى، وقال أنه فى يوم وفاته آخر صلاة المغرب الى أن جمعه مع العشاء، فقال ناولونى الماء فاغتسل وصلى العشائين، ثم توفى رحمه الله، وقال ابن مخوخ اننا اتخذنا مراويج لدفع الذباب عنه (يظهر أنه كان عاجزا) .

من رجال تمسامان أيضا : مركاب بن عيسى البلىدى :

كان يسكن فى قرية تبلخاشت قرية من قرى تمسامان لا زالت بهذا الاسم الى الآن، وكانت قبيلة تمسامان فى تاريخ حياة الشيخ أبى داود تنقسم الى ثلاث فرق: فرقة بنى ورتدا بفتح الوار وسكون الراء وفتح التاء والبدال المشددة وهى الفرقة التى يسكن فيها الشيخ أبو داود، وهى التى فيها خريجه الآن وتدعى حاليا بفرقة بوداود، وفرقة بنى بلند سميت بابن بلند ابن يصليتن، وهى التى كانت مسقط رأس المترجم له، وفرقة تكسامان وهى التى كانت على الجهة الشرقية بحرا وهو الموضع الذى كانت فيه قرية وادى امقران التى بناها العرب أولاد سيدى صالح المدفون هناك على الشاطىء البحرى .

صلاحه : كان هذا الشيخ قدوة فى التصوف ومجتهدا فيه،

وقد أخذ ذلك عن الشيخ أبي داود البطيوي، بل كان إذا حضر الى رباطه يأمره الشيخ أبو داود بأن يؤم به في الصلاة لحسن تلاوته وكثرة عبادته. رغم أنه كان يسكن بعيدا عن الرباطة بفرسخين، وقد حكى عن نفسه أنه ذات يوم أتى الى الرباطة فوجد الشيخ أبا داود يصلي اماما بالناس، قال فاعتمت الصلاة خلفه مخيفا نفسه في غمرة الناس، فلما سلم أبو داود رد رأسه الى جهتي، وقال لي قم يا مركاب فصل بنا فقممت وتقدمت فصليت .

وفاته : توفي الشيخ مركاب عام 628 هـ. وقد رمز الى وفاته الشيخ عبد الحق الخزرجي بكلمتي فألحده التقى في قوله :
قامت قيامته فألحده التقى في لحد نسك لا يراه الملحد

ومنهم الحاج ابراهيم بن عيسى :

هو حفيد الشيخ أبي داود شيخ متصوفي الريف المتقدم الترجمة. ولد الحاج ابراهيم بتاريخ 560 هـ. وتوفي عن تسعين سنة بتاريخ 650، ودفن بتمسامان بموضع يعرف بداروجن وهو الذي أوصى أن يدفن هناك، وكان هذا الموضع لبعض الصالحين، حبسه على المنقطعين الى عبادة الله .

عبادته وسجنه : كان لا يفتقر عن تلاوة القرآن الكريم ليلا ونهارا، قياما وقعودا في مشيه أو سكونه، وقد سجن رحمه الله مدة تقارب ثلاث سنين عند قراصنة النصارى، وذلك أنه كان يسكن على ساحل البحر قرب رباطة جده أبي داود حيث كان يتعبد، وكان هناك قرب داره عنصر ماء يستقي منها نصارى القرصنة، ومع ذلك فلم يمسوا داره بأذى رغم أن الدار تكون مملوئة بالودائع .

الا أنه لما ضعف أمر الموحدين على جهة الريف، وتغلب العرب عليها ضربوا مغرما على بنى ورتدا بلد أبي داود، فامتنع هؤلاء من أدائها، وقصد العرب الحاج ابراهيم لما يعرفونه عنه من الصلاح أن يتدخل لدى السكان لاداء المغرم، وبعدما تردد في استجابة مطلبهم ذهب اليهم، لكنهم امتنعوا، ولما رجع سلك طريق ساحل البحر، فأخذه نصارى القرصنة

أسيرا، وفي أثناء هذا الأسر تمكن هؤلاء النصارى من الوصول الى داره وأخذوا جميع تلك الودائع، وفي أيام أسره أصابت تلك الجهة مجاعة شديدة. مناقبه : حكى عنه حفيده الشيخ أبو عقيل المتقدم الترجمة، وكان مكفولا لديه راويا عن جدته زوجة الشيخ المترجم له، أنه ذات مرة نظم سبعين حبة من التين في حبل وبقي سبعين يوما يقتات كل يوم بحبة واحدة حتى ضعفت صحته فطلبت من بعض أصدقائه أن يتدخل لديه ليشفق على نفسه، فأجابهم بأن الدنيا جيفة فمن اضطر اليها حلت له وأنا غير مضطر اليها، وذلك لما يجده من القوت الروحي الذي اكتسبه من العبادة.

الوطاسيون بداره :

ومما يحكى عن بركاته أيضا أنه لما تغلب بنو وطاس على بلاد الريف، وكانت مجاعة، قصده ياسين بن الوزير الوطاسي مع جماعة من بنى وطاس، وذلك لاجل أن يأكلوا عنده، ولما وصلوا اليه وسألوا عليه اظهروا أن القصد الزيارة والانصراف، فقال لهم اجلسوا لنصنع لكم طعاما فجلسوا، فأخرج لهم طعاما قليلا يبدو في نفس كل واحد منهم أنه لا يكفي له وحده، فقليل أن الشيخ سمى الله وأمرهم بالاكل، فأكلوا جميعا وشبعوا، وبقيت باقية، فقال لهم الشيخ كنتم قدرتم أن لا تشبعوا.

الشرفاء البويعقوبيون :

ومنهم الشرفاء الثلاثة سيدي محمد بن عمر - وسيدي موسى بن محمد بن احمد - وسيدي موسى بن احمد ابن علي، وهم الشرفاء البويعقوبيون بتمسامان، وقد جمعنا هؤلاء الشرفاء الثلاثة في ترجمة واحدة لانهم أحفاد سيدي أبي يعقوب المدفون بمغراوة الذي انتشرت ذريته بنواحي الريف .

فمنهم من سكن تطوان، ومنهم من سكن في وجدة ونواحيها، ومنهم من سكن في قبيلة تمسامان بالقرية المعروفة بسيدي بويعقوب على الضفة الغربية لواد ألمكثن بفتح الميم وسكون الكاف وفتح الشين وسكون النون، وهؤلاء الآخرون هم الذين ينتمون الى هؤلاء الاشراف الثلاثة وقد جمعتهم الوثائق التي نستدل بها، فالاول منهم هو الشريف سيدي محمد بن

محمد بن بن محمد بن علي بن ابراهيم بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن أبي يعقوب المخرأوى وهو الجد الذي ينتسبون اليه. والثاني هو الشريف السيد موسى بن محمد بن احمد بن سعيد بن موسى بن علي بن عبد الله بن مرزوق بن علي بن محمد بن يوسف بن أبي يعقوب المخرأوى .

والثالث هو الشريف سيدى موسى بن احمد بن علي بن عمر بن يعقوب بن عيسى بن سليمان بن يعلى بن محمد بن يوسف بن أبي يعقوب، وكلهم تفرعوا عن محمد بن يوسف بن أبي يعقوب وسيدى أبو يعقوب هذا من أحفاد سيدى محمد الدهمان الولي الصالح المشهور، ونكتفى في ترجمتهم واثبات نسب الشرفاء احفادهم بتمسامان بنشر الوثيقة الشرعية وبعض الظواهر الملوكية العلوية .

فالوثيقة الشرعية هي شهادة مؤرخة بمنتصف ربيع الاول عام 997 هـ. وما نصها :

بعد الحمدلة يعرف شهوده السادات الاجلاء وهم المرابط الخير الدين الشيخ البركة السيد محمد بن عمر بن محمد بن علي بن ابراهيم ابن عمر أبي ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن يوسف ابن أبي يعقوب الشريف والسيد موسى بن محد بن احمد بن احمد بن سعيد بن موسى بن علي بن عبد الله بن مرزوق وعلى محمد بن يوسف بن يعقوب، والسيد موسى بن احمد بن عمر بن يعقوب بن عيسى بن سليمان بن يعلى بن محمد بن بن يوسف بن يعقوب أتم المعرفة وأكملها ويشهدون مع ذلك بأنهم منذ ادركوا بأسمانهم وفهموا بقولهم أنهم يسمعون عنهم سماعا فائيا ذائعا مستفيضاً على السنة أهل العدل وغيرهم انهم شرفاء ينتسبون الى الجانب العالى المولى سيدى الوجود بأسره مولانا محمد (طعم) فهم من ذرية سيدى يعقوب الشريف المذكور، نفعا الله به من غير طاعن لهم في ذلك ولا معارض ولا منازع بهذه الحالة عرفهم وعليها خبرهم ولم ينتقلوا عنها حتى الآن كل ذلك في علمهم وقيدوا بذلك شهادتهم في منتصف شهر ربيع الاول السعيد المفضل عام سبعة وتسعين وتسعمائة ش الطالب السيد على بن محمد الشريف والسيد احمد بن عبد الله البطيوى والسيد

عمر بن حدو البطيوي والسيد احمد بن عمر البطيوي وعلى بن محمد سلطان وعمر بن عيسى بن مزيان ومحمد بن قاسم البطيوي وعبد الواحد بن أبي سعيد وعبد الله بن محمد احماموش والطالب عمر بن محمد البطيوي وابراهيم بن احمد البادسي والحاج احمد بن أبي بكر القيسي وعبد الرحمان بن عمر البادسي وعبد الرحمان بن احمد البادسي وعلى بن حدو البادسي وعبد الرحمان بن سليمان اليازغي .

شهدوا لدى من قدم لذلك بموجبه فثبت .

الحمد لله أشهد الاجل الفقيه البركة العالم العلم قاضي الجماعة بمدينة فاس وهو عبد الواحد بن احمد الحميدي أعزه الله تعالى وحرسها بثبوت الرسم أعلاه الثبوت التام وبصحته عنده وثبوته لديه بواجبه وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر وفي التاريخ أعلاه .

أما الظهائر فنكتفى بالاول مما وقفنا عليه والاخير، فالاول لمولانا اسماعيل بن الشريف، ونصه :

بعد الحمدلة والطابع الشريف، يتعرف الوقف عليه بحول الله وقوته وشمال يمينه وبركته اننا جددنا حملته الشرفاء الاطهار الاجلاء الشريف الحسنى نفعا الله به وبأمثاله، القاطنين ببني بويعقوب بتمسان على ما بأيديهم من ظهائر سيدنا الوالد قدس الله روحه وظهائر من تقدم من الملوك رحمهم الله المحتوية على توقيرهم واحترامهم وتبجيلهم واکرامهم فلا يسامون بما يطالب به من سواهم من العوام، رعا لنسبهم الشريف ومنصبهم المنيف حسبما تضمنته ظهائرهم وما بأيديهم من رسوم الائمة والقضاة والشهود والثقات، فمن رام حول حماهم جردنا له سيف النكال والبسناه من حواعق غضبنا سربالا، تجديدا لا يزال جديدا ولا تزیده الیالی والایام الا تأییدا، والواقف علیه يعمل به ولا يتعدى كريم مذهبه وابقيناهم على ما هم عليه من دفع زكاتهم واعشارهم لفقرائهم وضعفائهم وأهل الحاجة منهم كما كان عليه عملهم والسلام .

فی غرة شعبان المبارك عام 1144 هـ.

وآخرها للمولى عبد العزيز بن الحسن بن محمد قدس الله روحه .
ونصه : بعد الحمدلة والطابع الشريف كتابنا هذا أعلا الله مقامه

ونشر في الوية العز أعلامه يستقر بين حملته الشرفاء أبناء المولى الصالح سيدى أبى يعقوب الشريف الحسنى نفعا - الله ببركته المعروفين ببنى بويعقوب بتسمان و اخوانهم بتطوان ويعلم منه أننا جددنا لهم بحول الله وقوته وشامل يمينه وعزته على ما بأيديهم من ظهير مولانا الوالد قدسه الله وجعل الفردوس مثواه المجدد لهم على ظواهر أسلافنا الكرام المنعمين بجزيل النعم في دار السلام المتضمنة اقرارهم على ما عهد لهم من التوقير والاحترام والمراعاة والبرور والاكرام، والمحاشاة عما يطالب به العوام، فهم عندنا على الحالة التي كان عليها أسلافهم مع أسلافنا لا تخرق عليهم عادة ولا يحدث في جانبهم نقص ولا زيادة، تجديدا تاما شاملا عاما فنأمر من يقف عليه من خدامنا وولاة أمرنا المعتز بالله تعالى في ربيع عشر صفر عام 1314 .

الشرفاء القادريين أولاد لقمان :

حسبما عثرت عليه من الوثائق التي سيأتى بيانها، ان أولاد لقمان القادريين يوجدون على فرعين اثنين احدهما في بنى بوغياش بقرية تزورخت ببنى ورياغل، وهى قرية بالضفة الغربية لوادى النكور، وثانيهما في قبيلة تسمان بالقرية المدعوة ايجار أفاضيس .
وقد نزحوا من نواحي تلمسان بالقطر الجزائرى بالمحل المعروف بعجروء، واستقر بعضهم في بنى بوغياش باسم أولاد لقمان وانتقل الآخر الى قبيلة تسمان باسم القادريين .
وتعتبر هذه الوثائق مصدرا هاما في ميدان نسب هذين الفرعين .
ومن تلك الوثائق حسب التسلسل التاريخى وثيقة شرعية أخذت نسخة منها بالطريقة التوثيقية وهى هذه :

الحمد لله نسخة رسم واحد والاعمال بالقبول عقبه والتعريف عقبهما والاداء عقب الجميع وخطاب من يجيب بما سيذكر عقب ما ذكر ونصه: الحمد لله يعرف من يضع شكله عقبه ما سكيه الاجلة القاطنين بمنزل تزوغت بقبيلة (كذا) الورياغلية اتجاه واد النكور قبيلة المعروفين بأولاد لقمان منهم الفاضل الابن السيد الحاج عمر بن محمد بن مسعود

بن السيد الحاج محمد بن الفقير احمد بن السيد الحاج محمد بن محمد فتحا بن بعز، والسيد عمر بن اهنساش، والسيد محمد فتحا بن محمد بن احمد، وغيرهم من اخوانهم النازلين بالمنزل المذكور والخارجين منهم الى قبيلة تمسامان النازلين بمنزل فدان الدر شاطيء البحر منهم السيد على بن الحاج على بن عبد السلام، والسيد محمد بن محمد بن عبد الله بن مسعود والسيد شعيب بن احمد بن السى محمد بن احمد بن شعيب، وغيرهم من اخوانهم أيضا المعروفين بأولاد فارس أتم معرفة وأكملها بها ومعها يشهد بأن السادات المذكورين كلهم أولاد لقمان وانهم شرفاء حسنيون، وان النسب الطاهر الطيب الكريم والشرف الحسنى المنيف العظيم الجسيم لا زال من أوصافهم، وحازوا هذه التسمية حديث العهد والزمن القديم، وانهم من ذرية القطب الربانى، سيدنا ومولانا عبد القادر الجيلالى، رضى الله عنه وانه ممن يجب تعظيمهم وتقديرهم بجانب نسبهم الرفيع العلى الطاهر الطيب الباهر الركن، فمن عرفهم وحقق نسبهم قيده شاهدا به لسائله منذ أواسط شهر الله الانوار ربيع النبوى عام 1293 عبد ربه تعالى احمد بن الحاج على الحسنى الوكيلى (الدعاء) وعبد ربه واجوجهم لما لديه عبد الرزاق بن على الحسنى الوكيلى (الدعاء) ونص الاعمال الحمد لله أعلم بقبولها عبد ربه محمد بن احمد التوزانى العدولى (الدعاء) ونص التعريف الحمد لله الخطاب يليه لقاضى بنى توزين الفقيه سيدى محمد بن السيد احمد العدولى التوزانى قاله عارفه معرفا به عبد ربه تعالى العربى بن محمد الرعرى لطف الله به ونص الاداء الحمد لله أدى المعرف فقبل وأعلم به عبد ربه محمد بن عبد الرحمان العلوى الحسنى (الدعاء) وبعده استقل انتهت قابليها بالاصل فما ثلثه واشهد سيدنا الامام الشريف الانور الزكى الاطهر العالم العلامة الافضل الفقيه قاضى الجماعة بفاس الغراء وهو (شكله) أعزه الله وحرسها باستقلال الرسم أعلاه عنده الاستقلال التام بواجبه وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر وفى جمادى الثانية عام 1293 عبد ربه (شكله) وعبد ربه (شكله) هـ، والشكلان غير مقررئين، كما أنه ليس بعدهما خطاب .

ومن تلك الوثائق أيضا ظهوران شريفان حسنيان وهما مختومان

بالطابع الصغير الاول منهما تاريخه 14 ذو القعدة 1293 فيكون ما بين الظهير والوثيقة الشرعية سبعة أشهر وبذلك يكون باعث اقامة الوثيقة لاستصدار الظهير المذكور .

ونص الظهير بعد الحمدلة والتصليية :

«خديمنا الارضى الحاج حمادى التسمانى البويديرى وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فحملته الشرفاء الاجلة المعروفون بأولاد لقمان منهم القاطنون بتزوغت من قبيلة بنى ورياغل والخارجون عنها الى قبيلة تمسان نامركم ان تستوصى بهم خيرا وتراعى جانبهم وتجريهم على عادتهم المألوفة وطريقتهم المعروفة وتكف اليد العادية لنسبهم الطاهر، واذا قرأت كتابنا هذا أردده اليهم يتمسكون به والسلام فى 14 ذو القعدة عام 1293 وبعده استقل وخط كلمة «استقل» مغاير لخط الظهير وهو رديء ويحتمل انه أخذت منه نسخة فكتب القاضى استقل وهى اصلاح توثيقى وفوق الظهير الطابع الصغير منقوش فيه الحسن بن محمد الله وليه وخط الظهير مغربى ممتاز . والخطاب فى الظهير للقائد التسمانى من فرقة بنى بويدير والظهير الثانى تاريخه 1297 وبذلك يكون تأخر عن الاول بثلاث سنين وأربعة أشهر وثمانية عشر يوما .

ونصه بعد الحمدلة والتصليية :

«خديمنا الارض الحاج على بن عمر الورياغلى وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعده فحملته الشرفاء الاجلة المعروفون بأولاد لقمان منهم القاطنون بتزورغت من قبيلة بنى ورياغل ومنهم الخارجون الى تمسان، تأمرك ان تستوصى من بنى ورياغل منهم خيرا وتراعى جانبهم وتجريهم على عادتهم المألوفة وطريقتهم المعروفة وتكف اليد العادية عنهم رعا لنسبهم الطاهر، واذا قرأت كتابنا هذا فأردده اليهم يتمسكون به والسلام. فى ثانى ربيع الثانى عام 1297 هـ. وبعده كلمة استقل وهى رديئة الخط، أما خط الظهير فمغربى ممتاز والخطاب موجه لقائد بنى ورياغل من بنى حذيفة ويظهر أنه لما تمسك الشرفاء القادريون بتمسان بالظهير سعى الساكنون ببني ورياغل لاستصدار ظهير

يخصهم، وبأعلا الظهير الطابع منقوش فيه الحسن بن محمد الله وليه ومولاه، إلا أن هيئة النقش لم تتفق فيه مع النقش الذي في الطابع الأول وبذلك يكون طبع كل بطابع خاص بـ

هذا وقد عثرت على مذكرة من دون تاريخ ولا امضاء، ونظرا لبعض الفوائد منها فأنى أجلب هنا بعض الفقرات التي يتعلق بها الغرض في هذا المضمار .

من تلك الفقرات «ولا سيما الشرفاء القادريون الذين شاع انتشار نسبهم بأولاد لقمان بالقبيلة الورياغلية من الريف فنسبتهم بتلك النواحي غير خافية» .

«وما زال الشرفاء القادريون المعروفون بأولاد لقمان محققون (كذا) باتصاله (أى مولانا عبد القادر الجيلالي) في غاية الاستتار منهم القاطنون بتزورغت من قبيلة بنى ورياغل والخارجون عنها الى تمسان واخوانهم المعروفون بأولاد سليمان قديما وحديثا وينتسبون الى هذا الشرف الاثيل» .

«وهؤلاء السادات المذكورون من سلالة الشيخ ناصر بن الشيخ عبد الرزاق (1) بن الشيخ عبد القادر الجيلالي نفعا الله به قدموا على بنى ورياغل من قلعة تاهرت بين هذه القلعة وبين تلمسان من ناحية شرقيها خمسة أيام» .

الشرفاء البقاليون

ومنهم الشرفاء البقاليون الذين نزلوا في نواحي الشمال ويعتبرون ممن لاينازعهم منازع في نسبهم الطاهر، أطلعت على مخطوط لاحد الشرفاء يدعى سيد التهامي أطلعنى عليه مولاي احمد الريسونى ساكن طنجة، ذكر فيه جمعا من الشرفاء بقبائل جبالة، وقد طعن في شرف البقالين، ولكن لم يذكر أية حجة مع أنه يوجد في أيديهم شهادات وظهائر فهي حجة قاطعة، ومع ذلك فقد عملت على البحث فعثرت على كتاب الدرر اللالكى في ثبوت الشرف البقالى لابی عبد الله محمد الحاج العياشى سكيرج

(1) الشيخ عبد الرزاق ليس ولدا من صلب الشيخ عبد القادر بل هو من أحفاده حسبما ذكره في الترجمانة الكبرى ص: 179 .

الانصارى، فقد اثبت هذا المؤلف شرفهم بما لا يدع مجالا للشك، وعليه فان ما كتبه السيد التهامى هذا، هو رجم بالغيب فقط، وعلى حسب ما ذكره أبو العباس سيدى احمد الغزوانى، فان مجيئهم كان من الساقية الحمراء وقد نزلوا بمدينة فاس ثم انتقلوا الى جهات الريف وضهاجة وغزاوة .
فقد نزل سيدى عبد الله هذا بقرية بوزويقة بالزاي ثم الواو المكسورة وبعده ياء ثم قاف، وهى قرية تآخم بنى ورياغل على الضفة الشرقية لوادى النكور، وهى التى كانت معسكر القائد بوحمارة لما هزم فى سهول بنى ورياغل .

وسميت بوزويقة لانها كان مؤسسها محتسبا فى الاسواق فهو محرفة عن بوسويقة بالسين ويقال أن هذا المحتسب هو أب الشرفاء السويقيين كما يأتى .

وفى هذه القرية توفى رحمه الله ودفن هناك وله ضريح مشهور ثمة.

سيدى يحيى الحاج :

ومن عقبه سيدى يحيى الذى أسس زاوية أخرى بمدشر الغمان بكسر الالف وفتح اللام وسكون العين المعجمة وهى قرية بتمسمان بأعلا بوزويقة وهناك توفى ودفن ولا زال ضريحه يقصد للتبرك، أما وفاة كل منهما فلم نعثر الى الآن على شىء من تاريخها .

سيدى احمد الحاج :

ويوجد شريف آخر يدعى سيدى احمد الحاج وهو مدفون بجبل مزوجة من قبيلة قلعية ولم نعلم شيئا عن حياته ومماته أيضا .

سيدى الحاج يوسف :

يوجد ضريح بالقبة فى الضفة الغربية لواد النكور قرب قرية أمنود وجنوب مدينة النكور التاريخية بعيد عنها بثلاث كيلومترات فقط .
ويقال عن لسان أهل البلد أنه شريف بقالى وان أولاده هم من الفخذة المعروفة بأولاد الطالب عمر من قرية امنوذ ولا زالوا الى الآن ثمة.

كما يوجد ضريح لشريف بقالى ازاء مدينة بوسكور الاثرية بشواطىء بقيوة التى كانت من القرى الساحلية التى كان لها شأن أيام مدينة بادس ويدعى صاحب الضريح سيدى يعقوب وقد خلف ولدا يدعى الحاج داود له ضريح بازاء أبيه يفرق بينهما سيل الماء وقد عقب ولدا يدعى ياسين الا أننا الى الآن لم نعثر على حياة هؤلاء الشرفاء بدقة الا ما سمعناه من أفواه الناس .

أما فى غمارة وقبائل جبالة ومدينة تطوان وطنجة، فان البقالين فيها قد انتشروا انتشارا كبيرا على الشكل التالى :

سيدى علال الحاج :

هو مدفون بزاوية فيفى من قبيلة غزاوة كان حيا أواخر القرن العاشر وقد خلف ولدا يدعى سيدى محمد الحاج الكبير وهو مدفون بفاس مات مقتولا، قتله محمد الشيخ السعدى عام 1017 هـ .

سيدى عبد الله الحاج :

هو من أحفاد سيدى محمد الحاج الكبير أبوه يدعى عيسى وهو المدفون فى تطوان المعروف مسجده بمسجد سيدى عبد الله الحاج مقصود للصلاة فيه بكثرة لموقعه من ساحة مولاي الحسن المعروفة بالفدان وقد توفى عام 1207 هـ .

سيدى محمد الحاج الصغير : وهو مدفون بطنجة معروف ضريحه هناك باسم سيدى بوعرقية، ولم يخلف الابنتا تدعى السيدة رقية دفينة معه فى ضريحه .

سيدى محمد الغزوانى :

وهو أخو سيدى محمد الحاج الصغير وهو جد الغزوانيين، وقد خلف هذا الشريف كثيرا من الاولاد افترقوا فى قبائل الفحص وغمارة وجباله حسبما سنذكر .

سبب تسميتهم بالبقاليين :

وقد عثرت على تقييدة عند الشريف سيدى احمد الغزوانى المتوفى بتطوان فى 10 ربيع الاول عام 1384 هـ . موافق 19 غشت 1964 ودفن هناك .

وتحتوى هذه التقييدة على سبب تسمية جده يخلف بالبقال، وذلك أن جدهم يخلف المذكور كان سكن في قرية عين بقاله ببنى مزكدة، وكانت قرية عامرة، ويظهر من كونه كان يسكن بهذه القرية أنه نسب إليها حسب النسبة المتعارفة، وهذا هو المتبادر وإن كانت التقييدة ذكرت أسلوباً آخر فخواه، كرامة وقعت له هناك، وهى قصة ربما كانت خيالية لما كان جبل عليه الناس في ذلك الوقت من الاعتماد على مثل هذه الحكايات، وبناء على هذه التقييدة فإن التسمية بالبقاليين كانت تبتدىء من جدهم سيدى يخلف، أما الذى أتى من الساقية الحمراء فلم يكن يعرف بذلك .

سيدى يخلف : وسيدى يخلف هذا مدفون بمنزلة الوسطى من بنى مدارس من بلاد لمطاوة .
وقد انتشر أولاده في جهات المغرب ومنهم من قصد غمارة وقبائل الجباله كبنى حسان وبنى سعيد .

سيدى عيسى الحاج :

هو دفين بنى صابر بقبيلة بنى حسان، وقد كانت هناك زاوية تدعى الآن زاوية بنى صابر، توفي فى أواسط شعبان عام 1036 وقد خلف من الاولاد ثلاثة :

محمد : وهو دفين ترغة على ساحل البحر، وهو جد الشرفاء الساكنين بازغار أولاد البقال بقبيلة بنى زيات الغمارية، ومن ذريته سيدى احمد الغزوانى الأنف الذكر ومنهم بنو هليل وبنوا سميح واوشثام .
محمد الحاج : وهو دفين أنغورى بجماعة اشروطة بالطاء المهمة من قبيلة بنى حسان، وهو جد الشرفاء البقاليين الساكنين بأشروضة بالضاد ويتأسفت من قبيلة بنى سعيد واد لو .

سيدى يحيى الحاج : وهو دفين زاوية محراثا من قبيلة بنى حسان، وهو جد الشرفاء الساكنين بتلك الزاوية وبمدشر اشروضة بالضاد واغنوزى من قبيلة سعيد .

نسب البقاليين: حسبما فى وثائق شرعية واحكام عليها من جمع من القضاة الذين يعتد بفتياهم والموجودة تلك الاحكام والوثائق بيد ورثة

سيدي احمد الغزواني المشار اليه، فان النسب المذكور على السلسلة الآتية ابتداء من سيدي يخلف البقال وهو سيدي يخلف بن محمد بن سليمان بن حمزة بن مولانا ادريس، السلسلة قصيرة ويحتمل أن يكون هناك أشخاص آخرون .

الوثائق : وثيقة شجرة شرفهم مكتوبة على رق كبير تضمنت نسبتهم الهاشمية مذكور فيها عمود نسبهم على حسبما هو مسطر أعلاه تاريخها عام 896 هـ . وهي مسجلة على الفقيه الاجل القاضي العدل سيدي احمد بن يحيى الاغصاوى .

ثم ثلاثة أحكام تنص على صحة وثيقة الشجرة المذكورة، ثم وثيقة أخرى للشجرة نفسها وبنفس التاريخ ولكن ليست على رق وقد صححها علماء اجلاء منهم الفقيه العلامة سيدي أبو القاسم ابن علي بن خجو الخليفة الحسائي، والفقيه العلامة سيدي محمد بن الحسن بن عرضون والفقيه الاجل أبو محمد عبد الله الهبطي، والشيخ الزاهد الورع سيدي يوسف التليدي .

وكل هذه الحجج منسوخة من رسم واحد مسلسل مسجلة على قاضي تطوان بتاريخ 18 محرم عام 1370 موافق متم اكتوبر 1950، وبعده اعمال وزير العدل في ذلك التاريخ العلامة النزيه الصالح المطح سيدي محمد أفيال رحمه الله .

ومنهم أولاد الشريف سيدي سليمان بن سالم السويقي :

يعرف هؤلاء الشرفاء في تمسلمان بأولاد سليمان، وكانوا يعرفون قديما بأولاد أبي الليث، ولم نعثر عن هذه الكنية هل هي لجدهم سليمان، أم لجد آخر، ويعرفون أيضا بالسويقيين، وذلك ان جدهم سليمان كان محتسبا في السوق فسمى السويقي .

وهم سليمان بن سالم بن ابراهيم بن عبد الحليم من ذرية مولانا ادريس رضى الله عنه وقد تفرعت عن جدهم سليمان هذا فروع منهم : المعروفون بأولاد سليمان كما أشرنا وهم في فرقة بنى بويدر، ومن

هذا الفرع انتقل الشرفاء السويقيون الى بنى ورياغل، وهم نازلون قرب جبل حمام، الذى كان يقال له جبل العمال .

وانتقلت جماعة من هؤلاء الآخرين ونزلوا بوطاء بنى ورياغل قرب أمزون قرب المطار هناك، ويعرفون بالسويقيين وكان رجل منهم عمر كثيرا يدعى الحاج عمر السويقى وخلف عددا كبيرا من الاولاد وعاش عيشة رجل شريف ذى سمعة طيبة .

وانتقل فرع من أولاد سليمان ونزلوا بالاخماس احدى قبائل جبالة ويدعون ثمة الى الآن بأولاد شركوك وهم ساكنون بقرية زرهون بباب تازة، وكان منهم شيخ الشرفاء فى وقت السلطان مولاي الحسن الاول ويدعى السيد الهاشمى، ومنهم السيد محمد بوغابة كان خليفة على مدينة شفشاون لعامل السلطان مولاي الحسن الاول على تطوان ونواحيها السيد عشعاش الريفى .

وقد حكى لى الحاج محمد شركوك أن بيدهم ظهائر ولوائح النصب وان آخر ظهير لهم هو لمولاي الحسن الاول .

ومنهم عائلة أخرى بقرية معكاشة بازاء باب تازة .
ومنهم عائلة بقبيلة بنى سلمان بغمارة فى الموضع المدعو اقدرائن .

ومنهم عائلة بقبيلة بنى رزين بالموضع المدعو تمركت وأخرى بقبيلة بنى زجل بالموضع المدعو بالقلعة .

ومن رجال قبيلة قلعية :

سيدى ورياش بن عيسى بن عبد الرحمان :

وهو الشيخ الفاضل الولي الصالح قطب وقته الشريف الحسمى انودغيرى أصلا، دفن قبيلة قلعية على الباب الغربى لمدينة مليلية، وقد خلف هناك زاوية عامرة الى الآن، وذرية صالحة احتفظت بنسبها الشريف ووقارها الدينى، واقتتفت سنن أجدادها من التشبث بالاخلاق الفاضلة ومنهم صديقنا العلامة القاضى المبجل سيدى العربى الورياشى .

كنت كتبت اليه كتابا رجوته أن يفيدنى عن سيدى ورياش جده

ونسبه فأفادنى فى الموضوع بما يعهد فيه من الاطلاع وحسن الدرس، وحرصا منى على الامانة رأيت أن أثبت كتابه برمته لما له من الفائدة التاريخية المتوخاة من استفسارنا اياه .

على أن رسالته هذه ستصبح وثيقة تاريخية فى ميدانها، فضلا عن أنها ذيل أصلها بموافقة جمع من رجال القضاء والعلم .

على أن السؤال الذى كان يطرح نفسه فى الموضوع عن سلسلة الرجال، هل سقط منهم أحد قد أجاب عنه بنفسه، وجوابه فى مطه، وبالخصوص فان الذى يعيننا من هذا البحث هو ذكر الرجال ونسبهم والحياة العامة التى توجد عليها هذه الجهة التى نؤرخ لها . وهذا نص جوابه برمته :

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

حضرة صاحب الفضيلة الفقيه العلامة المؤرخ النسابة الاديب الذى أخذ من كل فن أوفر نصيب القائد الممتاز لدائرة تطوان، أبى العباس مولاى احمد بن عبد السلام البوعياشى .

لا زالت كواكب سعدكم دائمة الثروق، وسلام عليه وعلى جميع أسرتكم المحترمة ورحمة الله وبركاته عن خير مولانا الامام نصره الله. وبعد أيها السيد ، قد وصلنى رسالتكم المؤرخة بأول دجنبر 1965. والتى مضمونها أن الاقدار الالهية شئت أن تتنازلا وتجعلوا محبكم أهلا لأفادتكم بما عسى أن يكون لديه من المعلومات التى تثبت نسب من ينتمى الى الوريثيين القاطنين بجبل قلعية الى جددهم سيدى ورياش بن عيسى بن عبد الرحمان الودغيرى الفجيجى، حيث أنه ممن ينتسب اليه ولم تكلفوا محبكم بأكثر من بيان اسم كل عائلة منهم، ومستقرها ويكون ذلك مصحوبا بالوثائق التى يعتمد عليها الخ ...

أفيدكم يا مولاى اننى لست أهلا لما طلبتم منا لان اثبات النسب ورفع عموده الى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فى زماننا هذا الذى جاء بعد عصر النبوة بألف ونحو أربعمائة عام صعب جدا، ولئن حاولت شيئا من ذلك فسار تقى فيه مرتقا صعبا، بيد أنى لا أدع حسن ظنكم

فينا يذهب دون فائدة، سيما وقد سبق لى أن قمت قبل هذا التاريخ بأعوام عديدة بجمع تقييد في هذا الموضوع سيمته «الاحياء والانعاش بذكر أسماء من استوطن قلعية وشفشاون قديما وحديثا من أبناء سيدى ورياش» فرغت من جمعه في ثامن وعشرى شوال عام 1370، وبعد ما أطلع عليه قاضى مقاطعة كرت اذ ذاك السيد عبد الرحمن التوزينى وقاضى بنى سعيد سابقا السيد شعيب الادريسي، وقاضى بنى سيدال سابقا السيد حمو بن عمر الورياغلى، وقاضى مزوجة والناصور سابقا المرحوم العلامة سيدى محمد ابريفش، وقاضى بنى بويقرور سابقا سيدى الحاج عمر بن عيسى وقاضى فكيك حاليا العلامة السيد المصطفى بن عبد القادر الفجيجى، وقاضى بنى شيكر سابقا الشريف مولاي المصطفى الحنفى، والفقير العدل السيد عبد الله بن عمر، والفقير العلامة المدرس الانجب السيد عبد الله الصقلى، ومراجعتهم له ولمصادره حرفا حرفا وضعوا عليه توقيعاتهم بالموافقة وذلك في ثامن حجة 1370 .

ولا بأس أن أذكر لكم في هذه الرسالة ما عثرت عليه من الأدلة المثبتة في ظنى للنسب الورياشى والمراجع التى نقلت منها ذلك، ثم بعد ذلك لسيادتكم النظر في قبولها أو ردها لانكم من أهل النقد والاجتهاد وما صمتمت العزم على جمع تأليف في أنساب الاشراف، الا لتوفر كم على مراجع كافية في الموضوع، ولستم ممن يسارع للهيحاء بدون سلاح، كما هو معهود فيكم، نرجو من المولى جلت قدرته أن يوفقكم لما فيه رضاه ويسدد خطاكم ويلهمكم الرشد وال جواب آمين .

فمن تلك المراجع وهى أهمها لانه مؤلف في خصوص الاشراف الوداغيرين الذين منهم الورياشيون كتاب «الدر النثري فيمن اشتهر وصح نسبه من الاشراف الودغيرين (1) تأليف العلامة النسابة سيدى محمد بن الحسن المخلوفى الودغيرى، والكتاب المذكور من المخطوطات النادرة، فرغ مؤلفه من تأليفه فى خامس رجب عام 1264 قال: «صاحب دليل مؤرخ المغرب في صحيفة 112 عند تعرضه للكلام على كتاب الدر النثر ان المخلوفى كان حيا عام 1290. قلت: عثرت على نسخة من هذا الكتاب في خزانة

(1) الكتاب بعنوان «الثر في شرفاء الوداغير» .

نقيب الاشراف الادارسة العلامة الشريف مولانا محمد بن مولانا الطيب انبدر اوي، ذكر فيه المخطوفى أن مولانا عبد الرحمان الودغيري هو أول من فر الى فجيج من موسى بن أبى العافية، وخلف فيها سبعة من الابناء وهم 1 - عيسى 2 - منصور 3 - احمد 4 - محمد 5 - عبد الرحيم 6 - كثير 7 - عبد الله .

ثم ذكر لعيسى بن عبد الرحمان ثلاثة من الابناء: ورياش وعبد الله وامامة أبناء عيسى ثم تكلم على من انتقل من الاشراف الودغيريين من فجيج الى غيرها من الاقطار، فقال في صحيفة 21 ما نصه: وسيد ورياش بن عيسى نزل ساحل البحر من ناحية قلعية هـ. منه حرفيا، ومنها «كتاب الدرر البهية والجواهر النبوية» لامام النسابين وقدوة المؤرخين العلامة الشريف أبى العلاء مولانا ادريس (1) بن مولانا احمد العلوى رحمه الله تعالى، قال رحمه الله في الجزء الثانى من درره صحيفة 124 ما نصه: وأول من استقر منهم بفجيج هو الولي الاشهر والعارف الاكبر أبو زيد السيد عبد الرحمان بن على الملقب ببيلى دفين طالعة فاس بن اسحاق الملقب بعبد العلوى دفين مسمودة عدوة فاس الاندلس بن احمد دفين جرواوة من عدوة الاندلس بن الامام محمد بن الامام ادريس بن مولانا ادريس، وكان سكنى السيد عبد الرحمان هذا قبل الانتقال من مدينة فاس حومة الكفاطين داخل باب الفتوح، ثم قال: وبعد وفاته خلف سبعة أولاد وكلهم أمجاد انجاد وهم: السيد عيسى والسيد منصور والسيد احمد والسيد محمد والسيد عبد الرحيم والسيد كثير والسيد عبد الله، أما السيد عيسى فانتشر أولاده فى الاقطار انتشار شمس النهار، فنزل أولاد ورياش بن عيسى ساحل البحر من قبيلة قلعية هـ، الغرض منه، قلت :

وفى عمود هذا النسب الورياشى ورياش ثانى ذكره صاحب «زهرة الاخبار فى التعريف بانساب آل بيت النبى المختار» (2) المطبوع أخيرا للعلامة

(1) ويعرف بالفضيلى توفى عام 1316 (1898 م) والكتاب بطبعة الحجر بفاس فى سفرين سنة 1314 هـ.

(2) فى موضوع نسب الشرفاء بالمغرب عامة طبع بالمطبعة الجديدة بفاس سنة 1349 .

المؤرخ سيدى احمد بن محمد بن عبد الله المقرئ التلمسانى قال رحمه الله فى صحيفة 130 ما نصه: وأولاد ورياش الولي الصالح بالساحل فجدهم الشيخ سيدى ورياش بن عيسى بن يخلف بن عثمان بن ايعيش بن ابراهيم بن ورياش بن عيسى بن سيدى عبد الرحمان الودغيري هـ، وقال العلامة سيدى عبد الله بن محمد (1) بن على الملقب حثلاف فى صحيفة 62 من كتاب «سلسلة الاصول فى شجرة ابناء الرسول» ما نصه: ومن الودغيريين أولاد ورياش بن عيسى على ساحل البحر من قبيلة قلعية هـ، وفى تقييد مشهور بارض الريف متداول عند جماعة من الناس فيه بتر وتحريف كثير صدر من النساخ قد تعرض لذكر جماعة من الاشراف الادارسة القاطنين بأرض الريف، جاء فيه فى حق سيدى ورياش ما نصه: ومن الشرفاء الولي الصالح سيدى ورياش المليلي المدفون قبالة امليلية بأرض القلوع، يريد قلعية بحوز جبل اورك على ساحل البحر وهو رحمه الله ترك يزيد ويوسف ومحمد فتحا، فأما يزيد فذريته من ناحية انكاد ويوسف ترك على وهو جد أهل تميمونت ومحمد المدفون بثغر اجنادة، ترك ورياش وبلقاسم واحمد فاما ورياش الصغير فلم يترك ذرية وبلقاسم هو جد أولاد حم بن يحيى، وهم أهل عين اسعود واحمد هو جد أولاد عبد الله به حد وهـ، الغرض منه.

قلت: وجاء فى تقييد مفيد بخط يد جدنا الفقيه العلامة قاضى ثغر قلعية فى زمانه الشريف سيدى الحاج محمد بن علال بن عبد الله بن احمد الورياشى ما نصه: خلف سيدى ورياش بن عيسى وراءه يوسف بن ورياش، ثم خلف يوسف وراءه أيضا على، ثم خلف سيدى على عبد الرحيم ثم خلف عبد الرحيم محمد فتحا، ثم خلف محمد وراءه عبد الله، ثم خلف عبد الله وراءه احمد، ثم توفى احمد عفى الله عنا وعنه وخلف عمر وعبد الله والعربى والمختار الموجودين الآن هـ منه، ولم يذكر سيدنا الجد رحمه الله من أولاد سيدى ورياش الا جده سيدى يوسف اقتصارا منه على العمود الذى يتصل به لورياش .

وأما أبناء السيد احمد بن عبد الله بن محمد الاربعة الذين أشار اليهم جدنا رحمه الله، ففى بيئة عدلية خاطب عليها قاضى وقته العلامة

(1) اسمه محمد كنيته أبو عبد الله كان قاضيا بالجزائر .

سيدي عبد السلام بن محمادي الشريف القضاوى مضمناها: ان السيد عبد الله بن احمد خلف ابنيه محمد وعلال وان أخاه السيد العربي خلف ابنه احمد بن العربي، وان أخاهما المختار خلف ابنه محمد بن المختار بن احمد تاريخ هذه البينة العدلية عاشر ربيع الاول أربع وسبعين ومائتين وألف، مذيلىه بأشكال العدلين الشاهدين والقاضى المذكور، ولم تذكر هذه البينة لسيدي عمر بن احمد ذرية .

قلت: وسيدي علال بن عبد الله بن احمد هو جد والدي رحمه الله، وجميع المراجع والوثائق التى قدمنا ذكرها قد وقف عليها أولئك السادات من القضاة وغيرهم من العلماء الذين ذكرنا أسماءهم فى أثناء هذه الرسالة، ولم يوافقوا عليها حتى بحثوها بحثا دقيقا، وقابلوا الفرع بالأصل مقابلة تامة، كما اطلعوا على للظهير الوحيد الذى بقى بيدنا ونجا من يد الاسبانيين انذين احتالوا على جميع ظهائر الملوك التى بيد الاشراف فى أول الاحتلال، فأخذوها من يد أصحابها لغرض ما، وكانت آخر العهد بها، وهذا الظهير الذى بقى بيدنا هو لسلطان المغرب مولانا عبد العزيز بن مولانا الحسن رحمهما الله. نصه :

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله وحده وطفى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(الطابع الكبير)

يعلم من شريف كتابنا هذا أعز الله أمره وخلد فى الصالحات ذكره أننا ألبسنا بحول الله وقوته وشامل يمينه ومنته حملته المتمسكين بالله ثم به الشرفاء أولاد ورياش القاطنين بجبل قلعية رداء التوقير والاحترام والذكر الجميل المستدام بحيث لا تخرق عليهم عادة ولا يحدث فى أمرهم نقص ولا زيادة فنأمر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعمل بمقتضاه ولا يحيد عن كريم مذهبه ولا يتعداه والسلام. صدر أمرنا الشريف المعترز بالله فى خامس محرم الحرام عام أحد وعشرين وثلاثمائة وألف هـ. نص الظهير بالحرف .

قلت ويستنتج من جميع ما تقدمت الاشارة اليه أن عمود نسب محبكم وصديقكم هو ما يلى:

العربي بن محمد بن محمد بن علال بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن محمد فتحا ابن عبد الرحيم بن علي بن يوسف بن ورياش ابن عيسى بن يخلف بن عثمان بن ايعيش بن ابراهيم بن ورياش بن عيسى بن عبد الرحمان بن علي بن اسحاق بن أحمد بن محمد بن ادريس ابن ادريس بن عبد الله بن الحسن (1) بن الحسن (2) بن علي وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا كل ما عثرت عليه من هذا النسب بعد البحث الشديد عنه نحو العشرين عاما في كل مكان وصلت اليه ولا زلت أبحث وأسأل المطلعين أمثلكم عن الحقيقة التامة التي ركن القلب اليها، ولعلنا نجد ان شاء الله ضاللتنا الخسودة عند سيادتكم .

هذا ولسيدى ورياش رحمه الله حرمة عظيمة عند قبائل قلعية وغيرها من قديم الزمان، يقصد الاهالى زيارة تربته وتربة الشهداء المدفونين حوله لان حول ضريحه كانت تدور المعارك الطاحنة بين الدولة الاسبانية التي احتلت مدينة مليلية سنة 1497 ميلادية وبين جميع قبائل الريف من اكنامة الى قلعية وقد حاصرها المولى اسماعيل نحو العشرين سنة، وهذا الضريح يقع على أبواب مليلية، وكان كلما استشهد احد من المجاهدين حمل ودفن في التربة المذكورة لذلك على المقابر القديمة منها مهابة وجلالة، حكى لى الشريف المسمى السيد احمد بن محمادى الورياشى، مقدم الضريح أن الشيخ شعيب الدكالى العالم المغربى الشهير رحمه الله كان في كل مناسبة يزور ضريح سيدى ورياش والارض القديمة المحيطة به، قال كان اذا وصل في سيره الى المقابر نزع قدميه من نعليه ومشى في وسط المقابر حافيا، اجلالا لصاحب الضريح والشهداء المدفونين حوله .

وأشار العلامة الناصرى السلاوى الى شىء من هذا في الجزء التاسع من كتابه الاستقما - الطبعة الجديدة - صحيفة 205 ونصه: ومار الحد المشترك بين الاسبانين وأهالى قلعية قريبا من تربة ولى الله سيدى ورياش، وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر شهر الذكر ينتابونه للزيارة ويتبركون به ويدفنون عنده موتاهم الخ هـ، الغرض منه .

(1) المتن (2) السبط .

قلت: ولنا كلام طويل الذيل في تقييدنا الذي سميناه «الكشف والبيان عن سيرة الشريف الغازي سيدى محمد أمزيان» وأخبار مقاومته هو واخوانه الريفيون لأبى حمارة ثم الاسبان في هذا الموضوع. وقد قيل في سيدى ورياش أكثر من هذا ولا حاجة لذكر ذلك .

قلت ما هنا مسألة وهى أن عمود هذا النسب لا يتجاوز أفراده المذكورون أحدا وثلاثين بالنبى صلى الله عليه وسلم، وحينئذ لابد أن يكون في عمود هذا النسب نقص بعض الافراد، الجواب انى لا أبرىء عمود هذا النسب من ذلك، لان الحقيقة في مثل ذلك اليوم في منتهى الصعوبة، وللعلماء في ذلك مقالات مشهورة منها أن الامام الاجتماعى المؤرخ العظيم عبد الرحمان بن خلدون، قال في الجزء الثامن من تاريخه، انه لا بد لكل مائة سنة من ثلاثة أفراد، الابن والاب والجدة، غير أن العلامة سيدى احمد بن عبد القادر القادري له تقييد في الموضوع موجود في الخزانة العامة بعاصمة الرباط تحت رقم 1632، جاء في صحيفة 7 منه ما نصه: وأما ما نقل عن ابن خلدون من أن لكل مائة سنة ثلاثة أفراد، فليست بقاعدة مطردة اذ قد يوجد أكثر من ذلك وقد يوجد أقل ه منه، وقال الشيخ الاجتماعى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده المصرى رحمه الله في كتابه «الاسلام والنصرانية» صحيفة 172 ما نصه: أن ما بيننا وبين مبدأ الاسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلا، كل رجل يعيش خمسين سنة ه منه وقد توفى رحمه الله في حادى عشر يليز سنة خمس وتسعمائة والـ الف ميلادية (1905) .

تنبيه: ان صاحب الدرر البهية قال ان النازل بساحل البحر من قبيلة قلعية هم أولاد سيدى ورياش، وذكر صاحب النثر ان النازل هو سيدى ورياش نفسه ولا مخالفة لان من عبر بأولاده فمراده وورياش الاول، لان هذا لم ينزل بالساحل المذكور وانما نزل أولاده وورياش الثانى هو من أحفاده ومن اسند النزول لورياش فمراده الثانى وهو المدفون في الضريح المشهور به .

وبعد الاشارة الى جملة من المعلومات المسؤول عنها التى لها علاقة بالموضوع نذكر الآن فرق الورياشيين ومقر كل فرقة من فرقهم فنقول :

الفرقة الاولى: أولاد محمد بن عبد الله بن احمد بن عبد الله بن محمد فتحا بن عبد الرحيم بن على بن يوسف بن ورياش بن عيسى بن يخلف بن ايعيش بن ابراهيم بن ورياش بن عيسى بن عبد الرحمان الودغيرى الى آخر النسب المتقدم، وهذه الفرقة بعضهم فى فرخانة من قبيلة مزوجة وبعضهم فى قرية اثلاث بقبيلة بنى سيدال وبعضهم بفرقة اجزولة بقبيلة بويفرور .

الفرقة الثانية: هم فرقتنا معشر أولاد سيدى علال بن عبد الله بن احمد بن عبد الله بن محمد فتحا بن عبد الرحيم بن على بن يوسف بن ورياش بن عيسى بن يخلف بن عثمان بن ايعيش بن ابراهيم بن ورياش ابن عيسى بن عبد الرحمان الخ... بعض الافراد من هذه الفرقة يسكن بفرخانة وبعضهم بمدشر احواضا بفرقة اجزولة من قبيلة بنى بويفرور، ومنزلنا بها يسمى لصرف .

الفرقة الثالثة: أولاد سيدى العربى بن احمد بن عبد الله بن محمد فتحا بن الرحيم ابن على بن يوسف بن ورياش الخ. أفراد هذه الفرقة قليلون يسكن بعضهم فى منزل اشخيا من فرقة ركانة بقبيلة بنى بويفرور . الفرقة الرابعة: أولاد سيدى المختار بن احمد بن عبد الله بن محمد ابن عبد الرحيم بن على بن يوسف بن ورياش الخ... مقر سكنى هذه الفرقة فرخانة بقبيلة مزوجة .

الفرقة الخامسة: هم أولاد الفقيه السيد احمد ورياش القاطنون بمدينة شفشاون انتقل جدهم سيدى احمد المذكور الى شفشاون أوائل القرن الثالث عشر، ونسب جدهم المذكور هكذا: هو الفقيه المرحوم السيد احمد بن محمد فتحا بن يوسف بن محمد بن على بن يوسف بن ورياش ابن عيسى الخ...

الفرقة السادسة: أولاد سيدى محمد فتحا بن ورياش المدفون بفرخانة ويعرفون بأولاد حم بن يحيى أولاد سيدى محمد العساوى هم أهل عين اسعود بها يعرفون ويعرف منزلهم الآن بمنزل المراتين مقرهم فى جبل بنى شكير، فجدهم حم بن يحيى بن بلقاسم بن محمد فتحا بن ورياش الخ...

الفرقة السابعة: أولاد عبد الله بن حدو مقر سكنى بعضهم بعين اسعود بجبل بنى شيكار وبعضهم بمدشر الحيانا من قبيلة بنى سيدال وبعضهم بجبل ثميمونت بجبل بنى سيدال، فجدهم سيدى عبد الله بن حدو بن احمد بن محمد بن ورياش بن عيسى بن يخلف الخ ..

وبعد ما أطلع سيدنا الفقيه العلامة الجليل الشريف الادريسي الاصيل مولانا محمد بن مولانا الطيب الودغيري ثم البدر اوى نقيب الاشراف الادارسة فى عموم المغرب على تقييدنا «الاحياء والانعاش بذكر أسماء من استوطن قلعية وشفشاون قديما وحديثا من أبناء سيدى ورياش» وسرد عليه وأطلع على مصادره وعلى غيرها من كتب النسابين الموجودة بخزائنه التى تعرضت للكلام على جدنا الشيخ سيدى ورياش رحمه الله صرح السيد النقيب بثبوت هذا النسب ومار يخطبني ايده الله بابن العم، وعادته أن اعترافه بثبوت النسبة النبوية لمن يطلب ذلك منه صعبة المنال ولا يعترف بذلك لاحد الا بعد التثبت التام، وزاد بان شرفنى حفظه الله بقرار أمر كاتبه وصهره الفقيه العلامة الاديب البارع الامتاذ المدرس بفاس سيدى محمد الازرق فكتبه، ونصه حرفيا :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه. ليعلم الواقف عليه أن حامله الشريف الاصيل العلامة الجليل العضو بمجلس الامتئاف الشرعى بمحكمة الناضور سيدى العربى بن محمد الودغيري الورياشى، جعلته بوجود سيدنا أيده الله مقدما على عمه الورياشيين باقليم الناضور ونائبا عنى فى التعريف بهم فى الحالة المدنية وغيرها وان اشكل عليه أمر كاتبني فيه وعليه بتقوى الله فى السر والعلانية والسلام. وفى سادس عشر من جمادى الثانية عام خمسة وثمانين وثلاثمائة وألف، الموافق ثانى عشر اكتوبر سنة خمس وستين وتسعمائة والف محمد بن الطيب البدر اوى، وختمه بخاتمه الخاص، بداخله نقيب الاشراف محمد ابن الطيب البدر اوى .

وفى الختام أقول لسيادتكم هذا ما أمكن لى الآن جمعه فى هذا الجواب لضيق الوقت وكثرة الاشغال، وحررته فى 10 شعبان 1385 موافق 9 دجنبر سنة 1965 .

من رجال بنى يطففت :

أبو الربيع سليمان الجعوني :

هو أبو الربيع سليمان بن أبي بكور الجعوني .
كان فقيها فاضلا قاضيا عدلا نزيها موافقا في أحكامه، وليا صالحا،
وهو من قبيلة بنى يطففت وابن عم الشيخ أبى زكرياء يحيى بن أبي بكور
الجعوني هكذا أورده في المقصد الشريف وعليه فليس ابن عم له وإنما هو
أخ له لأن كليهما ابن الحاج أبي بكور والله أعلم.

تحريره للعدل: حكى الشيخ أبو محمد عبد الحق البادسى
مؤلف المقصد الشريف المتوفى أوائل القرن الثامن الهجرى أنه قال حدثنى
يوما بمجلسه (1) فى مسجده بالبادية (بادية بنى يطففت)، قال كنت نائما
فى هذا الموضع فرأيت شخصا دخل على هذا المسجد، ودفع الى وثيقة
مكتوبة فى رق، ففتحتها وقرأتها وفى آخرها شهادة شاهد من شهود بقبوة
معروف بشهادة الزور، وقد مات الآن وما ينبغي ذكره، قال وعلى تلك
الشهادة مكتوب شبه علامة القاضى فقرأته (يعنى مناما) فوجدته حبل
جهنم أعنى المكتوب على الشهادة قال فأفقت وقد دخل على فى المسجد
رجل بوثيقة بيده فأوقفنى عليها، فرأيت شهادة الشاهد المذكور فبحثت
عن أصل المسألة فوجدتها باطلا والشهادة زور .

أشياخه: أخذ عن أخيه (أو ابن عمه) الفقيه العلامة شيخ
الطريقة الشاذلية أبى زكرياء وأخذ عن الشيخ أبى محمد صالح الهسكورى
شيخ زمانه علما وصالحا ونزاهة وبآدابهما تأدب .

حياته : كان حيا فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى.

من رجال بنى يطففت أيضا :

الشيخ أبو زكرياء يحيى بن الحاج أبى بكور الجعوني اليطفتى:

هو العالم العلم العارف بالله شيخ الصوفية وامام الطريقة

(1) أى مجلس القضاء وذلك لأن المسجد كان هو محل التقاضى عند الفقهاء
لأنه المحل الذى يمكن أن يصل اليه كل أحد .

الشاذلية في وقته الفقيه النحرير الولي الصالح أبو زكرياء يحيى بن أبي بكور وفي بعض المخطوطات (أبي بكر) الجعوني هو من قبيلة بني يطففت وله ضريح هناك كان فارس الميدان في الجدل والحوار بالحجج الاقناعية، فقد حكى خديمه أبو محمد عبد الله بن البيدق انه ورد على الشيخ من سبته رجل يدعى بابن العجوز، ومعه ولد صغير (وكان الوارد شيخا في العلم) فلما صلينا العشاء الاخيرة قال (الشيخ يحيى الجعوني) أصد أنت والصبي على السرير وناما (قال خديمه ابن البيدق) وقعد هو والشيخ الوارد، فقال الاخير للشيخ يحيى ما معنى قوله تعالى «لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا» فقال له أبو زكرياء، حتى تعلم معنى الفساد وحينئذ نتكلم في المسألة، قال فما زال يذكر معنى الفساد وهو يبطل قوله الى الفجر فطينا الصبح وذهب الشيخ الوارد الى بلده، فقلت له يا سيدي لقد أطلت مع الشيخ في الفساد، فقال نعم لانه جاء معترضا لا مسترشدا .

خصاله ومناقبه: كان صادقا في الاقتداء بهدى الشريعة معظما لها يدافع عنها بما أوتي من اللسان الفصيح والبرهان الصحيح، ومن صراحته أنه كان له ابن أخ قتل طالبا عربيا كان يسكن عنده فأمر الشيخ بقتل ابن أخيه قصاصا، وتردد قومه فقال لهم لا أسكن معكم بلدا حتى يقتل فقتل فعلا. حياته: كان يسافر الى الاندلس لاجل الجهاد، فقد حكى عنه في ترجمة أبي مروان الاندلسي قال كنا معه بالاندلس في سفر فبتنا في قرية من قرى البشرات. وكان حيا زمن الشيخ أبي محمد صالح الهكوري الذي توفي اواسط القرن السابع الهجري فقد قال في المقصد الشريف عند التعريف بابن عمه أبي الربيع سليمان الجعوني انه قرأ عليه وعلى الشيخ أبي محمد صالح. وعليه فان الشيخ أبا زكرياء كان حيا في النصف الاول من القرن السابع الهجري.

ومنهم عبد المجيد بن أبي القاسم البانسي:

أصله من قبيلة بني يطففت من القرية التي يقال لها العرس عرف به في سلوة الانفاس (2) وقال أصله من الريف من بني يطففت توفي سنة

ثلاث أو أربع وألف 1004 هجرية ودفن بفاس قرب الشيخ التاودي.
قال وله كرامات مع القاضي أبي محمد عبد الواحد بن احمد
الحميوى .

ومن رجال بنى بوفرح :

أبو عبد الله سيدى محمد بن يحيى :

وهو الفقيه النبيه الصالح البركة النزيه أبو عبد الله سيدى
محمد بن يحيى بن سعيد البوفرحى. كان عالما جليلا وشيخا صالحا
عرف به صاحب سلوة الانفاس (1) كما ترجم له درة الحجال .
وفاته: توفى رحمه الله بفاس فى تاريخ رمضان المعظم عام
886 ودفن بباب الفتوح .

ومنهم أبو الفارس عبد العزيز :

كان عالما جليلا يدعى عبد العزيز بن محمد البوفرحى .
ترجم له فى سلوة الانفاس (2) وقال كان فقيها صالحا اماما
بالقرويين ولد سنة 805 وتوفى فى تاريخ 900 ودفن خارج باب الجيسة.

من رجال بنى كميل :

أبو عبد الله محمد بن الدانوسى :

من تلامذة الشيخ أبى داود من قبيلة بطيوة غاب عن بلده
بطيوة سائحا فى جبال صنهاجة بحوز بادس، ودخل جبل بنى كميل،
وهناك توفى ولم يكن يعلم أحد من سكان بنى كميل بحاله ولا بموته
حتى عرف به بعض الصالحين ثمه الذى أطلع على مصرعه .
(هكذا أورده صاحب المقصد الشريف ولعله كان مصرعه فى حرب
ولكن لا يعرف مع من كان الحرب هل مع الثائر أبى العباس الكملى)،
وهو مدفون بجبل بنى اجميل أطلع عليه جماعة من الصالحين هناك .
كان المترجم له صالحا، ومع ذلك فقد كان يستعمل لباس العامة

(1) ج - لث - ص - 87 .

(2) ج-الثالث ص 131 لمؤلفها محمد بن جعفر الكتانى سماها سلوة
الانفاس ومحادثة الاكياس، بمن أقبر من العلماء والصحاء بفاس.

تسترا فيه كي لا يشار اليه بالولاية والصلاح، ومن لباسه كساء صوف ارجواني ويضع على رأسه جلموسا غليظا، ويتقلد بخنجر طويل ومن يلاقه في الخلاء يعتقد أنه لص أو محارب .

صلاحه: كان يصلى العشاء الاخيرة بوضوء الصبح، وكان يحيى الليل عبادة، حكى الحاج ابراهيم بن عيسى ابن أبى داود قال بات عنده ذات ليلة وكان به صداغ فطلب منه حناء وضعه على رأسه، وبعد صلاة العشاء الاخيرة طلبته بأن يصعد على السرير لينام فامتنع، فصعدت أنا وبقي هو متوجها الى القبلة يتأوه تأوه الحزين حتى طلع الفجر، وصليت معه الصبح ولم أره جدد الوضوء .

حياته: وهذه القصة تلقى ضوء على تاريخ حياته فقد كان حيا قبل 650 الذى هو تاريخ وفاة الحاج ابراهيم حفيد أبى داود

من رجال مسطاسة :

أبو عثمان الحاج سعيد المسطاسي:

مسطاسة قبيلة بجبال صنهاجة غربى بادس وهى تجاور بنى اكميل لجهة الغرب على ساحل البحر.

وكان هذا الشيخ من صلحاء الافذاذ الذين طلقوا شهوات الدنيا، وعاش رحمه الله على أكل النباتات معرضا عن الطعام، وقد حدثت زينب بنت احمد بن الخضر الخزرجى الاندلسى المتقدمة الترجمة، وكانت هذه المرأة عجوز صدق وراوية للاخبار، وكان الشيخ المذكور صديق أبيها، قالت ذات ليلة كنا نائمين فى منزلنا ببادس فطرق الباب طارق فى جوف الليل، فخرج أبى ثم رجع وقال لامى قم فاصنع طعاما، فان هذا ولى فقالت لا أصنع له شيئا قالت ولم يكن عندنا غير شعير فأوقد الشيخ (أى أبوها) النار، وسخن الشعير وطحنه بيده وصنع منه طعاما، فلما وضعه بين يديه قال له يا فقيه أما علمت أن لى ثلاثين سنة لم أذق فيها طعاما عقدا عقدته على نفسى لا يمكننى حله.

حياته: كان متصوفا سائحا فى البرارى متجردا للعبادة، كان معاصرا للشيخ احمد بن الخضر الخزرجى الذى توفى عام 615 هـ. وعليه فانه كان حيا فى أواخر القرن الخامس .

من رجال مثيوة :

الشيخ أبو يعلى : الفتوح بن أبي بكر الميثوي الرواني:

كان شيخا ظاهر الغناء الا أنه صحيح الباطن صادق الأقوال معتدل الأحوال كثير الانبساط .

وهو من سكان المحل المعروف بازغت بقبيلة مثيوة، لا زال ضريحه موجودا يقصده الزائرون بشاطيء البحر .

مكاشفاته : قيل أنه بات عنده مرة جمع من الناس مروا عليه في ذهابهم للحج وهم من المصامدة، فكان في طبع رئيسهم شراسة فأعلمه الشيخ أبو يعلى بذلك وقال له ان في طبعك شراسة وقحة فاربأ بأصحابك، فكان ذلك مما سرى في الحجاج كما كان في هذا الجمع رجل أصحب معه مسكرا في جر اب له، فقال له الشيخ ارجع ولا تفعل ما جئت بسببه ففتش جراب الرجل فوجد فيه مسكرا .

حياته : كان حيا في زمن ابي يعقوب البادسي الذي توفي عام 734 هجرية، وعليه فانه كان حيا أوائل القرن اثمان الهجري .

ومن صلحاء الريف:

أبو عبد الله محمد الريفى:

هو السيد محمد بن عمر الريفى، عرف له سلوة الانفاس فحلاه بوصف الفقيه الاستاذ النبيه الصالح البركة النزيه أبى عبد الله سيدى محمد بن عمر الريفى، كان رحمه الله أول أمره من اللصوص، ثم تاب الله عليه فدخل مدينة شفشاون، وقرأ بها القرآن وجوده برواية السبع ثم انتقل الى جبل العلم (ببنى عروص الجبلية) وصار يقرئ بها الطلبة ثم ذهب الى فاس، فكان يقرئ الطلبة القرآن بمكتب جامع أبى ابياض، وكانت له كرامات ومواظبة على التلاوة توفي بالطاعون سنة 1271 هـ. ودفن بهذا الضريح قريبا من سيدى محمد العايدى. ولا يعرف أية قبيلة ينتمى اليها .

ومنهم أبو على عمر الطنجى :

من صلحاء الريف، كان لين الخلق ذا خلق حسن، ملازما للطاعة

ليل نهار، غازيا في سبيل الله بالاندلس وهو الذي وقعت له قضية الكلاب البوليسية في الاندلس، فقد حكى أبو العباس احمد الزهيلي عنه قال توجهت (المترجم له) الى الاندلس غازيا، فخرجت في سرية فدهمنا جيش عظيم فأسر من السرية أكثرها، واستخفى بعضهم، وكنت من استخفى في شظية غير ساترة كانت رجلى بارزة منها وما قدرت إلا أنى مأسور قال فكانت خيل الروم تمر بى فلا يرانى أحد منهم، ووقف بالقرب منى جماعة ولهم كلاب أرسلوها للبحث، قال فلقد أتت تلك الكلاب حتى لحست قدمائى، ثم انصرفت عنى فسترنى الله، وكنت أقرأ سورة يس فلما جن الليل خرجت ومسيّت فيسر الله على فى اللّوق ببلاد المسلمين .

حياته: ومن حكاية أبى العباس احمد الزهيلي يتبين أنه كان حيا أوائل القرن الثامن الهجرى، وانه كان من صلحاء بادس .

ومن رجال الريف أيضا:

الشيخ الحاج أبو العباس الغماز :

وهو احمد بن محمد بن عبد الله الغماز، وهو أخو الحاج الفقيه أبى يعقوب يوسف الغماز المتقدم الترجمة، كان صالحا فاضلا منقطعا عن الخلق لعبادة الله، مغتربا مجاورا فى مكة المكرمة والمدينة المنورة سنين عديدة، ثم رجع الى الريف ورجع الى الحجاز أيضا .
وهو أصغر سنا من أخيه أبى يعقوب .

وكان فى مكة يتعبد ويقتات من كديده باحترافه الخياطة، وقد بقى هناك أولا سنتين كما ذكر ثم رجع الى بادس فأقام بها الى أن توفى هناك رحمه الله .

وقد كان حيا زمن أبى محمد عبد الحق بن اسماعيل مؤلف المقصد الشريف الذى كان حيا بتاريخ 722 هـ. حكى عن عجوز ببرقة، قال كنا فى جمع من الحجاج، فأتينا الى بئر بها فلم نجد دلوا عليها، وكانت معنا عجوز سالحة فحاولت أن وصلت فى ركوتها خيوطا كانت عندها وادلت الركوة فى البئر، وأظن أنه قال فى ماجل، والماجل هو الجب، قال فلما هممت برفع الركوة انقطع الخيط وبقيت الركوة فى الماجل قال فرفعت العجوز طرفها الى السماء وقالت اللهم رد على ركوتى، قال فأرسل الله السماء

بماء وابل جرت منه التلاع الى الماجل، فامتلاءت من حينه وصعدت الركوة على وجه الماجل، فأخذتها وأخذنا حاجتنا من الماء، وانصرفنا معترفين بفضل العجوز مع تعجبنا من صلاحها .

ومن الشرفاء أولاد داود :

وجدهم هذا ينتسب الى عيسى بن يوسف بن عبد الغفار من ذرية حمزة بن داود بن مولاي ادريس رضى الله عنه والله أعلم .
ونزلوا في قبيلة قلعية، ولهم أخوة على فروع، منهم فرع في القرية المدعو بتمايين بقبيلة بنى سعيد الريفية وكانوا يدعون ببنى تميم بفتح التاء والميم المشددة وسكون الياء والتاء وهى كلمة بتمزغت، ولذلك يجمع فيها ساكنان، ولهم أخوة نزحوا من هذا الفرع الاخير ونزلوا في بنى بوغياش بقرية امنوذ، بفتح الهمزة وسكون النون وضم النون وسكون الدال ويدعون الى الآن اعبدونا أى أولاد اعبدون .

ومن فروعهم الاصلية بنو بوسته النازولن بقبيلة بنى بوغياش، من بنى ورياغل، وهم في أسفل جبل حمام قرب قرية بنى بويخلف وينتسبون الى عيسى بن يوسف بن عبد الغفار المذكور .

وفي أوائل القرن الرابع عشر الهجرى كان فيهم رئيسهم السيد الحاج امحمد البوستاوى وكان مسموع الكلمة شجاعا واسع الثرى نسبيا الا انه كان غليظ الطبع ثقيل المزاج، يحكى أنه قصده ذات مرة شرفاء زاوية سيدى يوسف لاصلاح ذات البين مع الحاج محمد الربضاوى في شأن قتل خطأ وقع من بعض أولاد الاخير لاحد أولاد الاول، وحملوا اليه الدية والذبائح، ولكن الحاج امحمد امتنع من قبول الوساطة بل أخذ الدية وفرقها على أعداء الحاج محمد الربضاوى للانتقام منه، ومن ذلك التاريخ لم تقم له ولذريته من بعده قائمة واندرثت سمعته وتفرق أولاده شذر مذر .

ومن شرفاء قبيلة بنى سعيد :

المعروفون بأولاد ادريس الذين نزلوا أول ما نزلوا بجهة أمجاو على وادى كرت، وهم من ذرية عبد الحق بن عبد الرحمان بن السكناوى، وهم من فخذة مولاي عبد السلام بن مشيش وأخوة للشرفاء الغلبزوريين

الساكين بنى ورياغل، الذين من حفدة العالم الشهير أبو ابراهيم الاعرج المتقدم الترجمة .

ومن شرفاء القبيلة المذكورة أولاد سيدى عبد الجبار وهم كذلك أول ما نزلوا بنواحي امجاو بقبيلة بنى سعيد ولهم أخوة بالقصر الصغير بأحواز تطوان، وكان يعرف فى التاريخ بقصر مسمودة وجدهم جميعا يدعى سليمان بن على بن محمد بن عبد الله بن سيدى حمزة بن مولاي ادريس والله أعلم .

ومن شرفاء تلك القبيلة أيضا أولاد عبد القوى كانوا نزلوا أول ما نزلوا بالجهة الغربية الموالية لقبيلة تمسامان، واسم جدتهم على ابن احمد بن محمد من حفدة سيدى محمد بن مولاي ادريس والله أعلم. ومن الشرفاء أيضا هناك أولاد بومدين نزلوا أول ما نزلوا بنى سعيد على وادى كرت ويرجع نسبهم الى عيسى بن عمر بن سعيد من درية يحيى بن مولانا ادريس والله أعلم، ومنهم أيضا الشرفاء أولاد الفقيه وهم كانوا نزلوا فى وادى الدفلة من القبيلة المذكورة وهم ذرية أبى زيد على بن زيد من ذرية عيسى بن مولاي ادريس رضى الله عنه والله أعلم.

ومن الصحاء :

الشيخ أبو طاهر بن العلام :

هو من رجال الريف، ولكن لم نعثر هل هو من أهل بنى ورياغل أو فى تمسمان أو بقيوة .

وانما وجدنا انه كان يتردد على رباطة أبى داود التمساني، قال الحاج سليمان الورياغلى حسبا فى المقصد الشريف اجتمعنا يوما مع الشيخ أبى عبد الله اليسقثنى (تقدم أنه من تمسامان) فى رباطة أبى داود (وهو من تمسامان) وأبو طاهر حاضر فقال له الشيخ أبو عبد الله ما بال خبز مالقة وتينها، فقال له أبو طاهر تتعرض على بذلك يا أبا عبد الله، ثم غاب يسيرا فأحضر بين أيدينا خبز مالقة وتينها .

ومن هذه العبارة يتضح أنه كان ساكنا قرب رباطة ابى داود التى هى على خمس فراسخ من المزمة التى فى بنى ورياغل .

ومن جهة ثانية فاننا نجد أن الشيخ الزكي الولي المرضي أبا زكرياء بن مخلوف اليفرانسي البقيوي يقول: جئت أنا وأخي من المنزل المعروف ببني أبي عمر، فلما قربنا من منزل الشيخ أبي طاهر قلت لأخي وكان أسن مني مل بنا الى زيارة الشيخ أبي طاهر، فقال لي أخي لا أزوره فملت أنا وقلت لأبدي من زيارته، فلما رأي أخي عزمي وافقني فبلغنا اليه فوجدناه في المنزل يطعم أضيافا له، فلما ناديته قال لي ادخل فدخلت فوجدته قائما وبيده أناء فيه سمن وهو يصب السمن على الطعام .

كما حدث عنه الشيخ أبو عقيل وهو من قبيلة بني توزين كما أسلفنا، وقال اعتدى يحيى بن الوزير الوطاسي على قوم فظلمهم فاستنصروا بأبي طاهر وطلبوا منه أن يمشي معهم اليه ليرفع ظلمه عنهم، فأجابهم، فتوجه اليه فلما كان في بعض الطريق قال الشيخ أبو طاهر لأصحابه أرجعوا بنا، فان الرجل قد قتل، فقالوا له بماذا عرفت، فقال ما زلت من منذ خرجت من منزلي أراه أمامي، فلما كان في هذا الوقت فقدته فرجعوا ثم وصل الخبر بموته .

وعليه فان المصادر التي رجعنا اليها لا تذكر شيئا عن مسقط رأسه، ولا ابن مات، ولكن هو من طحاء الريف الاوسط، وكان رجلا صالحا كريما ذا كرامات، قاضيا لحوائج المحتاجين، كما لا نعرف شيئا عن تاريخ حياته، الا ما يؤخذ من اجتماعه برباطة ابي داود مع الشيخ ابي عبد الله اليسئتي وهو كان حيا تاريخ أواخر القرن السادس كما تقدم فيكون هذا الشيخ حيا في ذلك التاريخ .

من رجال بني ورياغل :

محمد بن أبي بكر :

وهو محمد بن أبي بكر الفقيه عبد الله خطيب المزمة، كان رجلا صالحا وعالما متصوفا وهو من رجال مدينة المزمة، كان يصاحب أبا طاهر بن العلام الشيخ البركة ويحكى عنه كرامات كثيرة .
حياته: كان حيا زمن أبي طاهر المذكور الذي كان حيا أواخر القرن السادس الهجري .

ومنهم الحاج سليمان الورياغلى :

وهو من تلامذة الشيخ أبى عبد الله محمد اليستثنى وكان رجلا صالحا متصوفا يصاحب الشيخ المذكور، ويحكى عنه كرامات .
حياته: كان حيا فى أوائل القرن السابع عشر، على ما يستفاد من تاريخ حياة الشيخ اليستثنى .

الشيخ أبو عمران موسى عبد السلام:

كان من أهل تفرسيت وقد حكى عنه مؤلف المقصد الشريف أنه قال جرت فى سوق تفرسيت ومعى أثواب أبيعها، فقعد الى جانبى وخطر لى أن أدفع كنبوشا (خرقة) برسم أهله، فترددت ثم دفعته، وبعد حين جلست مع صهره أبى سعيد عثمان بن داود، فقال لى حدثنى الشيخ أبو عمران أنه كان على نية شراء الكنبوش ولكن ليس عنده ثمن، فاستحيى أن يشتري بالدين فدفعته اليه .

كان من تلامذة الشيخ اليستثنى، وهو من المتصوفين المرضيين، حج بيت الله الحرام، وكان ملازما للشيخ المذكور وكان حيا أوائل القرن السابع وعند ادائه الحج لقى ابن دقيق العيد، وتلمذ له وانتفع بعلمه، وهو ابن أخت الحاج أبى عبد الله سليمان أحد صلحاء مكناسة .

ومن رجال بادس أيضا:

الشيخ أبو على الحسن بن هنا:

وكان رجلا صالحا، عمر طويلا وحج بيت الله الحرام .
حكى عن الشيخ أبى الحسن المراكشى أنه قدم من مرسى هنين فى قارب للتاجر محمد بن ادريس وابن عمه الرئيس يوسف المعروف بالبحرى .

ومنهم الشيخ على بن محمد النعجة:

وهو على بن محمد النعجة الزهيلي .
كان رجلا صالحا يؤم بمسجد المقبرة ببادس، وكان يأكل من كديده محترفا حرفة تاجر بزاز ببادس وكان يصاحب الشيخ أبا الحسن المراكشى، حتى كان يظن أنه من محترفى الكمياء .

ومنهم الشيخ أبو اسحاق ابراهيم النعجة:

كان من رجال بادل وهو شيخ صالح وهو من أولاد الشيخ على بن محمد النعجة المتقدم الترجمة كان حيا زمن أبى الحسن المراكشى.

ومن الرجال الصلحاء:

أبو عبد الله المفرد :

كان مستجاب الدعوة زاهدا ورعا محببا اليه الخلوات، كان رحمه الله صاحب مكاشفة وكرامة، اشتهر بهما من بين أهالى عصره، وكان موثرا لذوى الحاجات، ومع ذلك فقد كان كريما لا يمسك له شيئا .

وقد قال أبو محمد عبد الحق بن اسماعيل فى حقه من أبيات قوله: فنجومه بالصلحات طوالع ورياضه بالمكرمات (كذا) ولم نعثر على أى موطن ينتمى اليه، وكذلك لم نعثر على تاريخ حياته أو وفاته ولا أى موضع دفن فيه.

ومنهم أبو محمد عبد الله الطويل المعروف بسبحان الله:

كان من أهل فاس ثم ارتحل الى بادل، وكان من المنقطعين الى عبادة الله، ومن الدوامين على التسبيح حتى عرف بسبحان الله، ولزمه هذا اللقب لزوم اسمه الشخصى .

وكان عندما يخطب ثوبه بيده يقول عن كل غرزة سبحان الله، قال الشيخ أبو عبد الله محمد الصبان أنه حدثه الشيخ سبحان الله فى ذلك، فقال كنت فى مصر فوضعت ثوبى عند بعض المشايخ الصالحين (للغسل كما يظهر) فلما أخذه ونشره قال يا عبد الله عاينت هذه الغرزة وحدها، لم تقل عليها سبحان الله، فان كل غرزة من هذا الثوب مكتوب عليها سبحان الله، الا هذه واشار بيده اليها .

ومن مناقبه ما حكاه الحاج على الاندلسى قال قال لى عبد الله تهت يوما فى الشام، فاسندت الى حائط فتبعنى رجل، وقال انى ورفيقى لسان رميناك بسهمين اثنين لنقتلك، وتقدم صاحبنى قبلى اليك فسقط ميتا، ولما رأيت ذلك تبت الى الله، فحمل صاحبه الميت ومتاعه وسلاحه فنجانى الله .

هذا واننا لم نعثر على تاريخ حياته ولا وفاته ولا مدفنه .

ومنهم الشيخ أبو عمران موسى بن عيسى الطرطور :

سمى طرطورا لانه كان أصم، وكان في الشام يدعى البربري انطرطور، وهو من الصالحين الذين يدفع عنهم الله كل الشرور، وقد استفاض عنه في هذا الباب انه كان مرة في الشام جالسا تحت عليّة (غرفة) فحمل حزامه وكان فيه مال مقداره (40 درهما) وقيراط، وكانت امرأة تطل عليه من العلية فرأت عدها، فنزلت اليه وتعلقت به وطالبتة بالدراهم، مدعية أنها لها، فترافعا الى الوالى، ولما استفسرها عن حاجتها ذكرت المقدار بالتدقيق، فلم يشك الوالى انها لها، فأمر بضرب المغربي، ولما هم الجلاب بضربه انحبست يده، وحينئذ شدد الوالى على المرأة فاعترفت بفعلتها، واطلق الشيخ وطلب منه العفو .

لم نعثر على تاريخ حياته ولا تاريخ وفاته الا أنه لما سئل (بالاشارة) عن حبس يد الجلاب، قال أنه رأى الشيخ البيستثنى قابضا يده، مما يدل على أنه عاش في تاريخه أو بعده بقليل .

ومنهم أبو محمد بكار:

وهو معروف ببكار بن الحاج من أهل اسكرام قرية بقبيلة بقبوة، وهو من أولاد علي بن حمد .

كان رحمه الله ضعيف الحال، ومع ذلك كان ملازما للعفاف، وكان ذا كرامات، حكى الشيخ اسماعيل بن احمد الخزرجي قال بت ليلة بمنزل اسكرام عند رجل من أصحابي يعرف بسليمان بن ادريس، فأصابني مرض شديد، وأصبحت في غاية من الضعف، فارتحلت قاصدا بيتي ببادس، فقلت في الطريق انما يطح حالي ويزيل مرضي مرق فلوس لو شربته، ولكن استدركت في نفسي فقلت هنا جاء المثل القائل طلب الشهوات في الخلوات، قال فمررت بدار الشيخ أبي محمد بكار لازوره، فلما ناديته باسمه خرج الى بآنية في يديه فيها مرق فلوس، فقال لى اشرب هذا فانه يوافقك من غير أن يتعرف عند النداء من أنا، قال فقضيت العجب ومن هذه القصة يستدل على تاريخ حياته لما تقدم من ان اسماعيل كان حيا في القرن السابع وتوفى في 685 هجرية .

ومن رجال ترغوة : الشيخ أبو عبد الله البرانصي :

وهو من أهالي ترغوة، كان صالحا تقيا ذا كرامات محببا إليه شرب
العسل، وقد روى عنه الشيخ أبو العباس أحمد بن يحيى الزهيلي، قال قال
لى أبو عبد الله البرانصي يجب على كل مبتدأ (يعنى فى طريق القوم) أن
لا يغتر بما يراه من الكرامات، فقد يكون ذلك من مكر الشيطان .
ومن مناقبه رحمه الله أنه حكى عنه الشيخ أبو العباس المذكور،
أنه قال له ذات ليلة أصبت بجنابة فلم أجد الماء فى الدار للاغتسال،
فخرجت الى عين بين جرفين، وهى عميقة بينهما فاقتربت منها فرأيت
الجرفين كأنهما مطبقان على، فعلمت أن ذلك من الشيطان يريد أن يخوفنى،
فاستعدت بالله فقلت يا شيطان افعل ما بدا لك والله لا أبرح حتى اغتسل،
فرجع الجرفان كما كانا، فاغتسلت وانصرفت .
ومما يحكى بعد موته عن حبه للعسل أن السكان شاهدوا النحل
وهى تسكن فى قبره وفرخت العسل فيه .

ترجمة أبى يعقوب البادسى

ننشر هنا مخطوطا فى مناقب أحد الافذاذ فى أواخر القرن السابع، وأوائل القرن الثامن الهجرى وهو أبو يعقوب البادسى الذى قال فى حقه ابن خلدون ، أبو يعقوب البادسى أكبر الاولياء، وآخرهم بالمغرب .

وذكره لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه «انتفاضة الجراب» فقال أنه ولى الله تعالى، ووصفه بأنه الامام الكبير والعارف الشهير .

وناهيك أن مؤلف المخطوط هو قاضى الجماعة بفاس، أبو محمد عبد الله الاوربى .

وتظهر قيمته التاريخية من عرضه بأسلوب مبسط للحياة العامة فى ذلك العصر حيث أتاح لنا التعرف على الحياة الاجتماعية فى ذلك التاريخ .

كتاب مناقب ابي يعقوب الزهيلي الباسي المتوفى عام 734 هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محم و آله
وصحبه وسلم تسليما .

قال الشيخ الفقيه المحقق الاثبث الامنى الازكى، القاضي الاعدل
أبو (1) محمد عبد الله بن محمد الاوربي، رحمه الله تعالى ورضى عنه
آمين، بالله أستعين وعليه أتوكل، ومنه أطلب العون على ما أرومه من
جمع ما سمعته منذ قدمت على مدينة بادس، حرسها الله تعالى
وكلاها، من أحوال قطب زمانه ونسيج وحده وشيخ أوانه، الشيخ الولي
العارف العامل المنقطع لله تعالى، أبي يعقوب يوسف بن محمد الزهيلي،
رحمه الله ونفع به في حال بدايته ونهايته، وكيفية نشئته وقراءته، وذكر
شيوخه وافادته في علمي الظاهر والباطن .

(1) ترجمة المؤلف محمد عبد الله بن محمد الاوربي :

هو الشيخ الفقيه الجليل الصدر العظيم الوجيه العالم المفتي،
قاضي اجماعة بفاس، أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الاوربي.
وكان فقيها فاضلا عارفا بعقد الشروط، قاضيا نزيها قريب الغور
بعيد الشأو، حسن الظن، محبا في الصالحين، يذكر كراماتهم واحوالهم،
عارفا بأحوال أهل زمانه خاصة وعامة، وتواريخهم وانسابهم، كثير
الحكايات في مجالسه .

تلامذته: أخذ عنه الشيخ سيدي يحيى السراج الكبير،
وأبو الوليد اسماعيل ابن الاحمر، وأورده في فهرستيها، وغيرهما وله
فتاوى في المعيار .

ولادته ووفاته: ولد عام 701 وتوفى ليلة الاثنين 16 ذي
القعدة عام 782 وذكر ابن الاحمر ان وفاته بفاس .

وبعض أحواله في رحلته الى المشرق، وأذكر من ذلك ما تضافر الجمع الغفير على نقله، أو ما سمعت ممن اثق بدينه وعدله، وقصدي تقييد ذلك وجمعه، استدراراً لرحمة الله سبحانه، لما جاء عن العلماء، أنهم قالوا عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، ولا شك ولا خفاء أن ذكر الصالحين، وذكر أحوالهم، بحكاية مناقبهم، ومعاملتهم لله تعالى، مما يرق القلب ويزيل قسوته، وتلك الرأفة هي علامة نزول الرحمة، فنسأل الله جل وعلا أن يمنحنا مما منحهم، ويرزقنا مما رزقهم، بمنه وفضله انه ولي ذلك، والقادر عليه، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

نكر نسب الشيخ ومولده ووفاته وشيوخه وقراءته ونبذ من أحواله في حال بدايته، رضى الله عنه ونفعنا به آمين .

هو يوسف بن محمد بن عبد الله بن علال بن منصور بن سعيد ابن عبد الله بن سعيد بن تميم الزهيلي، وولد رحمه الله ونفع به يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر الله ذي الحجة، من عام أربعين وستمائة، بالدار التي كان بها سكناه ببإدس المحروسة، وتوفى رحمه الله نصف ليلة الثلاثاء الحادى عشر شهر الله ربيع الآخر، عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، وذكر لى أنه كان يقول ولدت يوم الثلاثاء ويعلم الله يوم الثلاثاء أموت فكان كذلك .

أمير مدينة النكور يبحث عن الفقيه عبد المالك بن حبيب :

حكى عن الثقات ان الفقيه عبد المالك بن حبيب قدم على بلاد الريف، فكان بها خائفاً مختفياً اذ كان أمير بلد النكور يبحث عليه فاستقر عند أسلاف الشيخ، بموضع يقال له ينو خالص فأووه واسكنوه في بيت هو الآن بان لم يتغير منه الا سقفه، وأهل ذلك الموضع يتبركون بذلك البيت الذى كان به سكنى الفقيه عبد المالك المذكور رضى الله عنه .

بعد أن كان بعض أهل تلك الجهات طردوه عن أنفسهم فبقى عند أسلاف الشيخ مكرماً ملحوظاً الى أن انصرف عنهم، فدعاهم، وقال بجدى الشيخ سيدى أبى يعقوب جعل الله البركة في عقبك الى يوم الدين، ودعا على أولئك القوم الذين طردوه، كان أمرهم بعكس ذلك، وكان الشيخ

سیدی أبو یعقوب رضی الله عنه یقول، وجدت بركة الشيخ أبي يحيى أجروم، حملني اليه والدي وأنا صغير، فوضع يده على رأسي، وقال لي رزقك الله العلم والعمل به وحدثني من اثق به أن الشيخ رضی الله عنه قال لما دخلت الكتاب كنت اذا وضعت اللوح من يدي اسمع شعرة بمقدم رأسي، تقول الله الله الله، لا تزال كذلك حتى أرجع الى لوحی، وقرأ الشيخ القرآن على المعلم الصالح اسماعيل بن احمد الخزرجي، فحفظه وجوده بحرف نافع، وفي العربية واللغة والادب على الاستاذ ابي القاسم الاندلسي، وحدثني غير واحد أن الشيخ كان يقول حين يزور قبر سیدی ابي على الطنجي، المدفون في المصلى خارج بادس، الذي يقال عنه انه قطب قرأت على هذا الشيخ العربية، وقرأ الشيخ سیدی أبو یعقوب الرسالة أيضا، وتهذيب البرادعي على الشيخ العالم الولي أبي زكرياء، هذا قرأ بقرطبة أربعين سنة، ثم رجع الى الريف، فظهر له علم جم، وولاية وأحوال صالحة، حدثني عن سیدی أبي یعقوب أنه قال، كنت أسوق الماء، لسیدی ابي زكرياء لوضوئه أيام قرائتي عليه، فكنت اذا اتيته ليلا بالماء، أجسد في بيته نورا ساطعا، وقرأ الشيخ أيضا سیدی أبو یعقوب ببادس تهذيب البرادعي على سيدنا الفقيه العالم الولي المجاب الدعوة أبي ابراهيم اسحاق بن يحيى الورياعلي الاعرج، ثم رحل معه من بادس الى مدينة فاس، وسكن بمسجد سیدی ابراهيم. المحمل على الصابة الكائن بقصر البلدية، بالغرفة التي بقبلي المسجد المذكور، وتفقه عليه مدة وقرأ أيضا بمدينة فاس موطأ مالك، رحمه الله تعالى ورضي عنه، على فاضليها وامام الفريضة بجامع القرويين ابي جعفر احمد بن الشيخ الفقيه العلامة امام الفريضة بالجامع المذكور أبي عبد الله المزدعي، حدثت أن ولي الله تعالى سبحانه أبا البركات الطراز من أهل فاس، وكان رجلا معمرًا، قد زمن وعمي في آخر عمره قال للحاج محمد التسولي سلم على الشيخ أبي یعقوب، وقل له الامارة بيني وبينك انطفاء الصبيحة في مجلس الفقيه أبي جعفر المزدعي، قال الشيخ التسولي فجئت الى الشيخ، وقال له ذلك فتبسم، وقال لي رد عليه السلام، فلما رجعت الى مدينة فاس، دخلت عند سیدی أبي البركات، فقلت له سیدی أبو یعقوب يسلم عليك، وقد بلغته الذي قلت لي، فتبسم، وقلت له سیدی أخبرني بخبر الصبيحة،

فقال لى سر أولياء الله لا يفشى، وهم احياء، قال فسكت، وانصرفت، فلما مات سيدى أبو يعقوب دخلت عند سيدى أبى البركات، فتذكرت القضية، فقبلت يده، وقلت له يا سيدى سألتك بالله الا ما أخبرتنسى بقضية الصباحية، وقد مات سيدى أبو يعقوب، قال فتبسم، وقال ما أكثرك تبحث كنت جالسا فى مجلس الفقيه أبى جعفر المزدغى، والشيخ أبو يعقوب بازائى، فاذا بالصباحية التى يقدؤ اليها القارىء قد انطفأت، فلم يجد القارىء ضوءا يقرىء اليه، فاذا بنور قد استنار من الشيخ أبى يعقوب، وعم على الصباحية حتى قرأ اليه القارىء، هذه قصة الصباحية، قال مؤلف هذا الكتاب، رأيت فى لطائف المنى فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى، وشيخه أبى الحسن، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله تعالى ورضى عنه، لو كشف اليسير من نور المومن العاصى لطبق ما بين السماء والارض، فاذا كان المؤمن العاصى كذلك، فما ظنك بنور المومن المطيع، فلو كشف الحق سبحانه عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه، لانطوى نور الشمس والقمر فأين لنور الشمس والقمر من أنوارهم، الشمس والقمر يدخل عليهما الكسوف والغروب، وأنوار قلوبهم لا كسوف لها ولا غروب، قال مؤلف هذا الكتاب، كنت أزور الشيخ الولى سيدى أبا البركات الطراز قبل موته بالصفارين القدماء من فاس المحروسة، وأتردد اليه وأتبرك به، وكان بى فى قلبه موضع والحمد لله وشاهدت منه الكرامات كثيرا، وحضرت دفنه بالجيزيين، قال مؤلف هذا الكتاب غفر الله له .

رجوعه من فاس الى بادس :

وبعد ذلك رجع الشيخ سيدى أبو يعقوب من مدينة فاس الى بادس، وقد حصل من العلم الظاهر جزءا عظيما، وظهر عليه خير عظيم، ولاحت له بوارق الحق فاعتزل بنفسه بالرابطة التى على ساحل البحر خارج مدينة بادس، وهى التى ادخلت الآن بدار الصنعة، واخذ فى المجاهدة والعبادة والانقطاع الى الله تعالى .

سيوخته فى علم الباطن :

هؤلاء شيوخ سيدى أبى يعقوب فى علم الظاهر :

واما اشيأه واستأذه فى علم الباطن، وطريق الارادة فامام الطريقة
 وشيأ الحقيقة الولى العارف الكبير أبو الحجاج يوسف الاقصورى،
 من الاقصور قرية من قرى قوص، وله هناك زاوية عظيمة، وتلامذة بالبلاد
 كثيرون، حكى لى غير واحد ان الشىأ سيدى أبا الحجاج الاقصورى، لما
 حضرته الوفاة قال له اصحابه يا سيدى من يجلس للناس مكانك، فقال لهم
 ان الله سبحانه استألف عوضا منى صيبا بأقى المغرب، اسمه يوسف بن
 محمد، بمدينة على ساحل البحر يقال له بادس، وهو الآن من أربعة أعوام،
 وفى هذه السنة يأخذ المكتب، فاذا كان أوان تربيته فليصرف اليه احكم،
 ويربيه وينهج له طريق الارادة، حدثنى الحاج ابو العباس احد الكماد قال
 سمعت سيدى أبا يعقوب يقول، رأيت فى المنام فى بداية أمرى، كأتى مت
 ثم ردت الى روى، فاذا أنا بثلاثة رجال فى زى الفقراء الاعجام، قد
 خرجوا الى من البحر، ووقفوا على، ثم جاءنى أحدهم، وقال لى مرحبا
 بمن كان ميتا فأحييناه، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس، قال فقلت
 له يا سيدى من أنت، قال فقال لى أنا أبو الحجاج الاقصورى، قال الحاج
 المذكور، فلما توجهت الى البلاد دخلت الاقصور، ثم جئت الى مصر،
 واجتمعت مع سيدى كمال الدين حفيد سيدى أبى الحجاج الاقصورى
 بزاوية بمصر، وذكرت له انى من بادس، سألتنى عن سيدى أبى يعقوب،
 فذكرت له عن الرؤيا التى حدثنى بها سيدى أبو يعقوب الى آخرها، فقال
 سيدى كمال الدين وقال له سيدى أبو الحجاج وان الله قد استألفك مكانى،
 قال الحاج احمد، فقلت لسيدى كمال الدين ياسيدى ما سمعت أنا ذلك منه
 وانما سمعت الناس يقولونه قال فقال لى سيدى كمال الدين، أنا سمعته
 من سيدى أبى يعقوب فى تلك الخلوة يشير الى خلوة كان ينزل بها سيدى
 أبو يعقوب حين توجه الى الحج، قال الحاج احمد، وسيدى أبو يعقوب
 بالبلاد مشهور، كما هو هنا بالمغرب، قال مؤلف هذا الكتاب، حدثنى أبو
 عبد الله محمد بن على بن مغيث، قال سمعت سيدى أبا يعقوب يقول
 يعلم الله من يرد الله أن يشهره ما يقدر فى نفسه بشىء، كنت حين
 سافرت الى المشرق أخفى نفسى غاية، وأركب حمارا اشتريته بدينارين
 غير ربع، وكان يصلى بنا فى الركب رجل من أهل الركب، فاذا برجل يقول

للناس ما نصلى الا خلف صاحب ذلك القيطون، فاني رأيت نورا ساطعا يصعد من قيطونه، قال فاشهرني عند أهل الركب، بعد أن كانوا لا يعرفونني قال مؤلف هذا الكتاب، رأيت في كتاب مناقب الاولياء وكراماتهم لسيدى أنولى الكبير أبى الحسن على بن محمد المراكشى، قال سكنت بقوص مرة فذكر لى عن رجل ولى بالاقصور، اسمه يوسف، ويعرف بأبى الحجاج الاقصورى، فكنت أريد أن أزوره، فتخلفت عن زيارته أياما، فنمت يوما، فسمعت قائلا يقول، قم يا على الى الشيخ يوسف، لانه قد خرج ليجتمع بك، فلم يكذب، فخرجت لالتقيته أو نصل اليه الى منزله زائرا، فمشيت على ساحل النيل حتى وصلت الى موضع التعديّة، فلم أجد المعديّ الذى يعدى بالناس، ففقدت على جانب النيل منتظرا لصاحب المعديّة، فاذا أنا برجل قد أقبل من الجانب الآخر، ويده عصا، فرمى برجليه على الماء وصار يمشى ويحط بعصاه على الماء، حتى وصل الى فبعت في كرامات الاولياء، ولن (كذا) منه فنظر الى وأخذ باذنى وقبلها، وقال لى يا على لا تتوارن عن زيارة الاولياء، ولا تحجبك نفسك عن مقاماتهم بتسويقها لك، فقبلت رجليه، وقلت يا سيدى من أنت، قال أبو الحجاج الاقصورى، قال ثم قال لى ارجع الى مكانك، قال فبكيت، وقلت له يا سيدى بعد موعظة شافية، فقال نعم يا على عليك بمحاسبة نفسك ومن (كذا) اياها فانها مهلكة الرجال، ثم قلت يا سيدى زدنى، قال عليك بالصمت بين يدى العلماء، ثم قلت يا سيدى زدنى، قال بالتواضع وترك الدعوى، قال ثم تركنى ورجع الى حاله، قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه دخلت صnehورة وهى بمقربة من الاسكندرية بينهما مسيرة يوم وبعض آخر، فأويت الى مسجد آخر البلد، فاجتمع حولى فقراء بغير اختيارى فضيقوا على وقتى فى العبادة، فعزمت على الانتقال الى بلد آخر، فلما كان العشاء الاخيرة دخل علينا المسجد رجل فأخذ بيدي، وأخرجنى والفقراء مكانهم، وقال لى امش معى فحملنى الى منزله، وصعد بى الى غرفة ليس فيها الا حصيرة من الحلفاء، فأقعدى عليها، ثم دار فى زاوية الغرفة فأحضر بين يدى عسلا ولبنا معقودا وخبزا حارا، فواكلتنى، فلم أتهن من أجل الفقراء الذين تركتهم فى المسجد

فرأى الرجل عندى قبضاً، فقال لى كل فانك طلبت الخلوة وحدك، وهذه خلوة لا تجد مثلها، فتعجبت منه فى مكاشفة فيما كان عندى، فأكلت حتى شبعت، وشكرت الله تعالى، وقال لى أدع لنا الآن، فان دعاء الضيف مستجاب، فدعوت وأمن ثم سألت عن اسمه، فقال اسمى خرغام ابن مظلوف، فقلت ما حرفتك، قال لى خراز، فقلت من ذلك على، قال لى رجل، فقلت له من ذلك الرجل، فلم يعلمنى، فعلمت أنه كوشف بحالى مع أولائك الفقراء، فقعدت نتحدث فى كرامات الاولياء، ثم تركنى وخرج، فما رأيته الى صلاة الصبح، فطليت معه الصبح، وأردت الانصراف، فقال لى الضيافة ثلاثة أيام، ثم قال لى الضيف فى حكم صاحب الدار حتى يخلى سبيله فقلت له نعم وكرامة لا أخالفك، فخرج وتركنى، فلما كان بعد أن صليت الضحى دخل وانزلنى من الغرفة الى الموضع الذى يعمل فيه الدرازة بيت فى المنزل، فقعدت معه وهو على منواله، يعمل شغلته، ونحن نتذاكر فى أخبار الصالحين، فاذا بباب منزله يقرع، فقام ليفتح فقلت له تعلم انى رجل لا أريد الجمع مع أحد غيرك فلا تظهرنى لاحد، فقال نعم قم الى غرفتك، فقمتم الى الغرفة وفتح الباب، فسمعت حس رجال كثيرين ولم أرهم، فجاء الى الزاوية التى أخرج منها البارحة ما أخرج فرأيته يدخل الى ركنها فيخرج العسل واللبن المعقود والخبز الحار بلا قدر، فعلمت أنه صاحب كرامة، فأقمتم عنده ثلاثة، وأنا أراه يخرج الطعام من الزاوية المذكورة، فاذا أخرج أنظر الى الزاوية فلا أرى فيها شيئاً وأنا لم أسأله، فلما أردت السفر سألته عن العسل واللبن والخبز الذى كان يخرج، فقال لى رأيته فقبل بين عينى، وقال لى يا على أنت منهم، يعنى من الصالحين، ثم قال لى يا على دخل منزلى رجال كثيرون ما سألنى أحد عن هذا الا أنت ورجل يعرف بيوسف الاقصورى، فقلت له أتعرفه، فقال لى من أين تعرفه، فقلت له جرى لى من مشيه على الماء، فحكى عنه خرغام الخراز أنه كان يصلى الظهر والعصر عندهم بصفحة من ثلاث سنين وبين صفحة والاقتصور ثمانية عشر يوماً، ثم قال لى يأخى على هو شيخى، فتأكدت بينى وبينه الصلابة والمحبة، ثم قال لى يا أخى على اعلم أن يوسف يأكل من القدرة، وأنا أيضاً أكل من القدرة، وأطعم منها .

الشيخ أبو الحسن المراكشي :

قال الشيخ أبو الحسن حكيت هذه الحكاية لشيخ مسن من العلماء العاملين بالله، فقال لي يا ولدي يا على اسمع وع، لله رجال لا يأخذون من القدرة بشيء أو أن ظهرت لهم وأخذوا منها شيئاً يحجبهم بها عنهم، فيموتون، ولم يروه وهذا الشيخ هو سيدي أبو الحسن المراكشي وهو مدفون ببادس عن يمار الخارج من باب المقابر، قال مؤلف هذا الكتاب، وفي قبر هذا الشيخ عجب، إذا أنت أتيت إليه ترى عليه نورا ينشرح قلبك بالنظر إليه، وله أحوال عظيمة مع الخضر عليه السلام، ومع قوم يونس ومع أولياء كبار، وقد رأيت في كتاب لطائف المنن .

سيدي عبد السلام بن مشيش :

قال الشيخ أبو الحسن عن شيخه سيدي عبد السلام بن مشيش سلك الشيخ سيدي عبد السلام الطريق وهو ابن سبع سنين، وظهر له من الكشف أمثال الجبال ثم خرج الى السياحة، وأقام بها ست عشر سنة، قال فدخل عليه يوماً شيخ في مغارته، فقال له من أنت، فقال له أنا شيخك، قد كنت ابن سبع سنين، وكل ما كان يملك من المنازل فهو مني، وهي كذا وكذا، فحدثه بجميع ما جرى له من الأحوال، وكان سكناه بالمدينة على ساكنها السلام، وكان يجيء إليه ويعلمه ويفيده، فقلت له ياسيدي كان ياتيك طياً أو سفراً، قال في ساعة يأتي ويروح، فقلت له ياسيدي كنت أنت تروح إليه، قال نعم، قال مؤلف هذا، وحدثني سيدي أبو عبد الله بن أيوب بمدينة فاس، قال حدثني رجل صالح ممن لقيت، قال كنت بمصر في بعض بواديها، فإذا أنا بطائر أبيض كبير قد وقف أمامي، وصار يهيم بالطيران ويشير الى كأنه يقول لي اتبعني، ثم طار مع الارض كطيران النعامة، واذ بريح رطبة قد هبت من خلفي، فصرت أهرول وراء الطير والريح تحملني وأنا لا أفارق الارض، أكثر الاحيان تدوس قدمي الارض، وما زلت كذلك الى أن جن الليل، فوجدت نفسي في ارض لا أعرفها، وبين يدي سواد شجر، وكنت اذا كان وقت الصلاة تسكن الرياح ويقف الطائر حتى أصليها، قال فاذا ذلك السواد باتين، فدخلت

الى بستان منها وقذف الله في قلبي عند دخوله ان تلك الارض أرض مجوس، قال فلما تمكنت من الدخول في البستان رأيت شخصا مستقبلاً القبلية الى شجرة يطلى، فلما قربت منه علمت انها امرأة فهممت بالرجوع خوفاً من الخلوة، فاذا هي قد أتمت الصلاة وسلمت بسرعة، فقالت لي يا عبد الله قف لي أكلّمك من بعيد، قال فقلت لها ما هذه الارض يرجمك الله، قالت لي هذه أرض المجوس الفلانيين، قال فقلت لها ومن أنت، قالت أنا من هؤلاء المجوس، ولكن قذف الله في قلبي الاسلام، فلم يزل الله تعالى يبعث لي أشخاصاً من الحنيفية كما بعثك أنت في هذه الساعة فيعلمني التوحيد ودين الحنيفية، وصرت انتسر بذلك وأدين به خفية الى أن زوجت من أحد هؤلاء المجوس، فحملت لأزف اليه، فاختطفت من بين يدي الذين حملوني، وصرت في هذه البادية أعبد الله ويأتيني برزقي، ويستترني عنهم، ومهما اشكل على شيء من أمر ديني يسوق الله لي رجلاً من الحنيفيين، ويعلمني، وقد وقفت الآن في كذا وكذا مسألة من التوحيد، فسألك الله الى فارشدني يرشدك الله، وكان عندي في تلك المسألة علم فعلمتها، ثم ردني الطير والريح الى الموضع الذي كنت فيه .

رجع الى حال الشيخ سيدي أبي يعقوب :

لما رجع الشيخ سيدي أبو يعقوب نفع الله به من مدينة فاس الى بادس، وانعزل للعبادة والمجاهدة بالرابعة التي على البحر، وصل اليه من الاقصوّر أحد أصحاب الشيخ الاقصوري، وهو المرید السالك أبو يحيى الشامي نفع الله به، فنزل عليه بالرابعة المذكورة، فوجده قد حصل من علم الظاهر جزءاً صالحاً، وقد ظهرت عليه أنواره وكذلك أن العلم اذا استعمل ظهر نور له، وان هو أفشى للفترين به للمخلوقين أورث القلب ضلماً، سيما والعياذ بالله أن أريد به حطام الدنيا وتحصيل المال والجاه، فأخذ الشيخ أبو يحيى الشامي المذكور في تربية الشيخ سيدي أبي يعقوب وتهذيبه وتدريبه، لما ذكر الشيخ سيدي أبو الحجاج من أنه مهيم لأن يكون خليفة له، حدثني الثقات أنه تربى على يد الشيخ سيدي أبي يحيى الشامي رحمه الله اناس كثيرون من أهل بادس من البوادي، وانه كان بعضهم يأوى الى الرابطة، وكان فيهم رجل يدعى ابن تازغيت، وان

حاله انتهى الى أن صار يواصل أسبوعاً، فان هذا الرجل سمع قائلاً يقول له ان الله تعالى لم يقبل منكم الا يوسف، وذكر لى أن هذا الرجل المدعو ابن تازغيت فتر عن العبادة، ولم يستدرج قليلاً حتى صار يرجع تازوغايت على فرسان بقوة إذا لعبوا، فنعود بالله من الارتداد على العقب.

زيارته لوالديه يوم الجمعة :

حدثنى بعض أهل الخير، قال سمعت من الشيخ سيدي أبي يعقوب، قال لما كنت بالرابطة كنت لا أدخل البلد الا يوم الجمعة، ادخل فأزور أبواي، واغتسل للجمعة واصلى، ثم أرجع الى موضعى، قال فدخلت يوم الجمعة فقالت لى والدتى يا يوسف والدك جاء من البادية اليوم، وأخبر أن الزرع قد ييس فى اكمامه من قلة المطر وشدة الحر، وان الناس قد رحلوا من الريف، فاسع ان ترغب من الفقراء الذين فى الزاوية يرغبون الله تعالى فى المطر، قال فخرجت الى الرابطة، فوجدت بها فقيراً أسمر من فاس، فقال لى قنطت أمك يا يوسف، قل لها تأخذ من الشعير الذى عندها فى القلة تحت السرير وتصنع بنصفه عصيدة بزيت، ويأكلها الفقراء، وينزل المطر ان شاء الله، قال فانصرفت الى أمى، فأخبرتها الخبر، فتعجبت من ذلك، فقالت لى والله ما علم به أحد الا الله تعالى، ثم صنعت العصيدة بالزيت، وبعثت بها الى الرابطة، وأكلها الفقراء، ثم قال الرجل الاسمر انهم امطرناء، فما أتم الكلام الا والريح والمطر الوابل قد عم الارض، وبقي أسبوعاً لم يفتر لا ليلاً ولا نهاراً، حتى تهدمت البيوت، قال فلما كان فى الجمعة الآتية دخلت على عادتى الى بادل، فقالت لى أمى يا ولدى ترغب من الرجل الصالح يدعو الله تعالى فى الصحو، قال فقلت ذلك قال قل لأمك تصنع من النصف الثانى من المد كما صنعت بالنصف الاول، ويأكله الفقراء ودعا الرجل المذكور وطلب من الله تعالى الصحو، قال الشيخ سيدي أبو يعقوب فما أتم الدعاء الا وضوء القمر داخل من طاق كانت بالرابطة، زاد غير الذى حكى لى هذه الحكاية، ان ذلك الرجل قال للشيخ أنا أكل ثلاث أكلات فى السنة، وهاتان أكلتان أكلتهما، وبقيت لى أكلة واحدة حتى يقدرها الله عند من شاء من عباده، حدثنى من اتق به عن الشيخ سيدي أبي يعقوب، قال لى سيدي أبو يحيى

الشامى ليلة كذا فى جوفها، يايوسف خذ الركوة واذهب الى البئر يعنى البئر التى بمقبرة الرابطة، واسق لنا منها الماء قال فذهبت الى البئر فوجدت عليها رجلا بزي الفقراء الاعاجم، فقلت له السلام عليكم ورحمة الله، فقال لى وعليكم السلام، قال فاقشعر جلدى منه واصابتنى رعدة، قال ثم سقيت الماء ورجعت الى الرابطة فقال الشيخ سيدى أبو يحيى يايوسف أرأيت أحدا على البئر قال فقلت له نعم ياسيدى رأيت رجلا صفته كذا وكذا وأخذنى كذا، فقال هو الخضر عليه السلام والحمد لله الذى أقر عينى بك .

رحلة الشيخ أبى يحيى الى المشرق :

ثم أخذ الشيخ سيدى أبو يحيى الشامى فى الحركة الى المشرق، فخرج من بادس، وخرج معه الشيخ سيدى أبو يعقوب، وخرج معهما جماعة كثيرة من أهل بادس، فباتوا جميعا بموضع يقال له أوزغيت عند الشيخ الصالح أبى يعلى الفتوح بن أبى بكر، وكان وليا من أولياء الله تعالى، فأضافهم وذبح لهم بقرة، وصنع لهم طعاما، فلما أكلوا أعطاهم (1) الرب ليشربوه، فشرب الحاضرون وامتنع الشيخان سيدى أبو يحيى وسيدى أبو يعقوب من شربه، فقال لهم الشيخ سيدى أبو يعلى بيدى طبخته فاستمرا على الامتناع فقال لسيدى أبى يحيى ما تخرج من هذه حتى تشربه، وقال لسيدى أبى يعقوب تطلب ولا تجده، وانصرفا من عنده فسلط الله عليهما شهوة الرب فشربه سيدى أبو يحيى ببلاد غمارة، بعد وداع سيدى أبى يعقوب له ورجوعه، وبقي سيدى أبو يعقوب يصبر نفسه عنه وأمه تطلبه ولم تجده، فلم يزل الشيخ أبو يعقوب يرغب الله تعالى حتى صرف عنه الرب، وتم الكلام على ما علمته من شيوخ سيدى أبى يعقوب رحمه الله تعالى ونفع به فى علم الظاهر وعلم الباطن .

نكر- نبذ من كرامات سيدى أبى يعقوب رضى الله عنه ونفع به:

حدثنى أبو عبد الله بن مغيث مرارا عديدة، احدها بمحضر جماعة من أهل الخير، قال سمعت سيدى أبى يعقوب رضى الله عنه يقول، كنت

(1) ما يطبخ ويشدد ويثخن من عصارة بعض الثمار كالبنندورة (ماطيشة).

أرى السموات السبع والاراضين السبع والعرش والكرسى والجنة والنار، وحدثني أيضا أبو عبد الله المذكور عن يحيى عن يوسف وكان رجلا خيرا دينيا كثير الموالات للشيخ سيدي أبي يعقوب نفع الله به قال يحيى ابن يوسف سمعت الشيخ سيدي أبا يعقوب يقول، كنت أسمع المؤذن يؤذن في السماء الرابعة، وبعد ذلك بالمدينة اسم المؤذن بصومعه بادس، قال أبو عبد الله بن مغيث حدثني قارئ الكتاب بين يدي سيدي أبي يعقوب، وهو الشيخ المبارك أبو الحسن علي بن الكماد، قال قلت لسيدي أبي يعقوب يا سيدي سمعت أنك تسمع المؤذن في السماء الرابعة، قال فقال لى نعم، وقال عند انقضاء كل ساعة من النهار، قال مؤلف هذا، ولقد رأيت في كتاب لطائف المنن عن الشيخ سيدي ابي الحسن الشاذلى أنه قال، استنار قلبي يوما فكنت اشهد ملكوت السموات السبع والاراضين السبع، فوقعت منى هفوة فحجبت عن شهود ذلك، فعجبت كيف حجبتني هذا الأمر الصغير عن هذا الأمر الكبير، فاذا أنا يقال لى، البصرة كالبصر أدنى شىء يحل فيها يعطل النظر، ورأيت أيضا سيدي أبا يزيد البسطامى رضى الله عنه أنه قال لى اطلعننى الله سبحانه على عجائب السموات السبع، والاراضين السبع، ثم قال يا أبا يزيد كيف رأيت، قال فقلت يا حبيب قلبي ما رأيت شيئا، قال فقال لى يا أبا يزيد تمن، قال فقلت أتمنى، قال فقام أحد تلاميذه من بين يديه، قال له يا استاذى لاي شىء لم تتمن المعرفة، فقال له اسكت ويحك حملتني الغيرة عليه أن لا يعرفنى غيره، وكان ما كان مما لست اذكره، فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر، وحدثني أبو عبد الله ابن مغيث المذكور عن القلوبى ابي الحسن ابن الكماد المذكور، انه قال له قلت لسيدي أبي يعقوب يا سيدي سمعت أن الاولياء اذا قرؤوا القرآن يسمعونهم يقرأ عن أيمنهم، قال ابن الكماد فقال لى سيدي أبو يعقوب نعم يعلم الله اذا قرأت القرآن اسمعه يقرأ عن يمينى .

بشرى لحملة القرآن :

وحدثني الخطيب أبو الحسن على حفيد الشيخ سيدي أبي يعقوب نفع الله به، والحاج أبو العباس احمد بن الكماد انهما كانا مع جماعة من أهل بادس بين يدي الشيخ سيدي أبي يعقوب في الجامع ببادس، والشيخ

جالس في المحراب فاذا بالاستاذ أبي عبد الله محمد بن محمد بن الخضار السبتي، وتلميذه الفقيه العدل أبي البقاء يعيش بن سعيد، قد وقفا للشيخ سيدي أبي يعقوب برسم ان يشهد لهما في عقد اجارة كان بأيديهما، فتوقف الشيخ سيدي أبو يعقوب في الشهادة، وبقي بين يديه وأطرق برهة حتى أراد الانصراف، فاذا به قد أخذ منهما وكتب فيها بخطه عوضاً من الشهادة، وسمع يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلي في المحراب شيئاً، يقول له بشر حملة القرآن برحمة من الله ورضوان، عند كتب هذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، قال فأخذوا الاجارة من يده وانصرفا فرحين بهجين بذلك، واجتمعنا في ذلك اليوم جميع من كان ببادس من حملة القرآن ينظرون الى خط الشيخ ويقبلونه ويفرحون بهذه البشارة العظيمة التي من الله تعالى بها على لسان هذا الشيخ الجليل، عن لسان القدوة لجميع من حمل القرآن، وحمل شيئاً منه، فان الباب واسع والكرم عظيم، وما أرجو الله أن يخلو أحد ممن حمل سورة الاخلاص من نيل هذه البركة، فانه جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن سورة الاخلاص تعدل ثلث القرآن، وهذه المسألة مشهورة ببادس، قال مؤلف هذا، كان يحدثني رجل صالح اسمه يحيى اليازغى، عن رجل صالح كان بمدينة فاس، يقال له سيدي عبد الله المغراوي، وانه كان يكتب اللوح من القرآن، ويبقى فيه خمسة أشهر وستة أشهر، وفي كل نفذة يرقى لمقام من الفهم أعلى من المقام الذي كان له في الفهم في النفذة التي قبلها، فاذا انتهى الى آخر مقام قدر له من فهم معاني القرآن، يقول له امح ذلك اللوح، واكتب غيره، وحديثي يحيى المذكور عن سيدي عبد الله المغراوي المذكور أنه كان في بعض الاحيان يقرأ القرآن، فاذا مر بذكر الحور العين كشف له عنها حتى ينظر اليهن وينظرن اليه، ويسمع كلامهن يقلن له اقرأ يفهم منهن أنه اذا سكبت عن القراءة يغيب عن ذلك الحال، وكان سيدي عبد الله هذا من كبار الاولياء أى اولياء الله تعالى، وكان يسكن بعين امزليت بدويرة بلصق مقابر الفدان من فاس، رأيت جماعة من الصالحين يزورونه ويترددون اليه، حدثوني عنه باثياء غريبة غير هذا .

زواجه :

وحدثني أبو عبد الله بن مغيث، قال سمعت أبا يعقوب يقول يعلم الله ما كنت أردت أن أتزوج حتى قال لي أبوأي ان لم تتزوج والا فأنت مخالف لنا في مرادنا، قال فلما رأيت ذلك، قلت لوالدتي اذا عزمتم على اني ولابد من التزوج من ابنت خالتي من البادية، فاني أعلم أن أهل البادية أقل ديناً من الحاضرة فزوجوني منها، ودخلت معها ثلاثة أعوام، وهي لم تلد، صارت أمي تقول زوجت ولدي من امرأة عقيمة، وتكرر الكلام في ذلك، حتى علمت بذلك زوجتي، فبعثت الى حالتها والدتي، وقالت لها قل لخالتي ولدها ما رأى لي بشرة ولا رأيت له بشرة، وانه منذ دخل معي في البيت يصلي في ركن البيت الليل كله، وما رآني ولا رأيته، قال فبلغ ذلك الى والدتي، فقالت لي ما طلبت ابنت أختي الا لنعطلها، وتكلمت لي بكلام خفت منه، وبعد ذلك اقتضتها وولدت لي ولدي عبد الله، وحدثني أبو العباس احمد بن المؤذن جابر الشيخ سيدي أبي يعقوب وداره بلصق داره، قال فخرجت يوماً من داري بشقف في يدي أسوق ناراً فبعثني الشيخ أبو يعقوب في حاجة أقضيها له، فانصرفت وتركت سوقان النار، فقضيت الحاجة ورجعت، فلما أتيت الى باب دار الشيخ، فإذا بالشيخ خارج بباب داره فأخرج لي يده وبين أصابعه جمرة نار، فوضعا في الشقف الذي كان في يدي، فبهت، مما رأيت من حبسه النار في يده كأنها تفاحة أو وردة لا تحرق، وحدثني أبو العباس المذكور قال كنت بازاء الشيخ أبي يعقوب يرفع رأسه الى السماء وينظر يميناً وشمالاً، قال فقلت له سيدي ما كنت تنظر فقال لي الملائكة غطوا السماء بل الفضاء كله جاءوا للصلاة هنا، وسمعت ذلك من جماعة غير أبي العباس المذكور، وحدثني أبو العباس المذكور أنه كان مع جماعة من الناس ورأى الشيخ وهو يزور المقابر، فإذا به قد وقف وقال لهم يعلم الله لو رأيتم الذي أرى لما رجع أحد منكم لاهل ولا ولد، وحدثني أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح أبي الحسن ابن مغيث عن أبيه أبي الحسن علي المذكور، قال خرجت مع الشيخ سيدي أبي يعقوب نفعا الله به لحضور جنازة، فإذا بالميت قد جاء به

على أعناق الناس، فقال لى سيدى أبو يعقوب يا على رأيت شيئاً فوق ذلك الميت، قال فقلت له لا يا سيدى، قال انى أرى روح ذلك الميت تسير فوقه، قال على بن مغيث وكنت أسير معه برسم زيارة المقابر، فيقول لى انى أرى طيوراً على المقابر، فإذا قربت منها تدخل في القبور، وهى يعلم الله أرواح الاموات، ورأيتها مرة فدخلت كلها المقابر، وبقي منها طير واحد أسود على قبر ينظر الى، كأنه يطلب منى شيئاً، فعلمت أنه كثير الذنوب فيعلم الله مازلت أدعو له حتى زال عنه ذلك السواد، وحدثنى حفيد الشيخ الخطيب على أنه كان يخرج مع الشيخ وهو صغير انى المقابر، فيرى تلك الطيور ويقول له الشيخ يعلم الله هى أرواح الموتى، وحدثنى عن الشيخ أبى زكرياء يحيى بن يوسف عن أمه الصالحة مامو بنت محمد بن على انها سمعا من الشيخ سيدى أبى يعقوب نفعا الله به أنه قال يعلم الله كل من ألقى عليه لا يدخل النار، وقال أيضا يعلم الله اذا تخرج الى المقابر ترى رؤوساً تخرج من بعض المقابر تشبه رؤوس الغنم، التى تنساق في العيد من عند الشواطىء .

قائد قصبة بادس لما دخلها النصارى :

وحدث أيضا عن يوسف بن قياس قائد قصبة بادس حين دخلها النصارى، واستشهد في ذلك اليوم رحمه الله ونفع به، قال لما وصل بادس قائداً بها، جاء الى الشيخ وأخذ في الحديث معه والتبرك به، فقال له أثناء كلامه يا سيدى ما نزال في هذه البلاد ان شاء الله حتى ندفنك، قال له الشيخ لا، يعلم الله أنا ندفنك، فلما كان يوم دخول النصارى بادس ركب، ابن قياس وقاتلهم على عسكر الموجة، واستشهد هناك، ودفنه الشيخ سيدى أبو يعقوب رحمه الله وكان يقول عند دفنه هذا رجل مسعود .

القاضى أبو محمد عبد الله :

وحدث أيضا على الفقيه القاضى أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمان ابن يعلى، أنه قال مات رجل ممن كان يوالينا وكان مسرفاً على نفسه، وكانت له أم عمياء، فلقيت الشيخ سيدى أبا يعقوب بقرب دار أم الرجل المذكور وهو يسئل عنها، فدخل اليها ودخلت معه، قال فقال لها ولدك يسلم عليك ويقول لك يا أمى كنت أخدم عليك في دار الدنيا فادع لى في الآخرة،

قال القاضي عبد الله المذكور، فقلت له يا سيدي في النوم رأيته قال لا، يعلم الله الا في اليقظة كلمني مثل ما أنت تكلمني، وحدثني أبو العباس احمد بن المؤذن قال، كنت وأنا صغير أقرأ لوحى في عرصة الشيخ سيدي أبى يعقوب بينما أنا أقرأ فإذا بالشيخ قد جاء لجهتي، وقال لى يا ابن محمد سق تلك الحصيرة التى فى قعر العرصة، فبييت عليها الفقراء الواردون لزيارة الشيخ، قال فقلت له ياسيدي لا يقدر أحد يقرب من ذلك البيت من كثرة ما فيه من البراغيث، قال فتبسم الشيخ، وقال لى يعلم الله البراغيث لا يتعدون عليها سقها، ولا بد، قال فقمت وأتيت بالحصيرة ودخلت الى البيت وجعلتها فيه وخرجت، فتعلق برجلى وثيابى براغيث كثيرة، فأخذ الشيخ طائسورة (1) ولفه ودخل الى البيت وجعله تحت رأسه ونام، فجلست أرقبه حتى فاق وخرج من البيت ولم يتعلق به برغوث واحد، فتعجبت من ذلك، قال أبو العباس بن المؤذن المذكور حكيت هذه الحكاية لبعض الناس بالاندلس فقال، كان في ثيابى الشيخ القمل فقلت له نعم كثير، فقال ولاى شىء كانت البراغيث لا تتعلق به وتتعلق به القمل، قال فخلق الله عندي ببركة الشيخ ان قلت له ان البراغيث تتكون من التراب، فهي كسائر الحيوان الخارجة عن الانسان المؤذية له فحماء الله منها، كما حمى الاولياء من الاسواء وغيرها من الحيوانات المؤذية والقمل شىء يتكون من الانسان من ضرورة البشر، كاللعاب والمخاط وغير ذلك من ضروريات البشر اللازمة له، فذلك كانت في الشيخ فسكت وسلم، وحدثني أبو عبد الله ابن معيث قال، لما ولد لى ولدى يوسف جئت الى الشيخ سيدي أبى يعقوب، قلت له كيف اسمى ولدى الذى تزايد عندي، فقال له سمه يوسف قال، فقلت له يا سيدي كيف اسميه يوسف واسم أخى يوسف، انما أردت عليا كاسم أبى، قال فقال لى قلت لك تسميه يوسف قال فسكت وانصرفت وسميته فلم يلبث أن غرق أخى يوسف في البحر، ولم يبق بدارى من اسمه يوسف الا ولدى يوسف فقط، وحدثني أبو

(1) لم يوجد لها ذكر في المعاجم ولعلها لهجة محلية تطلق على نوع من الوسادة.

عبد الله بن مغيث المذكور قال، انشأت أنا وأناس من أهل بادس قارباء، وسقناه بالزرع وسفرناه الى بلد الاندلس، بعد أن دعا له الشيخ، واستودعه الله، فانه ما استودع الله له الشيخ جفنا ولا مسافرا ما رأى في ذلك الا خيرا، فلما سافر الجفن المذكور حدث نوى في البحر فقلقنا وخفنا على القارب، قال فلما خرج الشيخ سيدي أبو يعقوب من المسجد وبعد صلاة الضحى خرجنا وراءه مريدين أن نسأل منه الدعاء أن يسلم الله ذلك القارب، فاذا بالشيخ قد رد وجهه إلينا، وقال قد وصل قاربكم الى الاندلس، وخرج في تلك البلاد التي فيها الفاكهة قال، فقلت له يا سيدي، المنكب، قال فقال نعم، قال فلما كان الا بعض الايام والخبر وصل بذلك .

جواز التجار من بادس الى الاندلس :

وحدثني عبد الله بن مغيث المذكور قال كان رجع بمدينة بادس غراب (1) وطريرة رفعها مولانا السلطان المقدس المرحوم أبو الحسن (2) رحمه الله على يد خادمه غازي بن الكاس برسم المجاوزة وكان قيد عليها القائد على المترتي، وكان قد اجتمع ببادس خلق كثير من التجار بأحمال كثيرة من الكساء والجبّة، وغيرها، وهم ينظرون الجواز لبر الاندلس، وطال عليهم الامر، فلما تيسر سفر الجفنين، المذكورين اجتمع التجار وجاءوا للشيخ بالجامع وقالوا له يا سيدي انظر من حالنا من أجل الله تعالى، وكلم لنا غازي عسى أن نسافر في هاذين الجفنين، قال الشيخ ابعثوا الى غازي، فجاء غازي الى الشيخ، فقال له هؤلاء التجار خاقوا ها هنا، فعسى أن تجوزهم في هاذين الجفنين، فقال له السيد غازي مالي في هذا أمر ولا نهى، وانما بعثني برسم عملهما فقط، والامر في

(1) سفينتان للسفر في البحر وفي الاولى قال الشاعر :

غربانها سود بيض قلوها يفسر منهن العد والازرق

(2) هو السلطان أبو الحسن المريني على بن ابي سعيد عثمان بن يعقوب

المنصور ويعرف بالسلطان الاكل لانه كان أسمر اللون وتولى بعد

وفاة أبيه سنة 731 هـ. وتنازل لولده أبي عنان عن الملك بعد قتال

بينهما وتوفي في 752 وجاهد بالاندلس .

الجواز للقائد فقال الشيخ ابعثوا وراء القائد، فجاء القائد راجلا اليه بداره، فقال له الشيخ عسى أن تحمل هؤلاء التجار في هذين الجفنين صحبتت الى الاندلس، فقال له القائد مليح والله السلطان أمرنى على الاجفان برسم الجهاد نجوز انا فيهما على الحركة، وقال الشيخ ففى هذين الجفنين يكون سفركم ان شاء الله تعالى، فقالوا له وكيف يكون سفرنا يا سيدى فيهما وقد سمعت قول القائد، فقال لهم يعلم الله ما تسافرون الا فيهما ان شاء الله تعالى، فانصرفوا ولم يصدقوا بشيء من ذلك، ثم رجعوا اليه يوما آخر، وهموا ان يكلموه فلما رأهم قال لهم اعملوا على السفر فى ذينك الجفنين، فانصرفوا، فلما كان بعد ذلك دفع الجفنان المذكوران فى الماء، وجعل فيهما الزاد والعدة وبيت أهلها على السفر، فجاء التجار الى الشيخ رضى الله عنه قال ياسيدى سافر الجفنان، فقال لهم قلت لكم ما يسافرون حتى تسافروا فيهما، فلما كان المغرب جاء عدوى من فاس بالامر من عند مولانا ابي الحسن رحمه الله مع جفان من جباب وقال للقائد احمل هذه الجباب (1) الى بر الاندلس، وجوز ما ببادس من التجار، فعند ذلك صدق التجار كلام الشيخ، وسافر التجار بعد أن جمعوا خمسة وعشرين دينارا من الذهب وتصدقوا بها على فقراء بادس شكرا لله على ما يسره عليهم من السفر فى الجفنين المذكورين .

بنو عبد الوادى بتلمسان يأسرون قائد بادس :

ونزل التجار المذكورون ببر الاندلس، وتوجه الجفنان المذكوران الى بلد العدو، ثم زفتهما الريح من بلاد العدو حتى بلغا الى ماوراء بجاية من بلاد المشرق، ورجع الجفنان من هنالك الى أن جاز على ساحل برشك وهو فى ذلك التاريخ لبنى عبد الوادى، فأخذ القائد على المذكور يتكلم مع بعض الناس فى ساحل برشك، فقالوا له اصبر حتى نأتوك بالضيافة فساقوا ثلاثة من البقر، وأروه انهم يسوقون له بعض المرافق فدفعه قدر

(1) الجباب بكسر الجيم جمع جبة وهى الدرع، ومن السنان ما دخل فيه الرمح .

الله تعالى لما أراد ان يظهر فيه من كرامة وليه سيدى أبى يعقوب فهبط في الفلوة الى البر على خلاف عادة القياد، ولم يهبط من الفلوة غيره فأخذه أولئك القوم الذين كانوا بالساحل وادخلوه الى البلد، ورجع ولده القائد حسن بالجفنين المذكورين ولم ينقص من الجفنين المذكورين أحد غيره، وكان عاقبة على أن سجنه بنو عبد الوادى حتى مات فى السجن، وذكر لى غير أبى عبد الله بن مغيث المذكور فى هذه الحكاية أن الشيخ سيدى أبى يعقوب حين عامله القائد على المذكور بتلك المعاملة الخسنة، قال للتجار يعلم الله ما تسافرون الا فى هذين الجفنين وتصلوا فى عافية ولا يخص منكم الا هو، وهو يشير للقائد على المذكور، فكان الامر كما قال الشيخ، فقد بلغ فى الحديث من أذى وليا من أولياء الله تعالى فقد حارب الله تعالى.

السفر فى البحر كان محفوفا بالآخطار :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث المذكور قال، كنت بمالقة بحانوت أمين قيساريته بن عبد الرزاق فاذا برجل من التجار جاء الى الحانوت، فأخذ التجار يستلونه كيف جرى لهم مع النصارى فى البحر حين جاؤوهم، فقال لهم التاجر المذكور أحدثكم بكرامة عظيمة من كرامة سيدى أبى يعقوب البادسى، فقالوا بالله حدثنا، فقال لهم كنا ببادس بجماعة من التجار فلان وفلان وعسر علينا الجواز ولا وجدنا مركبا نجوز فيه، قال فآكترينا قاربا بثمانين دينارا من الذهب، فلما عزمنا على السفر خفنا من الجواز فى القارب، ورغبنا منه الدعاء لنا، وقال لنا امشوا ولا تخافوا واذا رأيتم شيئا تخافون منه فلا يلهيكم ولا يخوفكم، قال فاشتد خوفنا من ذلك، وسافرنا وقطعنا البحر الى أن بلغنا قريبا من المنكب، فاذا (1) بقرقورة مسطعة للنصارى المغيرين تتبعنا، فأيقنا بالهلاك فلما قربت منا بحيث كنا نشاهد كل ما فيها ظهر لنا غراب وطريدة قاصدين إلينا من جهة المنكب، فازداد خوفنا، فلما وصل إلينا الغراب والطريدة فاذا هما من أجفان المسلمين، جاءا من المنكب يستخلصنا من تلك القرقورة فاعطونا الطريق وجوزنا حتى دخلنا المنكب، ونزلنا به سالمين فى عافية ببركة الشيخ رحمه الله تعالى ونفع به .

(1) لا توجد كلمة قرقورة لاحد المراكب فى مادة القرقورة ولعلها عامية.

اختلاف أبى يعقوب مع بعض الفقهاء في صلاة عيد الفطر:

وحدثنى الشيخ الفقيه أبو موسى عمران الزهلى، قال في عيد الفطر لم يكن ببإدس من ثبتت عنده رؤية الهلال فأصبح الشيخ سيدى أبو يعقوب اليوم المتم لثلاثين يوما من رمضان، وخرج بالناس الى المصلى وصلى بهم صلاة العيد، وأفطر وأفطر الناس، فانكر ذلك على الشيخ والفقراء أحد الفقهاء يقال له العباس السارورى، قال الشيخ أبو موسى عمران جئت من البادية ثانى يوم العيد برسم زيارة الشيخ والسلام عليه فوجدته في عرصة جالسا مستندا للحائط، فوقع الكلام على صلاة الشيخ ففطره وفطر الناس بفطره، أشاع العباس من الفطر والخروج الى المصلى قال الشيخ أبو موسى عمران فقلت للحاضرين الحق من جهة الفقه مع العباس المذكور، فانبرى لى الشيخ وقال تكذبنى، وقال لى يعلم الله لقد ادى به الشهود عندى من الطرابلس .

غزوة كبرى بالاندلس :

وحدثنى الشيخ الصالح المبارك أبو زكرياء الحاج يحيى الشاكى خديم الشيخ الصالح سيدى أبى يعقوب في حال وجهته الى الحجاز، قال دخلت يوما على الشيخ سيدى أبى يعقوب في بيته فوجدته قائما يصلى، وسيدتى الزهراء مستقبلة القبلة، فلما سلم الشيخ من حالته وسلمت عليه، قال الشيخ لسيدتى الزهراء، يا زهرة كانت اليوم في غرناطة غزوة عظيمة مثل الغزوة التى في فتوح الشام، فلما كان بعد أيام وصل الخبر الى بادس من الاندلس بالغزوة العظيمة، التى غزى المسلمون مرج غرناطة، وكانت الغزوة العظيمة في ذلك اليوم .

فتنة في بادس :

وذكر لى غير واحد أنه كانت فتنة ببإدس، ففر أهلها الى البادية، وبعضهم سكن بالبادية وأودعوا أمتعتهم بدار الشيخ سيدى أبى يعقوب، فكان الشيخ رحمه الله يصلى ويخرج في بعض الاحيان ويتفقد باب الدار والاسطاح، وهو يقول اللهم أحرسها من الضرر واجعلها في كتفك، قال الشيخ سيدى أبو يعقوب فما خرجت بعد ذلك اليوم ولا تفقدت واستأمنت من ودائع الناس .

تاخر نزول المطر :

وحدثنى أبو العباس بن المؤذن أنه كان جالسا فى جمع من أهل بادس فى الجامع بين يدى الشيخ سيدى أبى يعقوب وطالب يصحح عليه لوحه، وكان للمطر مدة كثيرة لم ينزل، وقلق الناس من ذلك قلقا شديدا، وإذا بالشيخ يقول بأن يجمعوا الليلة، قال له من حضر أى شىء فلت يابدى يجمع الليلة، فقال للطالب الذى كان يقرأ أقرأ، ولم يجبههم بشىء، وكان فى ذلك اليوم حر كثير وشمس عظيمة، فإذا بالارياح قد هبت وهبت من باب الجامع، حتى صلوا المغرب والعشاء مجموعتين كما قال الشيخ .

مقارنة بين الشيخين الحاج حسون وابى يعقوب :

وحدثنى جماعة أنهم سمعوا أن سيدى الشيخ الولى المرحوم أبا اسحاق سيدى الحاج حسون البقيوى لما حضرته الوفاة أغمى عليه من قبل صلاة العصر الى بعد صلاة العشاء الاخيرة، قال فلما أفاق قال له ولده سيدى الحاج محمد يأبى لا تنس ذكر الله تعالى، فقال له حشاه ان انساه، ثم قال له ان الله تعالى أعطانى الشفاعة فى عشرة آلاف، فاستردت فأعطيت الشفاعة فى عشرين ألفا، فاستردت فأعطيت الشفاعة فى ثلاثين ألفا، ففعل لى هذا مقامك عندنا، وان الله تعالى أعطى الشيخ أبا يعقوب الشفاعة فى خمسين ألفا، قيل لى فحكى ذلك للشيخ أبى يعقوب فقال نعم يعلم الله أما تعلمون ان المخلوق اذا خدمه الانسان يعطيه العطايا الجزيلة ويشفعه فى الجرائم العظيمة ويفعل معه الخيرات، فكيف بالخالق سبحانه وتعالى، يعلم الله ما أشفع الا فى جميع من رآنى أنظر اليه ولو مرة واحدة، قال مؤلف هذا، واجتمعت فى مسجد بادس مع سيدى ابراهيم ولد سيدى الحاج محمد المذكور، وسألته عن ذلك فقال لى هذه المسألة صحيحة، ولكنى كثير النسيان فاسأل عنها أخى أبا بكر فانه أثبت منى، ثم جاء أخوه أبو بكر الى بادس وسألته فى الجامع فقال لى نعم كذا سمعت من والدى، وزاد ان جده لما رأى ما أعطى الشيخ سأل المزيد ففعل له خذ ما أتيتك وكن من الشاكرين .

عدد نور بادس :

وذكر لى غير واحد أهل بادس أنهم سمعوا الشيخ أبى يعقوب غير ما مرة يقول يعلم الله الولى يشفع فى أربعين دارا أمامه وأربعين دارا وراءه وأربعين عن يمينه وأربعين عن يساره، وعدوا ديار بادس من كل الجهات فوجدوا أقل من الأربعين .

عمل الشيخ أبى يعقوب بيده فى الفلاحة :

وذكر لى بعض الطلبة أن والده دخل على الشيخ سيدى أبى يعقوب برؤوس الكرنب وأعطاها لى، قال فقلت فى نفسى هذه العرصة فيها الرباع وله الربع فى خضرها، فكيف يعطنى الشيخ هذه الرؤوس وفيها حظ الرباع قال فما أتممت ذلك حتى قال لى الشيخ يعلم الله هذه الاحواض التى أعطيتك منها الكرنب ما للرباع فيها شيء .

تجارة أهل بادس فى الخشب :

وحدثنى جماعة من أهل بادس أن رجلا يقال له الرايس على، وكان يبيع فى حانوت .بادس، وكان مع ذلك يتجر فى الخشب فضعف رأس ماله فى وقت، فأعطاه رجل من تجار الاندلس خمسة دنانير ذهباء، وقال له اشتراها خشبا نجد عندك ميسرا اذا رجعت من سفرى ان شاء الله تعالى، وسافر الرجل فى البحر الى الاندلس، قال الرايس على فأخذت اندنانير وكنت فى حاجة شديدة اليها، فتصرفت فيها حتى اشتري له بعد ذلك الخشب بغيرها مما يفتحه الله لى، قال فلما سافر الرجل قام عليه البحر فردته الرياح الى جهة الجبهة، وعطب هنالك ونجا برأسه، ورجع الى بادس، فبينما أنا جالس فاذا به قد دخل عريانا، فقال لى أعطنى الخمسة دنانير تشتري ما نلبس ونجهز منها على نفسى، فسقط بيدي، ولم أدر ما أجابه به، فوعده أن أسوقها له، وصرفته عن نفسى، وبقيت متفكرا فيما أصنع فخلق الله عندى ان مشيت الى سيدى أبى يعقوب فوجدته فى غرفة مع ناس، فجلست منتظرا انصرفهم، فحينئذ أكلمه، فلما انصرف الناس قام الشيخ فتبعته الى باب العرصة فلما هممت

أن أكلمه، قال لى أمش الى حانوتك، فتوقفت فقال لى مرة أخرى أمش لحانوتك قلت لك، فتعجبت وذلك بأنه ما جئته قط الا وتبسم لى ويرحب بى، قال فخرجت وانصرفت الى حانوتى، وجلست بها، وكان عندى فى حانوتى زمام لجلد كنت أكتب فيه بيعى وشرائى، فخلق الله عندى أن أخذ ذلك الزمام واتصفحه وانظره لعله بقى لى عند أحد شىء، فأطلبه، قال فأخذت الزمام وحللتها فلما فتحت وجدته فيه بين الكواغد خمسة دنانير ذهباً جديداً، فكنت أن يذهب عقلى من العجب مما أعطى الله أولياءه من الكرامات، فأخذتها وبادرت بها الرجل لأعطيه متاعه، وفرج الله عنى ما كنت أعانيه من أمر الرجل .

اشتغال النساء بالحياسة والصباغة :

وحدثنى رجل من أهل البادية يقال له يحيى بن عيسى اليسغفى، قال صنعت أمه كساء وعلقتها فى (1) النول، واحتاجت الى شىء من اللك تسبخ به أرجوان الكساء المذكور، ولم يكن عند ناشئ نشتري به اللك، قال فقالت لى أمى خذ هذا المقياس واذهب به الى بادل وأرهنه عند العطار فى اللك الذى نحتاج اليه حتى يتم نسج الكساء ونبيعه ونفسك به المقياس، قال فأخذت المقياس وجعلته فى شكارتى وجئت الى بادل، فدخلت الى دار الشيخ فلما سلم من صلاته سلمت عليه، فقال لى يا ولدى يعلم الله العطار لا يبيع اللك بالدين، أرفع طرف السجادة واحمل ذلك الذى تحتها أربعين درهماً جديداً، فأخذتها ومشيت للعطار فقلت له نحتاج من اللك كذا فكم هو، وقال لى أربعين درهماً، قال فقلت له عسى أن تحبس هذا المقياس فيها وتعطنى اللك، فقال لى ولدى اللك لا يباع بالدين وإنما يباع بالدنانير أو الدراهم، قال وقلت ذلك تصديقاً لكلام الشيخ، قال ثم أخرجت الدراهم وأعطيته لى وحملت اللك .

نارنج سبنة يجلب الى بادل :

حدثنى غير واحد عن أبى بكر الحياتى أنه مرض ولده مرضاً شديداً، وكان كثير المولات للشيخ والتصرف فى حوائجه، قال فاشتغلت

(1) خشبة الحايك التى ينسج عليها ويلف عليها الثوب .

بمرض ولدى وغبت عن الشيخ، قال فلما جئت اليه سألتني عن غيبتى فأخبرته بمرض ولدى، فكتب لى حرزا ونشرة فحملت ذلك للولد فوجد راحة، فاشتتهى نارنجة ولم يكن ذلك الوقت منه ببادس الا ما يجلب من سبته فطلبته فى بادس فلم نجدها، واشتد طلب الولد لها حتى قطعت. اندخول اليه، قال فقلت اذهب الى عرصة الشيخ سيدى ابى يعقوب اسمع العلم وأخبار الصالحين، لعل خاطرى يستريح من أمر الولد، فلما دخلت العرصة لم نجد فيها غير الشيخ وحده، وهو يتوضأ فأردت الرجوع فأشار على بالدخول فدخلت، فلما فرغ من وضوئه قال لى كيف حال ولدك، قال فقلت له ياسيدى حسن كان ولكنه طلب منى نارنجة ولم أجدها، فاذا بالشيخ قلم وادخل يده فى ربيع بازاء الحائط وأخرج منه نارنجة عظيمة جدا شديدة الحمرة حسنة الرائحة كأنها قطعت فى تلك الساعة، وأعطاه لى، وقال لى جعل الله راحتك فيها، قال فأخذها الولد فشمها وكانت سبب راحته، قال وبقيت عندنا أياما وفقدناها، وهذه حكاية مشهورة عند أهل بادس، حدثنى بها جماعة من أهل بادس .

اهتمام الشيخ أبى يعقوب باليتامى :

وحدثوا عن أبى بكر الحيانى المذكور أنه كان يتصرف للشيخ فى شراء ثوب الايتام، وشراء زرع لهم يعطى له الشيخ الدراهم ويشترى، فلما كان يوما وجد الشيخ خارجا عن العرصة الى د رة فتبعه، قال أبو بكر فقلت فى نفسى يارب، هذا الشيخ سيدى أبو يعقوب أى شىء دعاه لهذا الصداق الذى يشوش عليه، هذا اليتيم اشتر له ولهذا أفعل كذا، قال فاذا به رد رأسه وخرج، فقال كان سيدك أبو يعقوب قبل أن يعرفك ويعرف غيرك، ثم اعرض عنى وانصرف، قال فكدت أن أموت من مكاشفة سيدى أبى يعقوب وبهت، فاذا به رجع الى وقال يعلم الله تعالى أى شىء نعمل لهؤلاء الايتام قرابة سيدتك الزهراء أولاد أخيها، وأولاد أختها، وأولاد بنى عمها، ويقطع قلبى لا نقدر ما نعمل .

اجتماع اليتامى ونوى العاهات المزمنة فى داره بعيد الاضحى:

حدثنى عبد الله بن مغيث، قال جاءت لدار سيدى أبى يعقوب

ليلة عيد الاضحى بكر عمياء من قرابة السيدة الزهراء فأصبحت يوم العيد في الدار، فاجتمع أهل الدار ومن بها من الايتام والمساكين وشووا اللحم وأكلوا حتى شبعوا، وكانت البكر العمياء لقرب عهدها بالورود على الدار والانس بأهلها، أصابتها حشمة وحياء، ودخلت في بيت من بيوت الدار واختفت هنالك، والشيخ في هذا كله مشدود عليه بيته يصلي، فاذا بالشيخ قد خرج من بيته الى البيت الذي فيه البكر العمياء، وصار يقول هنا من لم يأكل، وكان في الدار قدرة بلجم حيناً جعلت على النار، فغرف منها بيده في أناء، وأخذ خبزاً وحمل اللحم والخبز الى البكر العمياء، وقال لها كلي، قالت فأكلت لحماً نضجاً فتعجبت من اطلاع الشيخ على حالها، وهو في بيته مشدود عليه، ومن نضج اللحم من غير طبخ .

احترام المرور في ملك الغير الا بحق :

وحدثني أبو عبد الله بن مغيث المذكور عن أبي بكر الحياتي المذكور، قال خرج الشيخ سيدي أبو يعقوب من عرصته وجاز في عرصة يعقوب بن يوجرتين المجاورة لها، قال وأنا وراء الشيخ، قال فلما وصلنا الى الوضع الذي جرى بيني وبينه ما جرى في الايتام، قال فقلت في نفسي كيف يجوز للشيخ أن يمر في عرصة الغير، فاذا به قد رجع الى منحرفاً كما كان صنع في مسألة الايتام، وقال لي يعلم الله حظ أمي في هذه العرصة، يشير لعرصة بن يوجرتين باق الى الآن ما بعته ولا قبضت ثمنه.

تحلية العروس يوم زفافها :

وحدثني أبو عبد الله بن مغيث المذكور قال، لما تزوجت صفية بنت أبي الحسن على بن الكماد وأخذ في زفافها، جعلت في يدها (1) غرفة من ذهب كانت من متاع أختها زوجة ابن عياذ، فلما أراد النساء الانصراف أخذت امرأة ممن حضر الغرفة المذكورة وجعلتها في حجرها ونسيتها، فلما قامت سقطت من حجرها وهي لم تشعر، فطلبت الغرفة فلم توجد وقامت قيامة عليها في الدار، فمشت امرأة كانت تخدم صاحبة الغرفة لدار الشيخ

(1) لا يوجد اسم للسوار أو الخاتم بهذا الاسم ولعلها كلمة عامية.

سیدی ابی یعقوب وقالت له یا سیدی امرأة ابن عیاذ ضاعت لها غرفة من الذهب من ید أختها العروسة فعسی أن تدعو الله یجبرها علیها فقال لها الشیخ سیدی أبو یعقوب تعطی فیها کذا للمساکین، وتجبر ان شاء الله تعالی وكان للشیخ عادة جاریة ما انخرقت قط، اذا مشى الیه أحد بتلف شیء وقال له یخلفه الله علیک، فلا یجبر أبدا، واذا قال له تصدق بکذا ویجبر فلا بد أن یجبره الله تعالی به، قال فانصرفت تلك المرأة الی صاحبة الغرفة وقالت لها، قال لك سیدی أبو یعقوب تعطی ربیعا کذا للفقراء وتجبر غرفتک، فقالت لها تعطی دینارا، ثم انصرفت فأخذت صاحبة الغرفة حرف دینار غیر ربع وساقته فی طرفها للشیخ، وقالت له یا سیدی تلك الصدقة سقتها، فقال لها وهو لم یعلم کم ساقته وقال من قال شیئا یوفیه، فبعث سیدی أبو یعقوب طالبا اسمه عیسی المصمودی كان یقرأ علیه، وكان رجلا صالحا، هو الان مدفون مع الشیخ فی روضته، قال فقال له الشیخ یا عیسی قل له لان یرد الغرفة التي عند زوجته، فقال له الشیخ أخرج من هنا وأول من تلقاه هو صاحبک، قال فخرج الرجل عیسی الطالب المذکور فلقى رجلا، فقال له یقول لك سیدی أبو یعقوب رد الغرفة التي عند زوجتک لصاحبها، قال فبعد ذلك جاء الرجل زوج المرأة، وقال یا سیدی ما قدرت فی تلك المرأة بشیء، فقال له الشیخ انظرها فی برسیل النخالة تجدها، قال فنظر فی برسیل النخالة فوجدھا فأخذھا وحملھا الی الجامع بعد صلاة العتمة، ورمى بها لعیسی الطالب ومن كان معه فی بیوت الجامع، فأخذھا وحملھا الی الشیخ سیدی ابی یعقوب، وحملھا لیلا لدار صاحبتها، ونقر الباب فوقف له زوج صاحبتها فأنشد، سیدی أبو یعقوب (ما عودنی أحبائی قاطعة، بل عودونی اذا قاطعتهم وصلوا) ودفع له الغرفة وانصرف، هذه الحکایة مشهورة ببإداس .

علاقة الزمة ببإداس :

سمعت من غیر واحد ببإداس یحدث أن رجلا من التجار جاء من الاندلس صحبة القائد یحیی الرتراجی، وكان التاجر المذکور صاحب متاع کثیر، وكانت معه شکارة فیها أثاث، حملة للناس من ثياب الخرز

وغيرها، فاشتغل بأحماله فسرقته له الشكارة، فجاء الى الشيخ سيدي أبي يعقوب فشكى له واستوهب منه الدعاء، فقال له الشيخ تعطى شيئا للمساكين ويجبرها الله عليك، فقال له ياسيدي عشرين ديناراً ذهباً، فقال له الشيخ سر في حفظ الله تعالى وآمل الله ان يجبرها عليك، وبعد يومين وصل رقاص من المزمة بكتاب واليها، يقول فيه وصل هنا رجل من الغزاة وبيده شكارة انكرناها عليه وسألناه عما فيها فتوقف، وثقفت الشكارة، فان كان هناك من ضاع له شيء فليأت، فتوجه الرجل التاجر الى المزمة واخرج زمامه وذكر منه جميع ما في الشكارة فصرفت عليه شكارته، ورجع الى الشيخ مقضى الحاجة، فأعطى العشرين ديناراً للمساكين، وحدثني غير واحد من أهل بادس أن الشيخ رحمه الله كان متى احتاج شيئاً من الدراهم قلت او كثرت يدخل يده في جيبه ويحركه ويقول سبحان الله، ويخرج دراهيم جديدة، أو يحل أحد كتبه فيجد فيه الدراهم، ورأيت خلقاً كثيراً لا يحصون رأوه يخرج الدراهم من جيبه ومن الكتاب، وأما أحفاده فحكوا لي أنه لم يزل بطول حياته يعطيهم من تلك الدراهم شيئاً كثيراً، وأنه كان يقول لهم افلوا ثيابي فيفلونها فيجدون في جيبه الدراهم بعد أن لم يكن فيها شيء .

من أسباب تشاجر الزوجين :

وحدثني أبو العباس احمد بن المؤذن، عن الطالب المعلم للكتاب العزيز أبي عبد الله محمد بن احمد، قال طلبت مني زوجتي أن أشتري لها (1) كنبوشاً، قال فاعتذرت لها ولم تقبل لي عذراً، ففتشاجرنا بسبب ذلك، وخرجت عنها وأنا مكروب، فمشيت الى الشيخ سيدي أبي يعقوب فجلست بين يديه، وإذا به أدخل يده في جيبه، وصار يحركه ولم يجد فيه شيئاً، وزاد في تحريكه ويقول سبحان الله سبحان الله فإذا به اسمع حركة الدراهم في جيبه، فاخرج لي أربعة وعشرين درهماً، وقال لي خذ اشتر بهذه للفقيرة متاعك كنبوشاً، فأخذتها وانصرفت وأنا أتعجب من قدرة الله عز وجل في اطلاع الشيخ على ما بيني وبين امرأتى، وفي اخراج

(1) الكنبوش هو خرقة من الكتان تشد به المرأة رأسها وهي لهجة محلية.

تلك الدراهم، وحدثني الشيخ أبو عبد الله بن مغيث وكان شديد الملازمة للشيخ والتصرف في حوائجه والنفقة له والدخول الى بيته والخروج منه، لكون السيدة الزهراء زوجة الشيخ سيدي أبي يعقوب خالته، قال كلما كان الشيخ يحتاج لنفقة داره يقول لى يا محمد امش للطاق، ونمشى للطاقة ونرفع الكتب فنجد الدراهم تحتها، قال وسمعت الشيخ يقول الله اعلم كلما نحتاج لنفقتى نجده تحت الكتاب فى الطاقة، قال عبد الله بن مغيث ما زلت طول السنين أخرجها بيدي ؟

الشيخ عيسى بن عبد الكريم صاحب زاوية سيدي عيسى

قال مؤلف هذا، ان لبنى ورياغل رجلا منا من أولياء الله تعالى، اسمه عيسى بن عبد الكريم، وانه من جماعة الشيخ ابي ابراهيم الاعرج، وان له أسلافا صالحين أولياء، فتشوفت الى رؤيته كثيرا الى أن يسر الله على، فمشيت الى موضعه واجتمعت معه وبت فى بيته وأكلت طعامه، ورأيت له بركة عظيمة، وهو رجل أمدى لكنه يحفظ من مسائل الفقه ما يحتاج اليه فى دينه من العبادات والمعاملات شيئا كثيرا، ويتكلم فى دقائقه كلاما تعجبت منه تعجبا عظيما، فكنتم اتحدث معه فى كرامة الصالحين، الى أن تكلمنا على الشيخ سيدي أبي يعقوب نفعا الله به، فقال سيدي عيسى بن عبد الكريم نعرفكم بما رأيت من كرامات سيدي أبي يعقوب نفعا الله به، فقلت له يا سيدي بالله عرفنا، قال نعم جاء العيد الكبير وكانت عندي غنم بالجبل، فمشيت اليها واخترت منها كبشا سميئا، وسقته لاضى وكان رجل جاء معى فى أثناء الطريق بدابته، فحملة لى وقال فلما بلغنا الى مفترق الطريق وضع لى الكبش عن الدابة وانصرف فبقيت أجره وهو يتصعب على، الى أن قربت الشعبة وأنا قد عييت، والكبش قد عيا ورقد فى الارض، ولم يقدر على الوقوف، وأنا فى غابة ذات سباع كثيرة، ولم أقدر أن أنجو بنفسى وأترك الكبش، ولا أن أجلس معه فتأكلنى السباع، وحارت مذاهبي، قال فقلت اللهم ان كان للشيخ سيدي أبي يعقوب عندك مقام وهو مقبول عندك فاجعل لى من أمرى هذا فرجا ومخرجا، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، قال فما أتممت الدعاء الا والكبش قد نفخ وانتفض انتفاضتين وجرى أمامى فصرت أجرى وراءه حتى دخل فى بيتى، فانطرح فى الارض مما جريت وراءه .

فكر رؤية الشيخ رضى الله عنه للخضر عليه السلام :

وقد تقدم في صدر الكتاب ذكر رؤية الشيخ رضى الله عنه للخضر عليه السلام على البئر تحت الرابطة، حين بعثه مربيه سيدى أبو يحيى الشامى برسم استسقاء الماء، وتلك أول رؤية كان له رحمه الله، حدثنى أبو عبد الله بن مغيث قال سمعت الشيخ سيدى أبى يعقوب يقول أول رؤية رأيت الذخر عليه السلام الرؤية التى رأيتها على البئر .

الفقيه القاضى أبو البركات الاندلسى :

وحدثنى أبو العباس أحمد بن المؤذن، قال كنت جالسا مع الشيخ سيدى أبى يعقوب رضى الله عنه ونفعنا به فى عرصته، وكان معنا فى المجلس الفقيه القاضى أبو البركات البرفيقى الاندلسى، فقال لى الفقيه أبو البركات يا فقيه أبا جعفر عسى أن تنتظر لى مويهة حلوة أشربها، فقال لى الشيخ سيدى أبو يعقوب ولاى شىء لا يشرب من تلك السانية فمشى الى سانية عرصته، فقال له الفقيه أبو البركات يا سيدى ماؤها شلوق، فقال له الشيخ سيدى أبو يعقوب يعلم الله يا سيدى لا تشرب ولا تتوضأ مدة بقائك ببادس الا منها، وكذلك فعل حتى انصرف من بادس،

الشيخ الصالح أبو الحسن على :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث عن والده الشيخ الصالح أبى الحسن على خديم الشيخ سيدى أبى يعقوب، قال كان والدى رحمه الله فى المسجد انجام من بادس جالسا مع سارية من سوارى المسجد والشيخ سيدى أبو يعقوب جالس مع الحائط يتحدث مع رجل رأيت ولم اتحقق صفته، فبعد ذلك بمدة فاذا بالرجل قد انصرف وجاء الشيخ سيدى أبو يعقوب وحده الى جهة السارية التى كنت معها، فقال لى وهو يبتسم يا على رأيت الرجل الذى كان يتحدث معى، قال فقلت له لا يا سيدى الا أنى علمت أنك تتحدث مع شخص فقال لى ذلك الشخص هو الخضر عليه السلام، قال فارتعدت برأسى، وسلبت عن عقلى اسفا على ما فاتنى من رؤيته والتبرك به، وبقيت ثلاثة أيام هائما متحيرا لم أكل ولم أشرب، قال وكانت عادتى مع الشيخ اذا خرج الشيخ من المسجد بعد صلاة العتمة ان أصل معه حتى يدخل داره، قال فلما كان بعد ثلاثة أيام المذكورة دخل الشيخ

الى داره بعد صلاة العتمة وأردت الانصراف، فقال لى يا على هنا تبيت الليلة عندي، قال فدخل ودخلت معه فأخرج زوجته الى البيت الآخر، وبت أنا والشيخ فى البيت، فقام الشيخ يصلى وقمت أنا أصلى فى الجهة الاخرى من البيت، فصليت ما شاء الله، ثم أصابنى كسل عن الصلاة، فلم أقم أصلى، فجلست جالسا ثم اضطجعت فنمت، فاذا أنا فى النوم فى عرسه الشيخ سيدى أبى يعقوب والشيخ عند الصهريج أمام الساقية ومعه فقير على زى الاعاجم، ويده فى يد الشيخ، والشيخ يقول لى يا على هذا هو انفقير الخضر عليه السلام، قال فقبلت يده وتبركت به ثم افقت، فاذا بالشيخ قد تنحج وقال لى يا على رأيته، قال فقلت له يا سيدى نعم رأيته؟

الشيخ أبو يعقوب فى جامع عمرو بن العاص :

وحدثنى أبو عبد الله مغيث عن الشيخ أبى يعقوب قال كنت فى جامع عمرو بن العاص أنا والخضر عليه السلام نتحدث، فاذا بوالدك يعنى على بن مغيث جاء وجلس الينا وقبل يدي الخضر عليه السلام، وصار يقول له يا سيدى ادع لنا أن يجمعنا مع أولادنا، قال الشيخ سيدى أبو يعقوب فكان الخضر يدعو له بلسان الاعاجم ما فهمت ما يقول له فى دعائه وحدثنى أبو عبد الله المذكور، قال سمعت سيدى أبا يعقوب يقول، اجتمعت مع الخضر عليه السلام فى جامع عمرو بن العاص ثلاث مرات، قال مؤلف هذا الكتاب غفر الله له، رأيت فى كتاب مناقب الاولياء لسيدى أبى الحسن انمر اكشى رحمه الله ونفع به، قال على بن محمد خرجت يوما من مصر أريد الميمون لزيارة رجل مخفى على الناس لا يعرفه الا رجال معلومون، وما يمكن لى أن أذكر اسمه، فبينما أنا على شاطئ النيل ماشيا اذ انا بالرجل عليه حلة العجم، وعليه مرقعة ويده أبريق فسلم علينا مبادرا، فرددت عليه السلام، واثر البشاشة على وجهه، وكان وقت صلاة الظهر فقال أم بنا نصلى الفريضة، فقلت له نعم وكنت على وضوء، ثم قلت له صل بنا قال نعم فأخبرنى عن يمينه ثم قال لى تأخر قليلا فان هذه هى السنة فى صلاة الاثنين، فصلينا فكان يطيل السجود والركوع، وما طليت صلاة اتقن منها، وكنت أسمع خلفنا ونحن نصلى، فنظر الى وضحك حتى انظر الى ثناياه، وقال لى يا على أما تعلم

ان ملائكة هذا الموضع صلوا معنا، فتعجبت منه الذى عرف اسمى من غير أن أعرفه، وعلمت أنه من الاولياء بلا شك ثم قال لى لو أدركت يقينا فى علم التوحيد لرأيت الملائكة بعينك وكنت أظن بنفسى أنى على شىء فقلت له يا سيدى علمنى مما علمك الله، قال نعم فقال لى أذكر ما علمت فذكرت له شيئا فضحك منى، وقال لى يا على لو أعطيت من علم التوحيد ذرة لحملت السماء على جفن عينك ثم قال لى لا يقع نظرك فى عالم مشاهدتك وغيبتك الا على الله لانه ما فى الوجود غيره، فنظرت فلم أر أحدا فغشى على ساعة، ثم قمت فمشيت حتى وصلت الميمون، فحدثت بذلك السيد الذى جئت لزيارته، فقال لى هو الخضر عليه السلام، فبهت فى وجهه، فقال لى أى شىء يبهتك ما جاءنى رجل قط حتى يلقاه صلى الله عليه وسلم، ومن عندى خرج أمس فبقيت متحيرا حيث لم أسأله أكثر مما سألته فعلم ذلك السيد منى فأقعدنى عنده ثلاثة أيام، ثم أردت أن أودعه وانصرف، فقال لى أقعد الساعة حتى ياتيك صاحبك الاعجمى، الذى هو الخضر عليه السلام، فسررت لعلمى بصدق السيد، فقعدت اليوم الرابع حتى الى وقت صلاة الظهر، فاذا بباب السيد قد قرع فقال لى قم فافتح، فقممت الى الباب ففتحته فاذا أنا بالرجل العجمى الذى صليت معه وأنا متأسف على ما فاتنى من سؤاله عن شىء انتفع به فلم تظهر منى بشاشة من شدة الفرح، فدخل الى بيت السيد فصلى بنا الظهر، ولم أر السيد قرب اليه طعاما ولا شرابا بخلاف عادته مع من يرد عليه من الاولياء، ثم تكلم السيد مع بسلام ما كنت أفهم منه الا بعض الكلمات، وأنا ساكت لا أستطيع خطابا ولارد جواب، فلما فرغ أخذ فى الدعاء فلم أعلم منه الا ثلاث كلمات: الكلمة الاولى يا حى يا قى يا من لا يفوته شىء، والثانية يا من أحاط بكل شىء علما، وقهر عباده بالموت والفناء، والثالثة يا من تقدست أسماؤه ولا يخصيها غيره، ثم قال لى السيد الولى قم الى موضعك الذى أتيت منه فبكيت بكاء شديدا حتى كادت روحى تزهق فجبر العجمى قلبى، وقال لى نجتمع يوم الجمعة بمصر فى الجامع، فقلت له ما أعرفك أين أجدك فقال تجددنى فى مسجد عمرو بن العاص، فحينئذ طابت نفسى، ثم ودعت

السيد والرجل الاعجمي، وصرت الى مصر، فنظرت اليه فعرفته وما وجدت معه أحدا، فصليت ركعتين وسلمت عليه، فأخذ بيدي واقعدني على يمينه، فسألني عن حالي فأخبرته فبقيت بمصر ستة اشهر، اجتمعت معه فيها ثلاث مرات في ثلاث جمع وهو لا يجالس فيها أحدا، فوقع في نفسي ان الناس محجوبون عن رؤيته، فعلمني فيها ثلاث علوم، وأوصاني الا أعلمها لاحد الا عند موتي، فقلت له أعلمها لاحب الناس الي، قال ما تستطيع ذلك ما يعلمها الا من قسم الله له بها، فلم يزدني أكثر من ذلك ثم أمرني بالمشي الى بيت المقدس، فمسييت بأذنه، وما رأيته بعد ذلك، فعلمت أن ما كان قسم لي الا ما علمي ،

القاضي المفتي الشريف أبو عبد النور العمراني بباس :

حدثني أبو العباس بن المؤذن، وأبو عبد الله بن مغيث وغيرهما وأهل بادر، وكنت سمعت هذه الحكاية لآكن لم أتحقق هل هي على النسق من الشيخ الفقيه المفتي الشريف القاضي ابي عبد النور بن محمد العمراني بمدينة بادر يحكيها عن الشيخ أبي يعقوب والذي سمعته من المذكورين ببادر ان الشيخ سيدي أبا يعقوب .

الشيخ الصالح المؤذن بباس وتعبير الرؤيا :

حدث أنه كان يرى الرؤيا فيحتاج فيها الى تأويل، والى نظر في الكتب، قال فقال لي المؤذن الصالح الموقت عيسى بن عمر اذا رأيت الرؤيا فانظر اليوم أو الليلة التي تراها فيه، واحسب كم يوم مضى من الشهر وعد على عدد الايام من سور القرآن من أول الفاتحة، وتلك السورة التي توافق في العدد اليوم الذي رأيت فيه الرؤيا، تعد من أولها من الايات على عدد السور التي عدت أيضا، ففي الآية الموافقة لليوم الذي رأيت فيه الرؤيا، الى أن جاءني أبو العباس احمد بن يوسف بن اسماعيل وقص على رؤيا رآها، ففسرتها بالوجه المتقدم، وقلت له اذا أنت رأيت رؤيا ففسرها على وجه كذا وكذا، وعلمته التفسير المتقدم، فلما كان بعد ذلك وأردت أن أفسرها بذلك التفسير نسيته، فأردت أن أتذكره من عند الشيخ المؤذن أبي مهدي عيسى المذكور، فقلت له ذلك التفسير الذي علمتني أذكره لي وانى نسيته، قال فقال لي والله ما علمتك شيئا قط ولا ذكرته

لك ولا عندى منه علم، فانصرفت عنه وعلمت أن الذى كان علمنى ذلك هو الخضر عليه السلام، قال مؤلف هذا، مازلت أفسر الرؤيا على هذا الوجه فلا يظهر لى شىء فيها، فعلمت أن فى هذا التفسير سرا لم يطلع عليه الا الشيخ سيدى أبو يعقوب وأمثاله، ولم يظهر ذلك السر لى ولا لأمثالى، مثل أن يكون فى باطن تلك الآية التى تعبر بها الرؤيا ما يطلع عليه الا أولياء الله تعالى ولا يطلع عليها غيرهم، وقد تقدم فى الحكاية فى صدر الكتاب عن سيدى عبد الله المغراوى أنه كان يقرأ فى اللوح الواحد من القرآن خمسة أشهر وستة أشهر فى كل نفذه ينفذه يرقى الى مقام المعرفة، وقد قال سيدنا ومولانا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه للقرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع والله أعلم .

الخطيب أبو الحسن :

حدثنى حفيده الخطيب أبو الحسن أنه سمع من الشيخ سيدى أبى يعقوب أنه قال يعلم الله ليس كل واحد يعبر الرؤيا على هذا الوجه، وانه قال عن الرجل الذى علمه ذلك انه الخضر قال وكان سبب قول الشيخ فى ذلك انى رأيت رؤيا فأخذت فى تعبيرها على الوجه المذكور، فاذا بالشيخ يصيح من بيته يا على فجئته ودخلت الى بيته، وقال لى يعلم الله ما أحد يعبر الرؤيا على ذلك الوجه .

نكر رحلة الشيخ سيدى أبى يعقوب رضى الله عنه الى المشرق :

حدثنى أبو عبد الله بن مغيث قال سافر الشيخ سيدى أبو يعقوب الى الحجاز فى شهر الله محرم من خمسة وسبعمائة وكان خروجه فى يوم السبت ولما كان الجمعة الذى سافر فيه جاء من البادية الى بادس خلق كثير من الطلبة والفقراء والصلحاء برسم رؤية الشيخ والسلام عليه، فصلوا معه الجمعة، وخرج الشيخ للمقابر برسم الزيارة على عادته، فخرج وراءه أولئك القوم الى مقبرة من المطلى، فوقف ثمة وجازوا عليه، وأخذوا فى البكاء على فراقه ورغبوا منه القعود، فقال لهم يعلم الله ما مشيت الا مأمورا رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر رضى الله عنهما وذكر كلاما لم أثبت عليه الآن لبعد ذلك التاريخ قال مؤلف هذا كان :

الفقيه أبو عبد الله الرهونى بباس :

حدثنى بمدينة بادس صاحبنا الفقيه أبو عبد الله الرهونى، حين رجع من زيارة الشيخ سيدى أبى يعقوب رحمه الله قال، قال له الشيخ سيدى أبو يعقوب كان سبب حجتى انى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وابا بكر وعمر وقبل دخوله فى ركن المحراب الجامع قمت فسلمت عليه، وأقبلت على النبى صلى الله عليه وسلم وقلت له ما جاء بك يا حبيبى يا رسول الله، فقال لى يا يوسف جئت لزيارتك، قال فقلت له أنا أحق بذلك ثم أخذت فى السفر .

خروج الشيخ أبى يعقوب للحج :

وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث قال خرج سيدى أبو يعقوب من بادس يوم سفره الى الحجاز وخرج معه أصحابه الذين سافروا معه، وخرج لوداعهم طائفة من أهل بادس فباتوا تلك الليلة بموضع يقال له ازمورا عند رجل صالح يقال له عيسى بن المعلم، وكان غزير الدمعة، ما يسمع شيئاً من تلاوة القرآن او الموعدة الا ويبكى بكاء شديداً، قال فانزل الشيخ فى بيت وحده، وانزل من عداه من الواردين معه فى موضع آخر وصنع لهم طعاماً وأكرمهم غاية، قال فأخذ الشيخ فى الصلاة والدعاء فلم يزل يدعو حتى دخلنى عجب فى ذلك، فاذا أنا أسمع قائلاً يقول لى من ركن البيت الذى كنت فيه يا يوسف أدع الفضل عميم والرحمة واسعة، قال مؤلف هذا، قد كنت قبل أن أقف على هذه الحكاية أدعو فى الصلاة وعند زيارة قبور الاولياء لنفسى ولأمير المؤمنين وولادة أمرهم ولجميع قرابتي وأهلئى ولجميع أهل بلدى ولجميع المسلمين، ولم يخطر ب خاطرئى أن أقول لنفسى يائيتها العاصية المستمرة على ما أنت عليه من أنت حتى تدعو هذا الدعاء ليت العجل يهضم نفسه ثم خطر ب خاطرئى مرة اخرى ان قلت من جاء الى ملك كبير من ملوك الدنيا فطلب منه قيراطاً أو خرساً أو شيئاً يسيراً من متاع الدنيا فقد أساء الادب عليه، ولم يقدره قدره، فكيف يستطيع أن يسأل من ملك يوم الدين جل جلاله وتقدسست أسماؤه، أى شئ كان فاستمرت حالتى على ذلك الدعاء والحمد لله الى أن رأيت هذه

المسألة. التي جرت للشيخ سيدي أبي يعقوب ففرحت وزدت الدعاء
والحمد لله .

سفره عن طريق الجزائر :

قال مؤلف هذا لما وصل الشيخ سيدي أبو يعقوب الى الموضع
الذي بات فيه ورجع المودعون له، سافر هو واولئك القوم الذين خرجوا
معه من بادس برسم الحج، وكانوا أناسا قليلين فبلغهم الخبر في (1) كرت
ان الركب قد رحل من تلمسان منذ أيام، فخاف من كان مع الشيخ
فبينما هم كذلك يتحدثون في أمر الركب اذا برجل عليه زى الطلبة قد
وقف الى الشيخ، وقال له لعلك تغيرت من فوات الركب، لا تخف، ولا يكن
نظرك الا الى مكة، فانها في قبضتك قال ثم صار الرجل اذا رحل الشيخ
ومن معه يتقدم أمامهم، فاذا نزلوا يغيب عنهم، فما زال معهم كذلك حتى
لحقوا الركب في جهة بجاية، وذكر لى عن الشيخ أنه كان يقول أنه الخصر
عليه السلام، حدثني الشيخ أبو زكرياء يحيى الشاكري خديم الشيخ
سيدي أبي يعقوب في طريق الحجاز قال ما ترك الشيخ سيدي أبو يعقوب
شيئا من أوراده كلها لا صلاة ولا صوما ولا قراءة القرآن ولا شيئا مما
كان يفعله وهو مقيم، قال الحاج الصالح أبو زكرياء يحيى المذكور وما
نزل في بلدة ولا قرية ولا مفازة لا يكون فيها عمران، الا ويبعث الله تعالى
له رجالا صالحين يتبركون به ويضيفونه ويسعون في قضاء حوائجهم،
وأما هو فما كان يحتاج لاحد في شىء غير الماء والمأوى، ولم يزل كذلك
ماشيا وجائيا، قال الحاج يحيى المذكور لم أزل في برقة ولا في طريق
الحجاز ومكة والمدينة أحمل ركوة الشيخ في يدي، وأسير معه ومهمي
احتاج الى الوضوء ينزل عن ظهر البعير ويتوضأ، واذا سألتني أحد أن
يشرب من الركوة أعطيته يشرب منها، لكون الشيخ أمرني بذلك،
وما فقدت الماء من تلك الركوة قط، قال مؤلف هذا، رأيت في كتاب مناقب
الاولياء لسيدي ابي الحسن المراكشي قال سرت يوما الى سياحة فتبعني
شاب اسمه يوسف، وكان يواصل خمسة عشر يوما فلما رأيته قلت له

(1) وادي كرت بقبائل الناضور .

أرجع الى الفقراء خير لك، فلم يفعل فرغبتى وبكى فتركته، وكنت أريد أن أصل الى أسوان الى رجل يعرف بعبد الله الهرغى فمشى معى الشاب ومعه الابريق، وكنت أردت أن أمشى على الاقصو، فسرقتنا طريق صغيرة فتهدنا فى صحراء، ومشينا النهار كله فيها وبتنا الليل ثم أصبحنا، ونحن نصلى بالتيمم، ثم مشينا الى وقت الزوال، فقعنا الى الارض واشتد علينا الحر، وحميت علينا الشمس، والابريق بيد الشاب، وأنا أقول يا يوسف أصابنى العطش، فقال لى ياسيدى أقعد مكانك، فتوارى عنى وراء تل رمل فأتانى والابريق مملوء بماء، فنظرت إليه ونظرت الى الابريق فكان العطش لم يصبنى من شدة ما وجدت من الشاب فقلت له والله لا شربت من هذا الابريق شيئاً حتى تعرفنى من أين هذا الماء، الذى جئت به فى الابريق، فقال لى ياسيدى انى أعرف فى هذا الموضع مكان الماء فقلت له يا ولدى لنا يومان تأتاهان فى هذه الصحراء، وما عرفت الطريق فكيف تعرف موضع الماء، ثم قال ياسيدى أقول لك الصدق لولا انى اعتقد فيك ما عرفتك بحديثى، كما لم أعرفه أحداً غيرك، فقلت له عرفنى، قال نعم يا سيدى هذا الابريق له عندى خمس سنين، وأنت تعلم انى متجلد على الوصال، فاذا أردت أن أدخل الى الصحراء برسم الحج، آخذ هذا الابريق معى، فاذا أصابنى العطش أدخلت تختى فاسمع الماء ينزل فيه باذننى، ولا أعلم من حيث هو فاشرب وأتوضأ وبه أقوى على الصحراء، قال فقلت له ان كان قولك حقاً فاهرق الماء الذى فى الابريق، واجعل ما ذكرت، فهرق الماء من الابريق حتى لم يبق فيه شئ، ثم قام واقفاً وأدخله تحته ثم قرب منى وقال اسمع باذنك الى الابريق، فجعلت أذننى عند عنقه فبالله الذى لا اله الا هو لقد كنت اسمع نزول الماء الى الابريق كأنه ينصب من ميزاب، ثم أخرجه من تحته مملوءاً بالماء، فقلت أشهد أن الله على كل شئ قدير، وان الله قد أحاط بكل شئ علماً وانه فعال لما يريد، فتناولت الابريق من يده وقلت له يا ولدى يا يوسف ومن هذا الماء ينبغى أن يشرب لقربه من الكون، فشربته ماء أحلى من كل ماء وأبرد من الثلج، حتى رويت ثمناولته أن يشرب فامتنع، ثم قال لى توضأ فتوضأت وتوضأ منه وصلينا الظهر، ثم قعدنا فى الموضع حتى صلينا العصر، ثم مشينا الى

المغرب فبيتنا تلك الليلة ونحن لا نعلم حيث نحن، فلما أصبحنا صلينا الصبح ثم مشينا مع البحر فرأينا النخيل فلما قربنا منها عرفنا البلد وإذا الاقصو، فبيتنا تلك الليلة عند الشيخ أبى الحجاج الاقصوري، ثم مشينا الى أسوان، وكان قريب العيد الكبير، ففقدنا عند الشيخ أبى محمد الهرغى، وعيدنا عنده العيد الكبير، ثم أراد الشاب أن يمشى، فتركت سبيله وهو الآن بمكة، ويبعث لى بالسلام مع كل من يعرفنى، فخرج الشاب يوسف معى لتصرفه نفع الله بهم أجمعين .

الشيخ أبو يعقوب فى الحجاز :

وحدثنى الشيخ أبو زكريا يحيى الشاكى أن الشيخ سيدى أبا يعقوب لم يفطر مدة غيبته فى الحجاز غير أيام الاعياد ويوم بين مكة والمدينة كان أصاب الناس فيه حر شديد ومات من الناس ألفان أو ما ينيق، فأفطر الشيخ فى اليوم .

زيارته لقبر اللخمى بمصر :

وحدثنى الحاج أبو زكريا المذكور أن الشيخ سيدى أبا يعقوب مر بقبر الشيخ سيدى أبى الحسن اللخمى مؤلف التبصرة، وأنه شك هل هو قبره أم لا، قال فقال اللهم أن كان هذا هو قبر الشيخ أبى الحسن حقا فاطعمنا ببركته اليوم تمرا قال فلما كان بين العشاءين جاء رجل الى قيطون الشيخ بطبق من تمر، وقال لى هذا التمر أريد أن يأكل منه هذا الرجل الصالح، فأخذته وادخلته للشيخ، وحدثنى الشيخ أبو عبد الله بن مغيث قال سمعت سيدى أبا يعقوب يقول كنت فى جامع عمرو بن العاص قرب رمضان، فاذا برجل جاءنى فقال لى أريد أن أقرأ عليك القرآن، قال فقلت له لا أجد لذلك حتى ينصرم شهر رمضان، قال فلما انصرم شهر رمضان جاء الرجل المذكور فأخذ يقرأ على بالسبع والشاذ، ويتكلم فى الآيات بتفسير، ما سمعته ولا عرفته قط، قال فقلت له يا أخى أنت جئت لتقرأ على وتستفيد منى، فاذا بى أستفيد منك، قال فقال لى انما قصدت البركة فقط، قال فلما جاء الى سورة الانعام قلت له يروى أن هذه السورة نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم مرة واحدة، ونزل من الملائكة ستمائة ألف، وان فيها اسم الله العظيم

الاعظم، قال فقال لي اذا جئت الى قوله تعالى لن نومن لك حتى نوتى مثل ما أوتى رسل الله، والله يعلم حيث يجعل رسالاته، ثم تدعو فان انداء يجاب عند ذلك، قال فلما رآنى استعظم عليه واتعجب منه غاب عني، وسمعت غير أبى عبد الله ابن مغيث المذكور يقول أن ذلك الرجل كان الخضر عليه السلام، وحدثني الحاج الصالح الشيخ أبو زكرياء الشاكري خديم الشيخ سيدى أبى يعقوب، قال اجتمع الشيخ سيدى أبو يعقوب في مصر برجل من أولياء الله الكبار كان حمالا يحمل الخبز في قفص حديد، وكان يعطى للشيخ سيدى أبى يعقوب رغيفتين في كل يوم، قال الحاج يحيى طال ما أكلت من ذلك الخبز، وكان امام جامع عمرو بن العاص رجلا صالحا، وكان يجتمع مع سيدى أبى يعقوب ويتبرك به ويرغب منه أن يجمعه مع الحمال، فلما كان ذات يوم اجتمع الحمال مع سيدى أبى يعقوب في مسجد عمرو بن العاص وكان يتحدث معه فاذا بالشيخ سيدى أبى يعقوب رد رأسه لينظر الى الامام المذكور ليجمعه مع الحمال، قال فغاب الحمال عنه، قال فلما كان بعد ذلك اجتمع الحمال مع الشيخ سيدى أبى يعقوب فعتب (أى الحمال) عليه ذلك، وقال له لاي شىء تدل على، فقال له الشيخ انما دلت عليك رجلا صالحا، فقال له اياك أن تعود لمثلها؟

سفره الى ابن غازى بليبيا ورجوعه للحجة الثانية :

قال الحاج يحيى لما حج الشيخ سيدى أبو يعقوب الحجة الاولى ورجع الى مصر واجتمع مع الحمال، قال الحمال لأبى يعقوب أى شىء تريد أن تعمل، قال له الشيخ أريد أن أرجع الى المغرب، فقال له الحمال حتى تحج حجة ثانية، ولا بد لك من ذلك ان شاء الله تعالى، قال فغلب على الشيخ الذين جاؤوا معه من المغرب، فرحل الى جهة المغرب فلما بلغ انشيوخ الى اسكندرية طلع في البحر في مركب، وطلعنا معه يقول الحاج يحيى، فسرنا حتى اذا بلغنا الى موضع يقال له مرسى ابن الغازى من مرسى برقة، عطب المركب الذى كنا فيه وسلمنا الله تعالى، وخرجنا في الساحل، فوجدنا مركبا قد فرغ الزرع في المرسى المذكورة، وهو يريد السفر الى طرابلس، فأطلعنا فيه مغربى فلما رفع القلاع وقف المركب،

ولم يمش، فقال الشيخ هبطونى هبطونى، فهبط وهبطنا معه فقال خاطر الحمال فعل فينا تعالوا نرجع فرجع ورجعنا معه من برقة الى مصر في البر مسافرين في الحين، فلما اجتمع الشيخ مع الحمال في مصر قال له يايعقوب لا بد لك من حجة ثانية، فقال له الشيخ نعم ورجع حتى حج حجة ثانية، فلما رجع من الحجة الثانية واجتمع بالحمال قال له يا يعقوب الآن ترجع الى المغرب، فرجع الشيخ الى المغرب، قال مؤلف هذا، قلت للحاج يحيى أرأيت أنت الحمال، فقال لى لا، كأنى يوما جلست في جامع عمرو بن لاعاص وعلى ثياب خلق جدا ممزق فاذا برجل وقف عند رأسى، فلم أره لكونى كنت جالسا، وهو قائم وحجبه الله عنى، فالقى الى قميصا وسروالا وعمامة، قال فلبست الثياب وانصرفت الى الشيخ سيدي أبى يعقوب، فلما رأنى قال لى بالصحة، هل تعرف من أين هذه الثياب، قلت له لا ياسيدي فقال لى أنا نعرف من أين هى، قلت فعلمت أنها من عند الحمال .

ترحمه على أخيه أبى العباس احمد المدفون بمكة :

وحدثنى الحاج أبو زكرياء يحيى المذكور، قال فلما دخلنا مكة كان الشيخ سيدي أبو يعقوب يطوف الليل كله وما رأيته نام فيها ليلا أصلا، وكان الخروج الى مقابر باب المعلا يترحم على من هناك ويزور المقابر، فدخلت عليه يوما فوجدته جالسا في الحرم، فقال لى يا يحيى ترجمت اليوم على احمد، وقرأت عليه ودعوت له، قال فقلت له ياسيدي ومن أين عرفته قال فقال له هو اعلمنى بنفسه، قال لى يا أخى يا يوسف جميع ما فى هذه المقابر ينتفع بك، وأريد أن تخصنى من بينهم بشىء، قال فقلت له ياسيدي فى النوم رأيته، قال فقال لى لا فى اليقظة مثل ما أنا أكلمك وتكلمنى، وكان حكى لى أن الشيخ سيدي أبو يعقوب كان له أخ سيد فاضل، وكان أصغر من الشيخ وكان سلم للشيخ أبى يعقوب فى جميع ميراثه فى أبيه اعانة للشيخ على ما كان بسببه من العبادة فانفرد الشيخ بميراث أبويه كله اذ لم يشاركه فيه غير أخيه المذكور وحدثنى أبو عبد الله بن مغيث المذكور قال كان سيدي الحاج أبو العباس أخ سيدي أبى يعقوب رجلا خياطا وكان زاهدا فى الدنيا تاركا لها، وكان له

طرق الى الحج، وحج اثنتى عشرة حجة، وكان له صوت حسن وتطوف لطيف، وكان يسكن ستة أشهر بمكة وستة أشهر فى المدينة، واتفق له بالمدينة ان كان فى بعض نخلها وهو ينشد قصيدة :

دموعى على واد العقيق عتيق ولى زفرة تعدو بها وتتوق
فلما جاء فى القصيدة الى قولها :

نعتونى فقالوا هاك محمدا وهاك أبا حفص وهاك عتيق
قال سمعه شاب رافضى من حائط هناك فخرج اليه مغاضبا ولطمه لطمه عظيمة، وقال له يابن الفاعلة أنت رأيت أبا بكر وأبا حفص معه ، يعنى مع النبى صلى الله عليه وسلم قال فجلس سيدى أبو العباس الى الارض مكتثرا مما فعل به الرافضى مستغفرا الله من ذنبه، فان الصوفية قالوا من جنى عليه فليستغفر الله، قال فخرج اليه رجل من ذلك الحائط، وأخرج له تمرا، واعتذر واسترضاه فترك له تمره، وانصرف الى بيته بالمدينة فاضطجع فنام فاذا به يرى فى نومه النبى صلى الله عليه وسلم قد أخذ الرافضى الكاظم له من تلابيبه، وأبو بكر قد حبسه من احدى يديه وعمر من الاخرى، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول حق على المزار أن يكرم زائرته.

حنين أم أبى العباس أخى أبى يعقوب اليه وهو مازال حيا فى مكة:

وحدثنى عن الشيخ سيدى أبى يعقوب أنه كان ببادس مع أمه يوم عيد الاضحى، وأمّه تبكى على ولدها الحاج احمد هذا اذ كان فى الحجاز وذكر لها عنه أنه مات، فقال لها سيدى أبو يعقوب أى شئ تعطى لفقراء اذا جاء ولدك، فقالت له ثيابى هذه، فقال يا احمد أمك تبكى عليك وتدعوك، قال سيدى الحاج احمد كنت بمكة فاذا بى أسمع صوت أخى يوسف، وهو يقول يا احمد أمك تبكى عليك وتدعوك، فأخذت فى السفر الى المغرب حتى رجعت الى أمى وفى الحديث الصحيح عن النبى أن شابا من الانصار توفى وله أم عمياء فسجيناها وعرفناه، فقالت مات ابنى فقلنا لها نعم، قالت اللهم ان كنت تعلم انى هاجرت اليك والى نبيك رجاء أن تعيننى على كل شئء فلتحملنى على هذه المصيبة، فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه فطعم وطعمنا، وروى عن عبد الله الانصارى كنت ممن

دفن ثابت بن قيس، وقتل باليمامة فسمعناه حين ادخلناه القبر يقول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق عمر الشهيد عثمان البر الرحيم، فنظرنا فإذا هو ميت، وعن النعمان بن البشير أن زيد بن حارثة خر ميتا في بعض أزقة المدينة، فحمل وسجى، اذ سمعوه بين العشائين والنساء يصرخن حوله يقول انصتوا انصتوا فحسر عن وجهه، فقال محمد رسول الله النبي الامي خاتم النبيين، كان ذلك في الكتاب الاول، ثم قال صدق صدق وذكر ابا بكر وعمر وعثمان، ثم قال السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثم عاد ميتا كما كان .

نكر أخلاق الشيخ وسيرته رضى الله عنه :

كان الشيخ سيدي أبو يعقوب يوسف رحمه الله تعالى، منذ ما نشأ الاعلى قراءة القرآن، والمداومة على تلاوته، والاعتناء بتفسيره، وتفهمه والتفنن في معانيه، والاعتناء بآياته، وبحديث رسول الله صلعم، وكلام العلماء والاولياء واتباع السنة، وتحكمها على نفسه في أمر دينه ودنياه، وحركاته وسكناته وأكله وشربه ولبسه وخلعه ودخوله وخروجه منتظلا من الدنيا مجترئا منها باليسير، لا يرى أبدا يتحدث على شيء منها الا اذا كان جوابا لغيره، ممن يأخذ معه في شأن نفسه، ولا يتولى قط بناء ولا غرسا، ولا اكتسب شيئا ولو أقل ما تدعوه اليه ضرورة المعاش، ولا أكل قط الا من ميراثه من أبيه الذي ورثه عن الاباء الصالحين، كما تقدم حاله مع الفقيه سيدي عبد المالك بن حبيب رضى الله عنه، وكان الشيخ رحمه الله كثير الحب في المساكين والفقراء والصوفية خصوصا، شديد الحرص على اتباع الصالحين، رحيما باليتامى والارامل متسببا لهم في الصدقات والفتوح من غير أن يدخل يده في شيء من ذلك، مهتما بأمور الخاصة والعامة من المسلمين، ساعيا لسد خلاتهم وستر عوراتهم، وأدرا رأزاقهم واصلاح ذات بينهم .

الفتنة التي وقعت بين بقيوة وبنى يسف :

حدثني أبو عبد الله بن مغيث قال سمعت سيدي أبا يعقوب يقول، كانت الفتنة ببادس بين بقيوة وبنى يسف، قال فكنت ادع الله في

الصلوات أن لا يجرى بينهم دم فكانوا يهيمون بالقتال، ثم أن الله يصرف ذلك من بينهم، فسمعت إبليس وجنوده في الزقاق يقول بعضهم لبعض تعالوا نرحل من هذه المدينة طال ما هو هذا الشيخ الكذا وكذا في هذه البلدة، ما نقضى لنا فيها الحاجة، ولا يقتتل فيها احد من هؤلاء، وكان رحمه الله اذا صلى الصبح لا يتكلم حتى يصلى صلاة الاشرار، واذا صلى العصر لا يتكلم حتى تغرب الشمس ويفطر، واذا صلى المغرب لا يزال يصلى حتى يصلى العشاء الاخير، ثم يركع بعد صلاة العشاء الاخير وينصرف الى منزله، واذا دخل شهر رمضان لا يكلم أحدا الا بالاشارة عند الضرورة، وكان في وقته كله كأنه في غيبة عن المخلوقين، واذا حدثته حديثا عن الدنيا وانصرفت عنه لا يبقى في سره من حديثك نسي، وذلك لما جمع الله له من اظهاره للخلق وخلطته معهم، وتطهير قلبه ويده من حطام دنياهم، وكان لا يترك من بشاشته وبسط وجهه وبره بجميع من يرد عليه، أو يجتمع معه، وكان عنده تسليم كثير في الاشياء، وكان حاله كذلك في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكثر حاله فيه التغير بهمة وتسليطها حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، وكان كتاب احياء علوم الدين للامام ابي حامد الغزالي لا يزال من بين يديه يطالعه، وكان معظما للامام ابي حامد المذكور، خاضا على مطالعته كتابه المذكور، قال مؤلف هذا ما رأيته رجلا قط من أهل المكاشفة والكرامة والاحوال الصالحة الا وهو يحب الامام أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه ونفعنا به آمين، وكان يقول أنا أشهد للامام أبي حامد الغزالي بالصدقية العظمى، وقال لأصحابه اذا عرضت لكم حاجة الى الله تعالى فتوسلوا بأبي حامد الغزالي، وحكاية سيدنا الولي العالم أبي الحسن مشهورة في قصته مع الامام أبي حامد وكتابه قال مؤلف هذا ورأيت جماعة من أهل الخير والدين ما فتح الله على قلوبهم وانهج لهم الطريق اليه الا بمطالعة كتاب الاحياء المذكور، وقال لي رجل صالح ما طالع أحد كتاب بداية الهداية، وكتاب منهاج العابدين، وكتاب احياء علوم الدين، الا وظهر خيره وفتح الله على قلبه قطعا «فان لم يصبها وابل فطل» انتهى ماقيده من هذا المجموع من كرامات الشيخ الولي العارف سيدي

ابى يعقوب نفعا الله به، وهذا الذى جمعت به بعض من كل، ويسير من
كثير، ولكنى اقتصر منه على بعض ما سمعته، وتركت من هذا المجموع
ما هو غاهض، ومن الله سبحانه وتعالى أطلب العفو والصفح عما تخلد
هذا الكلام من تزيين الفاظ وتصنع معان، انه ولى حميد وهو القادر عليه،
وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد، وعلى آله وأصحابه، وأزواجه
 وذريته، وأهل بيته الطيبين المباركين وسلم تسليماء، واخر دعوانا ان
الحمد لله رب العالمين .

نضال مستمر

بعد الكارثة المهولة التي لحقت بالمسلمين في الاندلس، والتي أجلت العرب والبربر عن تلك البلاد الى شمال افريقيا عام 1492، لحق بعض هؤلاء بموانئ المغرب كمليية وسبتة وتطوان وسلا، وبقيت المناوشات مسترسلة بواسطة القرصنة، وقد اشتدت عملية القرصنة لما قام بربروس، المدعو خير الله باشا يعاونه أخوه (أروج) بأكبر قرصنة في أوائل القرن العاشر الهجري (أوائل 1500) يجوب البحر الابيض المتوسط ويحاصر تلمسان فما كان من صاحبها الا أن طلب تدخل ملك اسبانية (شارلكان) لحمايته وكانت النتيجة فشل أمر تلمسان، وضمها بربروس لناب العالي، ومن هذا التاريخ ظهرت للاسبان مطامع في شواطئ الشمال الافريقي عامة، وشواطئ المغرب خاصة .

وكانت لها مع مهاجري الاندلس، الذين استعملوا القرصنة على شواطئها الجنوبية، مناوشات مستمرة، وفي هذه الاثناء استولى الاسبان على مدينة العرائش، التي استرجعها مولاى اسماعيل سنة 1888 م. وفي حدود أوائل القرن السادس عشر اختص الاسبان بمدينة سبتة، بعدما كانت في يد البرتغال، وذلك عندما انفصلت هذه الاخيرة عن الاولى، فوقع استفتاء سكانها .

وفي هذه المراحل، انتقل النزاع الى حدود المغرب الشواطئية، بعد ما كان النزاع في قلب اسبانيا نفسها، فاحتلت جزر مليبية والنكور وبادس، وكان لهذا الاختلال عواقبه الوخيمة على المغرب، وبدأ التنافس بين دول أوربا على هذه الشواطئ، فقد بدا لاسبانيا أن تملك المغرب لوحدها لاحتكاكها الطويل مع المغاربة في اسبانيا .

ولاجل الانتقام من أولئك الذين استمروا في احتلالها مدة قرون، ثم لاجل تأمين ترابها الداخلي من عودة الكرة مرة أخرى عليها، وقد بقيت اسبانيا محتلة لبعض هذه الشواطئ، لمدة حوالى خمسمائة سنة من

دون أن تتوغل داخل المغرب، وذلك أنها كانت صرفت النظر عن المغرب الى شؤون أمريكا، حيث شغلتها الثروات المعدنية فيها، وفي هذا الاثناء أيضا لم يهدأ بال المغاربة بل استمروا في النضال المستمر مع المحتلين لشواطئ مليلية وسبتة، والجزر التي بينهما وموقع الدخلة من الصحراء المغربية بالجنوب المغربي، الا أن الجيش الاسباني تحصن فيها لمناعتها وحمايتها بحريا، حسبما يأتي تفصيله

وعندما عمدت فرنسا لاحتلال الجزائر سنة 1830 م. استفاقت اسبانيا فجأة فبذلت جهودا جبارة لاقتضاء فرنسا عن الجزائر، واستعملت كل ما امكنته من الاساليب التي سنحت لها فرصة استعمالها والتي كان في طوقها دون الاصطدام معها مباشرة، فعمدت الى تقوية الامير عبد القادر الجزائري بأسعافه بالمال والسلاح، كما عمدت الى تحريض المغاربة بمزيد المساعدة اليه لاجل فتح الحدود المغربية للامير ورجاله ليتحرك كيف شاء وبكامل الحرية لاثارة القلاقل ضد فرنسا، ومديد المعونة للمجاهدين، وكل ذلك بغية اقصائها عن شمال افريقيا تنافسا في الاستعمار، وعندما انتهت حرب الامير عبد القادر، اخمدت الى السكون، وحتى عندما قام بوحمرة بالثورة في شرقي المغرب الشمالي، لم تحرك اسبانيا ساكنها للقيام باهتبال الغرة لتوسيع احتلالها لشرقي المغرب، بل قبعت في جزيرة مليلية، منتظرة ما يسفر عنها نتائج الاحتكاك الداخلي، وكل ما فعلته انها استغلت احتياجه الى المال فاشتترت منه مناجم الحديد بجبل «اكسان» قرب الناضور، واشتغلت بتمديد السكة الحديدية رغم أن بعض الضباط قد كانوا يقومون بمحاولة لدى الحكومة الاسبانية لان تقوم بمبادرة استغلال الفرصة لتوسيع احتلالها في شرقي الريف، مادام المغرب مشغلا بالفتن الداخلية، وقد حكي الكاتب الاسباني المدعو «انريكي اركيس» وهو ضابط في ذلك الوقت في جيش مليلية في كتابه المعروف (بالروكي) انه قدم مشروع الهجوم على القبائل اهتبالا لفتنة بوحمرة بدعوى اخمادها، ولكن لم يجد أذنا صاغية، مما جعله يكيل اللوم في كتابه لرجال الجيش الاسباني وحكومته اللذين فوتوا الفرصة التي يعتبرها من الفرص الذهبية حسب قوله، وجعل يكيل لحكومته أوصاف الضعف والخور .

والذى يظهر أن احجام اسبانيا عن التحرك في ذلك الوقت لم يكن ورعا منها، وانما لما تعلمه عن صعوبة الموقف، فمن جهة ان المغاربة سيتحدون عليها، في حين أن الجيش الافرنسى بالجزائر بالمرصاد لها، يقوم باعانتهم أسوة بما فعلته هي مع الامير عبد القادر، على أنها عرفت عن كثب من هم المقاتلون الارياف في نضالهم عندما يحتدم الصراع، ثانيا أن المطامع الاوربية نشعبت وتكالبت على المغرب، فمن جهة أن فرنسا قد ركزت نفسها في الجزائر وهي تحد بالمغرب مباشرة، ولا يهدأ لها بال لتحرك الجيش الاسباني والحال أن قضية المغرب لم تسو بين ذوى الاطماع الاستعمارية .

وثالثا فان انكثرتا نفسها لا توافق على أن تسترسل أية دولة أوربية لتقوية مركزها خلف جبل طارق، على الممر المائى العديم النظير، الذى هو الممر المغربى الوحيد الى مستعمراتها بشبه قارة الهند .

والواقع أنه من تاريخ سنة 1845 وهو تاريخ عقد معاهدة تحديد الحدود بين المغرب والجزائر، وقضية اطماع فرنسا واسبانيا تتسارع لاكتساب السبق لاحتلال المغرب، الى أن جاء مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906، الذى قضى على استقلال المغرب في غفلة من أهله، وجزىء الى شطرين اثنين: شطر فرنسا وشرط اسبانيا .

ورغم هذا التقسيم الذى كان من حظ اسبانيا شواطئ الشمال والريف الوعرة وسواحل الصحراء المغربية بالجنوب الغربى، فانها لم تتجرأ للقيام بتحركات لاحتلاله، الا في سنة 1909، عندما باشرت فرنسا احتلال الشطر الخاص بها في المعاهدة فأرسلت اسبانيا جنودها الى مليلية وسبتة والعرائش، بدعوى توفير الحماية للاهالى والولاة .

وهنا قامت قيامة السكان، فثارت القبائل، وبدأت المعارك تترى بين المجاهدين والجيش الاسباني، كما سيفصل بعد .

وعند عقد معاهدة الحماية بتاريخ 1912 بين فرنسا والمغرب في عهد مولاي عبد الحفيظ، التى نصت على وضعية الاحتلال الاجنبى للمغرب، ووضع نظام خاص بطنجة، عقدت فرنسا مع اسبانيا اتفاق مدريد، في السنة نفسها (27-11-1912) في شأن وضعيتها في اقتسام

الاسلاب وتسوية المشاكل الحدودية وغيرها، ومن بينها وضعية طنجة،
التي تعرض نظامها لمباحثات فيما بعد بين المانيا وفرنسا واسبانيا
وانكلترا، كانت النهاية أن تحكم بواسطة بلدية دولية ينتخب أعضاؤها
من رعايا فرنسا واسبانيا وانكلترا، تحت اشراف مراقبة دولية، تتكون
من قناصل الدول، ومن ممثل سلطان المغرب .

القلاع الخمس أو الجيوب المأسورة :

وقد يبدو الامر غريبا ما عليه وضعية الجيوب الساحلية الشمالية
للمغرب، وبالأذات سواحل الريف من سبتة الى الجزر الجعفرية، كما يبدو
غربيا موقف الدولة التي تنتمي بجوارها الى الصداقة التقليدية والتي
كانت ابدت بشائر حسن التفهم، عندما احتد النقاش بين المغرب وجارتها
من جهة جبال البرانس، تلك الدولة التي كانت وضعت كلكلها على الجزء
الاهم من المغرب في ذلك الوقت، فامتعت جارتها هذه ان تجاريها على
التكالب المكشوف، والذي اسفر عن الفشل الذريع لتلك الدولة الكبرى
وقد كان يبدو أن الدم الاسيوى الافريقى الذى خلفه العرب والبربر
على السواء فى اسبانيا، ممزوجا بالدم القوطى، طوال ثمانية قرون خلت،
والدخارة التي قام أولئك بتهجيرها الى تلك الامة عن طواعية واقتناع
سيكونان شفيعين لمتين أواصر الجوار الذى يقضى المنطق استثمار
تلك الوشائج، بتجنبها للنكسات التي قد تعترضها، نتيجة الحرص الوضع
على اسلاب تافهة، ومع تفاقتها فتأثيرها على نفسية ذى الحق الذى هو
أحق بحقه، يكون صدمة تمس العلاقة وحسن الجوار فى الصميم، وبالاخص
أن ذلك الحق ينتمى الى السيادة الوطنية والعزة القومية .

ولهذا يبدو غريبا أن تتفاعس الدولة الاسبانية على هذه
الاسافين (1) التي مر الوقت من غير رجعة لاعتبارها استراتيجية مثل
هذه الجيوب والرقع، التي ان سهلت لها فى وقت تأخر العالم الافريقى
احتلالها للجزء الشمالى الشاطىء للمغرب، فان هذا التأخر لا يعود ولن
يعود الى يوم يبعثون .

(1) يقال أرض أسيفة وأسافة ككناسة وسحابة رقيقة

وإذا كانت الاستراتيجية الحربية قد انقرضت وخلفتها استراتيجية أخرى اقتصادية، فإن العقل السليم والتفكير المنطقي، لا يرى سببا اقتصاديا يذكر يعود بالفائدة على الدولة التي تعمل تحت تأثير وحى المطامع ليست ذا نفع بتاتا، بل أن الخبراء ذوى الفن فى مثل هذا الشأن يرون ان الاضرار الاقتصادية هى التى تجنيها اسبانيا من الاحتفاظ بهذه القلاع، فى حين أن السكان الإسبانين فى عموم المغرب مضمون لهم راحة الاستقرار والامان، على أموالهم، لما جبل عليه المغرب من رعاية الذمم، وحفظ الجوار، وحسن المعشر، فتاريخه الطويل العريض فى الاستقلال والسيادة خير شاهد على ذلك .

على أن الدولة المغربية الفتية المتطورة بقيادة عاهلها العظيم أمير المؤمنين الحسن الثانى الذى لا يضاهى فى هذا المضمار، قد برهنت للعالم عن أى استقرار يتمتع به، حتى فى أعوص الظروف فلم يبق أى عذر يتذرع به، للابقاء على رقع لا تغنى غناء يذكر لذلك الاجنبى المتسلط عليها، بينما هى من صميم السيادة للدولة المغربية ذات الحق الاصل الاصيل : ما هى هذه القلاع؟ وكيف أسرت أو انتزعت من الوطن الام؟ وما هى الاسباب التى سهلت هذه المأمرية الشنعاء الاقانونية؟ ذلك ما نبينه فى الجمل الموجزة التالية :

مدينة سبتة أو قلعة البوغاز :

تقع مدينة سبتة بين 35 درجة و53 دقيقة من خطوط العرض شمالى خط الاستواء، وبين 7 درجة و33 دقيقة من خطوط الطول غربى خط كرينتش .

ليس من شأننا فى هذه العجالة، أن نؤرخ لمدينة ظلت حوالى ثمانية قرون، ذات اشعاع حضارى ومركز دى صلة وصل بين الحضارتين العربية والاوربية، حيث كانت المحطة الرئيسية والمر الهائل لتجهيز الحضارة الاولى التى جاءت بكل اعتزاز من بغداد ودمشق والقيروان تخترق الآفاق، لكى تجد التربة الثرية والوعى المتفتح فى قرطبة وغرناطة، وطليلة واشبيلية وأمثالها، فى العدو الشمالية من البحر المتوسط، بينما تتكيف مع التطور الحضارى لتجعل من مقرها تلك الصلة كاملة

الاستعداد لتفسير المهمة التي هي نقل الحضارة المزدوجة التي صيغت في قالب الاندلسي، فاخفت عليها مسحة ذات فن معمري وموسيقى وطبي وغير ذلك، فلمثل هذا الشأن من التطور الانساني ينبغي أن يكون ذا عناية خاصة متجمعة، تعبا لها أقلام وأقلام

لان المدينة التي انجبت ابن السبعين في الفلسفة، والقاضي عياض البعيد الشأو في ثمتي المناحي من علم وشجاعة، والعالم النحرير السيد عبد الرحمن الكتامي والاديب الكبير مالك بن مرحل وغيرهم. ممن كان يقول فيهم المعتمد ابن عباد ملك اشبيلية الاديب «اشتهدت أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة : ابن غازي الخطيب وابن عطاء الكاتب وابن مرانة الفرضي» وأمراء ذوى العزائم كأبي العباس العزفي، وباقي أمراء العائلة العزفية لا يمكن ان يستقصى أمرها الا بهمهم قولاذية، تجعل ديدنها محصورا في التنقيب عن مآثرها المختلفة المناحي .

وانما الذي يعنينا هنا أن نشير الى تلك النكبة المفجعة التي استرسل أمرها، ولم يحن بعد أن تنقش تلك المحن عن هذه المدينة والجيوب الاخرى، التي كان ذنبها الوحيد أنها كانت في أعز أيام المغرب حصونا ودروعا واقية، للحفاظ عن حوزة الوطن، وعزة السيادة، فاستهدفت لما استهدفت له، لما لها من المناعة وحسن الموقع .

فمدينة سبتة هذه التي كان شرف فتحها على يد العربي الاصيل القائد الفاتح المشهور موسى ابن نصير، الذي متعه الله بموهبة الفتح العظيم، والذي لم تنكسر له راية في فتوحاته الباهرة .

وعندما فتحها سنة 87 هـ. فتحا اسلاميا، جعلها ممرا الى فتوحات أخرى في القارة الاخرى، التي ظفرت بما ظفرت به من تلك الحضارة البعيدة الشأو، فركز عمله من الجبل المطل على البوغاز الذي خلف اسمه «بجبل موسى» غربى سبتة .

ومن تاريخ فتحها بضمها الى الفتوحات الاسلامية للقضاء على العقيدة الوثنية فيها شهدت اشعاعا حضاريا وعلميا وعزة اسلامية ومناعة قومية .

فقد ازدهرت وترجمت بالمعنى المتكامل حضارة العرب في شمال

افريقيا انطلاقا من مدينة القيروان بتونس التي أسسها الفاتح العربي
الخالد عقبة بن نافع كمحطة اسلامية لنقل القوافل الاسلامية العسكرية
والدينية والثقافية والعلمية الى الجزائر والمغرب الاقصى، فكانت أى
القيروان محجا للمسلمين من هذين القطرين، وعلى الخصوص فانها
تحتوى رفاة كثير من الصحابة والتابعين، وتابعةى التابعين .

ولما كانت القيروان تقع على شاطئ البحر المتوسط تقريبا لانها
لا تبعد الا بـ 45 كلم عن البحر، فان اتجاه المسلمين اينما وجدوا على
هذه الشواطىء، جعلوا من حسابهم أن يقووا روابط الاتصال بين مدينتها،
التي هى فى الواقع حصونهم الامامية، فأسسوا رباطات، فكانت سبته
تحتل الطرف الغربى للبحر المتوسط، كما كانت الاسكندرية تحتل الطرف
الشرقى لذلك البحر، وبينهما كانت قرابة ألف رباط، وكانت
الرباطات المهمة التى على البحر الابيض المتوسط التى يعينها أمرها
هنا مثل سبته وبادس، وجزيرة النكور (الحسيمة) ومليية والجزائر
الجعفرية الى وهران، وغيرها تحصن تحصينا متينا لمراقبة الاحداث
والطوارئ فكانت تجهز بصومعة الحراسة، وبتربية الحمام الزاجل
الذى يحمل فى عنقه رسالة مكتوبة بماء البصل أو الليمون، لاختفاء
كتابتها، والتى لا تظهر الا عند وضعها على النار، فتظهر حمراء، وجامع
للصلاة والتعليم، وغرف للمرابطين، واصطبل للخيول، وشرفات لاسقاط
الزيت المغلى على العدو الداهم، الى غير ذلك من وسائل الدفاع المقتناة
فى ذلك التاريخ .

وعلى هذا الاساس كانت مدينة سبته، فاذا كان سحنون فى
القيروان يعقد حلقات التدريس عن يمين المحراب وبنته تعقدها عن
يساره، فان أبا الحسن السبتي كانت له بنت محدثة مسندة وهى أم
المجد مريم وان أبا اسحاق الانصارى صاحب نظم الفرائض والسير،
والقاضى المدرس حافظ مذهب الامام مالك ابا الحسن الميثوى، يعقدان
التدريس فى المسجد الاعظم بسبته .

واذا كانت مآثر القيروان التاريخية أكثر من أن تحصى، فان
مآثر سبته الشهيرة تضاهيها، وقد احصاها المؤرخون الاقدمون مثل

محمد بن القاسم الانصارى فى كتابه «الكواكب الوقادة، الجامع لما فى ثغر سبتة من تراجم السادة، وقبور الائمة القادة» فأحصى قبور الائمة القادة فى 88 قبرا وعدد المساجد والمزارات فى ألف وأعظمها الجامع العتيق بلغت بلاطاته اثنين وعشرين بلاطا، ويتميز عن سائر جوامع المغرب بالبلاط الاوسط الضخم البناء المرتفع السمك، وبالمقصورة الهائلة، الثعريبية الشكل ومنبره له اثنا عشر درجة، وله صحنان، احدهما أكبر من الآخر، وبكل واحد منهما جبان للماء، أما الرباطات، فأعظمها رابطة الصيد، وهى مربعة الشكل قائمة فى الهواء، على اثنى عشر عمودا منها ثمانية من الرخام، وسبعة ناصعة البياض، وواجد حالك السواد مع بريق والاربعة الباقية مبنية بالآجور تحت معاهد أركان القبة ولكل عمود منها خمسة أركان، واستدارت بها ثمانية عشر سرجيا فى أربع بلاطات مشرفة على البحرين معا وتتصل بها دار القيم لخدمتها .

والى جانبها رابطة أخرى على شكلها ومثالها، وفى وسطها قبر لجارية أحد أمراء الموحدين وعلى القبر قطعة من الرخام الابيض .
وعدد الخزانات العلمية والفنون تربو عن 62 خزانة والرباطات والزوايا فى 47 وأزقتها فى 250 زقاقا، وحماماتها فى 22 حماما، واسواقها فى 17 سوقا والخوانيت والدكاكين فى 24.000 حانوتا وفنادقها فى 360 فندقا وأكبر هذه الفنادق بلغت أسرته 80 فى طبقات ثلاث، يدعى فندق «غانم» كما أن أبا القاسم العزفى انشأ مخزنا كبيرا للحبوب يحتوى على 52 مخزنا .

وعدد أفرانها فى 360 فرنا وسقاياتها فى 25 سقاية وأبارها فى 80 بئرا وعدد ديار الاشراف فى أربعة .

وعدد مطامير خزن الحبوب فى 40.000 مطمورة ولجودة أرض المطامير قيل أن الزرع ربما مكث فيها من 60 الى 70 سنة ولا يتسوس أو يتغير لطيب التربة، واعتدال الهواء، وعدد طواحين الزرع فى 103 طاحونة وعدد الارياض ثلاثة وعدد أبوابها فى 50 بابا وأعظمها الباب الجديد، ويقال له الباب الاعظم، وعدد مصلاتها ستة، منها المصلى الملوكية، سميت بذلك لكون السلطان أبى الحسن المرينى يصلى فيها بجيشه وهى مشرفة على

البحر، وعدد محلات الرمي في 44 مرمى، يتبارى فيها رماة سبقة بالقوس وغيره، وعدد مضارب السمك في تسعة وعدد المراسى في ثلاثين مرسى وعدد مصاييد الحوت في تسعة وتسعين ومائتين مصيدا .

واذا كان القاضي أسد ابن الفرات القيروانى امتشق الحسام لفتح صقلية علاوة على مهامه الاساسية في التعليم والتحديث، فان القاضي عياض لم يشد عنه في امتشاق الحسام أيضا ضد الموحدين للحفاظ على البقية التي في عنقه للمرابطين، رغم مهامه التعليمية، والتحديثية، ويجدر بنا أن ننقل هنا بحثا كنا نشرناه في كتابنا (الريف بعد الفتح الاسلامي) الذي ادمجنا فصوله كلها ضمن هذا الكتاب حسب الاغراض المناسبة اعاده لطبعه لنفاذ الطبعة الاولى من جهة ولأجل حصر ما يتعلق بالريف ففى ميطان واحدة، كما بينا، ليكون مدخلا لحرب الريف الذى خصصنا له الجزء الثانى .

القاضى عياض والموحدون

(1) قد كان للقاضى عياض الاثر المحمود فى اتجاه عبقرى الموحدين عبد المومن بن على الى الريف وذلك لما للقاضى عياض من النفسية الحربية، التى جمعها الى التبحر فى الحديث، واداة القضاء الشرعى. وتلك النفسية كانت مجلبة لاهتمام المتربعين على عروش المغرب والاندرلس، فوقوع مقر عمله القضائى والحربى بمدينة سبتة التى هى حلقة الاتصال بين القطرين الشقيقتين قد خنق بذلك أولئك الملوك، فكان أبعث للاهتمام فى نفوسهم، لكسب طاعته، وهو لا يخفى هذه النفسية التى ملكت عليه مشاعره، ولو فى اشعاره، فتجدد مثلا فى وصفه لروضة يصوره شعره أحد فرسان الميدان فى التشبيهات الحربية وتجنب لىونة الفقهاء، اذ يقول فى بيتين اثنين :

انظر الى الزرع وخاماته يحكى وقد مالت أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

ولو أن تبحره فى علمى القضاء والحديث قد ذاع الذبوع اللائق، اذ ألف فى الحديث مؤلفات بقيت خالدة امثال كتاب الاكمال فى شرح مسلم، ومشارق الانوار فى تفسير غريب الحديث وغيرهما، وقد اكسبته السمعة الحديثية المطبقة، وجعلته على رأس محدثى المغرب، فان صموده فى وجه عبقرى الموحدين عبد المومن بن على الكومى، خليفة المهدي بن تومرت من بعده واحد رجاله العشرة، اذ وقف فى وجهه لما اراد نزع البيعة التى فى عنقه للمرابطين فى أعنف حملة وجهها اليه، قد هيأت له شأوا بعيد المنال، وجعلته قائدا على سيف هذا الشاطىء من البحر الابيض المتوسط، وقد ضاهى بهذا العمل قاضيا آخر فى شرقى شمال افريقيا، هو قاضى القيروان أسد بن فرات فى فتحه لصقلية .

(1) الجزء الثانى من بحثنا «الريف بعد الفتح الاسلامى» .

ان القاضي عياضا قد وقف في وجه دولة فتيية مرتين وتلك الدولة تولدت وترعرعت في ظل شخصيتين عبقريتين ملهمتين، المهدي بن تومرت، وعبد المومن بن علي، فكلتا الشخصيتين عملتا لخلق هذه الدولة بكل ما أوتيا من الهام وعبقرية، فالاول وان كان اتباعه يحطونه بالامام المعصوم وهو لقب بعبيد عن الحقيقة والواقع الا أنه عصامي ملهم استطاع بذكائه الوقاد أن يززع اعظم دولة تأسست في شمال افريقيا وبسطت ذيولها على الاطلس الجبار، مخترقة المفاوز والقبائل البربرية العاتية واصله الى ما وراء البحر بالاندلس .

وقد كان منذ حداثة سنه يعمل لاجل ادراك هذا الشأو، فقد رحل من مسقط رأسه «قبيلة المصامدة» في تخوم سوس بعدما شاهد عراك قبيلته وجاراتها مع شعب لمتونة الصحراوي الذي فرض اشتاده عبد الله بن ياسين صولة دولته على افريقيا .

فالتحق بن تومرت في رحلته، بقرطبة في السادسة عشرة من عمره بتاريخ 501 هـ. (1107 م) وقد كانت قرطبة المنبع الصافي لفقهاء المغرب، وقد شاهد فيها الضجة الصاخبة التي أقامها فقهاء الاندلس ضد كتاب «احياء العلوم» لحجة الاسلام الغزالي بدعوى خروجه عن المعتقد السائد الذي يتلخص في التقويض وعدم اعمال التأويل في المتشابه وترك الجدل جانبا، وقد دعت نفسه ان يأخذ عن الغزالي نفسه افكاره التي راقته في كتابه المذكور فارتحل الى مصر ثم الحجاز لاداء نسك الحج وبعده التحق ببغداد ليرى شيخ المدرسة النظامية التي وجهت العقيدة الاشعرية التي تقول بالرجوع الى الكتاب والسنة، وبطلها اذ ذلك أبو حامد الغزالي، وقد اخبره عن مصير كتابه المحرق على يد دولة المرابطين، وما يلزم به من الزندقة، فحدث ذلك في نفسه موجدة اضطربت بها أحشاؤه ظهرت في رفعه يديه الى السماء داعيا: «اللهم مزق ملكهم كما مزقوه واذهب دولتهم كما أحرقوه». فانقلب من بغداد بتعاليم جديدة عاملا على تغيير المنكرات، فمر بأبي بكر الطرطوشي بالاسكندرية، وأخذ عنه وقد طردته حكومة مصر نظرا لعمله السياسي، وهكذا استمر يعمل لتغيير المنكر ويطرد الى أن وصل الى مراكش، وأمير المسلمين فيها على بن

يوسف بن تاشفين فأقام حوله ضجة كبيرة، فكان يخلب لب أمير المسلمين بالوعظ والارشاد الى أن اصطدم مع أخته السفيرة الوجه، وهى عادة نساء الملتمين فقرعها وكان سببا لنفيه الى أقصى سوس حيث أعلن دعوته وبدأ دولة الموحدين وقد توفى بعد حرب بينه وبين المرابطين اثر مرض بعد وقعة تدعى وقعة البحرية عام 523 هجرية (1130 م).

أما ثانى الشخصيتين فهو عبد المومن بن على الكومى الذى وطد ملك الموحدين واستحوذ على افريقيا الشمالية من جبال درن - الاطلس الكبير - الى حدود مصر واستتب الامن فى هذه الربوع حتى قال المؤرخون انه كان يتجول المسافر فى الشمال الافريقى من أقصاء الى أقصاء دون أن يخشى أذى .

وقد كان تلاقى ابن تومرت فى شعب ملالة حيث كان يتولى تلقين آل ملالة القرآن الكريم وعلوم الدين بعد ما آوته قبيلة منه تدعى قبيلة بنى ورياغل، وقد الهم قدوم عبد المومن عليه وأخبر أصحابه بذلك قبل وصوله، قال أبو بكر بن على الصنهاجى المعروف بالبيدق فى كتابه (1) أخبار المهدي ما يأتى :

«بينما هو ذات يوم قاعد اذ سمعناه يقول: الحمد لله على كل حال قد بلغ وقت النصر، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم، يصلكم غدا طالب طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره» ثم حكى وصول عبد المومن واعلام المهدي اياه بالامر الذى يصير اليه قائلا انه ناد انى يا أبا بكر ادفع الكتاب الذى فى الوعاء الاحمر فدفعته اليه وقال لى اسرج لنا سراجا فقرأ لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المومن ابن على سراج الموحدين» .

وقد تحقق تنبؤه فان عبد المومن بن على هو سراج وعبقرى الموحدين، وطد أركان دولته وقضى على دولة المرابطين نهائيا وأصبح

(1) هو كتاب اخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين طبع منه على الحروف بأوروبا والمؤلف هذا كان حيا زمن المهدي بن تومرت وتوفى سنة 524 هـ. موافق 1129 م.

المغرب وبقية شمال افريقيا وقطر الاندلس زاهرا، ونفق سوق السنة وكسر بلاد دولته بالفراسخ ووصل الامن الى أن فى احدى غزواته الى تونس حيث عاث النورمانديون وذبخوا النساء ومزقوا أشلاء الصبيان وقد سار اليها فى مائتى ألف شخص منها مائة ألف جندى ومائة ألف ما بين الخدم والسوقة، ذكر المؤرخون أنه لم تتلف فى الطريق ولا سنبلة واحدة وقد قسم حملته هذه على أربعة فرق بين الفرقة والاخرى مسيرة يوم بعد استعداد للزاد والماء مدة ثلاث سنين .

عبد المومن بن على فى الريف

قد ذكرنا أن القاضى عياضا كان متوليا خطة القضاء بسبته، ولما له من النفسىة الحربىة كان يتولى الدفاع عنها وعندما قامت دولة الموحدين كان مدينا بالطاعة للمرابطين وفى عنقه بيعتهم لا يجوز نقضها شرعا الا بسبب طاعن فى المبايع - فتحا - وليس من السهل نزع هذه البيعة من شخص يتولى مركزا كمركز عياض بين فقهاء المغرب وقضااته .

وقد أثر بذلك عبد المومن أن يخضع هذا الجزء من المغرب مقدما فجمع جموعه تاركا فاسا وتلمسان وغيرهما من المدن التى ما انفكت موالية للمرابطين، جانباء، وقصد سبته فى جموع غفيرة من قبائل البربر العاتية فدافع القاضى عياض عنها دفاعا رد عبد المومن عنها قولى وجهته شطر الريف واخضعه، قال فى تقويم المنصور «وبعد أن وطد الريف قصد ناحية الشرق حيث بقية بلاد المرابطين» أى أنه سلك طريق شاطئ البحر الابيض المتوسط الى أن وصل الى وهران وفتحها ثم حاصر تلمسان وفتحها كذلك، وبذلك أى بعد عام 534 هـ. (1140 م) أصبحت بلاد الريف خاضعة للموحدين بعدما كانت تابعة للمرابطين منذ تخريب مدينة النكور على يد يوسف بن تاشفين عام 472 هـ. (1078 م) إذ أن ازداجة الذين تغلبوا على وهران وأسسوا ملكهم فاحتل الامير على بن أبى الفتوح الازداجى النكور وبقي ملكهم فيها قال ابن خلدون (1) (الى عام 1066 م. فاقلق ذلك يوسف بن تاشفين فوجه حملته الى الريف قال فى القرطاس (2) وفيها فتح مدينة النكور وخربها ولم تعمّر بعد» .

- (1) فى كتابة العبر وديوان المبتدأ والخبر .
- (2) هو كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب ودولة فاس لأبى العباس احمد بن أبى زرع ويكنى أيضا أبا عبد الله كما ذكر فى «لقط الفرائد» طبع بطبعات مختلفة والتى نقلنا عنها هى مطبعة الحجر بفاس صديفة 3 من الملزمة 13 .

وعليه فان خضوع الريف الى المرابطين من عام 172 هـ. (1078 م) الى عام 534 هـ. (1140 م) اذ فتحه عبد المومن بن على ودان للموحدين بالطاعة الى عام 612 هـ. (1218 م) حين استخلصه الامير عبد الحق بن محيو مؤسس دولة بنى مرين، وقد انتقوا في ملحمة بوادى الزكور قال ابن خلدون «والتقى الجمعان بوادى الزكور فكان الظهور لبنى مرين والدبرة على الموحيدين» .

وقدفت هذا الفتح في عضد عياض لان انفصال هذه الجهة عنه جعله يعجز عن الدفاع، فعندما وجه عبد المومن حملته على فاس وفتحه بعد حصار دام سبعة أشهر قدم القاضى عياض خضوعه، ووفد عليه واکرم وفادته فرده قاضيا على سبته، بيد أن القاضى عياضا وان خضع للظروف القاسية وقدم الطاعة فان اختلاف العقيدتين قد حفر هوة بينهما ولا يمكن أن يركن الى الفاتح الذى فرض عليه الطاعة فرضا وقد قصم ظهره بتقليلهم جوانبه .

فما كادت ثورة محمد بن هود تندلع حتى انتهزها عياض فرصة لاعلان عصيانه فقام بثورة أخرى في الشمال، وكان الداعى له سببين اثنين، أولهما الاختلاف في العقيدتين كما اسلفنا، وثانيهما استباحة المهدي بن تومرت لسفك الدماء في مسائل سياسية وذلك مثل قضية البشر: التى تتلخص في ان شخصا يدعى عبد الله بن محمد ويلقب بالبشير كان صاحبهما من مواعيل الجزائر، ورغم انه كان فصيحا عالما ذكيا فاضلا فانه تستر بالفهامة واللكن والتعري عن الفضائل بأمر منهما استعدادا سياسيا ليوم له ما بعده، فعندما أعلن المهدي دعوته في قبائل مصمودة وهنتاتة وغيرها وتسرب الشك في اخلاص أناس، قام هذا خطيبا غداة صلاة صبح ذات يوم فبهر الناس فضله وفصاحته بعدما عرفوه بالفهامة واللكن فعُدوه كرامة من كرامات المهدي وقد كانت أعدت له لائحة أسماء المشبوه فيهم (أى اللائحة السوداء) فميز أصحاب الشر بين أفراد القبائل فتخلص ممن في قلوبهم ميل للمرابطين وصفا له الجـو .

وقد عد القاضى عياض هذا الامر الاخطل مهينا للشريعة التى لا تجيز قتل النفس الا بالامر البين، وقد كادت هاتان الثورتان تقضيان على

الموحدين قال في القرطاس «انه لم يبق يومئذ تحت امرة عبد المومن الا مراكش» لان ثورة ابن هود كانت اشبه بدعوة المهدي من حيث بناؤها على المعتقدات وقد اسمى نفسه الهادي، وهو وان كان من غوغاء الناس ألا أنه لا ينكر فضله، ولولا أن شيخ الموحدين أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي واحد العشرة قد كسر جند ابن هود البالغ ستين ألف جندي لما تمكن الموحدون من استرجاع أمرهم .

وقد حذا القاضي عياض حذو ابن هود فأعلن الثورة واستنجد بصاحب قرطبة ابن غانية وهو أكبر قواد المرابطين في الاندلس، وطلب منه تقديم عامل له على سبتة ونواحيها ففعل (1) والتف حوله قبائل الشمال ولكن فشل ابن هود وسقوطه قتيلا فت في عضد عياض فبعد ما أخضع عبد المومن قبائل برغواطة قصد سبتة فقدم فقهاء سبتة وعلى رأسهم انقاضي عياض أنفسهم لأمير المسلمين، الا أن علم الخليفة بقيمة القاضي عياض في العلم والحديث ومكانته عند قومه حمله على أن عفا عنه واقتصر على نفيه قاضيا الى تادالا حتى توفي قاضيا ثمه عام 544 هجرية (موافق 1160 م) .

(1) قال في القرطاس صحيفة 134 طبعة الحجر الفاسية «وفي خلال هذه الايام (أي سنة 543) قام أهل سبتة على الموحدين بعد أن بايعوهم ومكنوهم من المدينة وكان قيامهم عليهم برأى قاضيهم عياض ابن موسى فقتلوا من بها من الموحدين وعمالهم وحرقوهم بالنار وركب عياض البحر الى ابن غانية بالبيعة وطلب منه واليا فأرسل معهم الصحراوي فدخلها وأقام بها أياما فلما سمع برغواطة بخروج عبد المومن اليهم كتبوا الى الصحراوي والى سبتة يستصرخون به فأتاهم فبايعوه واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المومن وهزموه ثم كانت الكرة عليهم وهزمهم الى أن قال فعفا عنهم وعن القاضي عياض وأمره بسكنى مراكش وأمر بهدم سور سبتة فهدمها .

نقود موحدية في باطن الارض

قد خضع الريف كما قدمنا لعبد المومن بن على عندما تتكب عن سبته، وسلك مسلك شواطئ البحر، وكان يومئذ على سواحل حوض الريف مدن عامرة، منها مدينة بادس قال المؤرخ الادريسي:

«وبادس مدينة متحضرة فيها أسواق وصناعات قلائل وغمارة يلجؤون اليها في حوائجهم ومنها مدينة بوسكور ومدينة المزمة قال: «ومن بوزكور» الى المزمة عشرون ميلا وكانت قرية عامرة ومرسى توسق المراكب بها ومنها مدينة مليلية قال: «ومن كرت الى مليلية في البحر 12 ميلا وفي البر عشرون ميلا ومدينة مليلية مدينة حسنة متوسطة ذات سور منيع وحال حسنة على البحر وكان بها قبل ذلك عمارات متصلة وزراعات كثيرة ولها بئر فيها عين أزلية كثيرة الماء ومنها ثرابهم ويحيط بها من قبائل البربر بطبوة .

وكان لعبد المومن على شواطئ طنجة فسبته فالريف الى مليلية مائة قطعة بحرية من مجموع الاسطول البحرى الهائل المؤلف من أربعمائة قطعة موزعة على شواطئ مملكته، وكان لتلك الشواطئ طرق برية للقوافل تسير في داخل المملكة الى سواحل البحر فكانت احدى الطرق تصل بمدينة النكور المخربة كما أسلفنا، وكانت قرية «ايجاروانو» في بنى بوغياش من قبيلة بنى ورياغل تمر فيها احدى الطرق المذكورة، وكانت ثمة ثكنة من ثكنات جند الموحدين وقد عثر أخيرا فيها على نقود فضية مربعة الشكل نقش في احد وجهيها «الله ربنا محمد رسولنا المهدي اماننا» وفي الوجه الآخر «لا اله الا الله الامر كله لله لا قوة الا بالله .

وهذه النقود وان كانت خالية من التاريخ الا أن مرجع أمرها الى سنة 550 هـ. (1166 م) لان عبد المومن في هذه السنة أمر بضرب السكة باسم دولته قال في تقويم المنصور «وكان منذ سنة 550 قد أصدر

وأمر الى كل البلاد الافريقية الشمالية باحراق سائر كتب الفروع وأمر العلماء أن يرجعوا في الأمور العامة دنيا ودينا الى كتاب الله وما ثبت من سنة رسول الله وجمعه ابن تومرت في كتابه المعروف «بموطأ ابن تومرت» ثم ضرب السكة باسم دولته الحديثة وكتب عليها الله ربنا ومحمد رسولنا والمهدى امامنا، ولا ريب أن هذه النقود قد راجت رواجاً كبيراً وكثر تداولها بين الناس وقد شاهدت بنفسى اثناء جولاتى بالملكة التونسية كمية كبيرة من هذه النقود بيد الصبيان في مختلف النواحي» .

وقد برزت هذه النقود في هذه القرية على سطح الارض من دون اعمال حفريّة غير أن المحل المذكور كان معلوماً بأنه مدفن للكنوز» وهذه القرية تبعد عن مدينة النكور جنوبيها بعشرة أميال تقريباً وقد ظهرت من تلك الكنوز كمية أخذ بعض الصبيان منها كيلوغراماً وربعا وأخذ غيره غير ذلك .

وبهذا البحث تعلم المواقع الاستراتيجية البرية التي كان الموحدون يستعملونها لحفظ سواحل البحر الابيض وتكون صلة الوصل بين القيادة العامة في داخل المملكة» . (1)

وهكذا شهدت مدينة سبتة ذلك الاشعاع العمرانى والحضارى، وكانت محطة للقوافل الدينية والعسكرية والتبشيرية مثلما كانت عليه القيروان، الا أنه بعد نكوص المسلمين على الاعقاب، في شبه الجزيرة الايبيرية بعدما كانت فتوحاتهم بلغت أوجها، حيث وصلوا الى جنوب فرنسا، بقيادة عبد الرحمن الغافقى، فان عوامل التأخر أدت بهم الى أن ينحسروا ليس على تلك الفتوحات فحسب، وانما هوجموا في عقر دارهم وذلك نتيجة للتضعف الذى لحق بملوك المرينيين المتأخرين، فلم يسيروا على نهج أوائلهم الذين بزوا الاقران مثل يعقوب بن عبد الحق وأبى الحسن المرينيين، بينما الممالك المسيحية في اسبانيا تتوحد لهدف واحد، وهو محاربة المسلمين، اينما وجدوا في امارة بنى الأحمر

(1) هنا ينتهى الجزء الثانى من بحث «الريف بعد الفتح الاسلامى»

بغرناطة التى كانت تلفظ نزعها الاخير فى الاندلس، أو فى المغرب، حيث كانت اسبانيا والبرتغال تتقاسمان مناطق الاحتلال، فاخضعت اسبانيا بالمناطق الشرقية التى احتلتها فى التواريخ التالية، والتى تضم لائحتها جزائر (بادس 1508 م) (النكور 1560 م) (مدينة مليية 1494 م) (الجزائر الجعفرية 1848 م) (الى وهران 1509 م) .

واختص البرتغال بسبته 1415 م. وما وراءها غربا فى لائحة تضم عدا سبته، القصر الكبير 1458 م طنجة 1471 م، أصيلا 1471 م العرائش 1510 م المهديّة 1515 م، أنفا 1571 م (الدار البيضاء حاليا) الجديدة (1) 1502 م آسفى 1512 م أكادير 1510 م، والدخلة 26-12-1884 فى الصحراء المغربية بواد الذهب .

وعليه فان أول احتلال أجنبى لتراب مغربى كان 1415 م. 818 هـ. من طرف ملك البرتغال جوان الاول الذى استعان على احتلال سبته بالخداع، حسب أحد روايات المؤرخين، وهى أنه أنزل فى مينائها صنادق يظن أهالى سبته أنها مملوءة سلعا فاذا بداخلها أربعمائة محارب، خرجوا على حين غفلة من أهلها فاستولوا على المدينة، وكان ذلك أيام السلطان أبى سعيد بن احمد المرينى، فاستصرخوه، فلم يعر لهم أى اهتمام، فرجعوا من حيث أتوا بدون طائل (2) وفى الاستقصاء «كان ذلك بعد حصارها لمدة ست سنوات» وزاد غيره (3) «بعد الاستعداد من البرتغال لمدة ثلاثة أعوام» وان ملك البرتغال هو الذى ترأس الحملة مصحوبا بأولاده الثلاثة: ضون بيدرو وضون دورطى وضون انريكي . وبقي احتلال البرتغال الى سنة 1580 م حينما توحدت الدولتان تحت تاج غليب الثانى، ولكن عند انفصال البرتغال عن ذلك التاج بتاريخ

(1) كانت تدعى البريجة وعندما أخرج منها البرتغال تهدمت بسبب تلك الحروب فجدها السلطان المولى عبد الرحمان فسميت الجديدة الاستقصاء ج. تسع. ص. 12 .

(2) الاستقصاء ج. 4 ص 92 .

(3) تاريخ الحملات على المغرب باللغة الاسبانية .

1798 استأثرت اسبانيا بسبته، بناء على استفتاء بين السكان المسيحيين، لان المسلمين هاجروا بدينهم عن مدينتهم الاسلامية التي تكالب عليها اندهر بعد عزة وصوله، ولم يرضوا أن يبقوا محكومين، بعد أن كانوا حاكمين، على أن المسيحية فرضت عليهم الهجرة القسرية، أو الدخول في المسيحية كما فعلت بالاندلس .

وعلى كل حال، فان الاستيلاء على سبته كان أمرا محبوبا سياسيا، وعسكريا، بين الدولتين الاسبانية والبرتغالية، وكان القصد منه طرد المغرب من شبه جزيرة ايبيريا الذي كان يؤازر أمراء بنى الاحمر بغرناطة ويمد اليهم يد المعونة، وذلك للقضاء على هذه الاخيرة نهائيا، وفي هذا المجال، فان مملكتي قشتالة وأراغون اتحدتا للوقوف صفا واحدا لطرد الامارة الاسلامية الباقية هناك، كما كان الشأن بعد ذلك بالنسبة للاتفاق المعقود بين اسبانيا والبرتغال عام 1509، لتقسيم القارة الافريقية التي بدت لهما انها أدنى الى السقوط في ايديهما، نتيجة تضعع الحصن الكبير، وهو المغرب، الذي كان يعتبر بالنسبة لافريقيا الحاجز الامامي، وسبب تضععه تكالب حيل بنى الاحمر عليه من جهة، حيث الملوك المرينيون كأبى سالم بن أبى الحسن، وابن زيان بن محمد بن يعقوب، قعدت بهم همتهم، وانحطت سمعتهم الى الدرك الاسفل، وكان بلاطهم عبارة عن دسائس داخلية تنتهى بهم الى القتل والسكر والعريضة، حتى اذا جاء عهد أبى سعيد بن احمد المريني .

فبينما كانت احداث سبته تجرى على حافة مملكته بالاندلس، وكان الحزم يقضى عليه ان ينجذ هذا الشر، لانه المنفذ الوحيد والقريب الى اعدائه بالاندلس فانه أجاب استصراخ سكان جبل طارق الذي كان تحت امرأة بنى الاحمر نظرا الى ان الاهالى استصرخوه، خوفا من حصار الاسبان، فكانت النتيجة أن أقتتل المسلمون داخل القلعة بعدما فتح السكان أبوابها للجيش المريني الذي كان بقيادة أخى أبى سعيد المدعو عبو، وأخذ جند بنى الاحمر أسيرا، وبعثوا به الى غرناطة حيث استعمله بنو الاحمر في ان يقوم على أخيه بالمغرب، ليقدموا له معونة فقبل، وكانت النقاضية على الجميع، وربح الاعداء، وثبتوا أقدامهم على مدينة سبته

التي جرت بعدها احتلال قلاع أخرى، وذلك لتطويق المغرب من الصحراء الى حدود الجزائر .

ومن يوم احتلالها وقصائد الرثاء والمحمات تحبر وتنتشر الى يومنا هذا، حيث قرأت لاحد الشعراء المعاصرين من هذا القبيل، ولكن لا تلك القصائد ولا البكاء بمجد لها لفكاك أسرها، وانما الذي يخلصها هو العمل الوطني الحماسي بالوسائل العصرية السائدة .

ومما قيل قديما قصيدة العلامة عبد السلام جسوس التي جاء في مطلعها: «رفعت منازل سبتة أقوالها» الى آخر القصيدة التي ستأتى عند الكلام عن الجزيرة .

ومما قيل في هذا العصر قول الشاعر الاستاذ محمد الطو :

لاحت رباها الخضر شاحبة الرؤى خلف الحدود
حسنا ترفل في السلاسل والغلائل والبرود

أجرى وراها في جنون وهي تمعن في صدودي
كالفجر طلعتها الوضيئة في ابتسامات الورود

قد قاومت كسر الزمان كأنها بنت الخلود
وأبت روايتها الشوامخ ان تطأطيء للسجود

شمخت بعزتها كما كانت على عهد الجدود
وقفت تراقب من بعيد زحف فتيتها الاسود

لاحت فكفكت الدموع وتاه عقلى فى شرود
هذى مغانينا التي خفقت بها حمر البنود

وتجاوبت أصدائنا فيها كأصوات الرعود
وسقت جحافلنا رباها بالدماء وبالصيد

أبصرتها في النار غارقة في كتل الحديد
وسمعت انتها الجريحة في الحنايا كالوقود

ورأيت فيها سادة بالامس كانوا كالعبيد
يتفنيون ظلالها في نضرة العيش الرغيد

فى ناطحات للسحاب تطل كالبحر المديد
 ورأيت اخوتنا هناك بيوتهم شبه اللحد
 غرباء فى نظراتهم معنى السيادة والمسود
 يتطلعون على شقائهم الى الافق البعيد
 ولقد وقفت على الديار فلم يطب فيها قعود
 لم تصبنى فيها الحصان ولا انثيت مع القدود
 فطفقت أسألها سؤالا متيم صب عميد
 عصر الحنين فؤاده وبكى وفاء بالعهود
 ومتى استطاع الدمع تحطيم الحواجز والسدود ؟
 ومتى تحررت الممالك بالامانى والوعود ؟
 يا سبتى رغم الانوف ورغم عجرفة الحسود
 هل أنت الا درة فى تاج المغرب العتيد
 سرقتك فى وضوح النهار يد تطالب بالشهود
 ظنوا ابتلاعك سيساغ يوما بالجمود
 ستعود فتيتك الاسود متى أفأقت من هجود
 تشد وعلى ربواتك الخضراء قدسى النشيد
 يرفرف العلم المخضب فى سماها من جديد
 ياسبتى رغم الانوف ورغم عجرفة الحسود
 قسما سيجمعنا الزمان ونلتقى فى يوم عيد

جزيرة بادس :

يقع خط عند بعض الكتاب، بين جزيرة بادس المحتلة وبين مدينة
 بادس التاريخية، ومن هذا القبيل ما قرأته لبعض الكتاب (1)، حيث
 استشهد بقول المؤرخ الشريف الادريسي السبتي «بادس مدينة متحضرة

(1) من محاضرة نشرت بالعلم بتاريخ 8-2-1971 .

فيها أسواق وصناعات، وهى آخر بلاد غمارة، ويلجأ إليها أهل غمارة لقضاء حوائجهم» .

استدل به لحجرة بادس، مع أن الادريسي كان يتكلم عن المدينة التي كانت قائمة في اليايسة، والتي ذكرناها سابقا كأحد المدن التاريخية. أما حجرة بادس فهي جزيرة تسامت المدينة، ولذا نسبت إليها، ويسميتها الاسبان «البينيون»، وكان يسميها الجغرافيون الاسبانيون «فليس دي لاغمارة» .

على أن نفس المؤرخ الادريسي وقع في خلط، حيث قال بأنها آخر بلاد غمارة، مع أنها في الواقع تقع في صلب قبائل الريف، وهى قبائل صنهاجة بادس، حسبما عند صاحب كتاب «صلحاء الريف»، فهى واقعة بآخر الشاطئ الغربى لقبيلة بقبوة، مجاورة لشاطئ قبيلة بنى بويفرح، وهى بعيدة عن بلاد غمارة .

وعلى كل، فان الجزيرة يفصل بينها وبين اليايسة قناة من ماء البحر، يصل عند المد الى حوالى 70 مترا وينحسر عند الجزر، فيتمكن العابرون لاجتياز القناة راجلين في ضحل من الماء لا يصيبهم الا بلل فى النصف الاسفل من ذواتهم، أما مساحتها فتقدر بـ 2500 مترا مربعا، وقد حصنها الاسبان وبنوها بناء شاهقا بحيث جعلوها كصومعة فى داخلها دروب، سميت بأسماء اسبانية، كما قسم داخلها الى غرف للمصالح الادارية، والعسكرية، وختمت فى أعلاها بمسطح مريح، له منظر بحرى خلاب .

ان الدور التاريخى لهذه الحجرة مستمد من وجودها على رأس مدينة الجهاد والعلم والصلاح (بادس) التى لها شأن وأى شأن فى حياة جهات الريف خاصة والشمال عامة، حيث كانت تعتبر من أهم رباطات شواطئ الشمال بالمرتبة التى تلى مدينة سبتة، ومرقا للمدينة، والتى كانت ملجأ طبيعيا ترسو بجدرانها السفن والزوارق التى تقصد المدينة للاغراض المختلفة، ولذا يكون بها اهتمام خاص، كما أنها كانت ملجأ لسكان المدينة عندما يداهمهم عدو برياء، يعتصمون بها الى أن ينجلي المد لهم. واذا كانت الفترات التى نكب فيها الاندلس، عرفت القرصنة

البحرية، تجوب هذه الشواطئ فانه بالطبع ازدادت أهمية الجزر الشاطئية، لانها تكون مرساة سفن القرصنة .
فقد تجلى التهافت على هذه الجزر منذ أن قامت الدولة الوطاسية، التي جعلت همها حماية شواطئ شمال المغرب ومن ضمنها طرد البرتغال من سواحله، فكافحت ضده في البلاد الهبطية فطردته عن مدن أصيلا والعرائش وطنجة .

وقد قدر للسعديين أن ينتصروا وتوطدت أركان دولتهم، وتغلب محمد المهدي الملقب بالشيخ، الا أن علاقة هذه الدولة مع جيرانها: أتراك الجزائر لم تكن حسنة، بل تأزمت الامور بينهم الى حد بعيد وذلك لان السعديين يرون ان الاتراك غاضبون اذ استولوا على تركة دولة بنى زيان بتلمسان، ويرون أن ذلك التراث حق مغربي (1) فطالما كان المغرب في عهد المرابطين والموحدين وأوائل المرينيين مسيطرا على تلك الجهة، فتلمسان وجهاتها كانت اقليما من أقاليم المغرب، ذلك ما أدى الى تنافر كبير بل الى حرب، فالسلطان أبو عبد الله الشيخ هجم على تلمسان عام 957 هـ. ودخلها واجلى عنها الاتراك، بينما سليمان القانوني العثماني ارسل بعثة سرية، اغتالت أحد أولاد السلطان محمد الشيخ، ويدعى عبد القادر، وكان وزيرا لابييه، وعدوا لدودا للاتراك، وكان من الشجاعة بمكان.

ولم يقتصر عمل الاتراك على هذا الاغتيال، بل هيأوا حملة حربية لمساعدة أبي حسون الوطاسي فاتح عام 961 هـ. فاستولى على فاس، الا أن السلطان السعدي استجمع قواه فرد عادية ابي حسون الوطاسي فقتله واسترد فاسا في شوال 961 هـ. (1555 م) وقد بقى أبو حسون محتلا لها تسعة أشهر .

ولما لم يحصل الاتراك على مبتغاهم طالبوا من السلطان السعدي تحديد الحدود الشرقية وتعيينها فأوفدوا في أواخر نفس العام من قبلهم الفقيه الصالح أبا عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي، وكان مقيما في الجزائر، الا أنه لم يحصل على طائل، ذلك ما اضطر الاتراك

(1) الاستقصاء ج. 4. ص. 161 .

الى الاعتماد على العمارات البحرية وقرصنتها، فكانت سفنها تجوب شواطئ الشمال، ويحتلون جزيرة بادس كمركز لتهديد المغرب .
على أن الباعث لاحتلالهم هذه الجزيرة لم يكن للتهديد فقط، بل غرضهم كان هو للاستلاء على المغرب، أسوة بالجزائر، وقد يكون السبب الحقيقي لتأزم الامور بينهم وبين المغرب وذلك أيضا ما جعل المغرب يبعد خطرهم عن حدوده بمهاجمتهم في تلمسان، لان الباب العالي التي لا تكاد الشمس تغرب عن ممتلكاته في القارات القديمة يعز عليه أن تستعصى عليه دولة في أقصى المغرب .

وضعية احتلالها

استرعى انتباهي بالخصوص فقرتان اثنتان جاءتا في جريدة يومية (1) .

الاولى هي «وعقد الغالب بالله مع الاسبان اتفاقية سرية تنازل فيها للاسبان عن جزيرة «بادس» .

ثم جاء في الفقرة الثانية «وتجمع من المجاهدين في بادس نحو 8000 مجاهدا لمقاومة هذا الغزو الصليبي، لكن مجاهدي بادس كانوا غير منظمين تنظيما عسكريا، بخلاف العدو، الى أن قالت وقد استغاث أهل بادس بالسلطان الغالب بالله بدون جدوى لجهلهم اتفاقية السر مع الاسبان، لتسليم جزيرة بادس لهم، قصد طرد الاتراك، خوفا منه أن يتسربوا من الجزيرة للمغرب» .

ولعل أن الذي كان السبب في الاعتماد على وجود الاتفاق السري هو النص الذي نقله الاستقصاء صحيفة 49، ج. الخامس طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء، عن نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي «لابن عبد الله محمد الصغير المراكشي المعروف باليفراني المتوفى ما بين 52-1154 هـ. (177 م) .

والذي جاء فيه «ذكر بعضهم أن السلطان الغالب بالله لما رأى

(1) العلم عدد 8947 بتاريخ 22 دجنبر 1974 تحت امضاء ابن الريف .

عمارة ترك الجزائر وأساطلهم لا ينقطع ترددها على حجرة بادس، ومرسى طنجة، وتخوف منهم، اتفق مع الطاغية أن يعطيه حجرة بادس، ويخليها له من المسلمين، فتقطع بذلك مادة الترك عن المغرب، ولا يجدون سبيلا اليه، فنزل النصارى على حجر بادس وأخرجوا المسلمين منها ونبشوا قبور الأموات وحرقوها وأهانوا المسلمين كل الاهانة، ولما بلغ خبر نزولهم نولده محمد، وكان خليفته على فاس، خرج بجيوشه لاغاثة المسلمين فلما كان بوادي اللبن بلغه استيلاءهم عليها فرجع، وتركها لهم . ولكن هذا النص لم يعتمد لا اليفراني ولا صاحب الاستقصاء، وإنما جلباه لاجل نقضه ورده .

فقد قال صاحب الاستقصاء عقبه نقلا عن اليفراني «هكذا وجدته في ورقة مجهولة المؤلف». وقال أيضا في صحيفة 55 في نفس الجزء، نقلا عن اليفراني موضحا اسباب عدم الاعتماد على النص المذكور، ومؤكدا بصراحة انها أكذوبة على الغالب بالله من أحد خصوم الدولة السعدية مقال معددا مسائل قيلت ضده، وهي «ومثل ما ذكره بعضهم أعطى حجر بادس للطاغية لتقطع بذلك مادة الترك» .

«ومثله ما ذكر عنه أيضا أن قائد بنى تودة أخذ أسوار الجديدة، وعزم على فتحها من الغد فكتب اليه السلطان المذكور ينهاه عن ذلك» . ونظيره أيضا قضيته مع أهل غرناطة .

ثم قال أي اليفراني «وهذه أمور شنيعة ولست أدخل في عهدها، لأنني رأيتها في أوراق مجهولة المؤلف، اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية، وظنى أنها من وضع اعدائها لحطه من قدرهم، واخراجهم من النسب الشريف، ووصف دولتهم، بالدولة الخبيثة» .

ونظرا لكون اليفراني هو المصدر الوحيد الذى نقل ما جاء فى الورقة المجهولة، فانه تبرأ منها ونقضها عروة عروة، فلم يبق للكتاب أيا كانوا أن يعتمدوا نصا مردودا أساسا لكونه لم يستند الا على ورقة مجهولة فى موضوع خطير كتقويات السيادة على جزء من الوطن . على أن الثابت تاريخيا، أن الجزيرة كانت محل صراع بين قرصنة

الأتراك وقراصنة الاسبان للاستيلاء عليها لمكانها الاستراتيجي الحربي، ولان مدينة بادس كانت مرفأ لفاس وتازا، وهي صلة الوصل بينهما وبين الاندلس .

وعندما احتله الاسبان زمن الغالب بالله السعدى بعدما هجموها بأسطول مكون من 92 سفينة حربية اسبانية وبرتغالية تجر جيشا ضخما من مرتزقة الالمان والصقليين والطلين، زيادة على الاسبان والبرتغال، امتنع الغالب بالله من الاعتراف بالامر الواقع بعقد معاهدة مع الاسبان لشرعية الاحتلال .

وللاستدلال على ذلك ننقل هنا ما جاء في السلسلة الاولى السعدونية، ج. لث. صحائف 15-63-141-151 وج. ل. ص. 263 فقد جاء ملخص الجميع، انه «تكررت تلك الحملات مرات متعددة، فكانت قراصنة الاسبان من مليلية، يغيرون عليها، بينما قراصنة الجزائر (الأتراك) يتخذونها مقرا لهجومهم على سواحل الاندلس، واقتناص السفن المتوجهة الى الهند، يعاونهم في ذلك قراصنة تطوان والعرائش وكانت قراصنة مليلية يؤدون لملك اسبانيا خمس اسلابهم، ولولائهم كانوا يحملون الى اسبانيا والبرتغال سنويا، أزيد من مليون من العملة الذهبية.

وكان الجند الريفى يتصدى للاسبان الذين يحتلون جزيرة بادس، وقد طردوهم منها عام 929 هـ. وبقي الوطاسى أبو حسون، ثم السعديون مالكين لبادس الى عام 1554 م (961-962 هـ.) حيث احتلها الأتراك نحو من عشر سنوات ثم استرجعها الاسبان، وهدموا مدينة بادس فتخربت واحتفظوا بجزيرتها معززين بـ 92 سفينة برتغالية واسبانية مع جنود مرتزقة من الالمان والصقليين والايطاليين ثم استرجعها الأتراك، وقد رفض السلطان امضاء معاهدة للاعتراف بالامر الواقع، ووجه قائدين لاسترجاع الحصن .

وعليه فان النصوص التاريخية العربية ضد القول بأن أية سلطة مغربية قد فوتت الجزيرة الى الاسبان ولا يمكن تركية استيلائهم عليها بطرق الاتفاق أو المعاهدة السرية أو العلانية، وانما احتلالهم اياها هي من سلسلة الاعتداءات الاسبانية على الشواطىء المغربية في ذلك التاريخ،

وياما أكثرها وياما أكثر ماردت على أعقابها خاسرة تجر اذيال الهزائم، ولم يغنها انها تمسكت بكل ناعق مغامر ينقم على الدولة المغربية، مثلما فعلت مع الشيخ المأمون بن احمد المنصور الذى فر امام أخيه السلطان زيدان الى اسبانيا حيث استعدى بملكها ليفزو المغرب مدعيا الاحقية بالملك من أخيه، واستجابت اسبانيا لمطلبه «مسرة حسوا فى ارتغاء»، كما يقال وطلبت منه أن يمكنها من العرائش بعد اخلائها من المغاربة فجاء أى المأمون يجر من ورائه خراب وطنه فى سفن الاعداء، فنزل بجزيرة بادس ثم ارتحل الى القصر الكبير وأمر أحبد قواده باخلاء العرائش وتمكينها من الاعداء، وقد يكون الاسبان عرجوا عن جزيرة بادس لتزكية احتلالهم بوجود هذا الناعق الذى يرومون من استعماله دمية فى يدهم لاغراض مدسوسة .

ولكن لا هذا الناعق ولا الجيش الاسبانى استوفى مراده، فالشيخ المأمون قتل بفج الفرس، ما بين تطوان وطنجة بتاريخ 1022 على يد المقدم أبى الليف (1) وتركت جثته فى الخلاء طعمة للغربان، والجيش الاسبانى رجع مفلولا من حيث أتى، فلم تكن هناك تركية ولم يكن هناك خلود فى العرائش بفضل صمود المغاربة أمام المغيرين . وكما استرعى انتباهى أيضا ما جاء فى نفس المقال عن مساحتها «من أنها حوالى 12.825 مترا مربعا وهو ما يساوى اثنى عشر هكتارا وخمس وعشرين وثمانمائة ءارا» .

والحقيقة أن مساحة الحجرة هى 2500 مترا مربعا أى ربع هكتار فقط على أنه حسب الرقم الذى أعطاه صاحب المقال وهو 12.825 لا يتوفر الا على هكتار وربع وبعض آرات وليس اثنى عشر هكتارا كما يدعى المقال .

وعلى كل، فان الاسبان احتلوها عام 914 هـ . (1508 م) وبنوها وحصنوها، وكان أول من احتلها الربان «بيدرو نافارو» (2) بدعوى

(1) الاستقصاء ج. 4. ص. 143 .

(2) الاستقصاء ج. 6. ص. 22 .

مراقبة السفن التي كانت تأتي من البندقية، للاغارة على سواحل اسبانيا
ضمانا لتجارها التي تسوقها الى مرسى بادس، كل سنة، وكان الاحتلال
بواسطة قوة «لا رمادة» وأقام عليها رئيسا هو «خوان دى فيالولس»
الى سنة 1522 حيث انتزعها الاتراك من يديهم بعد هجوم عليها من طرف
جنود البسوا لباس الاسبان فظن هؤلاء ان اغاثة أرسلت اليهم من دولتهم
حتى اذا تمكن الاتراك من الجزيرة أسروا الحامية الاسبانية .

ومن هنا بدأ التنافس الشديد على احتلالها بين الاتراك والاسبان
وكلاهما أجنبيان على المغرب. وكانت سفن الاتراك بقيادة خير الدين
برباروس تجوب عباب البحر المتوسط مترصدة تحركات الاسطول
الاسباني في تلك المياه .

وعندما تمكن الاسبان من الاستيلاء على الجزيرة للمرة الثانية،
طردوا منها الحامية التركية مخلفة هناك 21 مدفعا تركيا، جاءت قوة
صالح الرأيس التركي حاكم الجزائر سنة 1555 فهجمت على الجزيرة ودكت
تحصيناتها، ثم استولت عليها في عهد أبي حسون الوطاسي، الذي بانقضاء
عهده انقضى عهد الوطاسيين، ولمع نجم السعديين حيث تمكن السلطان
محمد الشيخ من تأسيس الدولة الجديدة، وكان لزاما أن يقطع الطريق عن
الاسطول التركي اعداء الدولة الفتية، والمؤازرين للوطاسي أبي حسون
مؤازرة سافرة

وفي خضم أحداث كثيرة جرت بين السعديين والاتراك سواء
أيام محمد الشيخ أو خلفه الغالب بالله، حيث تصعدت تلك الاحداث
الى معارك وجهها لوجه سنة 1557 م. اذ تحرك الاتراك بجيوش جرارة
لاحتلال فاس، فالتقت بهم جيوش الغالب بالله في وادي اللب فكانت
الهزيمة على الاتراك وفروا متحصنين في جزيرة بادس، وكانت تحت
أيديهم (1) .

وفي سنة 1564 م. جهز فليب الثاني أسطولا بحريا طيبيا يتكون
من 92 سفينة حربية محملة على ظهرها قوة كبيرة خليطة من الاسبان

(1) الاستقصاء ج. 5. ص. 39 .

والطليان والالمان والبرتغال والانجليز، بقيادة الجنرال «غرسيا طولدو» ففاجأت هذه القوة حامية الاتراك في الجزيرة وحاصرتها، ثم سقطت في يد الاسبان في غشت 1566 م. ومن هذا التاريخ وهم يحتلون احتلالاً جائراً غير مبنى على أى اتفاق من طرف سلاطين المغرب كما أسلفنا .

وكان الغرض من هذا الاحتلال، أمرين اثنين أولاً: قطع الطريق عن الاسطول التركى الذى اقض مضجع الاسطول الاسبانى وذلك حتى لا يجد الاسطول التركى ملجأ يلجأ اليه على شواطئ الشمال، وقد عمد الاسطول الاسبانى أن يسد فى وجه الاتراك كل ملجأ، ومن ذلك ما قام به من سد مصب وادى مرتيل باعراق خمس سفن محملة بالاحجار والجير فى مدخل الوادى، لانه بعد احتلالهم لمليلىة والنكور وبادس وسبتة لم يبق مفتوحاً الا وادى مرتيل الذى كان يكون دلتا ترسو فيها السفن فراراً من العواصف وللتزود بالمواد الضرورية، وكانت السفن تدخل الوادى الى تامودة بضواحي تطوان .

فقد جاء فى رسالة (1) قائد أسطول البوغاز «دوق الفارودى بانان» من اشبيلية، الى ملك اسبانيا (فليب الثانى) بتاريخ 3 نوفمبر 1564 م. (972 هـ) ما تعرييه: «أما ما ذكرتم جاللتكم فيما يتعلق بما كتب به اليكم دون غرسية ديطوليد وعن اغلاق مدخل نهر تطوان، فيجب على أن أذكر لكم أنه بعد الاستيلاء على البانيون (وهو الاسم الذى يطلقه الاسبان على جزيرة بادس) لم يبق للسفن التركية، فى البحر الابيض، من الجزائر للبوغاز مرفأً تلتجى اليه، الا ذلك الوادى، ولهذا فانما كتب به اليكم دون غرسية يعتبر مشروعاً عظيماً الفائدة وأنا أستطيع أن أقوم بذلك العمل ولدى ست من السفن الكبيرة، فيلزم أن تزود بما يكفيها لمدة شهر، وهى المدة اللازمة للذهاب فى فصل الشتاء، ووادى تطوان نهر جيد، ذو قم واسع، وأرضه رملية ومدخله صالح للملاحة، فى أوقات دون أخرى، ولأجل اغلاقه تلزم أربع سفن، لاغراقها محملة بالحجارة والجير عند مدخله ولا بد لانجاح هذا المشروع عن احاطته بالتكتم التام» .

(1) تاريخ تطوان للاستاذ داود، ص. 126 ملخص .

وقد أجابه الملك المذكور أمرا له بتنفيذ المشروع برسالة صادرة من مدريد بتاريخ 21 نونبر 1564 م. وفعلا فقد نفذ الاسطول الاسبانى هذا المشروع وأغلقت المدخل صبيحة يوم 9 مارس 1565 م. باغراق السفن المحملة بالاحجار، وذلك بعدما جرت معركة حامية الوطيس مع الاسبانيين الذين نزلوا الى اليابسة لتأمين هذا الاغلاق، فقد وصل الخبر الى المغاربة المحيطين بالوادى من مدينة تطوان وقبائلها، بأن الجيش الاسبانى عازم على مهاجمة تطوان، فاستعدوا لذلك، ولكن الاغلاق وقع طبق المشروع الاسبانى .

استغاثة على لسان الشعراء :

ان كوارث المغرب أصبحت من أواخر المرينيين فالوطاسيين فالسعديين تنترى، فالشواطىء المغربية مزقت شر ممزق بين المحتلين، فهذه ثغور سبتة وطنجة وأصيلا تحتل أيام المرينيين، وهذه ثغور البريجة (الجديدة) وسواحل سوس وآسفى وأزمور والمعمورة تحتل أيام الوطاسيين، ورغم أن قيام الدولة السعدية كان لسد الثغور التى تركها الوطاسيون بسوس عورة، فان الاحتلال أيام السعديين أصبح عملا شبه رسمى، ففى زمن الغالب بالله استولى الاسبان على بـادس والمزمة، ومحمد الشيخ بن المنصور اذن لهم باحتلال العرائش .

ثم أنه أتت بعد ذلك الدولة الشريفة العلوية، فوجدت نفسها أمام هذه المخلفات الثقيلة وجها لوجه الا أنها قامت باعباء استرداد تلك الثغور واحدا تلو الآخر، فقد شمر السلطان المجاهد مولاي اسماعيل وشنها حملة شعواء على المعتصبين .

وقد قام المجاهدون المغاربة فى الشمال بواجب وطنى شريف، فلبوا نداء السلطان الهمام، وقاوموا قوة واحدة تحت لواء قائدهم أبى الحسن على بن عبد الله الريفى، فحاصروا طنجة، ففى عام 1095 هـ . بعدما طال الحصار على المحتلين، انسلا ليلـا فارين فى مراكبهم البحرية، حيث تركوا المدينة فارغة، بعدما خربوا معالمها، الا أن قائد المجاهدين قد رمم ذلك فى أسرع وقت، وأصلح أحوالها، وفى سنة 1100 هـ . تلقى المجاهد احمد بن حدو الريفى البطيوى من قبيل بطيوة على رأس جماعة

من المجاهدين من طرف السلطان أن يتوجه الى العرائش لافتتاحها، فتوجه اليها، واستبسل المجاهدون في هجماتهم ضد العدو، الى أن افتتحت سنة 1101 هـ.

ولهذا أصبح يطلق على أبناء الريف اسم المجاهدين فلا يرد في الكتابات الرسمية في حقهم الا أفعال بالمجاهدين كذا وأوصيك بالمجاهدين الى غير ذلك، لانهم اثاروا حماسا جهاديا منقطع النظير، فطردوا عن تسايطي، الشمال ما كان فيها من رجس الغزاة، ففى العرائش كان النصرارى المقيمون في ذلك الثغر 3200 قتل منهم أثناء القتال الفان وأسسر الباقى، ولم يكن الفتح صلحا كما زعم الاسبان، بل كان عنوة، وقد كافأ المولى اسماعيل هؤلاء المجاهدين فأسكنهم مدينة العرائش، وأمر القائد احمد الريفى أن يبنى لهم مسجدين وحماما، وأن يبنى داره هو بقلعتها (1) الى أصيلا :

وفي غمرة الافتتاح توجهت همته أيضا لفتح أصيلا، فأمر نفس المجاهدين، فتوجهوا اليها وحاصروا حامية الاسبانيين فيها مدة سنة كاملة، وعندما بلغ بهم الضيق كل مبلغ طالبوا الامان، فأعطاهم السلطان ذلك، الا أنهم رجعوا فركبوا البحر ليلا ناجين بأنفسهم الى اسبانيا، لا يلوون على شيء .

وقد فعل السلطان مع المجاهدين نفس العمل، فكافأهم باسكانهم مدينة أصيلا، وبنى لهم مسجدين ومدرسة وحماما ودارا لقائدهم بالقلعة. ويظهر أن عدد المجاهدين تكاثروا، ولذا اسكنوا في المدينتين معا وهو ظاهر .

الاستفاضة :

وقد تبارى العلماء والشعراء بعد هذا الانتصار، لاستحضاث همة السلطان المجاهد، لفك رقاب الثغور المغربية الشمالية والجنوبية، وكانت بادس وسبته والجديدة تنن تحت النير الاجنبى .

فقد قال الفقيه العالم الورع أبو محمد عبد السلام ابن حمدون جوس يستحث همة الغازى مولاى اسماعيل، على لسان هذه الثغور :

(1) الاستقصاء ج. ص. 74 .

تشكو اليكم بالذى قد هالها
وتنبهوا كى تسموا تسألها
قل يا أمير المؤمنين أنا لها
مع طنجة فاقضوا لذي آمالها

رفعت منازل سبتة أقوالها
مع بادس وبريجة فتعطفوا
يا بن النبي الهاشمى محمد
فلقد قضيتم للعرائش حاجة
الى أن قال :

كيما تقطع بالعدا أوصالها
حتى تراهم نازلين جبالها
من الضعف مادام العدا انزالها
تقفو الشريعة مؤثرا افعالها

فابعث لها أهل الشجاعة عاجلا
وأمدهم بمؤونة ومعونة
وارفع لهذا الغرب رأسا أنه
أبقاك ربى للخلافة عدة

جزيرة النكور :

هذه الجزيرة تقع فى صميم خليج الحسيمة، أمام رباطة
المجاهدين التى تحولت الآن الى نادى البحر الابيض المتوسط، وتبعد
عن الهابة بحوالى 500 مترا .

ومساحتها 15.000 متر مربع، وترتفع عن البحر بنحو 27 متر.
وبهذا الاسم كانت تعرف عند جغرافى المغرب، كالبكرى وغيره،
وذلك أخذا من اسم الوادى الذى يصب شرقى تلك الجزيرة بنحو أربع
كيلومترات، وهو وادى الفكور، أما الواد الذى يبعد عنها بنحو كيلومتر
واحد فهو وادى غيس .

وقد كانت فى عهد امارة النكور للعرب الحمريين ملاذا لبعضهم
فى الحروب، وكانت مرفأ لمدينة المزمة التى كانت على الشاطئ المقابل لها.
وقد بينا فى مناسبات من هذا لاكتاب الاهمية القصوى التى كانت
تتوفر عليها، وبالاخص اثناء احتلال اسبانيا لها بتاريخ 1673 م. حيث
عنيت من طرفها بتحصينات عسكرية مهمة، كما قامت بأدوار سياسية
استعمارية .

ويسمىها الاسبان «بلاوسيماس» التى اشتقت منها كلمة
الحسيمة، وقد بينا سابقا وجه التسمية بهذا الاسم .

مدينة مليية :

بجوار قلعة مليية كانت مدينة أزية تدعى روسادير، وهى فنيقية وكانت مرسى شرقى القلعة متصلة بها وكانت محطة التجارة الفنيقيين ابان ازدهار دولتهم الشرقية بلبنان، والغربية بتويس القرطاجنية، ثم استعمرها الرومانيون بعد الفنيقيين .

أما القلعة التى هى مجاورة لروساديس، فكانت تدعى قلوع جارة، واليه تنسب قبيلة قلعية وأول من بنى هذه القلعة وحصنها الامير مليل، أمير بنى يفران، واليه تنسب مدينة مليية، وقد أسسها عام 92 هـ. كما سبقت الإشارة اليه .

وتقع المدينة عند تقاطع خط الطول بدرجتين و52 دقيقة غربى كرنيش ودرجة 35، 21 دقيقة من خطوط العرض شمال خط الاستواء .

أما أسرها لدى الاسبانية فقد كان على الشكل التالى: عندما سقطت آخر مملكة فى الفردوس المفقود وهى مملكة بنى نصر بغرناطة فى أواخر القرن الخامس عشر، واستولت الكاثوليكية بقيادة الملكين الكاثوليكين الاسبانيين على ما تبقى فى يد المسلمين من أمر الاندلس، وبعد خمس سنين من سقوط مملكة غرناطة، شرع الاسبان يهجمون على المغرب، ومن ضمن ذلك الهجوم على مدينة مليية .

وذلك أن مليية كانت محل نزاع بين سلطنة تلمسان، وسلطان المملكة المغربية محمد الشيخ الوطاسى، ولحسم النزاع بينهما التزاما معا اخلاءها من قوة كل من السلطتين وتركها خالية، واذ ذاك اهتبلها الغزاة الاسبان، وانزلوا بها 500 فارسا بقيادة «بدرو دى لسطوبنيان»، الذى نال لقب دون مدينة شدونة .

وبهذه السهولة نزل الغزاة فى هذه القلعة بقوتهم التى لم تلق أية مقاومة، لان المسلمين، تركوها عورة لما نشأ بينهم من الخلاف، وهى قلعة أزية لها أهمية كبرى، وقد شهدت الاسطول التجارى الفينيقى ينزل تجارته بجانبها كما شهدت الاسطول الاستعماري الرومانى الذى جعلها قاعدة وصلة بين استعمار المغرب والجزائر .

وكانت تعتبر قاعدة شعب بطيو في الريف وقد كانت مجازا لصقر قریش الاموى، حيث مر منها الى الاندلس، لتأسيس المملكة الاموية ذات الشأن الاكبر المعروف (1)، وكان من الطبيعي أن تحتل بهذه السهولة مادام هناك نزاع بين سلطتين ذاتي شأن .

ورغم ان المجاهدين الارياف بعد استيلاء الغزاة عليها، قد قاموا بالقسط الاوفر من الجهاد لرد عادية المغيرين، الا أن موقع القلعة من المناعة، وتحصينها بالاسطول الاسباني بحرا، قد فث في عضد المجاهدين. ففي خلال مدة خمسة قرون لم يفتأ الحصار مضروبا عليها، وبالاخص في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ففي هذا القرن الاخير وبالضبط بتاريخ فاتح شتنبر عام 1774 م. ثمر السلطان المجاهد مولاي محمد بن عبد الله العلوي، فقرر حصار كل من سبتة ومليلية، لاسترجاعهما الى حظيرة الوطن، ولكن قوة الاسطول الاسباني الذي يزود الحصنين بالحشود والدخيرة والمئونة حتى الماء، من جهة، ومن جهة أخرى يقطع الطريق عن امدادات المغرب للمجاهدين (2) بحرا .

الا أنه لما كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد عقد هدنة مع اسبانيا في عام 1179 هـ. (هدنة وليس معاهدة) ذلك أن أسرى المسلمين الذين كانوا في قبضة اسبانيا، استعاثوا بالسلطان سيدي محمد هذا وطلبوا فكك أسرههم، ولما كان للسلطان هذا اعتزاز بالمبادرات الاسلامية الاحسانية، فانه كتب الى ملك اسبانيا يطلب منه أن يعتني بأسرى المسلمين، كما تعتني الدولة المغربية بأسرى النصارى، وبالاخص ذوى المعرفة والمقام منهم، فما كان من ملك اسبانيا الا أن أطلق سراح من عنده، ووعد بأن يلحق بهم من وجد عنده في اقاليم أخرى، فوقع ذلك من السلطان موقعا عظيما ودعاه حبه بالافتخار أن يطلق من عنده من أسرى النصارى، سواء اسبانين أو غيرهم، مع هدية من ضمنها أسد من المغرب، فبادله ملك اسبانيا بهدية أخرى عظيمة مع كتاب أصحابه لعلية قومه، وبذلك توطدت الصلة بين

(1) كما عبر عنها المغنى المشهور زرياب بلبل بغداد الذى جاء الى الاندلس

(2) الاستقصاء ج. الثامن ص. 40 .

الدونتين، واقترح عليه الاخير أن يبعث اليه بعثة لتشتهر الصداقة بينهما، فبعث اليه سيدى محمد بن عبد الله بعثة تتركب من قائدين من قواد الودايا، ومعهما الكاتب أبو العباس احمد الغزال، وزود الاولين بكتاب يعتمد فيهما القائدين المذكورين لدى ملك اسبانيا، ولما وصلت البعثة الى جبل طارق، رأى الكاتب أبو العباس الغزال أن القائدين ليست فيهما غنية، لانهما ليسا أهلا لتمثيل بلده لدى ملك أجنبي فكتب الى الملك يعلمه بقصورهما عن المهمة التى وكلت اليهما، فتفطن الملك، وبعث بكتاب آخر يعتمد فيه الكاتب الغزالى، وأمره بأخذ الكتاب الاول الذى عند القائدين عنده (1) .

وفعلا قام هذا الكاتب بالمهمة المنوطة به وربط الصلة مع اسبانيا، ومن ضمن ذلك وقع الاتفاق على عقد مهادنة بين اسبانيا والمغرب فيما يخص البحر، فكتب الكاتب الغزال هذا عقد المهادنة بخط يده، وجاء فى هذا العقد العبارة التالية: «بحرا لا برا» وقد كانت هذه العبارة سبب نكبة هذا الكاتب، كما كانت سببا لاسترسال استعمار مدينة مليلية، وذلك أنه لسهولة تكثيف لفظ لا التى بين بحرا لا برا ووضع حرف الواو محلها، وهكذا عمد الاسبان الى تحريف ذلك فأصبحت العبارة هدنة بحرا وبراء، ولما وقع الحصار على مليلية من طرف سيدى محمد بن عبد الله كما أسلفنا استظهر الاسبان بالاتفاق بخط الكاتب الغزال .

وهناك ثارت ثائرة السلطان سيدى محمد على الكاتب المذكور، فوبخه وعزله وطرده من عنده وبقي عاطلا الى أن عمى بصره ثم توفى (2) .

وقد كان اهتمام سيدى محمد بن عبد الله بثغور الشمال عظيماء، وبالاخص الثغور التى تتعرض لقرصنة اسبانيا والبرتغال وفرنسا، وذلك ما دعاه الى القيام ببعث هذه البعثة المهمة الى اسبانيا لعقد المهادنة وتأمين البحر المصاقب لهذه القلاع المهمة على شاطئ الريف .

(1) الاستقصاء ج. الرابع ص. 49 .

(2) هكذا فى الاستقصاء ج. 8 ص. 40 الا أن الاستاذ حسن السائح اعلمنى أنه توجد نسخة فى خزانة تطوان لازالت على أصلها أى بحرا لا برا، ويمكن أن تكون النسخة التى عند الاسبان هى التى حرفت فاستظروا بها .

وفي نفس السنة التي بعث فيها بهذه البعثة، قام بجولة عبر هذه الشواطئ (1) ابتداء من تطوان بعد أن تفقد ثغر سبتة ومركز المجاهدين فيها، ومن هناك اتجه الى الريف عبر شواطئ غمارة، اذ وقف على مرسى تكساس، ومرسى الجبهة، ثم بادس فالزمة الى أن وصل الى كرت بضواحي مليلية، فاتصل بالمجاهدين هناك، وبث فيهم روح الجهاد والنضال ورضى عنهم رضى الملوك المعتزين برعيتهم، ثم رجع عن طريق تازة، وعندما وصل الى قاعدة ملكه عين ولده مولاي على، خليفة له على هذه الجهات، فضم اليه نواحي الجبال والريف وغمارة، وجعل مقبره فاسا الجديدة اعتناء منه بهذه الشواطئ.

وفي سنة 1846 م. تعرضت مليلية أيضا لحصار من طرف المجاهدين المحليين، الذين قاموا بحصارها نظرا لما أصاب السلطة المركزية من الضعف، وعندما اشتد الحصار عليها طلب الاسبان من السلطان ارسال كتبية مغربية للحيلولة بين القبائل وغاراتها على مليلية.

واثر ذلك، وبتاريخ 24 غشت 1859 م. حصل الاسبان من الدولة المغربية على اتفاق حدد بموجبه حدود جديدة لمدينة مليلية، وهكذا تم التوقيع بين المغرب واسبانيا بمدينة تطوان على ذلك الاتفاق، فعينت بموجبه اخدود يحيط بالمدينة، ضمانا للدفاع عنها وصيانتها، وكان هذا الاتفاق يشتمل على ست مواد، تنص السادسة منها على تسهيل تموين الحامية الاسبانية بمليلية، ثم تمت هذا الاتفاق بمدينة طنجة بتاريخ 30 أكتوبر سنة 1860 م، حيث وضعت الحدود على الكفية التالية:

يبتدىء خط قطاع مليلية المحيط بالمدينة، ومن نقطة تقع على الشاطئ على مسافة الفين وتسعمائة مترا جنوبها، ويبتدىء هذا الخط من منارة (سنتا برابارا)، وينتهى بعد السير المتكسر في الشاطئ الصخري المنعرج شمال المدينة، ويبدو من نصوص الاتفاقية هو تحديد ما يسمى بمليلية ولا تدل على تسليمها اليهم.

ورغم كل هذه الاتفاقيات فان المجاهدين الارياف لم يعترفوا بها، بل قاوموا الاحتلال الاجنبى، ففي سنة 1893 م، نشبت الحرب المعروفة

(1) الاستقصاء ج. 8 ص 25.

بحرب مليبية، وقد اهتبلها الاسبان فوسعوا في حدودها واعتنوا بها اعتناء بتطوير عماراتها، وفي سنة 1009 م، هجم السكان أيضا تحت قيادة المجاهد الكبير الشهير الشريف الادريسي سيدى محمد أمزيان، وحاصروا مليبية، وهجموا السكة الحديدية التي مدت لاستغلال مناجم الحديد بجبل «أوكان» الذي كان الثائر العميل بوحمارة عند حلوله بقصة سلوان، قد أعطى امتيازاً لاستغلال منجمي «أوكان وسيطولا زار» بتاريخ 1907 م. مقابل 650.000 بسيطة اسبانية، ورغم أن مولاي عبد الحفيظ رفض هذا الامتياز، فان اسبانيا لجأت الى الحرب لاحتلال هذا المنجم، فقد جندت 50 ألفاً من جنودها معززين بالاسطول البحرى لاحتلال هذه المنطقة .

منطقة مناجم الحديد :

وقد دامت المعارك أكثر من ستة أشهر لاحتلال هذه البقعة، وتكدت اسبانيا خسائر فادحة، وقد خلفت من القتلى والجرحى الفين بينهم جنيرال واحد وكرونيلات وضباط آخرون، وقد سمت اسبانيا ذلك الاسبوع الذى وقعت فيه المعركة، بالاسبوع المأسوى، سبب لها اضطرابا داخليا في أمتها وبالاخص الدوائر الحاكمة .

الجزر الجعفرية (1)

هى جزر ثلاثة تقع شرقى مدينة مليبية بحرا، على شواطئ قبيلة كبدانة، قبالة رأس الماء، وتبعد عن الشاطئ بنحو ثلاث (كلم)، وأخذت تسميتها بالجعفرية من اسم جعفر التى تنسب اليه ومن هذا الاسم يطلق عليها الاسبان «شافارينس»، مع تحريف فى النطق، كما هو الشأن فى نطقهم بالكلمات العربية .

ويظهر من تسمية الشريف الادريسي فى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، بجزيرة قشقر، حيث قال: كانت حصنا عامرا له مرسى واسعة، وفيها الماشية والاموال، وفيها مياه، وتلجأ اليها المراكب، وهى مسكونة ويصب بحذائها نهر ملوية، ان القصد من ذلك هى احدى تلك الجزر وهى

(1) بهذا الاسم تعرف الآن، وهو اسم متداول مستحسن، وان سميت فى بعض كتب التاريخ بجزر كبدانة أو جزر نهر ملوية أو جزر قشقر.

الأكبر فيها، وهى تسمية لا تخالف تسميتها بجزر جعفر، لأنها اسم خاص لأحداها فقط، كما أن الأسبان سموها كل واحدة منها باسم خاص، مع بقاء اسم مجموعها الذى هو شافارينس على ما هو عليه، فسموا الكبيرة منها بجزيرة الكونغريس، وتبلغ مساحتها 900 م. طولا فى 500 عرضا فى ارتفاع 135 م عن البحر، وهى التى كانت عامرة حسبما ذكره الشريف الإدريسي وتليها جزيرة أقل منها ومساحتها 500 م طولا فى 400 عرضا، وترتفع عن البحر بأربعين مترا، وسميت عند الأسبان بجزيرة إزابيل الثانية، ثم تليها جزيرة وهى أصغر الجميع ومساحتها 300 م طولا فى 200 عرضا مع ارتفاع 34 مترا عن البحر وسموها الأسبان بجزيرة الملك . ويبدو من البيان المذكور أهمية هذه الجزر التى تكون أرخبلا مهما يراقب السكان الذين يقطنون على ضفاف نهر ملوية السفلى، تلك الضفاف التى شهدت فى أحقاب متلاحقة أحداثا تاريخية مهمة، فقبائل بنى يزناسن المعاتية تقطن الضفة الشرقية، وقبائل كبدانة وراءها يقطنون الضفة الغربية، والجميع كان مسرحا لتلك الأحداث، كما تراقب أيضا القطع البحرية التى تسير حذاء تلك الشواطئ .

ولذا فانه عندما احتلت فرنسا القطر الجزائرى حاولت الاستلاء عليها، وذلك ما حرك ساكن الجيش الأسبانى الذى فى مليلية، فطير الاعلام لملكة اسبانيا إزابيل الثانية، فأمرته باحتلالها باسمها، فقام الجنرال «سيرانو» حاكم مليلية فى ذلك التاريخ، فاحتلها بتاريخ 1848، وجلى عنها سكانها المغاربة ومن ذلك التاريخ وهى تستخدمها كقاعدة عسكرية لتعزيز مليلية ومراقبة تلك القبائل علاوة على كونها مرسى لسفن الصيد فى تلك الناحية .

الحدود المغربية التاريخية

فى شأن هذه الثغور التى لازالت محتلة بعد الاستقلال كنت نشرت مقالات تحت العنوان أعلاه، فى جريدة صحراء المغرب بتاريخ غشت 1957، أقتطف منه ما يأتى :

ان للمغرب كفرنسا مثلا حدودا طبيعية محددة أى مستقرة، لا مد فيها ولا جزر، فقد وضعت لها بحكم الطبيعية، وبقدرة القادر الحكيم،

وذلك لحكمة الاستقرار والتعارف «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا»، فالمغربى فى فرنسا أو مصر مثلا يعرف بالمغربى، لانه من أبناء حدوده الطبيعية، ولد أو أحد من آباءه داخلها، والفرنسى فى المغرب أو الجزائر أو فى صحرائهما هو فرنسى، وليس مغربيا ولا جزائريا، الا أنه اذا كان وجوده شيهما متساكنا للتعايش فهو ضيف البلد الامين، له ما لضيوفهما من الحرمة والاعتبار، وان كان بصفته حاكما فانه المتسلط يتربص به الدوائر لازاحة ثقله من على الأكتاف، ولا يحتاج تلقين ذلك للجيل الناشئ، لانه أمر مفطور عليه البشر كالنحل فى خلاياها، اننا عندما نتتبع القضايا التاريخية فى الكون أجمع، نرجع بفكرة راسخة ثابتة، ونجدها القاعدة الكونية التى فطر الله عليها نظام البشرية ومع ذلك فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

ان تركيا المسلمة كانت لها وشائج غير طبيعية، وهى وشائج روحية قوية مع جل الاقطار التى سيطرت عليها حقبا من الوقت غير قصيرة، كان يبدو للعيان أنها مخلدة السيطرة على تلك الاقطار الى يوم يبعثون، فهل كانت تلك الوشائج القوية غير الطبيعية بدافعة لها لبقاء سيطرتها على غير حدودها الطبيعية .

كلا فلا اتحاد عقيدة الدين بينها وبين الحكومين غير الاتراك، ولا الجامعة الاسلامية التى تبناها ملوكها أو خلفاء الاسلام فيها، خولت لها سيطرتها على غير تركيا الطبيعية .

بل ان أقطار العرب الاسلامية هى التى قام زعمائها لازاحة التركى عن السيطرة عليها، فكان لمحمد على باشا فى مصر، وكان لشريف حسين فى الحجاز، وكان لزعماء سوريا القدرح المعلى فى الذب عن أقطارها الطبيعية، فانتكثمت تركيا داخل حدودها الطبيعية، ليس فقط من أقطار البانيا والصرب والنمسا والقوقاز بل وحتى من مصر والشام والعراق والحجاز وغير ذلك، ولم يتمكن لها الاستقرار الا عندما يحكم التركى التركى ولا يحكم المغربى أو النمساوى الى غير ذلك.

والمغرب نفسه بعد صولة وجولة فى افريقيا الشمالية، وفى غرب

أوروبا رجع الى حدوده الطبيعية بعدما خلف آثارا وحضارة في أوروبا كان لها المعين الذي لا ينضب لتوسيع المدارك، وهل نسيت اسبانيا نفسها أي نسوان أصاب أبناءها عندما غادرت جنودها آخر مدينة في أمريكا الجنوبية، اذ كانت سيطرتها على تلك الاقطار مثارا للسخط والقلق، لم تخرج منها الا عندما غادرت كوبا، فاكتفت من الغنيمة بالاياب، وكان لذلك أحسن وقع في نفوس الاسبانيين، لكي يحكم الاسباني الاسباني، ولا يحكم الامريكي أو الفلبيني ولا الجزائري الذين يثيرون لها المشاكل الهامة لانها متسلطة عليهم لا بحكم الطبيعة. وهكذا ستغادر صحراء المغرب بالساقية الحمراء ووادي الذهب كما ستغادر سبتة ومليلية والجيوب التي على شواطئ شمال المغرب بنفس الصفة .

أما فرنسا فما بالعهد من قدم، فقد تركت — لا رغبة منها — أقطار الشام والهند الصينية وغيرها من أقطار شمال افريقيا، بعدما تركت معالم تاريخية مروعة في «ديان بيان فو» من الهند الصينية، وفي مثلث الموت في جبال الريف الشاهقة، ولذا غانه ليس لفرنسا أو اسبانيا أي قرار في الجزائر أو صحراء المغرب، لان الاولى للجزائريين، والثانية للمغاربة، وقد يكون خطأهما انها عندما يبوء عملهما بالفشل الذريع فتعملان بالقوة لتغيير مجرى الطبيعة في صوغ سيطرتهم في صيغة قانونية، فتجنيس أبناء الجزائر تجنيسا فرنسيا — كما سبق — ان حاولت بربرة الجزء الاهم من المغرب — هل كان ذلك بمغن لها عن أن يكون هؤلاء انجائريون يحملون السلاح ضدها عندما تدق الساعة؟ وهل بمغن لها أن تدعى مرة أخرى أن هذا البشر من الحكومين بقوتها هم ساقطو القدر، وانهم ليسوا في درجة البشر ؟

ومع هذا الزعم فان حتفها الأهل قد تلقاه أسرع من مقارعة الند للند، وتكون رزيتها على يد هؤلاء السقطاء — كما تسميهم كذبا وبهتاناً — أعظم، ولا عذر لها، فقد عميت حتى عن الحكمة القائلة :

ولا تحارب ساقط القدر فكم من شاهة قد غلبت ببيدق

ان سنة الكون تطاردها كيفما تلونت وبأية صيغة صاغت أعمالها، انها حتى غطرتها قد حاربها القدر، فلم يترك لها عذرا في احدي الخطتين.

فلو صح البقاء للمتسلط على الغير لكان البقاء ادعى لتركيا العثمانية،
التي لبست الخلافة الاسلامية لباسا قشيبا، لكي تغري الاقطار الاسلامية
الاخرى لتستكين الى حكمها الذي استمد تشريعه من روح الاسلام الذي
اعتنقه المحكومون اعتناقا مازج روحهم .

ولكان ادعى أيضا أن يبقى المغرب في اسبانيا المسلمة، حيث نقل
انها بواسطة الاسلام اللغة العربية والعلوم والحضارة البالغتين الشأو
البعيد وأتى على ذلك حين من الدهر ترعرت فيه الاجيال والاحقاب، ورضع
ابناؤها لبانها غضا طريا، ومع ذلك فان الحدود الطبيعية هي التي كفلت
بحفظ المغربى أو التركى عن تلاشى هذا الاسم، ولم يغد ذكر هذين
الاسمين الا داخل الحدود الطبيعية .

الصحراء المغربية : وادى الذهب والساقية

قضت النزعة الاستعمارية، التى تغلغلت فى حكومة اسبانيا العسكرية، والتى أشربت حبها عندما قدر لها أن تنتشر سيطرتها يوما ما، على شواطئ الاطلس بأميركا الجنوبية، وشواطئ الهادى فى أقصى آسيا ان لا تتسلخ عن تلك النزعة ولو فى عصر أصبحت تلك النزعة وصمة عار فى جبين الانسانية .

الا أنه على ما يبدو، أن هذه النزعة اللا اخلاقية بالنسبة لمطامعها فى المغرب :

البلد المجاور، الذى أسال دمه غزيرا فى الحرب الوطنية الاسبانية، انتى توجت بانتصار النظام الحالى الذى تسكع عن الاقتناع بهدى قضية المغرب فى صحرائه، يبدو أن هناك نزعة انتقامية، استولت على مشاعر ذلك النظام، وقد يكون متولدا من ذكريات ترجع الى عهد ما قبل انقضاء دولة بنى الاحمر بتاريخ 1492 بغرناطة باستسلام أبى عبد الله محمد بن الحسن الخزرجى، حيث انتهت المرحلة الطويلة لحكم العرب والبربر لشبه الجزيرة الايبيرية، التى دامت زهاء 778 سنة، حمل فيها هؤلاء الفاتحون ما هو معروف من العلوم والفلسفة وعموم الحضارة، والتى قابلتها اسبانيا بتأليف محاكم التفتيش، لمصادرة العقائد والمال تحت طائلة أعمال وحشية، لم يشهد التاريخ البشرى مثلهما .

واذا كانت اسبانيا تحمل ذلك الحقد الدفين، فانها صبت هجماتها على شواطئ المغرب شمالا وجنوبا، فى ذلك الوقت بالذات، وكان مرماها بعيدا بحيث تريد اكتساح البلد الذى حكمها تلك المدة، ولم يردعها عن التوغل داخل المغرب الا تلك المعركة التاريخية التى جرت بوادى المخازن سنة 1578، حيث غيرت من عقلية الانتقام التى شغشت فيها، فقرأت انف حساب قبل أن تحصل على موضع قدم من يابسة المغرب، واكتفت بالسطو على أطراف بعيدة، قد تكون الدولة المغربية فى غيبة عنها، أما لانها

نائية مثل جزر الخالدات التي استولت عليها في القرن الخامس عشر، في خضم محاكم التفتيش، وأجلاء المسلمين عن الاندلس فاصابت منها ما أصابت من غرناطة وجبال بشرات، واما لان السلطة المركزية المغربية شغلتها فتن داخلية، فاستغلت هذا الوهن واحتلت أطرافا في الشمال مثل مليلية وسبتة وغيرهما من مواقع الشواطىء .

الخلاصة :

واذ فصلنا قضية الشواطىء الشمالية فيما سبق، وإذا كانت الصحراء المغربية تختلف وضعيتها في ذلك التاريخ عن وضعية سبتة بالنسبة لاسبانيا والمغرب معا لما لها من موقع الخطر الداهم على اسبانيا، لانها مجاز القوات المغربية الى العدو الاخرى .

فان هذه الوضعية بالنسبة للصحراء تطورت عسكريا بعد احتلال جزر كانارى وبعد معركة واد المخازن أيضا وبعد اجلاء الاسبان عن مجموع الشواطىء الاطلسية من أكادير الى طنجة .

فتكونت فكرة محاصرته من منافذه التي تكون السلطة هناك مقصورة على الولاء والتلقائية، فكان احتلال جيوب شاطىء الشمال ومن الجنوب تولدت فكرة «الريو دى أورو»، حيث تسد تلك المنافذ فينكمش المغرب في محيط داخلي، مملوء بالفتن الداخلية التي تغذيها دسائس الاعداء الجاثمين على تلك المنافذ، بينما تستعمل تلك الجيوب لفتح افاق الاهالى المجاورين بالاعراءات تارة وبالتهديد تارة أخرى .

وهكذا انطلقت اسبانيا في الصحراء - وهى التى تعيننا هنا - بسلسلة من المؤامرات الطويلة، والملتوية، فبدأت بارسال بعثات سميتها علمية تارة وهى التى كونها الثلاثى المعروف: «تيرفيرا وكيروغه وديزو»، وأحيانا بعثات تجارية للصيد على سواحل الصحراء وهى التى كونها الثنائى «الشركة الكنارية الافريقية» و«الشركة الاسبانية الافريقية» .

وتطورت مطامع هاتين الشركتين فحاولت اقامة مركز اصطيادى يرجع اليه الصيادون في الظاهر، وفي النية المبيتة كانت لاغراض استعمارية، وقد أعطت لهذا المركز اسم «سنتكروش دى ماربكينية» . وترجع قصة هذا المركز الى منتصف القرن الخامس عشر،

أى اثر احتلال جزر كنارياس وحاولت اسبانيا أن تعجم عود الاهالى، فجعلت مراكبها تقترب رويدا من الشاطئ، الا أن أملها خاب عندما اقتربت مراكبها سنة 1550 الى شاطئ رأس أغوير (أكادير) فقد اقتحم المغاربة تلك المركب، وأسروا 66 رجلا ممن كانوا فى تلك المراكب .

وعندما اقترب المركب «مانويرا» الى سواحل الصحراء، صعد اليه الاهالى فقتلوا اثنين من ربابينها، وجرحوا واحدا، واسروا أربعة. وقد عجزت اسبانيا أن تضع قدمها على يابسة الصحراء فى غيبة السلطة المركزية المغربية بالرغم من احباكها مهزلة الشراء أو التنازل من اشخاص ثلاثة من أولاد السباع أحضروا الى تنريفى عند الموثق خوسى البارث فاستشهد عليهم بالتنازل أو الشراء .

ان هذه المهزلة تتمثل فى الاسئلة التالية: كيف يمكن لدولة ذات كيان أن تحتج بوثيقة سجلت فى ظروف غير معروفة عن أشخاص عاديين؟ قد يقال فى حقهم هيان بن بيان ولكاع بن لكاع، وأى صفة دولية عند الموثق العادى مثل خوسى الباريث؟ ولماذا الاحتياج الى حجة التنازل اذا كانت الارض خلاء؟

وقد يكون من الطرافة أن أورد هنا حوارا جرى بين السنيور غورسيا فيكراس نائب الشؤون الاهلية بتطوان ويعد عند الاسبان خبيرا فى شؤون افريقيا وله مؤلفات عن الصحراء المغربية سيأتى نقل بعض النصوص عنه — وبين جماعة من مواطنى بنى ورياغل ومنهم كاتبه عن قضية وجود اسبانيا فى المغرب وقد وجه الكلام لكاتبه بالخصوص قائلا: هل اسبانيا جاءت الى المغرب بوحى منها؟ — وكان يعنى الصحراء — أم أن ثلاثة من الاهالى هم الذين طلبوا من اسبانيا أن تنزل بالمغرب؟ فأجبتة بأن أى شخص انقطعت به سبل العيش فى المغرب مثلا أو كان خائنا لوطنه يمكن أن يذهب الى أية دولة يستعديها، فهل مجرد ذلك يكفى للاستيلاء على سيادة الوطن؟ فافهم ولم يسترسل .

واذ وصلت اسبانيا فى الصحراء الى طريق مسدود مع الاهالى، فانها رأت ان لا مناص من الرجوع الى السلطان الذى هو صاحب السيادة المطلقة على الصحراء فسلكت فى هذا الرجوع مسالك ملتوية تارة بالتهديد بطلب تعويضات مالية عن الخسائر التى لحقت بمراكبها، وتارة بمطالب ترابية، المتمثلة، فى مركز «سنتاكروش دى ماربكينية» .

أين يوجد مركز سنتاكروش دى ماربكنية ؟

دلت الملايسات التى صاحبت محاولات اسبانيا للنزول بشواطئ الصحراء المغربية، على أن هذا المركز هو المعروف عند المغاربة بالنداخله، وتقع على الشاطئ بواى الذهب، وتبعد عن رأس بوجدور الذى يقع جنوبها بنحو 450 كلم، وهى على لسان أرضى داخل فى البحر، يكون مع الساحل خليجا طبيعيا هاما، وهى أقدم نقطة تاريخية ارتادها الأوربيون على شاطئ الصحراء، ذلك أنه لما اشتد النزاع بين اسبانيا والبرتغال وقعتا معاهدة سنتر سنة 1509 م. المتعلقة بتقسيم المملكة المغربية، وقضت المعاهدة باجتلال اسبانيا لمنطقة سنتاكروش دى ماربكنية، وقد كانت هذه المنطقة غامضة لدى المؤرخين، الا أن الاسبان احتلوا الدخلة الى غاية 1525، ثم بدا لاسبانيا ان تملكه بالقوة فقامت بمحاولة أولية بتاريخ 1698 بهجوم على الموقع، الا أنها لم تسفر على نتيجة بسبب صمود الاهالى فاكثفت بعبور البحر على الشواطئ بمراكب الصيد، التى لم تنتج هى أيضا من هجوم عليها، ثم بدا لها أن تعجم عود السلطة المركزية المغربية، فارسلت بعثة دبلوماسية، برياسة السفير خورخى خوان الذى استطاع أن يعقد معاهدة بتاريخ 28-5-1767 تتعلق بالتريخىص لمراكب اسبانيا للاصطياد على شواطئ المغرب الجنوبية، وقد ادمج المغرب فى هذه المعاهدة بندا يتعلق بتحفظه على الاصطياد على شواطئ الصحراء، حيث نص بالخصوص على عدم اقدام المراكب الكنارية بالتحرش بالاهالى هناك لان العرب غير منضبطين لكونهم رحلا ولا استقرار لهم مع ما يتصفون به من شدة المراس وركوب المخاطر، فاذا اقتربت تلك المراكب ووقع لها سوء فالمغرب ليس مسؤولا عن الخسائر .

ورغم هذا التحذير الوارد فى الفصل 18 من تلك المعاهدة فان الاسبان عاودوا اللاحاح على السلطان بأن يكف عنهم أهل الصحراء عندما يتحرش مركب لهم للصيد، محتجين بالمعاهدة المشار اليها، وطالبوا منه أن يعلن لرعاياه فى تلك النواحي تحمله لمسؤولية الاعمال التى يقتربونها ضد تلك المراكب، فأجابهم لذلك تحت عاطفة الصداقة التى ابداهها ملك اسبانيا تجاه السلطان، فعقدت معاهدة أخرى بتاريخ 1799 جاء

في فصلها 22 ما يأتي : « اذا حرث (تحرش) مركب لجنس الاسبانيول فيما وراء سوس ووادي نون، فمن جهة المحبة التي لملك اسبانيا في سيدنا أيده الله، يبحث كل البحث، ويستعمل عزمه في استنقاذ الراعيه المحرثين، بما أمكن الى أن يرجعوا لبلادهم» .

ورغم هاتين المعاهدتين، فإن اسبانيا لم يهدأ لها بال وجعلت تبحث عن ذريعة تتذرع بها، لاجل أن تشغل المغرب عن الصحراء لتتمكن من الاحراز هناك على موقع قدم، واهتدت الى أن تتحرش معه شمالا، فعمدت الى توسيع حدود سبتة، الامر الذي ازعج السكان أهل أنجرة وحوز تطوان فمنعوها بالقوة، واصطدموا مع الجيش هناك، فما كان من اسبانيا الا أن أعلنت الحرب على المغرب خارج منطقة سبتة، فزحفت قواتها تحت امرة الجنرال أودينال وجرت معارك عن الطريق الساحلى من سبتة الى تطوان حيث احتلتها تلك القوة الزاحفة سنة 1860 في الحرب المعروفة، «بحرب ستين» .

ومن هذا التاريخ أصبح وضع اسبانيا بالنسبة لمطالبها الترابية والمالية في مركز القوة، فجعلت تملئ على المغرب ارادتها الاستعمارية في معاهدة أخرى اثر هذا الاحتلال، وقد جاء فيما يخص الصحراء التي نؤرخ لها هنا في المادة 8 منها الاتفاق على تعيين لجنة مختلطة لتعيين مركز «سانتكروش دي ماريكينية» .

لماذا هذه اللجنة ؟

وهنا تبدو سلسلة أخرى من المؤامرات الاسبانية في الصحراء المغربية، ذلك لما استوثقت من قدرتها على الضغط على المغرب بدا لها أن تتوسع بالاقتراب من شمال المغرب، أى بنواحي مدينة أكادير التي طالما طلب ممثلها بالمغرب فتح مينائها والاعتناء به بدلا من الصويرة ولكن السلطان يأبى ذلك لما يعلمه من مطامع الاجانب .

فعندما كانت تطالب بنقطة الداخلة، وتدخلت لدى السلطة المغربية لكف الاهالى عن بعثاتها التجارية والعسكرية، أصبحت الآن تتعاضد عن معرفة مركز سنتاكروس، وتطالب المغرب الذى يجهل هذا الاسم بالطبع من خرائطه لانه اسم اسباني مستحدث على عاداتهم

في اطلاق اسماء الصليب المقدس أو القديسين على الاماكن التي يرتدونها
فقرضت الفصل 8 من المعاهدة لهذا الغرض، ولأجل التسابق مع انكلترا التي
ارتاد بعض رعاياها تحت رئاسة ماكينزي شواطىء الصحراء أيضا لأجل
اقامة معمل للصيد فقام سنة 1876 برحلة استطلاع قبالة الجزر الخالدات،
وفي سنة 1878 عاد الى تلك الشواطىء فقدم تقريراً الى وزارة الخارجية
البريطانية، وفي سنة 1879 أسس معملاً للصيد في رأس طرفاية وكان
يعتبر نفوذ هذا المعمل الى رأس بوجدور جنوباً وإلى حدود سوس شمالاً.

وفيما بين 26 دجنبر 1860 وفبراير 1861 جر تمارسات بين
قنصل اسبانيا بطنجة وحكومة مدريد، للتدخل لدى السلطان لتأليف اللجنة
لتعيين محل سنكروش دى ماربكينية، بناء على قاعدة «اضرب الحديد
قبل أن يبرد» ولكن المولى عبد الرحمن بن هشام لما يعلمه من مؤامرة
الاسبان بعد هزيمة تطوان، لم يوافق على التعجيل بتأليف اللجنة معللاً
ذلك بأن جهة الصحراء يسودها تمرد بعض المنشقين مثل الحبيب بن مبارك،
وانه يرى ارجاء البحث الى أن يقضى على المتمردين، ولما سمع القنصل
الاسبانى أنه يوجد هناك تمرد وان ذلك يشوش على السلطان اقترح
على حكومته الدخول في المفاوضات مع هذا المتمرّد، الا أنها رفضت اقتراحه
ولم تأخذ برأيه، لما تعلمه من عدم جدوى مثل هذه المحاولة التي جربتها
مع أولاد السباع فلم تغنها شيئاً، لأن السلطان يحتج عليها بأنها تعتمد الى
خونة للتعامل معهم، بينما عموم السكان في ولاء وطاعة لملكهم .

وعندما وصلت القضية الى هذه الدرجة ، فان اسبانيا ارتأت أن
ترفع تمثيلها في طنجة الى درجة وزير، لكي يتمتع بثقل لدى الدوائر
المغربية يوازى المهمة الموكولة اليه، وفعلاً ففي سنة 1877 قام الوزير
الاسبانى السنيور ادواردو روميه برحلة الى فاس حيث بحث مع
السلطة المغربية تأليف اللجنة المشتركة، كما قام بمباحثات عى أسرى وادى
نول الذين اعتقلهم المغاربة في شهر ستمبر 1876، وفي شأن التعويض
المالى لمبلغ 35000 بسيطة على احد الرعايا الاسبان الذى اغتيل على ذلك
الشاطئ. وقد وفق الوزير الاسبانى في مسعاه، فأجيب لجميع مطالبه،
وعلى رأسها تأليف اللجنة المختلطة لتعيين المكان الذى يريده الاسبان

لإطلاق اسم «سنتكروش دى ماربكينية» من جديد بدلا من المكان القديم، وهكذا أبحرت اللجنة بتاريخ دجنبر 1877 من ميناء الصويرة على ظهر مركب اسباني وضمن اللجنة الاسبانية قنصل اسبانيا بالصويرة. وقد اهتم هذا القنصل من أول وهلة، بأن يلعب دور الخديعة حتى يتمكن من تضليل اللجنة المغربية، فبقى المركب مترددا بهم ما بين رأس طرفاية وأكادير وهم على ظهره من دون أن يستطيعوا أن يضعوا أقدامهم على اليابسة خوفا من بطش الاهالي بهم، ولأن عواصف المحيط في مبدأ فصل الشتاء جعلت الاقتراب الى الساحل أمرا خطيرا .

وقد تكتشف لها اسباب نجاح تضليلها للجنة المغربية، حيث أن هذه الظروف القاسية التي لاقتها في هذا الدوران المتعمد سهلت عليها مأموريتها، فلما اقتربت من سيدي افنى وقع اختيارها حوله على موقع سنتكروش، وهنا يبقى الامر لغزا غير مفهوم وسؤال بدون جواب، وهو لماذا هذا الموقع بالذات؟ ولماذا لم يكن رأس طرفاية أو بوجدور أو غيرهما؟ وقد أجابت عنه الاحداث التي جرت بعده، وهي التي تتلخص في نوايا اسبانيا لامتلاك الصحراء المغربية قاطبة من الرأس الابيض على حدود موريطانيا الى سيدي افنى

وعلى كل فان اللجنتين وقعتا على ظهر المركب بتاريخ 21 يناير 1878 محضرا بتعيين سيدي افنى موقعا لسنثاكروش دى ماربكينية، وأعطت اسبانيا اسماء أخرى للدخلة وهو «فيلا ثيسنيروس» .

ولما اطلع السلطان على المحضر رفضه، وطلب اعادة البحث من جديد، ولكن لم تؤلف أية لجنة لان الاسبانيين اعتبروا أن مهمة اللجنتين قد انتهت، وعقب ذلك وردا على امتناع اسبانيا في تجديد البحث وجه السلطان مذكرة دورية الى الدول الاجنبية بتاريخ فبراير 1884 يدعوها فيها الى الكف عن التعامل التجاري مع الاقاليم الجنوبية المغربية .

هل وادى الذهب والساقية الحمراء أرض موات ؟

ان الدول الاوربية لما كانت تتحكم في مصير العالم، في ذلك العصر، استوحيت من تلك الغريزة ان تصنف أراضي القارة السمراء،

أصنافا، فاعتبرت منها أراضي دواتا، يحق لأوروبا أن تقوم باحيائها بالاحتلال، ولذلك اعتبرت ان السكان الذين يعيشون على اديمها كسوائهم، ولو كان لهم كيان أو انتساب .

وهكذا عقدت فيما بينها معاهدة دعيت بمعاهدة برلين، وكان أمر اعتبار الارض الموات موكولا الى تقديرات تلك الدول الاستعمارية حسب هواها .

ولما كانت مطامع اسبانيا في المغرب معروفة وقديمة كما بينا، ولما كانت جربت كل المؤامرات جنوبا وشمالا، فانها عمدت في تاريخ 26 دجنبر 1884 - كرد على مذكرة سلطان المغرب الى الدول الاجنبية كما أسلفنا - فوجهت هي مذكرة الى جميع الدول تعلن فيها أنها قامت باحتلال المنطقة الواقعة بين خطى 20-27 من الشاطئ الافريقي، رغم أن مضمون هذه المذكرة بقى حبرا على ورق، لأنها لم تستطع أن تحتل ولو موضع قدم .

ذلك أنه بعد ذلك مباشرة أى بتاريخ يناير 1885 قامت شركة تجارية بتشبيد حصون في الداخلة برياسة بوليلي فقاومها السكان بقيادة البطل الخالد خليفة السلطان الشيخ ماء العينين، وحطموا تلك الحصون بعدما قتلوا عددا من رجالها، وأسروا آخرين .

الا أنه بتاريخ يوليوز 1885 استطاع بوليلي الذي عين حاكما على تلك الشواطىء وعزز بقوة من الجنود قادمهم الكبطان خوصى شاكون، الا أن الاحتلال لم يتعد نقطة الداخلة (سانت كروش دى ماربكنية) فبقى التعيين على جميع الشواطىء اسميا فقط، كما بقى اسميا أيضا المرسوم الصادر بعد ذلك بسنتين بالحاق ودى الذهب بكرياس .

هذا هو مسلسل الاحداث التى قامت به اسبانيا، اعتمادا على معاهدة برلين، ولكن هل أرض وادى الذهب والساقية خلاء ؟

وفي هذا المجال نرجع بالدرجة الاولى الى المؤرخين الاجانب وبالاخص الذين ينتمون الى الدولتين الاستعمارييتين أنفسهما، وبالاخص المؤرخين الذين لا يعتبر أقوالهم أقوالا فردية بل من ذوى الحيثيات فى دولهم، الممارسين لشؤون الاستعمار، الذين يعتبرون من الناطقين بلسانه.

فقد جاء في كتاب «مغاربة افريقيا الغربية الافرنسية» المؤلف سنة 1904 لمسيو جورج بوله الذى قال فى حقه الامير شكيب أرسلان فى كتاب حاضر العالم الاسلامى (1) «ونظرا لكونه من مأمورى المستعمرات، فقد أتيح له أن يطلع على وثائق لا يطلع عليها غيره، فجاء كتابه بغاية التدقيق»
 متعدد قبائل الصحراء المغربية، فقال: من تلك القبائل من ينتمى الى أعقاب بنى حسن الهاليتين ومنهم من صنهاجة وغيرها من البربر، ومنهم أشراف ينتمون الى آل البيت، ومجالاتهم فى الساقية الحمراء جنوبى سوس الاقصى الى نهر السنغال (يدخل فى هذا الاسم وادى الذهب).
 ثم فصل طبقات هذه القبائل، فقال: الاولى أهل حرب وهم بنو حسن، والحراثون، وهم اشبه بالزعية لكنهم أحرار، والمرابطون وهم طلبة العلم، وصنهاجة الذين يدفعون الضرائب فهم عبيد .

وأشهر القبائل المذكورة الطوارزة، وهم نحو 80 ألف نسمة كان أميرهم لحد تأليف الكتاب هو احمد بن سلوم، الى أن قال والقبائل الساحلية منها آل سيدى محمود، وهم 40 ألفا، وأميرهم سيدى المختار ولد محمد محمود، ثم أولاد مبارك وهم 18 ألفا، وهم مع أولاد ناصر من سلالة بنى حسن الهاليتين .

والى أن قال أيضا، وهناك قبائل الساقية الحمراء، مثل أولاد دليم، والرغيبات والعروصى، والفلالى والصماليل، ورئيس هذه القبائل الشيخ ماء العينين المشهور، وقد ضمن مسيو بوله عددهم جميعا بـ 300 ألف.
 ومن رجال الاستعمار الاسبانى الذين يوخذ رأيهم رسميا نورد هنا ما قاله الكمندان دومينش الذى كان أيام الحرب الاهلية الاسبانية على رأس نيابة الشؤون الاهلية بتطوان، وألف فى تلك الفترة كتابا عن منطقة الحماية الاسبانية اعتبر أنها تمتد جنوب فاس البالى مع وادى ورغة ؟

ومما قاله فى هذا الصدد وعندما كلف بمهمة استعمارية فى انصحراء المغربية بعد ذلك حرر اباحا جاء فيما يخص تلك الصحراء

قوله: «ان هؤلاء المورو (الاسبان يطلقون المورو على المغاربة جميعا وليس بخصوص من نزح عن الأندلس وكثيرا ما اصطدم الاهالى أيام الحماية مع المراقبين الاسبانيين بسبب هذه التسمية التى تستشعر الاهانة) كانوا يعتبرون أنفسهم مرتبطين الى حد كبير بسلطين المغرب، حتى أنه عندما وصلت القوات الافرنسية الى حدود ما يعرف بموريطانيا والحوض، هرعت القبائل المهدة الى مولاي عبد العزيز، طالبة منه العون، وقد طالب هذا بتلك الاقاليم باعتبارها واقعة تحت سيادته» يشير الى زيارة الخليفة السلطاني الشيخ ماء العينين لمولاي عبد العزيز، وقد زاره سبع مرات كما زار مولاي محمد بن عبد الرحمان ومولاي الحسن الاول كما سيأتى، ولم يشر المؤرخ الى التعزيزات التى منحها السلاطين له .

ثم ننقل هنا أيضا عن احد أساطين رجال الحماية السنيور غورثيا فيكراس الذى يعتبر عند الاسبان خبيرا بالشؤون الافريقية كما أسلفنا، وكان يوخز رأيه مأخذ الاعتبار فيما يخص الارض المغربية التى تحت سيطرة اسبانيا، لانه تقلب فى عدة مناصب سامية منها الكتابة العامة للمندوب السامى بتطوان، ومنها نيابة الشؤون الاهلية، ونيابة التربية الوطنية .

وعليه فأقواله تعتبر أقوال دولته اذ ذاك، فقد قال فيما يخص الصحراء حيث تكلم عن مقاومة الشيخ ماء العينين للزحف الافرنسى الذى وصفه بأنه كان خليفة السلطان فى العبارة التالية: «وبوفاة ماء العينين كان ابنه الهبة الذى ورث السمعة السياسية، والدينية الكبيرتين، اللتين كانتا لوالده، ومكانته كخليفة للسلطان، كان يمارس نفوذه من مراكز الى موريطانيا» .

ويلاحظ أن الجيوش الافرنسية التى ذاقت الامر من كفاح الشيخين ماء العينين وولده الهبة كخليفتين للسلطان، كانت تستعمل نفس الاسلوب الذى استعمله مع المناضل الزعيم ابن عبد الكريم الخطابى من أنهم نصبوا أنفسهم سلطانا على الاراضى التى يخوضون فيها المعارك، وهى خدعة حديثة للتضليل والتنقيص من قيمة البطولات كما أسلفنا .

أما غير هاذين المؤرخين مثل كورديرو توريس فانه قال: «ان

السلطة الدينية للسلطين لم تكن منقطعة لدى مسلمى المغرب الاقصى، وهى تسمية تقليدية، لجموعة جغرافية يمكن تمييزها، وهى أوسع من الامبراطورية الشريفة» .

وهنا يمكن أن تعتبر جملة «وهى أوسع من الامبراطورية الشريفة» من نمط تعمية، والا فان وجود بعض الجهات مثل الصحراء المغربية وحتى جهة الريف بعيدة عن مركز السلطة مع كونها تدين بالولاء وتخطب بالسلطان على منابر الجمعة، وتتخضع للوالى أو الخليفة الذين يعينان من قبل السلطان، لا يعتبر سلطة دينية فقط، وذلك لان تضمين الدعاء للسلطان في خطب الجمعة ليس لانه شرط في صحة الجمعة، وانما هو بمثابة تجديد البيعة له من قبل المواطنين، في كل جمعة، فذلك ليس سلطة دينية محضة كما يدعى هذا المؤلف الذى يجهل مقومات سلطة رمز السيادة الوطنية في الشريعة الاسلامية .

ومثل المؤرخ كارو الذى يعتبر أكثر اعتدالا، حيث جاء في احدى فقراته: «وفي عام 1873 توجه ماء العينين الى مراكش لمقابلة السلطان مولاى محمد (بن عبد الرحمن بن هشام) وفي تلك المقابلة والتى تلتها عالج شيخ الصحراء مشاكل متنوعة، وأخبر السلطان بالحالة في الصحراء، وحاول إثارة اهتمامهم بمصير الاسلام في التخوم الجنوبية، واستمع السلطين الى الشيخ باحترام وسرور وغمروه بالهدايا» .

ان هذه النصوص صريحة، وتتضمن اعترافا لا مجال للجدال فيه، بأن الشيخ ماء العينين كان يعمل في الصحراء التى يتعدى نفوذه الرأس الابيض آخر حدود وادى الذهب الى قبائل الطارزة والحوض وكان مركز الداخلة «سنتاكروث دى ماركينية» عبارة عن جيب صغير محدود المساحة، لا تتخطى أفراد حاميته الحصن الذى تحصنوا فيه، لان المغاربة كانوا محاصرين للحامية على الدوام مثلما كان يفعل سكان قبائل أحواز مليلية وسبتة .

ذلك ما جعل حكومة مدريد لم تهتد الى أسلوب قار لوضعية وجودها على ساحل وادى الذهب فى هذا المركز الضيق جدا، وهو الذى كان يسمى بمستعمرة وادى الذهب .

وقد تخرج موقفها على تلك الشواطى عندما بدأت بعثة انجليزية تحت اشراف مستر ماكينزى ترتاد الشواطىء الممتدة من بين رأس بوجدور الى حدود سوس، لاقامة معمل للصيد، فهلعت لذلك، واحتدت اطماعها وعمدت الى خلق عدم وضوح مكان مركز «سنتاكروش دى ماربكنية» ذلك ما دعاها لان تدعى أن مركز سنتاكروش يقع بقرب سيدى افنى جنوبا، وبذلك تخطت رأس بوجدور ورأس طرفاية الذى أقيم عليه المعمل التجارى الانجليزى للصيد، تحت اسم «بويرتو فيكتوريا» ويسميه الاسبان رأس جوبى ورغم أن هذا المعمل وكل شواطىء طرفاية قد غادرتها البعثة الانجليزية بعد مفاوضة مع المغرب مقابل 50.000 جنيه استرليني أداها المغرب كقيمة للبنائات التى شيدتها تلك البعثة ومنها فندق، وبذلك خلص للمغرب الذى جاء فى الاتفاق المعقود بين الطرفين شرط أساسى وهو ممنوع على أية دولة أجنبية أن تضع نفوذها على المساحة التى بين نهر درعة ورأس بوجدور حسب الاتفاق المبرم فى 13 مارس 1895 .

واذ ابتعدت انكلترا عن المنطقة، أصبح الجو خاليا نسبيا من منافس خطير بينما كانت الدول الاوربية الاستعمارية سائرة فى تنفيذ مخططات تقسيم القارة السمراء، فالبرتغال قد احتل انغولا، وموزمبيق، وغينيا الاستوائية فى تاريخ 1505 واحتل سبتة بتاريخ 1415 التى آلت الى اسبانيا عندما انفصلت الدولتان بعضها عن بعض .

واحتلت اسبانيا مليية سنة 1497 لما وجدت خالية من الحامية المغربية مراعاة لجوار الاتراك الذين لم يرد المغرب ان يستفزهم ؟ وكانت فرنسا التى احتلت الجزائر تبحث فى غرب افريقيا عن متسع حيوى لوصول الجزائر بالسينيغال .

وفى زحمة هذه الاطماع الشرسة، كان على اسبانيا وفرنسا أن تتفقا فيما بينهما، قبل الاقدام على الزحف على الصحراء بما فيها موريطانيا والحوض ووادى الذهب والساقية الحمراء وطرفاية .

فبعد مفاوضات مضية توصلتا الى اتفاق بتاريخ 1900، وخوفا من اعتراض الدول الاوربية الاخرى وبالاخص انكلترا والمانيا وايطاليا، قررتا أن يبقى الاتفاق سريا، وقد قضى هذا الاتفاق على أن تحتل اسبانيا

مساحة من الصحراء الساحلية من الرأس الابيض الذى يسمونه بمدينة كاطيل مارا بخليج سينطرة الى رأس بوجدور، ويبعد هذا الرأس عن مدينة العيون بـ 199 كلم، وهو عبارة عن رأس بحرى ويحتل موقعا استراتيجيا عسكريا مع الجمال الطبيعى، ويتوفر البحر هناك على كثرة الاسماك الجيدة، كما يبعد هذا الرأس عن الداخلة بنحو 450 كلم .

وقد تبع اتفاق 1900 اتفاق آخر بين فرنسا واسبانيا بتاريخ 1904، المعروف بالاتفاق المتمم للاول لتعيين معالمه بالتحديد .

وبالطبع فقد أخذ بالاعتبار كأساس لذلك التحديد، المذكرة الاسبانية للدول الاجنبية بتاريخ 28 دجنبر 1884، التى تعتبر كاعلام بالرسوم الملكى الاسبانى بنفس التاريخ، الذى يحدد منطقة احتلالها بالمساحة الواقعة بين خطى 20-27 وكما أخذ بالاعتبار أيضا المرسوم الملكى المؤرخ فى 10 يوليوز 1885 الذى ينص فى الفصل الاول منه على ما يأتى: الحماية المبسوطة على اقليم الساحل الغربى لافريقيا الواقع ما بين رأس بوجدور، وخليج الغرب فى الرأس الابيض، تم بسطها بمقتضى الامر الملكى الصادر بتاريخ 16 دجنبر الماضى (1884) .

وفى فصله الثانى : انه يتولى الدفاع عن الاراضى المحمية .

ويلاحظ أنه رغم الاخذ بالاعتبار بالرسومين المذكورين فيما يخص المساحة بين رأس بوجدور والرأس الابيض، وفيما يخص وضعية الاحتلال الذى سمى بالحماية، فان اتفاق 1904 تجاوز وضعية الحماية الى الاستعمار، وتجاوز الحدود من رأس بوجدور فشمل الاتفاق اطماع اسبانيا فى المملكة المغربية بأسرها حيث قسم مناطق نفوذها، الى مستعمرات، وهى وادى الذهب والساقية الحمراء وافنسى والى حماية، وهى طرفاية وشمال المغرب، وقد ضيق الاتفاق منطقة طرفاية ووسع منطقة الساقية الحمراء، حيث تعدت رأس بوجدور، وبذلك أصبحت اسبانيا تحتل كمستعمرة حسب الاتفاق الذى تم فى غنية المغرب مساحة تبلغ 282000 كلم بدلا من 180000 كلم، واذا كانت كل من اسبانيا وفرنسا ضربتا عرض الحائط بالاتفاق الانجليزى مع المغرب فى شأن عدم استيلاء أية دولة أجنبية على الساحل الممتد من وادى درعة الى رأس

بوجود فان ذلك كان بعد تسوية مطامع تلك الدول الاستعمارية، اذ أطلقت يد انجلترا في وادي النيل وید فرنسا والبرتغال في افريقيا، والمانيا كذلك وايطاليا في ليبيا، فلم يكن هناك منازع الا الدول الفريسة، ومن ضمنها المغرب الذي قسم بين فرنسا واسبانيا ولم يرد في شأنه في ذلك الاتفاق الا جملة مختصرة جدا تتعلق بتصريح مزدوج «بالتمسك بوحدة التراب للامبراطورية المغربية تحت سيادة السلطان»

ولكن حسب الاتفاق المخادع المشار اليه، من أين تبتدىء تلك الامبراطورية، والى أين تنتهي؟ فاذا كان هذا التمسك صحيحا في الواقع فهل دعيت تلك الامبراطورية للحوار معها في شأن ذلك التراب المتمسك بوحدة .

وعلى كل فان الاستعمار في ذلك الوقت كان قويا لا يناقش الحساب، ولكن الآن عندما أصبح ينكمش وقامت عليه قيامة التحرير فقد أعطى الحساب العسير في الهند الصينية وفي الجزائر والمغرب وأنغولا وموزمبيق وغينيا بيساو وغيرها، ولا زالت القائمة تطول .

الشيخ ماء العينين وموقفه من اسبانيا :

يعتبر الشيخ ماء العينين أسد الصحراء بدون منازع، وكانت له سلطة رئيس المجاهدين الذين يرجع اليهم في الامور الدنية والدنيوية، اذ أن مسلكه الاسلامي كان مسلك الواقفين عند تعاليم الشريعة الاسلامية، التي تستوجب عليه أن يعمل خليفة لامير المؤمنين وتحت امرته، يستمد منه السلطة الروحية والزمانية، فكان من الذين لا يغيبون عن سداد الرأي، وارجوحة التفكير وقد رأت فيه قبائل الساقية الحمراء ووادي الذهب، الرأس المدبر والمصلح الكبير، وخليفة السلطان المطاع، فأنحست اليه كلية، وجعلت مدينة السمارة، التي بناها وسط الصحراء ببعد 230 كلم عن العيون شرقا محجا لها، تجد فيها غداء ماديا وروحيا، حيث ازدهرت هذه المدينة، وكانت مركز اشعاع فكري، واشعاع جهادي مقدس فكان نفوذ ماء العينين يتعدى حدود وادي الذهب الى قبائل الطارازة وقد تخرج عن هذه المدرسة الصحراوية فطاحل من رجال الفكر ورجال الشهامة، حتى

انها كانت صلة الوصل بين ملوك المغرب وقبائل ما وراء الرأس الابيض، فكان السلطان يعين رجال السلطة هناك، وبالاخص في عهد مولاي محمد ابن عبد الرحمان ومولاي الحسن الاول، وبهذه الاعتبارات استطاع الشيخ ماء العينين أن يوجه نداء حارا للجهاد المقدس الى سائر المسلمين من سوس الى النيجر فاستجابت تلك القبائل الصحراوية للدفاع ضد الاحتلال الاستعماري الاسباني والافرنسي وأبلى البلاء الحسن وبالاخص قبائل أولاد الدليم وتكتة والرقبيات .

واذا كانت اسبانيا تجثم في الداخلة على تلك البقعة الاستراتيجية على ساحل تلك المنطقة، فان المجاهدين يجدون مندوحة شرعية ووطنية، للقيام بواجب الجهاد لاجلاء الاعداء عنها .

واذا كان الشيخ ماء العينين بوصفه خليفة السلطان، والمصلح الذي تشرأب اليه الاعناق، فانه لم يكن غائبا عن أذهانه ما قام ويقوم به المبشرون المسيحيون للتسابق لتتصير سكان افريقيا، فلم تخف عليه حركة التبشير التي قامت بها جمعية «الاباء البيض» التي أسسها الكردينال لافيجيرى مطران الجزائر سنة 1869، والتي عززها بجمعية رهبانية النساء تحت اسم «الراهبات المبشرات لسيدتنا العذراء» .

وكانت خطة هاتين الجمعيتين في التبشير، انهم يطوفون في بلاد الاسلام بافريقيا، بزى المسلمين ويدخلون في كل ناد، ويتحكون بكل عائلة ويتوسلون بكل وسيلة، لاجل بث دعوتهم بين الناشئة الاسلامية مسلحين بذلك بنفوذ الحكومة الافرنسية (1)

ولذا توجب عليه أن يقوم بحملات على مركز الداخلة، مستهدفا بذلك صيانة السيادة الوطنية، التي يمثلها نيابة عن السلطان، كواجب وطني، ورد الفعل ضد الجمعيات التبشيرية، التي أغرتها سماحة سكان الصحراء كواجب اسلامي .

ولما كان نداؤه المقدس يجد آذانا صاغية، لما اسلفنا من صدق لهجته ووضوح قيادته لتلك الجهات، فانه قام بهجمات متكررة على الداخلة

(1) حاضرم العالم الاسلامي ج. 2 صحيفة 338-373 .

في سنوات 1887-1892 أى في الوقت الذى كان مغاربة الشمال يحاصرون مليلية وسبتة، ويضايقون حجرتي النكور وبادس، كل ذلك نيابة عن الدولة المغربية، بوصفهم جماهير شعبية تستمد شرعيتها من انتمائها للدولة تلقائيا، وواجبها حفظ ترابها والدفاع عنه .

على أن وضعية الشيخ ماء العينين كانت الصق بالدولة من الشمال، فمن منذ سنة 1858 وهو خليفة للسلطان، ونائب عنه في تسير الصداة سياسيا وعسكريا، وكان يقوم برحلات منتظمة كلما دعت الحاجة للاتصال بالسلطان، ففي سنة 1873 رحل الى مراكش لمقابلة السلطان مولاي محمد ابن عبد الرحمان، وكان القصد من الرحلة اطلاعه على الحالة العامة للصحراء ومسير الاسلام فيها ولأجل الاتفاق على الخطة التي يسير عليها، حسبما جاء في رواية المؤرخين الاسبان أنفسهم .

وفي سنة 1887 قام برحلة الى مراكش لتقديم البيعة الى السلطان مولاي الحسن الاول عندما تربع على عرش أسلافه، وقد جرت مباحثات حول الحالة العامة في الصحراء وما يتطلبه موقف المغرب منها، وقد اسفرت الرحلة على أمور هامة فجدد السلطان ظهور تعيينه خليفة له، كما زوده باعثة حربية وهدايا أخرى مهمة، ثم زار بعد ذلك مولاي عبد العزيز سبع مرات في مراكش وفاس، وعقد صداقة هامة مع الصدر الاعظم أبا أحمد الذي كان عصب الدولة المحرك لدواليها .

هذا هو الشيخ ماء العينين، وهذه اعماله داخل الامبراطورية المغربية، وقد استمر في الكفاح ضد اسبانيا وفرنسا، وعندما زحفت هذه الاخيرة على موريطانيا وضيق الخناق على مجاهدى الساقية الحمراء، ووادی الذهب لأجل أن تتنفس حليفها اسبانيا الصعداء، وتتمكن من الخروج من جحرها أمره السلطان بنقل مركزه الى ترنيت عام 1909 .

وعندما توفي قام ولده أحمد الهية الذي ورث كل مزايا والده الجهادية والدينية فسلك نفس مسلك والده، فعينه السلطان خليفة له .

ورغم أن أيامه كانت أيام المحن الكبرى التي شهدتها المغرب بأسره شمالا وجنوبا، فإنه قام ببطولات نادرة اخترقت سمعته الجهادية وحتى السياسية آفاق الصحراء الممتدة عبر موريطانيا والحوض الى النيجر،

وتصدى كما تصدى أبوه لايقاف الزحف الافرئسى؁ الامر الذى عمدت معه فرنسا الى ائاعة ما اعتادته أن تشيعه على الابطال الذين يتحدونها مثل البطل ابن عبد الكريم الخطابى من انهما نصبا أنفسهما سلطانين على الاراضى التى يعملون لتحريرها .

الزحف الاسبائى :

فى خضم هذه الاحداث التى توالى لئس على الصحراء أو الشمال فقط؁ بل على المغرب بأسره؁ حيث حرر عقد الحماية بين فرنسا والمغرب سنة 1912 أعقبه اتفاق بين فرنسا واسبانيا فى نوفمبر من نفس السنة؁ فان هذه الاخيرة تحركت من جهتها؁ فقام الكمندان بنيتس من الداخلة بتاريخ 26 اكتوبر 1914؁ برحلة الى رأس طرفاية برا ثم رجع الى الداخلة بتاريخ 26 اكتوبر 1914 وبقي الامر كذلك الى تاريخ 27 يونيه 1916 حيث قاد هذا الكمندان نفسه كتيبة توجه بها الى رأس طرفاية حيث احتلها ورفع عليها العلم الاسبائى؁ وذلك بمساعدة الضغط الافرئساوى على المجاهدين عن طريق موريطانيا حيث توغلت داخل تراب طرفاية .

أما جنوب الداخلة فانه لم يتحرك الا بتاريخ 30 نوفمبر 1920 حيث قاد هذا الكمندان أيضا كتيبة صوب مدينة الكويرة؁ واحتلتها؁ وكان احتلالها سهلا نظرا الى أن الضغط الفرنسوى أجلى السكان عن تلك المنطقة. وتبعد هذه المدينة عن الداخلة بـ 650 كلم؁ وتقع فى الطرف الأقصى الجنوبى لوادى الذهب؁ على اللسان البرى المتوغل فى البحر؁ الذى يقسم حدود موريطانيا ووادى الذهب؁ ولا تبعد عن مدينة نواذيبو الموريطانية الا بـ 15 كلم .

وبذلك تكون اسبانيا تسابقت الى الشواطىء الساحلية؁ ولم تتجرأ ان تتوغل داخلها؁ لما تعلمه من صعوبة الموقف أمام الصحراويين الشديدى المراس؁ المتعودين شظف العيش؁ والممارسين لركوب المخاطر؁ فلم تتحرك الى داخل الصحراء الا سنة 1937؁ حيث استولت على السمارة والعيون؁ وبئر قندوس وغيرها؁ أى بعد أن انتهت حروب الشمال وبعد استئباب الحماية فى ربوعها كما استئب لها احتلال طرفاية وسيدى افنى؁ ولو كانت كما تدعيه من أن الصحراء خلاء لكانت الوضعية غير

ما لاقتته، ولو كانت منفصلة عن المغرب لما ارتكبت أذوارا مضمية تارة باسم البعثات العلمية وتارة باسم البعثات التجارية، وتارة باسم الحماية، وتارة وحدة التراب للامبراطورية المغربية تحت سيادة السلطان، حتى أدى بها الحال عندما احتدم خلاف المغرب مع فرنسا، وحاولت ذر الرماد في أعين المغرب، قدمت مشروعا الى الخليفة السلطانى بتطوان تقترح فيه مشاركة أهالى الصحراء وسيدى افنى فى الحكومة الخليفية بتطوان وتستقدم من هناك مربى ربه لزيارة قبائل الشمال والحفاوة به .

وفى أول عهد الاستقلال كان استرجاع وادى الذهب والساقية الحمراء فى متناول يد المغرب الا أن اعتبار المصلحة العليا لقضايا المغرب العربى حيث كانت حرب الجزائر مع فرنسا على أشدها وكان التكتيك الحربى فى ذلك الوقت، يقضى بترك باب اسبانيا مفتوحا، فرضخ المغرب لتلك المصلحة العامة، مضحيا بمصلحته الخاصة، فتمهل فى استرجاع الاراضى المغتصبة، واستدعى جيش التحرير الذى كان على أبواب مدينة العيون محاصرا اياها، وكان الاسبان بصدد الاجلاء عنها .

وقد ارتأى المغرب أن يحل قضايا المتعلقة بالاطراف التى ترزخ تحت نير الاستعمار الاسبانى بالحوار الذى لا يقطع حسن الجوار، الذى يحافظ عليه المغرب جهد الامكان .

ولهذا المبدأ، فتح عاهل المغرب جلالة الحسن الثانى، الحوار مع اسبانيا، فى جولات متعددة عرض فيها على رئيس الدولة الاسبانية مقترحات سخية، منبعثة عن القلب الكبير، المفعم بالحكمة والرزانة .

وهكذا زار جلالتة بتاريخ 1970 عاصمة مدريد، حيث عرض على الجنرال فرانكو أن يحتفظ المغرب لاسبانيا فى الصحراء بالقواعد العسكرية، الى مدة يتفق عليها بين الطرفين، نظرا لوقوع الصحراء بقرب جزر كنارياس، التى لها أهمية استراتيجية بالنسبة لاسبانيا .

وفيمما يخص خيرات الصحراء الباطنية وفوق الارض وفى قاع البحار، ان تشترك الدولتان فى استخراجها وتسويقها تسويقا يعود عليهما بالمنفعة .

الا أنه رغم هذه العروض السخية تصلب الطرف المستعمر ،

فباعت تلك المحاولات الحبية بالفشل، وأمام هذا التعنت المزرى فان جلالة الملك ركب المركب القانونى فى المطالبة بالجلاء عن الصحراء، فطرح القضية على الامم المتحدة، وأصدرت هذه من جهتها قرارا بتاريخ 16 اكتوبر 1964، يقضى على اسبانيا، كدولة مستعمرة، أن تطبق مبدأ تصفية الاستعمار، الصادر بتاريخ 14 دجنبر سنة 1960 بدون قيد ولا شرط .

ثم تابعت الجمعية العامة للامم المتحدة فى سنة 1965 وأصدرت قرار بالحاح على اسبانيا أن تنفذ قرار 1964 وتقوم بتحرير أراضى الصحراء .

ومن جهة اسبانيا فقد مازلت تماطل ماثلا مكتشوفاً، رغم قرارات الامم المتحدة، وفى هذه الحالة فان جلالة الملك الحسن الثانى الح بتاريخ 1966 على لجنة تصفية الاستعمار، لمتابعة عمل التصفية فى الصحراء .

ولما كانت موريطانيا من جهتها قدمت مذكرة بتاريخ 1964 الى الجمعية العمومية للامم المتحدة طالبت هى الاخرى بحقوق فى الصحراء، مدعية أنها تنتمى الى موريطانيا، فان لجنة تصفية الاستعمار أصدرت قرارا فى سنة 1966 ينص على مطالبة اسبانيا باجراء الاستفتاء فى الصحراء المغربية بالاتفاق مع المغرب والاطراف المعنية الاخرى .

وقد كان من نتائج هذا التهافت أن مكن اسبانيا من التلاعب والتمشيد بالاطراف المعنية لاطالة وجودها الاستعمارى .

وفعلا كان قرار لجنة تصفية الاستعمار فى هذه المرة أى سنة 1966 ينص على اجراء الاستفتاء فى الصحراء .

ومع ذلك فان المغرب قبل هذا الاستفتاء على أساس أن مفهوم الاستفتاء لا يتنافى وارجاع الحق الى المغرب لان السؤال المطروح على سكان الصحراء على الصيغة التالية: هل يرجعون الى الوطن الام، أو البقاء تحت السيطرة الاسبانية .

وهذا المفهوم نفسه هو الذى عولت عليه اسبانيا نفسها حسب تخطيطها الذى خططته فى الصحراء، اذ جعلت ديدنها فى التكتيك المخادع الذى سلكته لتهىء عناصر عملية من السكان للمنادات بالاستقلال الذاتى تحت رعاية اسبانيا .

وتمشيا مع هذا المفهوم كونت مجلس الجماعة من سكان القبائل الصحراوية يجهرها بأنهم يريدون حكما ذاتيا تحت الاشراف الاسباني .
وعليه فان مفهوم الاستفتاء كان واضحا لدى الطرفين معا أى المغرب واسبانيا، وهو المتمثل فى السؤالين الذين يطرحان على السكان، وهما: هل تريدون الرجوع الى الوطن الام وهو المغرب، أو البقاء على سيطرة اسبانيا .

ولما كان المغرب يسير فى خط واضح يعتمد فيه على اصالة مطالبه التاريخية والجغرافية والسلالية والعقائدية، فانه اشترط لهذا الاستفتاء تهيئ ظروف قائمة، تجعل المغرب فى الحد الأدنى من التساوى لفرص النجاح مع خصمه، وهى ازالة القواعد العسكرية الاسبانية عن تراب الصحراء والاحتفاظ برجال الامن فقط، كازالة الجهاز الادارى لضمان حرية السكان ولو الى الحد الأدنى، كما اشترط حرية رجوع الانلاجئين الذين هاجروا الى المنطقة المحررة من المغرب تحت طائلة الاضهاد، ليقولوا كتمتهم عن حرية واطمئنان .

واذا كانت اسبانيا تلكأت على أى حال ولم تتصع لاي قرار واقتراح، وفى زحمة هذا التسابق الشرس من الطرف الآخر، فان عاهل المغرب أدرك بوحى من مبادئه السليمة، ان القضية تستدعى تجنيد الشعب المغربى لاطلاع الرأى العام العالمى على مطالبه الحق، فقد وجه خطابه التاريخى بتاريخ 8 يوليوز 1974 يحث شعبه فيه أن يعى قضيته الكبرى، ويستشعره بان السنة سنة استكمال تحرير بقايا التراب المغربى الرازح تحت نير الاستعمار الاسبانى .

ولما رأت اسبانيا حماس المغرب المنقطع النظير عدلت عن التفكير فى الاستقلال الذاتى الذى كانت عولت على ارتكاب حماقة من نوع فريد فى هذا الشأن وعمدت الى رفع القضية الى هيئة الامم المتحدة، متذرة بأنها تريد منح الاستقلال الى الصحراء، وتريد بذلك ابعاد أحقية المغرب فى اقليمه، حتى اذا تمكنت من تنفيذ لعبتها استولت بطريقة أو بأخرى على الصحراء .

ولكن عاهل المغرب قرع حيلتها بحجة قانونية فطلب اجراء استشارة محكمة العدل الدولية بلاهاى بالقاء السؤال من طرف لجنة تصفية الاستعمار عليها فى صيغة هل الصحراء لما استولت اسبانيا عليها كانت ارضا خلاء، واذا لم تكن كذلك فما هى علاقتها مع المغرب، فاستجابت هذه المنظمة الى مطلب المغرب، وأصدرت قرارها بأكثرية 81 صوتا مقابل لا شئ باحالة السؤالين على المحكمة مع توصية ضد اسبانيا أن تعدل على الاستفتاء، وبذلك كسب المغرب الرهان الاول، ولازالت القضية تسير الى الامام، ولن يضيع حق وراءه طالب .

البندقية والبطولة
ضمان الوحدة الوطنية

الطرق الحربية عند أهالي الشمال

ابتداء من سنة 1909 م. تحرك الجيش الاسباني للخروج من مليلية ليجرب مقدراته في توسيع رقعة الاحتلال، وذلك بعد اتفاق سنه 1906 م. بين الدول الاوربية للقضاء على استقلال المغرب كما أسلفنا . وفى هذا الظرف يجب القاء نظرة على الوضعية العامة فى الشمال من ناحية استعمال السلاح، كأداة لحفظ كيان كل قبيلة أو عائله وضمان وجودها ضمن ذلك المجتمع الذى وكل أمره الى نفسه، ولم تصل اليه يد السلطة المركزية بالقوة التى يجب أن تصل الى أطراف المملكة المغربيه، وانما كانت الطاعة والولاء لتلك السلطة بوازع دينى يخضع الجميع لها ويدافع عنها عندما يدلهم الامر، ويكون الخضوع للوالى الذى يباشر السلطة من طرف ملك المغرب بحسب العقيدة الاسلامية، يطيعون داخل نطاق ضيق وتلقائى، وليس للوالى سلطة قوية ضد المخالفات التى ترتكب بين الافراد والجماعات، بعضها مع بعض .

ولهذا، فقد تشتت المشاحنات أحيانا بين قبيلة وقبيلة، أو بين جماعة وجماعة، أو بين أفراد عائلة واحدة، ويستعمل السلاح بكل الطرق لفض النزاعات، وقد تستمر هذه الحروب الى مدة غير قليلة، يتربص الواحد للآخر، لكى يأخذه فى مصيدته باقامة كمين فى طرق الاسواق أو كيف ما تيسر، وذلك أخذا للثأر الذى يكون وتر به، أو انتقاما لعرض هتك، وفى هذه الحالة يكون فى بعض الاحيان اسراف فى استعمال هذه الاساليب العدوانية، ولاجل ضمان نوع من الاستقرار وتقليلا للكوارث التى تنجم عن ذلك، كان من المفروض على رؤساء القبائل «امغارن» أن يضعوا تقنيات للحد من تفاشش العداوة، فكانوا يعقدون مؤتمرات (تدعى اكرأو) (1) وغالبا ما يكون فى محل الاسواق، وكان لزاما على كل

(1) بهمة مفتوحة وكاف معقودة ساكنة .

قبيلة أو خمس أو فخذة أن يكون لديها امغارها يتكلم باسمها، وعليه نزاما أن يحضر في المؤتمر بآية طريقة كانت، تحرسه جماعته من الاغتيل في الطريق، وعليه أن يتجنب الطريق المطروقة للجميع .

وفي هذا المضمار يتفقون على أن من قتل بدون أن يكون موتورا أو أيام الاسواق، أو المؤتمرات، مثلا تفرض عليه غرامة، يحددها المؤتمر، تؤخذ في يوم معين يذهب افراد القبيلة الى قرية الجاني، وعلى أفراد جماعته أن تؤدى ما فرضت عليه، والا فان أولئك الجموع يستعملون وسائلهم بأخذ الغرامة، أما بالاستيلاء على الماشية أو بيع الارض، وللقبائل في هذا المضمار اتفاقات مكتوبة بينها، تعتبر ملزمة لجميع من وقع عليها في نطاق تلك القبيلة، التي تكون مجموعة سكنية في منطقته من المناطق، ورغم هذه الحالة، فان الكلمة الفاصلة عند التشاحى بين القبائل أو رؤسائها يرجع الامر فيه الى الفقهاء الذين يكونون قد درسوا في القرويين بفاس، وكل من كان يهاجر الى فاس لطلب العلم، فانه مفروض فيه أن يكون درس علوم الشريعة، زيادة على علوم النحو والتوحيد ، وهذه الفنون الثلاثة هي غالبية تحصيل الطلبة، ففى ميدان التشريع يدرسون مؤلفات التحفة والشيخ خليل، وفي ميدان النحو مؤلفات الفية ابن مالك وشرح المكودي والموضح، وفي ميدان التوحيد مؤلف ابن عاشر .

وعندما يرجع الى البلد يعتبر رجلا مسموع الكلمة، صالحا لان يكتسب لقب القاضى .

فالقبيلة الفلانية لها قاض أو عدة قضاة، وعند اختلاف القضاة فيما بينهم يجتمعون ويناقشون كتب النوازل، بمحضر امغارن، فيصدرون قرارا بينهم أما بالاجماع أو بالاغلبية، وللقضاة هؤلاء الصلاحية التقليدية لاصدار أحكامهم، والخطاب على الرسوم، وتولى عقود الزواج الشرعى. ورغم كل ما ذكر فانه اذا دعى الجهاد ينسبون كل تلك الخلافات، ويهرعون تلقائيا الى مواقع الجهاد، ومن معتقداتهم الصميمة التى لا ترحزح أن الجنة قطعاً تحت ظلال السيوف، فالذى يموت عليها فان أهله يقيمون حفلات الافراح مثل حفلات الاعراس وتأتى القبيلة كلها لحضور الجنازة، ليدفن بينهم فى لباسه، وتقدم القبائل تهانى بعضها

مع بعض، ومن مات منهم شهيدا فان تلك العائلة في القانون المحلى لا يجوز لأحد أن يتعرض لها بسوء ولو من طرف أعدائها، لأنها أدت خدمه للإسلام بموت شهيدها، فهي مقدسة ومحترمة بين الجميع، حتى عند من قتل له أباه أو ابنه أو أحد أقاربه، وهي من جملة بنود اتفاقات المؤتمرات.

ومما تجدر ملاحظته في هذا الباب، أن تقوية هذا الوازع الدينى، يرجع الفضل فيه الى الطائفتين السائدتين في ذلك الوقت في هذه «تربوع»، وهما الطائفة الدرقاوية التى كان شيخها السيد محمد العربى العلوى بصفرو ومن الانصاف أن نصف هذه الطائفة — وهى الشاذلية — أنها أسدت كثيرا من الخير والتوجيه الدينى في تلك الاوقات المتشابكة الاغراض والمسؤوليات الغير المقننة، فانها بثت وعيا دينيا صميما في الافراد، وبالأخص أولئك الذين يعترفون بمسكة من العقل الراجح، وكان سلوك أفراد هذه الطائفة ان لم نقل جمهورها متمسكا بأهداب الدين، ومتديلا بأخلاق السنة النبوية، يجتمعون عليها في زوايا تلك الطريقة أيام الخميس من كل أسبوع، وفي مناسبات أخرى، وهذه الزوايا منتشرة انتشارا كبيرا، ومن الملاحظ أن هذه الطائفة غذاها في هذا البلد الفقهاء الذين يرجعون من فاس بتعاليم الشريعة السمحاء، وذلك مادعى الى اعطاء الحياة الاجتماعية صبغة نظيفة، متمشية مع التعاليم الاسلامية الصحيحة، فالصلاة محفوظة في أوقاتها، حتى أنه في الاسواق التى تعقد في أيام الاسبوع، عندما يصل وقت الظهر أو العصر يؤذن المؤذن على الكدية التى تكون تعلقو السوق آذان الصلاة، وتجد الناس يتقاطرون فرادى وجماعات وكل واحد يضع بندقيته أمامه، ويؤدون الصلاة المفروضة في صفوف طويلة، وهكذا دواليك، فلا يخشى أحد اغتياله من طرف عدوه الذى يكون ملاصقا معه في الصف بدون غضاضة .

أما الطريقة الثانية، فهى التيجانية، ولكن بنسبة أقل من الاولى، وعلى كل فان الحياة العامة تبدو في ذلك الوقت متناقضة تمام التناقض، فمن جهة أن النفوس صقلتها التعاليم الدينية والاخلاق العامة في حفظ الاعراض والجار والشهامة الانسانية، ومن ناحية أخرى كانت الاحكام لا تؤخذ بسلطة شرعية عليا مفروضة على الجميع، بل وكل أمر القبائل

الى نفوذها الفردى المتسلط، بينما باب الجهاد مفتوح على مصراعيه بدون انتظام، بل على حسب رغبة الشخص ومحبته فى جنة الفردوس .
ومن الطبيعى فان تنشئة أجيال على هذه الصورة الفردية، مهذا الفرد يقتضى أن يشب ويشيب على الفروسية، وضرب الاقتران، واستعمال الطرق الملائمة لمثل هذه الحالة، فعندما يبلغ أن يحمل السلاح، ولو لم يبلغ الحلم فى كثير من الاحيان، ان يتدرب تدريبا متقنا فرديا لا يتكل على آخر لاستعمال السلاح، ليكون مؤهلا ليقى العائلة عوادي الدهر، معتمدا على نفسه فقط، ويعتبر عضوا فى العائلة يسد مسدا ولا يبالى :

وعلى عائلة الكبير أن تنظر فى أمر تمكينه من السلاح باى وجه كان، وقد كان النوع الاول من السلاح يدعى بوشفار، (أزيدان باللسان المحلى) ثم تطور الى ساسبو وهما نوعان من البندقية: الثانية أرقى من الاولى، لان الاولى تحشى بالبارود من الفوهة ثم دكه بقضيب من حديد دكا قويا، وتوضع حبات الرصاص بعده ترسل الى مسافة قصيرة، أما الثانية فان له خرطوشا محشوا بالبارود والرصاص ولا يطلق منه الا طلقة واحدة، ثم يعاد حشوها بأخرى، وهو أحسن حالا من الاولى، ولكن عند الاحتكاك مع اسبانيا بدأ نوع الخماسية، وهى عبارة عن بندقية تحمل طلقات خمسا (موزير) ينطق بها بلسان الاهالى محرفا (موسى) وعندما ظهر هذا النوع الاخير فى حدود أول القرن العشرين حجب الى الناس وكانت القبيلة تفتخر بان عند أفرادها كذا وكذا منها، وأن الرجل يدلها وينيلها بدهن براق، وعندما يأخذها الى السوق ويضعها على كتفيه يعتبر عنتر القوم، يخشى بأسه، لان طلقاتها تصوب الى بعيد، والحقيقة أنه نوع قل أن يخطئ الهدف، وبالاخص اذا كانت غير مستعملة كثيرا، إذ أن استعمالها يخرطها الى أن تجعل الرصاصة لا تسير مستقيمة الى الهدف بالذات، وبالطبع فان حالة نفسية قوم بهذه الدرجة من الاحتراس والعمل اليومى فى سبيل الذود عن النفس والعائلة والقبيلة، يجعل تنشئة رجل من هذا النوع من اعتياده سلوك المغاور، والمسالك الصعبة الوعرة، واقتحامه المهالك يوميا تقريبا، وكونه يستعمل ظلام

الليل في حياته أكثر من نهاره لكونه محفوقا بالخطر، تكون تنشئة ان لم نسما صاعقة فهي بالغة الخطورة في الشؤون القتالية .

وقد كان الارياف الى حد غير بعيد يقيسون عمر الشاب بكونه كان وصل الى حمل السلاح، بدلا من أن يقول بلغ الحلم مثلا أو سنه كذا، وهنا يجدر بي أن أورد هنا قصة حكاها أحد الجنرالات الاسبانيين الذين فادوا الحرب في الريف عندما كان قائدا أعلى للقوة التي ترابط على خط العرائش — القصر الكبير — فقد ذكر هذا الجنرال وهو منويل غودييد، أنه في سنة 1922 عندما كان يقود العملية بقبيلة بني كرفط، وكان المجاهدون أقاموا كمينا لحامية من معسكر النواذر الاسبانية، ولكن الجيش الاسباني أقام كمينا مضادا، فوقع من كمين المجاهدين في الاسر شخصان احدهما يكاد يكون طفلا يحمل بندقية «موزر»، ولما سئل ماذا يصنع بهذه البندقية، ولماذا أتى الى الكمين، قال أنه يدافع عن البلد، ويتدرب على أساليب القتال، وقد عقب على ذلك هذا الجنرال بقوله «تأملوا لهذه الجرأة التي يتحلى بها هذا الصبي، فكيف يكون اقدامه عندما يبلغ مبلغ الرجال».

واذا علمنا وعورة سلسلة جبال الشمال من ناحية التكوين الطبيعي، الذي حباها الله بادغال ملتفة، وشواهد عالية، ومسالك ضيقة، وكون سكانها هم كصقور في أوكارها، وليوث في عرائنها، حيث يضبطون شبرا بشبر من تلك المواقع بعيون حادة وحاسة مرهفة وأجساد خفيفة، علمنا أي ذعر يحدثونه في الاعداء، عندما يريدون أن يعكروا عليهم صفو تلك الحريات، التي ينعمون فيها رغم شظف العيش وقلة الزاد .

وهنا نترك الوصف لأولئك المغيرين من الاسبان والافرنسيين الذين خبروا تلك المصائب، وذاقوا الامرين وعانوا الهول بذاته يردد فرأئهم، وفرأئس جنودهم .

قال الجنرال غديد في كتابه «المغرب ومراحل التهذئة» ما يأتي :

«واذا اعتبرنا أن الحرب المغربية لها ظروف غير ظروف الحرب في أوروبا، حيث أن المغربي محارب وبعيد الانتصار عليه وصعب الاخضاع، وهي اعتبارات خلفت في جنودنا عدة قصاصات من البسالة المغربية، جعلت

معنوياتهم منحة انحطاطا فضيعة، بحيث ان الجندي الاسباني يعتبر انه مقدم على هلاك من أول وهلة يساق الى المعترك» .

«وهكذا يظهر أن الحرب في المغرب هو نوع خاص، ولا يمكن أن يطبق فيها العلوم العسكرية، لأن المغربي يأخذ التموين في قب جلابته، ويمكن أن يقاوم جيشا منظما من حيث التموين والصحة وجميع المعدات الحربية، وأن أعماله الحربية منظمة تنظيما دقيقا، فهو يحارب في منطقة لا تتعدى ما تصل اليه نار بندقيته، ومع ذلك، فهو يتصرف في تلك المنطقة بحرية وبصورة فردية، فهو محارب كامل، يقوم بأعمال حربية خارقة لا يقدر الجيش النظامي أن يضبطه أو ينال منه منالا، فالريفى والغمارى والجبلى كلهم محارب بدوى، قوى سريع الحركات محارب بطبيعته، وببساطة نادرة، ومتعود على استعمال البندقية، ووسائل العنف من منذ طفولته»، ثم قال «ان أرض الشمال لا تصلح فيها الحروب النظامية، وانما تصلح فيها حرب العصابات، ان هؤلاء المحاربين هم خطيرون كأفراد، فهم لا يحاربون في فرقة تحت راية طابور ما، وهو يأخذ معه عتاده على أكتافه»، وقال المريشال ليوطى «ان الجنود المغاربة من أشجع الجنود في العالم، وكمحارب لا يوجد من يماثله في المعركة، لأنه يأخذ معه في جلابته خرطوشا وخبزا وكرموسا، ليومين وثلاثة، وعندما تنتهى هذه المواد يذهب الى داره ليتزود مرة أخرى»، وقال الوزير الانجليزى المستر وليد جورج «يظل الاسبان في مراكز في شقاء وخرج، فهم يمسكون وعول الريف من قرونها، ولكنهم لا يستطيعون أن يروضوها، ولا أن يطلقوا سراحيها، فيرتطمون بقرونها من آن لآن ارتظام الثائر الصاخب فتدمى جباههم، وتذهل احلامهم، لان الجبال تمد الوعول الثائرة بابدع فرص اندفاع، كما أن الثوار الذين يناضلون عن حرياتهم مولعون بحيل الجبال يستمدون منها القوة والمعونة» .

ومن هذه النصوص ندرك لماذا لم يحتل هذا الصقع من المغرب من طرف المستعمرين القدماء، فقد تجنب الرومان اخضاع هذه الجبال، وتركها بمعزل عن اكتساحه لشمال افريقيا، كما كان الشأن بالنسبة للونداليين، والقرطاجنيين .

وغاية ما أدرك الفنيقيون أنهم فتحوا متاجر لهم حذاء قلعة
سبييه بروساديس .

وقد كان مسلك المستعمرين الوحيد هو طريق طنجة — وادي
المخازن — الى فشتالة، حيث يعبرون الى الجزائر من طريق تازة ومفازتها،
بينما يخضعون سواحل تمسنا من المهدية الى آسفى وغيرها، والفتح
الوحيد الذى رسخت جذوره فى النفوس واستدام الى يوم يبعثون، هو
الفتح الاسلامى، الذى أخذه أهالى الشمال، كما أخذه باقى المغاربة عن
اقتناع وسخاء، لما فى تعاليمه من انسجام مع الطبيعة البشرية الفطرية،
وقد كان احتكاك العرب بالاندلس فرصة ثمينة لان يتعرف أهالى الشمال
على مزيد من تلك التعليمات التى خلقت فيهم تلك الصفات العربية
القحة، التى تحمى الجار وتقرى الضيف، وتحيط الاعراض بكيان من
القدسية، نظرا لكون فرضات جبالهم المتفتحة على الزقاق، كانت معبرا
لأولئك العرب جيئة وذهابا، فاختلطوا، ثم أسسوا امارات على تلك
الشواطىء .

وعلى كل، فان من مميزات الفترة التى ابتدأت من سنة 1909
حينما بدأ الجيش الاسبانى تحركاته لاكتساح الشمال الموعود بحمايته،
ان انجبت مناظرين استقطبوا حولهم جمهور المقاتلين من مختلف قبائل
الريف، كما انجبت آخرين فى مختلف قبائل جباله على اعتبار التفاوت
النسبى فى الاساليب المتبعة، ويعنينا هنا ان جو النضال بحماس متزايد ،
كان ابتداء من تاريخ 1909، فى جهة الريف، ثم استمر فى مراحل الى
معركة أنوال وما بعدها .

ويرجع الامر فى خلق هذا الجو قبل الامير ابن عبد الكريم الخطايبى
الى زعماء ثلاثة وهم:

- 1) الشريف سيدى محمد أمزيان القلعى .
 - 2) الشريف سيدى محمد حدو العزوزى الورياغلى .
 - 3) الشريف سيدى عبد الكريم (الاب) الخطايبى .
- وبفضل هؤلاء الزعماء وبداعى رد عادية المغيرين، فان قبائل
الريف أصبحت معسكرا عاما تلقائيا جاعلة من عملها اليومى الدائب أن

ترسل امدادات بشرية وتموينية الى الخطوط الامامية التي تصطدم فيها مع العدو، لسحقه في ملاحم احيانا، وعرقلة تقدمه أحيانا أخرى، وذلك ما جعل تحركه الى أن يصل الى أنوال، تحركا بطيئا استغرق قرابة عشر سنين، في حين أنه عندما نكص راجعا تحت ضغط ضربات المجاهدين الموقفة قطعها في قرابة عشرة أيام فقط .

ولاجل ذلك فان قيادة الزعيم ابن عبد الكريم للمناضلين الارياف في أول الاصطدامات الحاسمة، انطلاقا من (دهر ابران) لم تكن قيادة مستوحاة من مغامرات ارتجالية، أو كانت مجرد تجربة لاغراض شخصية، انتقاما من الاسبان، لانهم أهانوه في عاصمة قضائه، أو كانت عملا ذا حدين تحفى في طياتها أغراضا شخصية للاستلاء على الحكم، فهذا كله كان بعيد التصور في ظروف النضال المحيطة بالقوم والتي عايشوها تلك الحقبة الطويلة من الزمن، وهم يكابدون معالجة هذه الشؤون المستعصية ولكي نكتنه تلك الظروف يجدر بنا أن نلقى نظرة عجلى على حياة هؤلاء الزعماء النضالية .

1) سيدى محمد أمزيان القلعي :

هو الشريف الصالح المصلح سيدى محمد أمزيان من أولاد أحمد أعبد السلام بن صالح القلعي الشرفاء الادارسة الذين جعلوا قبيلة قلعية مقرا لهم، والتي آوت الشرفاء الحموديين الذين عبروا البحر من الاندلس عندما أفلت دولتهم هناك، كما ذكرنا فيما قبل .

وقد أسست عائلته زاوية قرب مدينة الناظور دعيت زاوية أولاد أحمد أعبد السلام، وهى في قمة شرقي مدينة (سغفغان)، حيث يوجد منجم الحديد (اكسان) التى كان محور الحركات الاولى للصراع المباشر بين المجاهدين والاسبان عام 1909، والتي تولى كبر أمر المجاهدين فيها الشريف المجاهد هذا .

وقد رأى بعينه ماذا يحيكه الاسبان للاستلاء على ثروات البلاد، باستعمال العملاء الذين باعوا ضمائرهم للاجنبى، حيث باع بوحماره ذلك المنجم الذى لا ينضب، ببخس من الثمن، والحال أنه دعى في أمر

المغرب لا صلاحية له بتاتا في ابرام ما أبرمه، وعندما نشبت الحرب بين المغاربة والاسبان المعروفة بحرب مليلية قاد هذا المجاهد حملة المجاهدين، وأعطوا مثالا للتضحية أثنوا الجيش الاسبانى من خروجه من المعتقل الذى تحصن فيه .

وفى سنة 1909 هجم سيدى محمد أمزيان على السكة الحديدية انتى تربط بين مليلية ومنجم الحديد بضواحي اسغنغان، فاتلف السكة برمتها، وقد جرت معارك حامية الوطيس تشيب لها الولدان استمرت ستة أشهر، فقد فيها الجيش الاسبانى ما بين قتيل وجريح حوالى 2000 جنديا، وسميت هذه الايام عند الاسبان بالاسبوع المأسوى .

وبعد عقد اتفاق مدريد بين اسبانيا وفرنسا، لقسم المغرب الى قسمين وشرعت فرنسا فى احتلال القسم الذى يخصها بناء على معاهدة الحماية، حلف أن لا يتركهم يحتلون أى شبر الا على أجسام الابطال، وفعلافانه نظم قبائل قلعية وبنى بويحيى وبنى سعيد الريفية وبنى وليشك وغيرها، وكانت قبائل بنى توزين وبنى ورياغل تمدد بالرجال، فقاتل شبرا بشبرا، وقد تكاثر عليه الجيش الغازى، فنقل معسكره الى قرية افران اغلال أمام قرية تيكارمين ما بين قلعية وبنى سعيد، حيث استشهد فى معركة مصيرية ومن جملة تقديسات الاهالى له فانه يحكى أن الموضع الذى مات فيه بقى حزينا، ولا ينبت النبات أبدا واستشهد رحمه الله خلال سنة 1913 م. بعدما خاض ما ينيف عن مائة معركة معهم تقدمت الاشارة اليها .

وقد حمل الاسبان جثمانه الى مليلية حيث عرض هناك على السكان الاسبان والجنود ثلاثة أيام، وذلك ليطمئن الجميع أن الذى كان يقلق راحتهم ويجعل استقرارهم فى مليلية غير مضمون، قد لقى حتفه . وقد سلم بعد ذلك الى عائلته بعد أن تدخل أخوه الشريف السيد انتباع بتوسط بعض من كان له مع قائد مليلية العسكرية علاقة، ودفن رحمه الله فى زاويته وأوصى بأن لا يبنى له ضريح، ولكن عائلته بنت عليه ضريحا تحت الحاح القبيلة حيث أصبح ضريحه مزارا للناس، وقد دفن معه فى الضريح ولده محمد وبنته للافاطمة، ونسبه الشريف حسنى بالتواتر،

غير أننا لم نعثر على من ينتسب اليهم من الشرفاء الذين سكنوا قلعية فقد ورد على هذه القبيلة شرفاء كثيرون حسب ما وقفت عليه في مخطوط من شرفاء الريف كما تقدم .

(2) الشريف سيدى محمد بن احمد الفوزى الورياغلى :

هو العلامة المجاهد صاحب التأليف الكثيرة في علوم الدين والتصوف حسبما يأتى، وصاحب الحركات السياسية لتحطيم نوايا الاسبان في الاستلاء على الريف بوسائل سليمة من دون اداء الثمن دما غاليا .

فلما كان سيدى محمد أمزيان ينظم قبائل بطيوة كما اسلفنا ليرد عادية المغيرين من مليلية على القبائل المجاورة، وكان هذا المجاهد يجمع المجاهدين من بنى ورياغل ويرسلهم أفواجا وفرادى الى ميادين القتال، وكان يتنقل بصورة عجيبة فيما بين القرى يلقي على سكانها ما أثر في فضائل الجهاد، وكان يحضر اليه سيدى محمد أمزيان فيجمع المجاهدين من بنى ورياغل ويسير على رأسهم يخوض المعارك، كما كان يحث القبيلة على منع بعض الافراد الذين كانت لهم علاقة سياسية مع الحاكم العسكرى بجزيرة النكور، اذ فتح هذا باب الجزيرة على مصراعها ليلجها أفراد القبيلة، كما فتحوا أبواب جزيرة بادس لمثل ذلك، وكان رتب لبعض الأشخاص رواتب شهرية طمعا في فتح البلاد سياسيا وجعل الجزيرة سوقا رائجا لشراء البضائع شراء رمزيا، وحتى أنه كان يتبامح حتى في شراء السلاح أو اهدائه، وبالاخص أولئك الذين يجاورون تلك الجزيرة.

ولم يكن ليخفى على الشريف المذكور مقاصد السياسة الاستعمارية، وكان مولعا بمحبة العرش العلوى وولائه الذى كان يضرب به المثل، وهو الذى كان يحرر الرسائل مثابة لرسائل السلطان مولاي عبد الحفيظ، ويمكن به أحد الغرباء ليدخل بها عندما يجتمع رؤساء القبائل الى المؤتمر، ويمكنه بها كأنها وردت من الملك نفسه، وعندما يضعها على جبهته ويقبلها يقرأها، وذلك لاجل اذكاء الحماس، فكان الاسبان في جزيرة النكور ومليلية يقلقهم عمله فجربوا حظهم معه بأن أرسلوا اليه يعدونه بكمية كبيرة من المال، ليخمد للسكون ولا يثير القبائل عليهم، ولكن ايمانه القوى وعزته

الوطنية دعتة لان يرفض ذلك، وأخيرا هددوه بأنه ان لم يستجب لآخذ المال، فإنه نفسه يلقي حتفه، وكان الأمر كما توعدوه، فإنه قتل من طرف وغد من أوغاد أعمامه، بينما هو راجع الى داره من عمله الدائب في سوق خميس الموابطين بوادي غيس، أواسط العقد الثاني من القرن العشرين، ودفن في مقبرة زاوية سيدي عيسى .

ويعتبر عمله بحق أول نهضة في قبائل الريف الوسطى، كما كان عمل سيدي محمد أمزيان أول نهضة في القبائل الشرقية، وانتقلت سلطة قبيلة بنى ورياغل الى زاوية سيدي عيسى، فكانت القبيلة معلقة اليه .
وللمجاهد المذكور عدا الاعمال الحربية ضلع كبير في مختلف الفنون العلمية ولاتمام الفائدة ننشر شهادة عصره سيدي محمد بن محمد بودهر التوزاني ونصها حسبما بيدي من نسخة منها :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الحمد لله وحده وجد بخط العلامة المرحوم سيدي محمد بن محمد بودهر التوزاني رحمه الله في حاشيته المسماة بغاية الصبور على شفاء الصدور، نصه: التعريف بالناظم وهو ناظم القصيدة وشارحها فسي تحريم لحن أهل الفجور التي ستري قال وهو الفقيه الامام العلامة أبو عبد الله سيدي محمد بن احمد الشريف الحسنى الورياغلي صاحب الجد والاجتهاد والتشهير عن مساعد الحزم لخدمة رب العباد من تلاوة واذكار وقيام الليل والاسحار، حتى حكى عليه الخبر وصح واشتهر، انه يردد بعض الآيات ويكي حتى يطلع الفجر، تصدر للفتوى في الريف، واتسع باعه في العلوم، سيما في علم العروض، حتى صار فيه دأبه متى سمع بيتا من أبيات الشعر فينظر فيه لحظة ويجيب بأن هذا البيت من بحر كذا، فهذه عادته، وأخبرني عن نفسه بأنه يعرف جميع العلل والزحاف في الشعر بديهة حتى لا يحتاج لتأمل في ذلك، وأما تأليفه فمن أجل ذلك هذا الذي نحن بصده الذي فاق به في بديع صنيعة ابناء الناحية في الزمان، ولم يضاهه أحد بمثله، ولا سبقه لذلك واحد من الاخوان، فطالع تجدد، وليس الخبر كالعيان، ومن تأليفه أيضا تأليفه الذي سماه رسالة المتجهدين، فقد

أبدع فيه من العلوم مالا ينبغي ترك مطالعته لذوى العقول والافهام، ونقل فيه من الاحاديث النبوية والاخبار المصطفوية ما لم يتقف عليه غالبا واقف في كتب العلماء الاجلة، وفسر فيه من الآيات القرآنية بكلام أهل التصوف ما يشهد بغزارة علمه وسعة اطلاعه على أقوال الائمة، ونقل فيه من حكايات الصالحين ما يبرر الواقف عليه ممن اتصف بالتسليم لاهل الرسوخ والتمكين، ونظم فيه أشعارا أطل في بعضها عاية، فعليك به ان أردت استيفاء ما به من وعظ ونادب الى ما يفضى مآله الى الحسنى والزيادة، ومن تأليفه أيضا القصيدة الرائعة في مدح خير البرية، فيها مائة وأربعون بيتا، قافيتها على الراء من الضرب الاول من الطويل، ومنها أيضا قصيدة في مدح شيخه سيدى محمد بن احمد العلوى الحسنى القاطن بقرية صفرو، الى غير ذلك، ومن أشياخه الشيخ الامام العلامة الهمام سيدى محمد كنون رحمه الله في الحديث، وفي النحو الشيخ المدرس الافضل العلامة الاكمل سيدى خليل أبو صالح الخالدى ابقاه الله لنا ملجأ، وكان له في حياته ومماته، وفي الفقه الشيخ العلامة الصوفى سيدى احمد بن الحياط، والشيخ الرئيس والولى النفيس سيدى محمد القادري، والعلامة المرحوم سيدى محمد الوزانى غفر الله له ذنوبه وأسكنه فى أعلى الجنان بمنه وكرمه كان الله للجميع وأيد الجميع بجاه النبى الشفيح طلى الله عليه وسلم، وأخذ الطريقة عن سيدى محمد العربى العلوى الحسنى، وعن ابن عمه سيدى محمد بن احمد فى صفرو بعد وفاة الاول أيد الله الجميع، والكل فى ظل مولانا أمير المؤمنين مولانا الحسن أسكنه الله أعلى الجنان، ومتمعه بالنظر الى الحنان المنان، الى غير ذلك من مآثره فانظر فى الحاشية المذكورة تجد أكثر مما كتب هنا والسلام .

وهذه القصيدة التى أشار اليها هى فى تحريم اللحن عند تلاوة القرآن الكريم كما كان يسمى فى ذلك الوقت بالصيغة وقد وقفنا على بعض الابيات منها، مع شرح ناظمها لها لمعانيها، والاستدلال على ما قاله بنصوص فقهية، ونغتنم هذه الفرصة لنشرها خوف ضياعها.

وقد قال فى أول الشرح أما بعد فهذا تفسير ابياتنا على تحريم اللحن العجمى الذى كان هزجا أحل الفاظها وأبين النقل المشار اليه فيها،

لتكون في تحريمه حججا، مقتصرًا على المقصود لكوني في غيره اعرجا، ولكن من أخذ معظم الشيء لا يلام على عدم الاتيان بما كان همجا، طلب مني ذلك الفقيه البركة القاري قراءة السبع العالم بوجهها مدخلا ومخرجا، سيدي محمد بن الفقيه العلامة سيدي الحاج عبد الله الشريف الحسنی الورياعلى، وقاد الله من كل ماكان حرجا ، السخ ...
وهذه الابيات التى وقفت عليها :

لك الحمد يا من أنزل الذكر والهدى
عليه وآله وصحب صلاته
وبعد فترجيع جلا في زماننا
إذا اجتمع القراء في محفل غذا
يسمون ذا اللحن القبيح بصيغة
لتغييرهم كل المدود بطبعهم
وقد قال بعضهم بأخرى قريبة
ولكن وإن كانت كذى حرمت لما
وفي آية التناول الزجر قد سطا
وما استوجب النقصان عمدا لواحد
وقد قيد المحدثون رواية
كما في البخارى المهدى وغيره
وقد علق بعضهم الذى سمي نفسه على بن الحاج محمد
انبرسيمى بتاريخ خامس شوال عام 1321 هـ، فقال في كرامة من نصوص
السناطبي وغيره «لا شك من تأمل كلام الفقيه العلامة سيدي محمد بن
أحمد الورياعلى الريفى في منظومته المسماة «شفاء الصدور» في تحريم
لحن أهل الفجور وشرحه لها وجده صحيحا السخ .

وقوله ومنها أيضا قصيدة في مدحه شيخه سيدي محمد بن أحمد
العلوى ولعله يقصد بذلك نظما أبياته 68 سماه «هذه القلادة المنورة في
ذكر السلسلة المطهرة» ويعنى بذلك سلسلة الطريقة الدرقاوية فى

(1) قال في الجواهر الدد هو اللعب .

وفاته بطريقة الاشارة بالحروف الابدجية بلفظة مشكب بالسين والشين والكاف والباء التي محصل اعدادها 1322 هـ. وهى السنة التى فيها مات بالتاريخ الهجرى .

وقد علق بنفسه على هذه القصيدة تعليقات لغوية وتاريخية وعروضية، وبذلك تكون كتابه فى مضمارها. ولاتمام الفائدة سنثبت هنا القصيدة والتعليقات وقد بدأها بما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله .
قال العبد الملقب هر اهل الله محمد بن احمد الورياعلى
أنصنى عفى الله عنه آمين يارب العالمين لقب نفسه بذلك لما عرف نفسه
بنزعة الهرمعهم .

هذه القلادة المنورة، فى ذكر السلسلة المطهرة .

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| أحمد من فضل أهل المعرفة | من الشيوخ الواصلين الكلمة |
| سبحانه من واحد ومالك | قسمهم لغائب وسالك |
| مصليا مسلما عن النبى | والآل والأصحاب أولى الحسب |
| نخص منهم الذين نجم | بعقد سلسلتنا فلتتمعوا |
| يسمى لذا القلادة المنورة | فى ذكر سلسلتنا المطهرة |
| ومن ذكرته وما سيدته | فالوزن عن لى وقد أردته |
| لكن لسان حالنا قد سيد | لقبه أو اسمه ومجد |
| محمد بن احمد قدوتنا | |
| العلوى (1) نسبا فخيما | الحسنى حسبا كريما |
| بحر الشريعة وذو الجمال | بحر الحقيقة وذو الكمال |
| أوصافه محمودة فخيمة | يطيب شرحها بلا سامة |

(1) العلوى: هو من ذرية مولانا على الشريف، وهو من تافلات ونسبه مرفوع الى سيدنا الحسن السبط وشرفاء تافلات من ذرية محمد الملقب بالنفس الزكية والامام محمد هذا ومولاي ادريس اخوان، وقد قدم جد العلويين وهو الحسن القادم من الحجاز قال سيدى عبد الله بن طاهر أن قدومه كان فى سنة 664 هـ.

العارف المحقق الرباني
دفن في روضته بصفرو
قدس روحه بفضل ربي
وبالمشاهدة أخذنا عنه
أخذ عن استاذة وعمه
بالكتب قد أخذت عنه اذ بدا
وقد خلف ابن عمه الحسن
كذلك صنوه الذي قد جذبا
فروعه كسيد السبعي
وعلمه الجلي والخفي
وجمهم بغربنا النصب قضي
وهو أصل والفروع تقتدي
والبدوي شيخه الخضراوي
تعزى له طريقة مرضية
عن الشريف الاكرم المجل
وأخذ هو عن العربي

في شكب (2) صار الى الرضوان
طاش لذا العقل وضاق الصدر
عليه جل رحمت الرب
وبالمذاكرة فدنا منه
محمد العربي مربى وقته
مربيا وناصحا من اهتدى
العالم العارف ما به وهن
محمد لحضرة هي الحبا
كثيرة بذكره الخلو
أشهر في الاقطار وهو حى
وغيرهم غير انتظار قد نضى
وأخذ معن اذ يحتدى
عن المربي الاكبر الدرقاوى (3)
كالشاذلى وهي الصوفية
منور السر على الجمل (4)
عن احمد والده المرضي

(2) يشير به الى تاريخ وفاته وهو 1322 هـ.

(3) وهو سيدى العربي بن احمد بن الحسن بن على من ذرية سيدى
احمد بن مولانا ادريس توفى في 22 صفر 1239 هـ. في بنى زروال
وله زاوية لها فروع .

(4) هو على بن عبد الرحمان بن محمد بن على بن ابراهيم بن عمران
الشريف الادريسي العمراني من قبيلة بنى حسان وسبب تسميته
بالجمل يقال أنه وجد بعيرا راقدًا في بعض طرق فاس فرفعه ووضع
خارج الطريق فرآه الناس فقالوا هذا الجمل فاشتبه به، كان بفاس
وخرج الى تونس ورجع الى وزان سنة 1153 هـ. ثم الى فاس
ومات في 29 ربيع الاول 1194 هـ. عن عمر 106 .

كلاهما يدعى بعبدلاوى
نسب كل واحد فاسيا
عن سيدى محمد الفاسى
تلميذ يوسف النبه الفاسى
جد لعربيههم المذكور
عن شيخه العارف عبد الرحمان
من فاسنا هما عن المجدوب
عن سيدى على الدراوى
عن الملقب أمجام أبأ
عن الامام المرتضى زروق
عن شيخه عقبة ذاك الحضرمى
عن مظهر السر على ابن وفا
أعنى به والده الاواه
عن احمد نجل عطاء الله
عن المربى التادلى المنتجب
عن عابد (7) الرحمن وهو المدنى

كلاهما الناشر ثم الطاوى (5)
عن قاسم ينسب اخصاصيا
يعزى ابن عبد الله فى الأساس
أمام أهل وقته والآسى
فى البيت آنفا وفى المسحور
عن صنوه يوسف على الاركان
ينبوع سر القوم ذى الاسكوب
أخلصه المولى بذكرى الدار
اسحاق يكنى ع لنعطى السقبا
ذى العلم والتشريع والتحقيق
عن سيدى يحيى الشريف الأكرم
عن سيد محمد نسل وفا
عن الامام الباخرى (6) جدواو
عن شيخه المرسى رجب الجاه
عن الجليل ابن ميثش المنتخب
عن الفقيرى العراقى السنى

(5) يعنى أن سيدى احمد بن عبد الله كان فى فاس ناشر الطريقة وكان
ابنه سيدى العربى صاحب الخمول كما أخبر بذلك سيدى العربى
الدردقاوى وسيدى العربى بن عبد الله ولده احمد بن عبد الله وجد سيدى
العربى سيدى محمد الفاسى كلهم أولاد سيدى عبد الله معن من
الحومة المخفية وهم العبدلاويون .

(6) اسمه داود .

(7) ابن الحسن الشريف العطى المعروف بالزيات له طريقة أخرى عن
سيدى عبد الرحمن التازى عن الشبل عن الجنيد عن السقطى عن
معروف الكرخى عن الطائى عن حبيب العجمى عن الحسن البصرى
عن سيدى الحسن السبط لكن الاولى هى المشهورة حسبما فى
تقييده لسيدى العربى العلوى .

وعن علي فاخس نور الدين
وزاد بعضهم هنا شيخين
استاذ هذا النور والمريد
والاخذ شمس الدين شيخه كما
وأخذ هو عن القزويني
هو عن البصري ذي الاحسان

عن شيخه أبي محمد سعيد
فتح السعود عنه ذا الصمداني
عن جابر اخذ هذا واكتفى
عن سيدي علي المكرم
صلى وسلم عليه ربنا
بجاههم كن لى أن تبشرا
ما أثرس الوفاة ما اقصفا
لكن اذا كنت لنا بشارة
واشفع لنا لربنا أن يختم
واشفع لنا لربنا أن يقبل
واغفر لنا الا هنا ذنوبنا
وكن لنا بجاههم في القبر
وخوفنا امن كذا ذعرا
وهب لنا منازل في الحسنى
وكل مسلم ولاخوان
كذلك الالهونا والوالدان
لنا الزيادة أمنحن تمتعا

عن شيخه بالترك شمس الدين
تاج وفخر الدين سرصيني
لقا ونشرا عنى البريد
صرح شيخنا بذاك فاعلمنا
كان يلقب بزين الدين
عن الكريم احمد المروانى
عن سيد سعد سعدت يا مريد
عن سيدي سعيد الغزواني
عن سيد الحسن سبط المصطفى
وهو عن نبينا المعظم
وآله وصحبه ترحما
كمالهم كنت اذا مبشرا
ان لم تكن لنا وما اوجعها
تسر بالحسنى وبالزيادة
لنا بتهيل وما بنا احتما
دعائنا وثوبنا والعمل
بجاههم واستر لنا عيوبنا
مثبتا ومنعما بالخير
والطف بنا فى الدار ذى والاخرى
بجاه احمد الشفييع الاسنا
ووالدينارب والجيران
بفضلك اللهم يارحمن
والحمد لله بآخر الدعاء

(3) عبد الكريم الخطابى (الاب) :

هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، كان عمه زيان واليا على
الريف الاوسط للسلطان مولاى محمد بن عبد الرحمان، وكان طالبا حسن
السمت يقظا منصفاء، وقد خلف لعائلته شهرة وقيادة القبائل الوسطى

للريف وبالاخص بنى ورياغل، ولما توفى عين مولاي الحسن الاول وانيا
عن الريف السيد بوبكر أوشان من العائلة الخطابية، عمر طويلا وتوفى
أول الاستقلال عن سن يناهز المائة سنة .

أما جده عبد الكريم فكان فقيها، وكذلك والده محمد، أما
المجاهد السيد عبد الكريم، فهو كان آية من آيات الله في الصبر والاناة،
والفراسة الصائبة، وقد قاد سياسة بنى ورياغل ضد الاسبان بعد وفاة
السيد محمد بن احمد العزوزى المذكور، نظرا لتوقد ذهنه ومعرفته
لمصائر الامور .

ورغم أنه بعد سنة 1906 هادن الاسبان وأرسل ولديه احدهما
للعمل في ملييه مع الادارة الاسبانية هناك، والثانى للتعليم في اسبانيا،
فانه لم يكن ذلك عن سوء قصد، وانما ذلك لاجل الاطلاع عن كئيب على
دسائس السياسة الاستعمارية بالنسبة للاول، ولجل استكمال الدراسة
العصرية بالنسبة للثانى، وهو أمر طبيعى، وقد سبق أن بينا ذلك باسهاب.
وفيما بعد انتهاء الحرب العظمى قام بمجهود جبار لمحاربة
الاستعمارين الافرنسي والاسباني معا، وبالاخص عندما حضر الى الريف
الشخصان عبد المالك الجزائرى والفاول الالمانى حسبما سبق مفصلا عند
ذكر اسباب قيام البطل ولده بتنظيم الحرب التحريرية .

وعندما عمل على ارجاع ولديه من اسبانيا، وثرغ للدفاع ضد
اسبانيا، التى كان فرغ لها الجو بموت سيدى محمد أمزيان وسيدى محمد
أحمد العزوزى، فوصلت في زحفها الى تفرسييت وهى قبيلة تقع بين بنى
نوزين وتمسامان وبنى وليشك ومطالسة، وهى قرية صغيرة جيدة الهواء
والماء والمناخ .

كان جعلها الامير عبد القادر الجزائرى معسكرا له، عندما اضطرته
الجيش الافرنسي في الجزائر لنقل معسكره خارج الجزائر، ولهذه
القرية شهرة كبيرة في موقعها الاستراتيجى، حيث تقع وسط قبائل
شتى، وتعتبر مجمعا لقبائل الريف الشرقية، وقد أقام الاسبان بدورهم
معسكرا هناك انتظارا للزحف، فقاد السيد عبد الكريم الخطابي حملة
اصطدام مع الاسبان الى أن مرض هناك مرضا مشبوها في اسبابه،

والارجح أنه سم هناك على يد عميل من عملاء الجيش الاسبانى وبالاخص انه فى هذه المرحلة الاخيرة كان يعتمد هذا الاسلوب مثلما فعل مع السيد محمد العزوزى، وقد بقى فى مرضه 20 يوما قضى نحبه فى سبيل الله .

وسبق التعريف بنسبه الشريف عند التعريف بولده البطل ابن عبد الكريم الخطابى، وللرجل اخلاق جمّة تعتبر منحة الالهية، فهو صبور الى حد أنه لا يلاحظ على وجهه أثرا للغضب قط، ومع ذلك فلا يرى ضاحكا بالقهقهة وانما ضحكه ابتسام وانشراح، فلبداهته الحاضرة كان لا يمل جليسه، ذلك ما جعل أفراد القبيلة يتسابقون لزيارته وقضاء بعض الوقت معه، وبذلك اكتسب شعبية منقطعة النظير حتى أن محادثته مملوءة بالنكت اللطيفة، مما يستهوى السامعين لحضور مجالسه، وهو اذا جلس يجلس مربعا، يضع يديه على ركبتيه بوقار، وهو فوق ذلك فقيه حاذق، قرأ فى القرويين، وأخذ من الفقه ليه ومقاصده الصحيحة، ويعتبر كثيرا بأنه ليس فقيها جامدا، وكان يعرف بالسيد عبد الكريم، ويأبى أن يدعى بالفقيه، وسأله أحد جلسائه ذات يوم لماذا لا يقبل الفقيه، فاجابه بأن مفهوم الفقيه فى وسطكم أنه الذى يشارط فى المساجد ويتعيش بالمعروف وهو لا يغنى غناء الرجال الشجعان، فلذا اختار السيد عبد الكريم الذى مفهومه الرجل الذى يحمل السلاح ويعتمد على نفسه، ولا يتعيش الا بكده .

كما كانت فتواه يقصد بها وقائع عملية، وليست جوفاء، يحكى أنه حضر لديه بعض الذين يظنون على لعب الورق أمام جزيرة النكور، التى كانت مقصدا لضعفاء الضمير، يقضون فيها أوقاتهم ثم ينزلون الى الشاطئ ليلعبوا الاوراق (الكرطة) الى غروب الشمس، وفى هذه الحالة كانت جماعة منهم ممن يلعبون الاوراق ذبحوا شاة، وجعلوها على النار لطبخها، فطبخت وانطفأت النار وبردت القدرة المطبوخة، فجاء كلب وأكل منها، فلم يستفيقوا من اللعب الذى تحمسوا له الا بعدما بلغ بهم الجوع مبلغه، ففتطنوا. للكلب يأكل من القدرة، ومع ما بلغ فيهم من الجوع فانهم أكلوا الباقية وبعد الاكل جعلوا يتباحثون فيما اذا كان يجوز لهم

أن يأكلوا البقية، فذهبوا الى السيد عبد الكريم يستفتونه فسألهم أين كانوا في يومهم ذلك، فاعادوه بأنهم كانوا في جزيرة النكور، وسألهم هل زاروا الحاكم العسكري الاسباني هناك (وكان يدعى بقائد الجزيرة) فقالوا نعم ثم قال عندما نزلتم من الجزيرة ماذا فعلتم، قالوا له كنا نلعب الكرطة الى أن أكل الكلب من القدرة ثم أكلنا البقية، فقال لهم لا بأس بذلك .

وقد شاعت هذه الفتوى في القبيلة، واستنكرها الفقهاء، ووصفوا السيد عبد الكريم بالتهاون في فتواه، بل بخرقه للنصوص الفقهية، فاقترحوا عقد مجمع للمناظرة معه في ملاء من الرؤساء .

وفعلا قرر رؤساء القبائل عقد ندوة للحوار بين فقهاء القبيلة من جهة، وبين السيد عبد الكريم من جهة ثانية، فتقاطر الجميع الى سوق أربعاء سيدي ابي العفيف، على الضفة الجنوبية لوادي غيس، وقد حمل العلماء كتب النوازل معهم، وجعلوا يترقبون حضور السيد عبد الكريم الذي تأخر كثيرا، حتى كان بعضهم يشك في حضوره، ولكن أخيرا حضر راكبا دابته بكل هدوء النفس، ورباطة الجأش، ولم يحمل معه ولا ورقة واحدة .

ولما جلس وسط الحلقة التي كونها المجتمعون، اشرأبت الانظار باسمئزاز اليه، وكان الذي يحمل راية التتديد به هو فقيه من قرية أجدير نفسها، يدعى الفقيه السبي على كان من النوع الجامد الذي لا يفهم من النوازل الفقهية الا ألفاظها الجوفاء .

قال السيد عبد الكريم ماذا تقول - موجها الكلام للفقيه السبي على - أيها الفقيه، فقال هذا انك دائما تتهاون في النصوص الشرعية، وتفتي بما يعتبر خروجا عن الشريعة، فقد أفتيت أخيرا بما لا يحل لاحد أن يقوله .

فقال له السيد عبد الكريم حسنا، هل سألت المستفتين، ألم يكونوا في جزيرة النكور مع عدو الاسلام؟ ثم لما نزلوا ماذا كانوا يفعلون؟ ألم يكونوا منكبين على لعب الكرطة؟ هل تحرم أنت هذا العمل؟ وبالاخص الاول، ولماذا لم تتطرق اليه وتحرمه عليهم؟ ثم هل استفتوا قبل الاكل

أم بعده؟ فلما كان بعد الاكل، فما هو فائدة الاستفتاء في جزئية خاصة بهم؟. ولذا غاننى أعتبر أنهم بعملهم اليومى كله هم كلاب أربعة، انضم اليهم كلب خامس أكل معهم. يجب أن تستنكر أيها الفقيه أعمال هؤلاء الذين يذهبون الى جزيرة النكور، حيث العدو يتربص بنا بمثلهم، لينفث فيهم السموم، فصفق له الجمع، واعتبر من ذلك الوقت الفقيه العلامة الذى لا يغلب في محاوراته .

أما فراسته فكانت قوية، بحيث أنه عندما كان في تفرسيت في حملته ضد الجيش الاسبانى كما أسلفنا، وجاءته الوعكة التى شعر بها قال لمساعديه الاقربين اذا أنا مت فعليكم بهذا الخلف الذى أتركه من بعدى، مثييرا الى ولديه، ثم زاد فان الاسلام تجدونه في بيتتى، ولا يصدنكم عنهما انما كانوا مع الاسبان، فان ذلك لم يزددهم الا ايماننا بالاسلام، وعداوة لهم، لما شهدوه من غطسة وكراهية للمسلمين، وبالاخص مالاقوه من المجاهدين .

وفضلا عن ذلك فقد اعتقد فيه بعضهم أنه من المهمين، فقد حكى بعض مرافقيه أنه كان ذات مرة في قرية آيت قمرى وهى القرية التى نقل اليها ولده البطل من بعد أجدير مقر العمليات الحربية، لكونها غائبة عن أنظار البوارج الحربية وجزيرة النكور .

قال: كنا واقفين على كدية وجعل يصيح كوع كوع في خشوع اثر غروب الشمس، فلما سألته عن عمله ذلك قال أنه تقمص شخصية الذئب ينوح عن أهل هذا المنزل فانهم راحلون عنه وللمكان شأن من بعدى يذكر، فكان الامر كذلك، وعلى كل فان نواذره من هذا النوع كثيرة جدا ويحفظها الى الآن القوم على ظهر قلوبهم يحكونها في مجالسهم ويستملحونها .

وقد خلف رحمة الله من الاولاد :

الذكور : محمد وامحمد .

ومن الاناث: أمينة زوجة السيد محمادى بن الحاج السى محمد

الخاتمي — من بنى ورياغل .

فطيمة زوجة السيد محمد بن الحاج بودرة من أجدير .

رحمة زوجة محمد أزرقان (المدعو بخارطو) من أجدير .

رقية زوجة السيد محمد بن الحاج السى محمد .

أما زوجته فهي ثيمونت بنت السى احمد بن القاضى وهو عالم فى بنى ورياعل مشهور من الشرفاء الولقاصين، تدعى فخذته الشندورين . وكان له من الاخوان السيد عبد السلام الخطابى، الذى نفى مع أسرة الامير فى جزيرة رنيون وتوفى فى القاهرة، والسيد احمد بوجيظه أما حدو بن السى زيان فهو ولد أخيه .

حقيقة كان أثناء وجود أولاده عند الاسبان فى مليلية ومديرى كانت القبيلة تنتقد عليه وجودهما عند النصارى، وبالاخص ان احدهما كان موظفا كقاضى فى مليلية، والثانى يتعلم علم الكفار حسب الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت، وكان يقابل ذلك برباطة الجأش وبكثير من الاناة، وربما أجاب عن ذلك بأن وجودهم عند الكفار لا يخشى عليهما لان لهما بصيرة اسلامية .

ومن نواذره فى هذا الباب، أنه ذات مرة كان شريفان اثنان يدعيان السيد يوسف والسيد بوقشوش من زاوة سيدى يوسف، وهما ممن يجعلون بيته متندى لراحتهم، حضروا بعض الائتثار عليه من طرف القبيلة فى سوق خمس المرابطين، وكان هذان الشخصان ممن ساهموا فى الافكار العدائية ضده، وقد علم السيد عبد الكريم بما قالوه، وفى المساء حضروا لديه، فسألهما عن حالة القبيلة وما عقدته، فقالا انها توجه الانتقاد اليه، الا أنهما رهن اشارته وعليه أن يطلب منهما أية حاجة يريدوها، فوجه اليهما الكلام باناة: ان الحاجة التى يريدوها منهما لا يقدر ان عليها، فأكدوا له استعدادهما، فقال لهما ان كان ولابد فانسى أريد وجهها مثل وجهكما، لا يحمل ذرة من الحياء حتى أجابه به القبيلة، لانكما فى السوق كنتما الد الخوصم لى، والآن جئتما بوجه آخر، فسقط فى ايديهما، ومع ذلك فقد طمأنهما، وقال لهما: لا تنقطعا عنى وعن مائدتى فان أحوج ما يكون المرء الى مثلكما، لانكما رغم انكما لا تغنون شيئاً، فانه لا يخشى منكما وحدث عليهما أن يبيتا معه تلك الليلة، فبعدما مضى وقت من الليل، أمر أحد خدامه بأن يطلق طلقة نارية فى الفضاء خارج الباب، وكان هو مع الشريفين فى بيت الضيوف، فلما سمع الطلقة تصنع

الفرع وكان للشريفين بندقية واحدة بينهما، فانتدض السيد عبد الكريم لآخذها، يتصنع رد عادية المغير، ولما بحثها وجدها خالية من القرطاس؛ فقال لهما أين لاقرطاس؟ فجعل الشريفان يحدث كل واحد في زعبوله (محفظة يقلدها الرجال للقرطاس) ويقول للآخران لنا قرطاسا واحدا هو عندك، ويقول الآخر عندك، ولما أعياهما الامر ابتسم وقال اذا كان أمثالكما يأترون على فلا بكت على الباقيات .

خبرة كل واحد :

ان عمل المجاهدين الاولين سى محمد أمزيان وسى محمد العزوزى كان عملا مستوحى من الترغيب في الجهاد، واكتساب الشهادة، وفي ضمنهما أن الخضوع لحكم الكفار هو طعن في الدين وعقيدة المسلم الحنيف، فكيف للرجل أن تتقبل صلاته وهو تحت امرة الكافر، أو من يأتmer بآمره، وكان باب الجهاد في كتب الفقه هو الباب المفضل عندهما، لتلاوة ما جاء فيه على مسامع المجاهدين في القرية والقبيلة والاسواق ومجامع الصالحين من الزواوى وغيرها وهو القصد بذاته في قرارة أنفسهم، لا تشوبه شائبة الاعمال السياسية، الا ما كان من الدفاع عن سيادة العرش المغربى، وهو نفسه جزء في العقيدة الدينية التى لا تعوزها النصوص الكثيرة المتداولة التى كانا ومن معهما يتلوننها بالحاح على المسامع لتحميم المقاتلين الصابرين الذين ضمتت أنفسهم الى التروى من دم الكفار ليعوض لهم في الجنة من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجييرا .

أما المجاهد الثالث وهو السيد عبد الكريم الخطابى الاب، فلم يكن عمله على هذا النسق فقط، بل كان قصده أشمل وأعم .

ذلك أنه كان خبر الامور العصرية وأطلع على مجريات الاحداث السياسية، فمن جهة كانت الحرب العظمى الاولى قد اندلعت وتتبع مصائرهما عن كثب، ثم تتبع انهزام المانيا وحليفتها تركيا وما خلفته هذه الانهزامات في نفس فرنسا من الاستعلاء على الشعوب التى تتعثر في تخلفها المزرى سياسيا واقتصاديا وفكريا، وبالاخص التى تجاورها فى

مستعمراتها، مثل المغرب الذى آوى يوما ماعدوها الذى ناجزها القتال بثبات وشجاعة نادرة، وهو الامير عبد القادر محيى الدين الجزائرى، الذى أعطى مثالا للبطولة العربية القحة، والذى غسل عار الاستسلام للقوى مهما كانت قوته، فابان للعالم أن المغرب العربى كما وقف منتصرا فى معارك القائد هنبك التى خاضها فى تونس الخضراء ضد المستعمرين القدماء الذين اكتسحوا أوربا وجزءا من آسيا وافريقيا بهمجيتهم الاستغلالية بوسائل الحراب والمنجنقات، فانه يستطيع أن يقف بكل مقدرة ووعى ضد المستعمرين المتحضرين بوسائلهم الحربية الجهنمية المخترعة من الانسان ضد الانسان، لآبادة الانسان، لا لشيء الا للجنس الاستعمارى، الذى لا يحكم ولو لحظة العقل الذى منحه له الله، كما تتبع (عبد الكريم) التسليح بين تلك الدول الاوربية التى تتحاكك بينها فى ابتلاع المغرب لقمة سائغة، حفظا لمصالحها، وتسابقا للحصول على الاستراتيجية المنقطعة النظير، والتى اكسبه اياها موقعه على بحرين اثنين، هما ممر العالم القديم والجديد، والذين يفصل بينهما برزخ مثلث سبتة وجبل طارق وطنجة، فسال لعاب الدول التى تأمل لنفسها خلود عظمتها لتقوم العالم بأسره، كأنها وكل اليها أمر البشر من عند خالقه القدير.

فمن جهة كانت انجلترا ترى أن امبراطوريتها التى لا تغيب عنها الشمس، والتى تضم بلاد التوابل التى طالما كانت هذه التوابل فى غابر الزمان، تحث الاساطيل التجارية البحرية لتقطع عباب مختلف البحار من أطلس وهادى وهندى، لتصل الى شبه جزيرة الهند، لترجع مثقلة بتجارة رابحة، وان المغرب بعد فتح قناة السويس أصبح أمره حيويا بالنسبة لجواره لجبل طارق، فلا يرتاح لها بال الا اذا كان مضموما الى التاج البريطانى، وطالما حاولت عمليا احتلال طنجة، وردت على الاعقاب، لتأمين سلامتها، وقلعتها المنيعه، التى تقبع على شرايين الممرين لتضرب عرض البحرين المتوسط والاطلسى .

ومن جهة ثانية فان فرنسا قد كسبت الجزء الاكبر من شمال افريقيا، وهى فى عظمتها لا تسمح لاحد أن ينازعها سلطتها فيما وراء البحار، فكل تدخل من غيرها يعتبر طعنا فى عظمتها، واحتقارا لها، فاذا كانت

انجلترا تحافظ على سمعتها الاستعمارية، وأساطيلها البحرية فان فرنسا كذلك أصبحت شريكها في نفس السبيل، فهي لا تقل عنها كبوليس عالمي يجب أن يهتم بشؤون البلدان والناس أجمعين، اينما كانوا، في الهند او في افريقيا السوداء أو افريقيا البيضاء، فلا غرابة أن تتنافس على امتلاك المغرب، بل تزعم الاسبقية التي لا نزاع فيها .

ومن جهة ثالثة فان اسبانيا، هي بدورها تدعى اسبابا تاريخية وجغرافية، وبالأخص انها تعتبر نفسها ممتورة من جانب المغرب، فطالما احتل هؤلاء أراضيها، ولم تنج من العثرات التي أصابتها من جراء ذلك، إلا بعدما انحص ذنبها، وان اكتساح العرب لبلدها لم تأت حملاتهم إلا من الشواطئ المصاوبة لها، وانها ان تلكأت عن احتلال المغرب وعلى الأقل تلك الشواطئ، فانها قد لا تنجو مرة أخرى من تلك الصدمات .

على أن الشواطئ التي احتلتها في مليية وسبته وما بينهما لا يكفيها لضمان استقرارها فلا بد من توسيع رقعة تلك الجيوب، وانها ان لم تسارع الى انتزاع حقها فانها قد لا تجد فرصة أخرى وخصوصا أنها رجعت بخفي حنين من مستعمراتها في آسيا وأمريكا اللاتينية، وشيعت من معقلها الاخير في كوبا بكثير من الشماتة .

وفي خضم هذه الاطماع والمصالح المتضاربة، حاولت المانيا قبل الحرب العظمى ان لا تترك منافسيها التقليديين يرجعون بالغنيمة الباردة بدون مقابل، فكان ماكان من تظاهر غليوم بطنجة ثم ارضائها بجزء من الكونغو .

كما اهتدى أخيرا المتنافسون المعنيون بالامر ممن أشرنا اليهم الى الاتفاقات الثنائية التي جرت في سنة 1902 وسنة 1904 الى سنة 1912، وذلك لاقصاء المانيا عن المغرب، نظرا لعدم ارتياح كل من فرنسا وانجلترا لوجودها في المغرب، ولو بتأثير غير مباشر، كما لا ترتاح انكلترا لوجود فرنسا على الشواطئ المقابلة لجبل طارق، ذلك مادعاها لان تساهم لصالح اسبانيا، التي اختارتها لانها ضعفت لفقدان مستعمراتها، فهي لا يخشى بأسها، على أن لا غضاظة بأخذ فرنسا القسم الجنوبي، على أن لا تعكر على انكلترا عملها في بلاد النيل.

وهكذا شاهد السيد عبد الكريم هذا الصراع، وكان يتفهمه جيدا كما شاهد تصارع الرأسماليين على شراء امتيازات مناجم الريف المعدنية، التي حسبوا أن جبال الريف ما هي الا بركان تتفاعل في باطنها مختلف المعادن، لا تلبث أن تفلظها الى ظهرها، وان السعيد من حاز قصب السبق في امتلاكها وقد دشنت اسبانيا هذه الحملة في معدن الحديد بالناخـور، ثم تبعتها اخوان منسمان الالمان الذين يعتبرون أول المكتشفين الاوربيين الذين وصلوا الى منطقة الريف، بحثا عن المعادن، وقد حاولوا اصفاء الشرعية على عملهم باستصدار اذن من طرف ملك المغرب لشرائهم الامتياز لكن مساعيهم باءت بالفشل، نظرا لعدم ارتياح فرنسا لوجود البعثة الالمانية تنقب على المعادن في منطقة حساسة فأوعزوا الى السلطان باصدار ظهيرين اثنين بتاريخ يناير سنة 1914 بتأليف لجنة تحكيم للنظر في وثائق الامتياز التي يدعيها الالمان، وبالطبع فقد أصدرت المحكمة قرارا بالغاء الامتياز وبالاخص ان المانيا كانت منيت بهزيمة الحرب العظمى، ثم جاء من بعدهم المثرى الاسباني المدعو اتشافاريتا دى بنباو، فاتصل بالسيد ابن عبد الكريم الذي كان الرأس المدبر لحركات الريف، وبينما هو كذلك اذ زحف الجنرال سلبستري في الخط الشرقي الى تفرسيـت، مما جعل كل المحاولات التي تتعلق بالاقتصاد فيما بين اسبانيا والريف تتوقف .

وفضلا عن ذلك، فان القضية التي أيقظت الوعي القومي بكل احساسه تجلت بكل مظاهرها في النشاط الذي ابداه مع الزعيم السيد محمد الغزوزي بعد وفاة سيدي محمد أمزيان لانماء الوعي الوطني في رجال تلك القبائل حيث قاما في سبيل القضاء على التأثير بوحمارة، الذي جاء مناسبة لقدح زناد ذلك الوعي، فأتى الثمار المرتجى من حماسها المنقطع النظير، فتوحدت العزائم التي انبثق عنها دحر ذلك الماكر، حيث أعطى ذلك الحماس نتائج هامة بالنسبة لنسيان الضغائن الدموية بين العشائر من جهة وبالنسبة لايقاد شعلة النعرة الوطنية للذب عن الدولة ووحدتها من جهة ثانية .

ولاجل استقصاء البحث في هذا المجال أعيد المقال الذي كنت
نشرته في مجلة الانيس والذي صدرت به بحثي «التأثر المهزوم» نظرا الى
أن هذه القضية تعد مبدأ النهضة القتالية في الريف ضد الخارجين وضد
الغزاة معا .

يوم أغر لنصر العرش العلوى فى الريـ (1)

«سنضرب الأفعى الى رأسها، يوم نستولى على هذا السهل انوارف الضلال، ولا يبعد ذلك عن يومنا هذا» بهذه الجملة، استهل أسود قاتم على رأس حملة (برتبة قائد الرحى) فى جيش بوحمارة الزرهونى (2) قالها، وأنفه شامخ للسماء، وذلك عندما أطل بجيوشه، من ربوة تمسامان بالمحل المعروف «بالقامت»، عند مطلع الشمس، كأنهم رؤوس الشياطين، وقد ترآى لهم سهل النكور — غيس، منبسطة مخضراء، قد التوى فى وسطه نهرا غيس — النكور، التواء الارتقاء قد انفصلت عنهما جداول السواقي مخططا بذلك رقعا مختلف الحجم والاشكال .

من هذه الربوة وبعدما خامرتة نشوة الطغيان، فركب رأسه فى الهواء، وقد أتى لتأديب قبائل بنى ورياغل، التى تسكن هذا الجنان وحدها، والتى ما فتئت تظهر العداء الكاشف للسلطان الجديد، مستعيرا اسم مولاي امحمد بن الحسن الناقم على أخيه — مولاي عبد العزيز عمه — وقد تساءل أى باس عند هذه القبيلة؟ التى تمردت على هذا الفاتح العظيم؟ الذى اخضع قبائل صفتى ملوية — كرت بعدما عبأ وزير الحربية العربى المنبهي الجيوش الجرارة، فساق سبعين الفا أو يزيدون فى تعبئة عامة، من أقصى سوس الى تافلالت، بمعونة قائد المشور، السيد ادريس ابن يعيش، فكانت وقائع بوادى الدضر صفر عام 1322 (1904 م) (3) .

-
- (1) نشر المؤلف هذا المقال بمجلة «الانيس» عدد 94 السنة التاسعة — ربيع الاول 1374 نوفمبر 1954 كما ضمنه كتابه «الثائر المهزوم»
 - (2) أصله من جبل زرهون بدشرة أولاد يوسف — اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج.أ. ص. 400 .
 - (3) اتحاف اعلام الناس — الجزء الاول — للبحاثة الشريف العلوى مولاي عبد الرحمن بن زيدان .

من هذه الربوة، ربوة تمسمان (1) وفي حالة هذه الخواطر أمر جنوده المظلة على ذلك السهل، أن تتسلل شعاب الجداول المنحدرة الى وادي النكور على ضفته الشرقية وأطلقت هذه (2) تجرف الاخضر واليابس وتتسلق الهضاب والمرتفعات الخلفة عن تلك الجداول، كأنها يا جوج وماجوج، في زحفه اللانهائي، يحدوها الطغيان والفساد، منتهزة الفرصة لكي تشبع نهمها دما ومالا، وقد أباح لها رؤساؤها الاعراض والاموال، فهي مطلقة الاغلال، لكي ترغم أنف هذه القبيلة التي تمردت، والتي ما فتئت مصرة على تمردها، وقد علم ذلك من حوار وقع بين أحد قواد قبيلة تمسمان، المدعو عمر أفقي (3) رئيس فرقة تروكوت، وبين أحد قواد بني ورياغل المدعو عمر بن طاهر (4) رئيس بني عبد الله، قال الثاني للاول :
— انك تعد من حلفاء بني ورياغل .

— نعم أنا أعد نفسي من القبيلة لا حليفا فقط .

— اننا نريد أن نتلاقى مع قائد بوحمارة عند قمة تمسمان بالقامات (5) لنقاتله ثمة قبل أن يصل الى الديار هنا .

— أنا لا أظهر العداء للمخزن، فلا أترككم تقتاتلون في بلدي .

— ان قائد بوحمارة هو عبد (وكان أسود اللون) ان لم نقبض عليه ونبيعه في الاسواق، فان قبيلة بني ورياغل لم تلد الاحرار .

(1) تمسمان قبيلة من قبائل الريف الوسطى الخالصة وفي أراضيها كانت وقعة دهار ابران المشهورة مع اسبانيا سنة 1921 التي دشت بها الثورة التحريرية الريفية، تحت زعامة البطل المغربي الشهير محمد ابن عبد الكريم الخطابي فقد انكسر فيها الجيش الاسباني انكسارا نلته انكسارات الى ضواحي مليلية .

(2) كانت هذه الحملة عام 1326 سنة 1908 .

(3) كان رئيسا للفرقة تروكوت شجاعا لا يشق له غبار .

(4) من فرقة بني عبد الله احدى قبائل بني ورياغل التي لها تاريخ .

(5) محل بقمة قبيلة تمسمان شهد ابان الحرب التحريرية بالريف مؤتمرات للمجاهدين وكان معسكر المجاهدين ومنه صبت الهجمات على العدو .

— افعلوا ما شئتم ، أما أنا فلا .

لهذا كان الشرر الذى يندفع من عينى القائد الاسود، يلتقى درسا على جنوده ليجعلوا من أنفسهم جنودا مثل الابالسة، فى صيحاتها وتسليقها الاشجار والهضاب، وقد اصطحب فى طريقه من قصبة سلوان — مقر عمل الثائر — بعدما طرد عامل الدولة وقائدها السيد محمد الامرانى، رعايا من الناس لا يحملون فى أفئدتهم رحمة أو شفقة وهم فى صيحاتهم المفزعة ررعوا الفرع فى القلوب، وعلى رأسهم قائد مرعب أيضا، وحتى بصورته الفحمية، صورة طبق الاصل من صور أولئك الابالس، الذين تسرد أسماؤهم العجائب فى حكاياتها المفزعة عند مسامرتهم .

كان القوم يعلمون ان جيوشا جرارة ترحف من قصبة سلوان لتأديبهم، ويعلمون فوق ذلك أنها تجمعت من أصناف مختلفة من الخلق دوى طبقات متباينة، فمن رعاى جائعين، الى ذوى حيثيات ومقامات، ورؤساء قبائل كرت وملوية، ومن أبيض اللون الى أسمره، وان هذه الحملة التى سيقوم بها، تشمل الخط الممتد من بين سواحل تمسمان شمالا، الى كرناية ومرنيسة جنوبا ويكون الزحف متحدا وفى نفس الوقت .

وقد أطلق رؤساء القبائل منادين ينادون فى الاسواق لتقاطر السكان على حد الصائم الى مقر عقد المؤتمرات، بأربعاء أمزرون، وقد خف السكان قاطبة وعقد رؤساء القبائل مجمعا عاما لبحث الحالة عن كذب وكان هؤلاء الرؤساء أشبه ما يكونون بقواد عسكريين، لا يخالف لهم الأمر، فاجتمع عن المرابطين الحاج عمر محمادى (1) وحمو بن الحاج عيسى (2) والسيد احمد بورجيله (3) وعن آيت على، الحاج حدو بن

- (1) من قرية دردوشا وكان رئيسا مجربا فى الحروب وله كلمة مسموعة فى فرقة المرابطين توفى قبل الحرب الريفية .
- (2) كان رئيسا للمرابطين وهو من شرفاء زاوية سيدى عيسى توفى فى حادثة سوق احد تيسار، فى قضية مشهورة .
- (3) كان رئيسا داهية فى شؤون الريف وكان مسموع الكلمة يقطن قرية آل هشام، مات فى مبدأ الحرب الريفية اغتاله أحد السكان .

ظاهر وحمو بن تغلعت وحمو حميت (1) وعن آيت يوسف وعلى، انسيد محمد شيدى، والحاج عمر بن حدو البهمى من الخطابين (2) وعن بنى بوغياش السيد عبد السلام الحاج محمد البوعياشى (3) وأمّوح أمزيان (4) وعن بنى عبد الله، عمر بن ظاهر والسيد عمر محمادى وامحمد

- (1) كلهم من فرقة آيت على كانوا رؤساء لقومهم، توفوا قبل الحرب الريفية بقليل واليههم يرجع الفضل في تموين الحملة ضد بوحمارة.
- (2) كان رئيسا لآل خطاب وهو من قرية أجدير والثانى من قرية بوهم وهما من الشجعان الكبار توفيا قبل الحرب الريفية .
- (3) من المجاهدين الذين تولوا رئاسة الناظرة الحربية في الحرب الريفية (أنظر كتاب «المغربى ومراحل التهذئة» للجنرال الاسبانى غويدى صحيفة 84) (MARUECOS Y LAS ETAPAS DE LA PACEFICACION) وتحت امرته انهزم الاسبان بموقعة هار ابران وأنوال، وبعد موقعة تفرست وتيزى عزا تولى قيادة الخط الغربى والجنوبى بشفشاون ضد اسبانيا وفرنسا وعلى يده استسلم الريسونى وانسحاب الجيوش الاسبانية من شفشاون وتلمبوط، وكانت موقعة السهل الاحمر ببنى حسان التى قتل فيها جنرالان ودمرت دبابتان وعدد لا يحصى من اللقيف الاجنبى، وفي الجبهة ضد فرنسا كانت انهزاماتها بالرهونة وغزاوة وعند نزول الاسبان بالحسيمة تولى قيادة الخط الشرقى الشمالى بالسوانى بأفل أجدير وهو من رؤساء بنى بوغياش، وببدا عائلته ظهائر ثمانية من ملوك العلويين المنعمين، باحترام أجدادها احترام الشرفاء أولها ظهير بتاريخ 1149 هـ. للسلطان مولاي عبد الله بن مولاي اسماعيل، وآخرها ظهير لمولاي عبد العزيز بتاريخ 1320، بتجديد تلك الظهائر، وبناء على تلك الظهائر كانت كلمة تلك العائلة ثابتة الاعتبار وقد توفى رحمه الله في 24 رمضان عام 1365 هـ. (1945) بعد أن أطلق سراحه من سجن مليلية على يد الاسبان الذى قضى به أربع سنوات بعد انتهاء الحرب الريفية وهو والد المؤلف .
- (4) من قرية أغميرون توفى قبل الحرب الريفية - التحريرية - .

ابن على المساوى (1) وعن بنى حذيفة امحمد بن سى عمر، وبوطاهر مكوط، وعمر شكوح (2) .

ومع هؤلاء الرؤساء المعاونون، فكانت الاسئلة التالية تتردد على اللسنة :

— نرى هل نسمد أمام هؤلاء الابلاسة المرعبين؟ الى الفناء الاخير أم نذبح الذبائح قربانا لهم ؟

— ان الرعاع الذين أتوا لم يحضروا الا لاشباع نهمهم مالا ودما، فمهما كان الامر فانهم لا يكتفون منا بالذبائح .

— الحل الوحيد اذا هو الموت وحده .

وأخيرا قر الرأى على الدفاع مهما كلف الامر، وكان الرأى أن تكون الملائقة في «القامت» عند قمة جبل تسمان، قبل أن يصل الى الحدود، ولكن عمر أفقير شيخ فرقة تروكوت حاور عمر بن طاهر وكان بحضور السيد احمد بورجيله، وقد تقدم ذكر ذلك، وفي هذه المحاورة أخذ هذا الاخير غبرة من الارض وذرها في الهواء في وجه شيخ تروكوت علامة على عدم الاهتمام به، وبالجيش الزاحفة، وكان — أى بورجيله — فيه نوع من الجذب فتوعده بان الرصاصة الاولى تصيب منه الدم، وقد استجاب الله دعاءه، فقد جاءت رصاصة في الجولة الاولى وأصابت قريبا من أقرباء عمر أفقير الذى قاتل مع الحملة الزاحفة، واثّر هذه المحاورة انفصل الجمع عن الجيشان والامتعاض .

(1) كانوا من رؤساء بنى عبد الله ومن الشجعان الكبار، توفى الاول عند احتلال الاسبان للريف قتلوه رميا بالرصاص لما كانوا يخشون من بأسه .

(2) كلهم من قبيلة بنى حذيفة كان الاول حكيما رزينا لا يتكلم أحد عن حضوره لما له من اصالة الرأى ولم يستعمل سلاحا بل كان سلاحه الكلام البليغ، والثانى والثالث كان لهما اقدام وشجاعة، الثالث توفى قبل الحرب التحريرية والثانى سجنه الاسبان بمليلية بعد الاحتلال واثّر خروجه توفى .

(1) استيقظت القبيلة صبيحة ذلك اليوم لترى جنود قائد الرحي ينحدرون الى قرية بوزويقة (2) آخر قرية من تمسمان متاخمة لقبيلة بنى ورياغل عند مبدء سهول النكور، وكانت طليعة الجيش قد نصبت الاقبية منتشرة فى الفضاء، تظهر ناصعة البياض كالنجوم فى كبد السماء . لقد خيم الوجود على وجوه الوفود المتقاطرين الى أمزورن (3) والهلع يملأ أفئدتهم، والحمة بازائهم بطبولها وابواقها تنفخ فيها، ايدانا بشدة بأسها، ولزرع الفزع فى قلوب المتآمرين ضدها، وقد انتظرت الساعة الملائمة، لكى تنقض انقضاض الصاعقة، لتدكهم دكا، وتصيرهم قاعا صاففا .

بينما الامر على أشده من الهلع، اذ يقدم الحاج حدو بن طاهر الموسيقى وعمارى على فرس انثى من داره بافتسا، على شفا نهر نكور حذاء مخيم العدو .

وقد أطلق عنان فرسه فى اختيال لكى يبلغ المؤتمر المنعقد، خبر محلة العدو، ولشدة الهلع لم يميزه أحد، بل كان الظن أنه من طلائع الحملة، فما لبث أن أمطروه بوابل من الرصاص، وكاد أن يردوه وبعد لأى تمكن بعض الحاضرين من اسكات الرصاص معلنا أنه من قوادهم، وانه أتى اليهم بأخبار المحلة، غير أن هذا الحدث كان مشجعا لهم لكى يمشوا فى خطة الدفاع والصمود، لكى يكيلوا لها بالميال الاوفى .

قام رئيس بنى عبد الله السيد عمر بن طاهر ليشد من عزم المؤتمر، ولينفث الروح المعنوية، فأمر المنادى ذا الصوت الجهور احمد لوليشكى (4) بأن ينادى باعلان الحرب، وان من ولى الادبار لا يتزوج

- (1) نشر بمجلة «الانيس» عدد 95 السنة 9 نوفمبر 1954 .
- (2) قرية للشرفاء البوزويقيين من تمسمان هناك عسكر جيش بوحمارة.
- (3) قرية بسهول أجدير بين وادى غيس والنكور والآن فى عمارة مستمرة.
- (4) عمر رحمه الله 135 سنة وكان مزواجا تزوج 24 امرأة ما بين مطلقة ومتوفاة وكان دائما يمسك أربعة، وهو من أصل قبيلة بنى وليشك وأبوه حدو محمادى أشرقى هو الذى استوطن بنى بوغياش حيث هاجر من قبيلته لقتله شخصا وهو كثير الاولاد تبلغ الآن ذريته حوالى 700 نسمة ما بين اولاد وأحفاد .

من القبيلة ولا يتزوج من عنده، ومعلنا تقسيم الدفاع تقسيما حربيا تقوم كل فرقة بالدفاع عن القسم المخصص لها، ففرقه بنى بوغياتس بقيادة السيد عبد السلام بن الحاج محمد وأمّوح أمزيان، جهة مدينه انكور (1) وحوض حواء وقمة سيدى البرقى ويليهم شمالا، فرقة بنى حذيفة برياسة امحمد بن سى عمر، وفرقة بنى عبد الله برياسة عمر بن طاهر ثم فرقة آيت على وفرقة المرابطين وفرقة آيت يوسف وعلى متصلة بالبحر شمالا، فقامت حركة شعورية سادت أقسام القبيلة وتقوت فى النفوس المعنوية الحربية الى حد بعيد .

وقد وصلت الاقوات من القرى الى أمزورن مقر المؤتمر طيلة اجتماع الرؤساء فى الايام الثلاثة الاولى، ووضعت أكداس من الخبز تحت أشجار التين وقد وكل توزيعه الى ضامر الأشخاص فكان كل من احتاج الى الخبز أخذ ما يكفيه كما أباح ملاك الجنات والفدادين ثمار أشجارهم للمدافعين يجنون ما لذ لهم .

نادى المنادى معلنا النفير العام الى حيث مقر دفاع كل ثغر معقبا على ذلك بأن المعركة تعد فاصلة فى حياة قبيلتهم، التى كانت الى ذلك انوقت شامخة الانف، وانه ان قدر لها هزيمة فان اسمها سيمحى، وكان نظام الدفاع ان كل فرقة تتكمش جاثمة على الارض من دون حراك، وانهم يجعلون من السواقى المتسلسلة من الوادى خنادق حربية، لكى يخفوا أجسامهم ولكى لا يشعر العدو بوجودهم، حتى اذا أطلق لنفسه عنان الطغيان فى اكتساحه، وجاوز الخنادق الطبيعية، قام الجميع قومة رجل واحد، لقطع خط رجعة العدو، فيكون الثخن والقتل فى قفاهم فيضلون الطريق عند أوبتهم وان أية فرقة قامت وولت الادبار منهزمة، فان اللعنة تنزل عليها، ولا تبقى لها قيمة تذكر وتنعت بأوصاف الجبن والخذلان، وقد تفرقت الجموع الى أماكنها، وحرص كل عن الشجاعة اللازمة، فانكبوا

(1) المدينة التاريخية التى دار عليها بحث المؤلف، المعنون «بالريف بعد الفتح الإسلامى» .

على بطونهم جاثمين على التراب، حاسبين أنفاسهم، مختبئين في السواقي ومتسلقين الأشجار .

يوم المعركة :

في الصباح الباكر بأحد الايام من خريف سنة 1326 هـ. موافق 1908 شوهدت حركة غير عادية في المعسكر الثائر بقرية «بوزويقه»، وبدأت الخيل الجامحة من فوقها تلك الاشباح المخيفة تتراى غادية وكانت الحملة في غزوها. تصحب معها مدفعا لم يكن يعرف عنه الا أنه يدك كل شيء يصيبه ويرمى الى بعيد وكان القصد من التسلح به زيادة الذعر، وأول ما بدىء به من الهجوم اطلاق قذيفة ترائت للناظرين في أفق السماء كحجر المقلع، لا ينشأ عند اصابتها الهدف أى دوى، فانجلى عند ذاك الفرع عن القلوب، واستبشر المنكمشون في تلك السواقي، والمتربصون تحت الاشجار ان لا خطر يهددهم من مفعول القذيفة، فانه قل أن تصيب الهدف، وانه في استطاعة كل شخص أن يتجنب الوقوع عليه، لأنها ترى في السماء، وقد قهقه الجميع عندما رأوا القذيفة في السماء كحجر المنجنيق .

فيا ما أشد ابتهاج المنبئين هنا وهناك، لانه لم يبق يفزعهم الا تلك الصور الخيالية لاولئك الجنود المرعبين الذين سيضطمدون معهم بعد حين، والذين نعتوا بكثير من الوحشية والصرامة والفتوة، ها قد انطلق أثر القذيفة الاولى سيل جارف من الخيالة تتجه صوب المناضلين وجهة «أمزورن» وقد لبس راكبوها السلاح السوءاء. التي أصبحت بعد عدو الخيول أجنحة لتلك الشياطين فيخيل للجاثمين أنه وان خانتهم خيولهم فارتدت بالرصاص، فان اصحابها تطير عند ذلك بأجنحتها وقد ترميهم بحجارة من سجين فتجعلهم كعصف ماكول، ومع ذلك فان هذا الوهم يتضاءل أمام العهد المأخوذ منهم أمام القبيلة، والسبيل الوحيد للنجاة هو الصمود والموت .

ها هي الطلائع تقترب في سرعة البرق، فتمر على الجاثمين وقد تملكوا أعصابهم، وحبسوا أنفاسهم، الا من وجبات قلوبهم التي أحدثها

رهيب الموقف، وحتى أن الشجاع الصنديد الذي لا تفزعه الملهمات فانه لا يتمالك أن تصيبه قشعريرة من مرور العدو بخيوله تقفز فوق السواقي، وقد مر الفوج الاول وتبعه الثاني وكان في اثر ذلك فوج المشاة الذي سيعثر على الكمين بلا ريب، ولذا فان الوقت الموافق قد وصل واندلعت النيران من تحت الاشجار والسواقي، وكأن قضاء الله قد نزل، فلا ترى الا الخيول تلقى حتفها فتكعب على وجوها انكبابا، وقد خانت راكبيها اجنحتيهم التي انغمست في سيول من الدماء، والغبار والمنية تطوف انصفوف، وتتخطف تلك الابالسة التي سلط عليها أبالسة أخرى أشد هولاً منها .

ان الامر لمفزع حقا وموقع في حيرة شديدة، فالمقاتلون تلدهم الارض وينبثقون من السواقي انبثاقا وقد أحس أولئك المختالون أنهم لا طاقة لهم بهؤلاء المغامرين الفتاكين المتولدين عن تلك السواقي والمتساقطين من فوق تلك الاشجار .

في صيحات من نغمات زغاريد النساء اللائي شاركن المدافعين والتي انبعثت من الدور وحيطانها كالرعد القاصف، هنا بلمحة البصر كانت الخيالة قد انقرضت، بقضها وقضيضها ولم تبق الا الاشباح تتخبط في دمائها، أما المشاة فلما رأت هول الموقف ارتدت على أعقابها وقد تبعها المقاتلون يثخنون في قفاهم قتلا وسلبا، وبعد جهد جهيد وصل ما تبقى من مؤخرتها الى مركز القيادة، ويقع كل هذا والقائد الاسود يرى بعيني رأسه مصر جيوشه، وكانت شرارة عينيه التي يرسلها على أصحابه وذوى مشورته تلتهمهم التهاما، لما تملكه من الفزع الاكبر وكانت الاسئلة التالية ترد على شفتيه السوداويين ولا من مجيب .

— أين لنا قوة نحمد بها أمام هؤلاء الوحوش المتمردين؟
— بل أين لنا من ثبات نصعد به هذه العقبات التي انحدرنا منها في مرج وخيلاء؟

ثم أين لنا الوقت الكافي لاستجماع بأسنا؟
ان المناظر لمؤلمة لمصرع جنده، الذي طالما دوخ به سيده قبائل التسول وغياثة وضفتي ملوية، ودخل بها تازة فاتحا، وخطب له به على

منبر وجدة (1)، ومع ذلك فإن قبائل تمسمان، وبنى وليشك وبنى توزين ومطالسة، وبنى سعيد وبنى بويحيى، وكلعية، التى خلفها من ورائه لم تكن تدين لمولاه بالطاعة الا سوريا، لما تراه من بأسه وقد تنقلب عليه حينما تعلم مصير قوته، فكانت هذه الاسئلة كلها تدور على لسان القائد الاسود، ويتقلب بشرر عينيه فى تلك الوجوه التى يتكون منها أركان حربه، ولا يرى فيهم غناية، وها هى الجموع المعادية تقفو أثرا لهاربين من مشاتهم، أما خياله فلم ينجح الا واحد وصل اليه ليخبر عن مدى الكارثة (2) .

(3) لم يبق أمام القائد الاسود الا أن يتسلل تحت جناح الظلام لكى ينجو هاربا، فبعد بزوغ الفجر من اليوم التالى للهزيمة تسلل بما تبقى لديه من فلول جيشه، وتحين وقت غفلة القبيلة التى كانت فى نشوان الانتصار، الذى أحرزته حيث كانت منشغلة وسط أولئك الصرعى فى ساحة الوغى لتجمعهم أكاداسا مكدة، فى سوق أمزورن (مقر المؤتمر)، بينما هم كذلك اذ وصل رسول أعزل من عند قائد بوحمارة حاملا علما أبيض على عمود له يطلب من القبيلة السماح له للتعرف على جثة قائد من قواد الحملة سقط فى المعركة قتيلا، وأنه ان سمحت بحمله فلها ألف ريال، ويدعى هذا الرسول الحاج عمر بن عبد الله من قرية «بوزويقة» فأذنت له فى البحث عنه وقد وجده صريعا فى أعلى أمزورن بسوق النساء (الجمعة)، ولما أعلم القبيلة بالعثور عليه استبقتته لكى يرى بعينه جثته تحترق بعدما وضعت فوقه أكوام من الاحطاب، وعند انتهاء احتراقه البست الرسول قميصا أبيض قصيرا الى الركبتين وقلدته رأسه فى حبل من الالياف وأطلقته ليعلم القائد الاسود مصير جنده، بعدما طاف على تلك الاكاداس من الجثث الجمعة (4) .

(1) اتحاف اعلام الناس الجزء الاول .

(2) عن شاهد عيان .

(3) نشر فى مجلة «الانيس» رقم 97 لشهر جمادى الثانية 1374 موافق

فبراير 1955 - العدد للعاشر .

(4) عن شاهد عيان .

وقد شيعه الفقيه القاضي المجاهد بل رئيس المجاهدين السيد محمد بن السيد أحمد عزوز بقوله «وعند جبهة الخبز اليقين» وقد وصل الرسول اليه في جوف الليل، ولم يكن الخبر الذي تلقاه منه بما رآه بعينه أقل وقعا في نفسه، من أخبار الهزيمة نفسها، فلم يكن من سبيل لديه سوى الفرار ناجيا بنفسه ان أمكنت له النجاة بحمل ما خف من المعدات، وانقلب على أعقابهِ، ليقطع عقبة «القمت» فما أصبح الصباح حتى كان يتسلق وسط تلك العقبة في أعياء، وقد ترك وراءه عمر أفقر في جماعته ليحمي مؤخرته، وقد تصايح الناس من ورائه في فرح بالغ الغاية، مقتفين أثره، فقد ناوشهم عمر أفقر بطلقات نارية من بناديق ربع تروكوت، ولكن سرعان ما أرسل رسولا، يجبر وراءه ثورا لذبحه أمام القبيلة (1) مقدما لتوبة من عمله .

ومع استبقائه حيا فانه قد حرقت داره وديار أنصاره، وغنمت الأموال، وترك هو وافراد جماعته طلقاء، وقد اضرم النار في صياح مروع، والهرج والمرج يبلغ عنان السماء، مختلطا مع طلقات البنادق. أما القائد الاسود المنكود الحظ فانه تابع هروبه في عدو بلغ به كل مبلغ، لكي ينجو، وبعد أن وصل قرية أجدير تمسمان (2) وبينما استراح قليلا، تابع فراره عن طريق بنى وليشك وبنى سعيد غير أن هذه القبيلة الاخيرة (3) منعتة من المرور عليها فتجنب سالكا مفاوز أمطالسة، ولما وصل الى أربعاء ترمورت في قلعية، حط الرحال خارج السوق .

وقد قيظ الله له هناك سببا لكي تنتفض عليه قبيلة قلعية أيضا، وذلك أن أحد جنوده حاول الانتفات الى شابة كانت مع والدها الذي

(1) مروهي عادة يقوم بها من يكون أثنى اثما ازاء القبيلة فيذبح أمامها لتتجاوز الخطيئة .

(2) قرية بتسمان على وادي بنى توزين وهي مشهورة بالعلماء والصلحاء.

(3) تدعى بنى سعيد الريفية، التي مركزها دار الكبداني وهناك قبيلة بنى سعيد الجبلية ومركزها وادي لو .

يحمل كيسا فيه كمية من الشعير على أكتافه ليبيعهما في السوق فلما رآه يلتفت الى الشابة ويضحك أنزل من على كتفه الكيس الذى فيه الشعير، وكان معلقا في رقبته بندقيته، ففى طرفه عين كانت القذيفة تخترق دماغ الجندي الغاشم، وتصايح الناس، وكانت أخبار الهزيمة قد وصلت في سرية، وتهاشم الناس بها، فانقض القوم على تلك الفلول مثنخين القتل فيهم فما وصلوا الى سلوان الا بعد جهد جهيد (1) .

وقد تلقى بوحماره الاخبار التى حملها اليه قائده المشؤوم بكثير من الهلع والفرع ورغم كونه مشعوذا من الدرجة الاولى، وانه عاش فى أطوار حياته فى كثير من المجازفات ومع ذلك فان هول الكارثة التى نزلت على هامة رأسه، قد دكت اخبولته، وشئت حياله، فأصبح حائرا، وكاد أن لا يعي شيئا من أمره وقد علم أنه فى آخر مرحلة حياته، أو على الاصح، فى آخر دور من أدوار روايته التى كان حاله النصر فى جميعها (حسب زعمه) الا ما كان يتربق من نهاية الرواية، وها قد وصلت .

وعندما استرجع وعيه لم يكن أمامه الا سبيل الفرار، وبكثير من العجلة شد رحاله فارا سالكا مسلك وادى ورغة، الى بنى مسارة، فعندما علم السلطان مولاي عبد الحفيظ الذى خلف أخاه مولاي عبد العزيز فى الملك، عندما علم بطرده من الريف سير حملة وافته بنواحي مولاي بوشتى الخمار، واشتبكت معه فى القتال فذهب الى بنى مسارة محتما بضريح سيدى عمران، ولكن لم ينفعه احتماؤه، فقد دخل عليه أحد القواد هو الناجم الدليمى (2) فقبض عليه .

انه عندما فكر أن يهجم على قبيلة بنى ورياغل، لم يكن يرى الا أنه يرسل احد قواده مع رغيل من الاوباش الهمج لتأديب احدى

(1) عن شاهد عيان .

(2) من المخطوط لكاتب يدعى السيد محمد عمر كان فى أيام تحركات بوحماره كاتباً لقائد قصبة العيون سيدى ملوك وهذا المخطوط بخط يده وقد اشتمل على جميع مراحل ثورة بوحماره بعبارة سلسلة، يقع فى ثلاث ملازم الا أنه خال من تاريخ التحرير .

القبائل الخاضعة لنفوذه، وأنه ما فتىء أن يرجع ذلك القائد منتصرا حاملا الاسلاب ومثقال برؤوس من العصاة المقتوعة، لكى يستعرض تلك الجماجم على القبائل الاخرى، لتعتبر وتتعض ويدق الطبول احتفاء بالانتصار لتثبيت دعائم حكومته .

وقد كانت قبيلة بنى ورياغل قبل أن يغزوها تصانعه، وكان هو يتنكب أن يتحرش بها، ومع ذلك فانه كان يتصل ببعض الافراد أصحاب المطامع وذوى الضمائر الضعيفة، فربما أصدر الاوامر فى صورة ظواهر بتولييتهم المناصب أو باضفاء صفة الشرفاء بالاحتراب والتوقير ويظهر من قبوعه فى سلوان (1) أنه لم يكن على ثقة من تمكن أمره فى قبائل الريف الوسطى ، وكان يظهر له من هناك خشونة قبيلة بنى ورياغل (2) التى كانت تصانعه وتلتوى له وتعامله لا عن اعتقاد أحقيته فيما يعمله وانما كانت تدفعه بالتى هى أحسن، وهو من جهته كان يكتفى منها بذلك القدر من الطاعة المصطنعة، فقد سبق له — أى قبل الهزيمة بسنة — أن أرسل حملة لتأديب قبائل بنى وليشك وتفرسيت وتمسمان وبنى توزين، وعند انتهائه الى

(1) نشر بمجلة «الانيس» عدد 98 لشهر رجب 1374 مارس 1955 السنة العاشرة .

(2) تعتبر أمنع قبيلة فى الريف، وهى تنتمى الى صنهاجة المغرب، وكانت مقرا ولا زالت للشرفاء الحسنيين الذين آوتهم وأحببتهم، كما يوجد عنصر مهم للعرب، بسبب هجرتهم الى مدينة النكور والى هذه القبيلة ينسب البطل الشهير السيد محمد بن عبد الكريم الخطابى ، والخطابيون هؤلاء هم من أولاد عبد الله بن الخطاب الشريف الزيانى من ذرية ملوك تلمسان وتقدمت بالصحراء، ومن أحفاد عمران بن مولاى ادريس الاصغر الذى خص له بلاد الريف وبادس بعد موت أبيه كما ذكرت مبسطا قبل، وليسوا من خطابي صنهاجة الذين كانوا يقطنون أحواز فاس، والذين منهم ميمون الخطابى الذى ترجم له الاستاذ عبد الله كنون، فى سلسلة مشاهير رجال المغرب.

هذه الاخيرة المتآخمة لبنى ورياغل، رجع بعدما عاث فيها فسادا، وقتل وخرب وحرق ونهب، واكتفى من بنى ورياغل بستة آلاف ريال ذعيرة، حملها اليه خمس أفراد من القبيلة، وذهبوا بها اليه ومن بينهم الاشيب الوقور السيد عمر بن الحاج سعيد الورياغلي الكلثومي (1) وعندما وصلوا الى مخيمات بنى توزين أدخلهم الى خيمة، وأجلس بالقرب منها حارسا، بيد أنهم لم يدروا أهم ضيوف أم أسرى، قعد أحدهم عجم عود الحارس وأمره بالرجوع، فعلموا أنهم مأسورون، فاحتاطوا للامر، وعندما وجدوا غرة اهتباوها، فقلعوا أوتاد الخيمة من الخلف ومع كل ذلك، فان قائد بوحمارة غض عنهم الطرف، واكتفى بالذعيرة فقفل راجعا الى سلوان .

وهكذا كان بوحمارة والقبيلة يتراوغان في معاملتهم بينهم، فلا اخلاص ولا طاعة من جهة القبيلة، ولا ثقة ولا اطمئنان من جهته هو، وغاية ما يصل اليه نفوذه أنه يرسل ما يسميه بالظواهر بالتولية وربما ارسل رسائل التهديد (ففى محرم عام 1322 هـ. اثتكي اليه قائده المولى من قبله الذى أسلفنا ذكره) اثتكي من سوء معاملة القبيلة، فكتب اليهم كتابا .

وهكذا نراه يراوغ القبيلة ويتلون لها ولا يقدر ان يتحرس معها تقية لما عسى أن يحدثه اصطدامه بها .

وقد كانت هذه القبيلة فى ذلك التاريخ تحت رياسة العالم التحرير الشهم الهام الفقيه الشجاع، القاضى السيد محمد بن السيد حدو أو عزوز، من زاوية سيدى عيسى، وكانت له مكانة فى القبيلة لا تعادلها مكانة، وكان له عونا ما كان يمتاز به من ثبات الجنان، وصدق اللهجة واصالة الرأى ونبل المحتد، وكانت القبيلة عن أمره ونهيه تصدر وترد، وكان له القدح الملقى فى الذود عن العرش العاوى، عن اعتقاد دينى راسخ، فكانت همته النافذة وعزيمته الثابتة تقيم الثائر وتقعه وتقض مضجعه .

(1) من قرية اكلتوما، وهو شعلة من الحماس والذكاء والاقدام مع تدين ومروءة .

وأخذ الطريقة عن سيدي محمد العربي العلوي، وعن ابن عمه سيدي محمد بن أحمد بعد وفاة الأول أيد الله الجميع، والكل في ظل مولانا أمير المؤمنين الحسن (أى الحسن الاول) حسب قول المعرف به العلامة بودهور التوزانى .

وأيدده في ذلك سيدي أحمد بن الخياط، بفتوى تؤيد المنظومة، التى تقدم نشرها .

ومن مناقبه رحمه الله أنه كان شعلة لايقاد نار الجهاد في ابناء الريف، وله مواقف الابطال سواء ضد بوحمارة أو ضد الاسبان، وفي الواقع أنه أول من أسس نهضة الحرب التحريرية الريفية، وانه قام بتنظيمها مع المجاهد الشهيد سيدي محمد أمزيان الشريف الكلعي، وكان رحمه الله ينتقل بين القبائل والقرى بشكل عجيب لا لقاء ما ورد في فضل الجهاد والشهادة، وكان يرأس قافلة تلو أخرى الى مواقع الجهاد ليؤازر سيدي محمد أمزيان، وكان يندد بالخونة الذين يعبرون الى جزيرة النكور حيث كانت مقرا للسياسة الاسبانية، وكان رحمه الله يتميز بحب الرسول صلى لاله عليه وسلم، وحب آله في صورة عجيبة، يحكى أنه كان يبكي ليلا ويردد بعض الآيات الى الفجر، ولقيامه بالحث على الجهاد والدفاع عن كرامة المغرب فقد دبر له الاسبان من جزيرة النكور من اغتاله فقد بعثوا اليه بكمية هائلة من المال قائلين له اما أن تأخذ هذه الكمية وتسكت عن اثارة حماس الريف ضدنا، أو سنعطيه لمن يسكت لسانك نهائيا، فاخترار الثانية وقال انى لا أبيع الشهادة بالثمن البخس، وشمر عن ساعد الجد فما كان من أحد الاثقياء من أبناء عمومته بزواية سيدي عيسى يدعى أموح بن حدو بن الحاج عيسى الا أن اراده قتيلا شهيدا، ومما يلاحظ أن القاتل قتل على اثر ذلك برضاة في رأسه قتله المجاهد المدعو بوحتان، وأما أبنائوه فقد لزمتهم النعاسة الى يومنا هذا، تقدم الكلام عليه مستوفى.

وقد ورد المترجم له في الرواية باسم قاضى الشباب، وهو الاسم الذى يطلقه عليه اخوانه المجاهدون، نظرا لحماسه وشدة بأسه ونشاطه المتزايد، ويلاحظ أيضا من الرواة ان الدفاع ضد بوحمارة يرجع اليه، ويستعمل كل أساليب التأثير لبلوغ الهدف .

وعندما رأى أن حملة الثائر رجعت من بنى توزين، واكتفت بالذعيرة، أراد عجم عوده ليصبر غور الضعيفة التى يكنها للقبيلة، فكون وفدا من مائة من الشجعان تحت رئاسة رئيس بنى حذيفة محمد بن سى عمر وموح أمزيان الاغميرى البوعياشى، وأوصى هذا الاخير بأن لا يقطع أمرا دون مشورة الاول، وكان رجلا أعزل تقوم فصاحة لسانه مقام الجحافل، وودعهم عند مرسى جزيرة النكور، فلما وصلوا تلقاهم رجل من قبيلة قلعية ممن كانوا يخالطون بوحمارة، فأعلمهم بأنه قد بيت لهم المكروه، وأنهم ان استكانوا اليه قتلهم ليلا، وعند ذلك تقدم الرئيس محمد بن اسى عمر، وطلب من رفاقه أن لا ينبسوا ببنت شفة الا ما كان من تلبية اشارته عند اللزوم، وأمرهم أن تكون بنادقهم على استعداد لخوض المعركة ولو فى داخل القصة، أما هو فقد قلد خنجرا من صنع محلى وتقدم القوم، فلما أشرفوا على القصة تلقاهم القائد الاسود قائد الرحي، وكانوا يدعونه صاحب النوضوء، واستفهمهم عن رحلتهم، وما هو القصد من ذلك، فاجابه محمد بن اسى عمر (تعمية) بأن الوفد قدم ليتمثل أمام السلطان، لتقديم الطاعة ونفى ما يحاكيه الوثاة الحسدة من الاراجيف التى لا أصل لها، واختتم كلامه، بأن وفده لا يغادر القصة حتى يصطحب معه السلطان، نيزور القبيلة ليقف بنفسه على مدى الطاعة، فأنصاغ لذلك واطهر الرضى والقبول، ودخل على مولاه واعلمه بما سمع منه، فخرج الاذن الى الوفد بأن ينزل ضيفا على الحكومة (بزعمه) وحينئذ طلب محمد بن اسى عمر الاذن لوفده بأن يذهب الى الوادى جنوب القصة، ليتوضؤا ويصلوا، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب، فاذن له فلما وصلوا الى الوادى أمرهم محمد بن السى اعمر بأن يجلسوا على الماء كهيئة شرب الحمام الذى يصطف ليشرب، ويكونوا صفا واحدا، وعلى مرأى من حراس القصة كى لا يرتابوا ثم ان ادناهم ينتقل الى اعلاهم، ويتبعه الذى يليه، وهكذا الى أن يغيبوا عن الانظار، تدريجيا، وعندما يغيبون يطلقون العنان لارجلهم تعدو فى فيافى «بوعاك» وأمرهم أن لا يبتعد بعضهم عن البعض، استعدادا للطوارئ، حتى اذا دهمهم الامر وطاردتهم القوة ناجزوها

نلم يتفطن الحراس الا عندما قطعوا مفازة بوعاك في اتجاه معاكس، فلم تنقف الكتائب المطاردة لهم على اثر، وبعد لاي وصلوا الى بنى ورياغل وقصدوا رئيس القبيلة ليجتمعوا بأربعاء أمزورن، وعندما اجتمعوا دخل عليهم شخص مجهول يحمل رسالة فيها طابع السلطان ملاي عبد الحفيظ كان القاضي المذكور يستعمل هذا الاسلوب وهو أنه كان يعد شخصا مجهولا لدى القبيلة ويزوده بكتاب ليدخل على المؤتمر كأنه رسول السلطان وكثيرا ما كان يعتمد على هذه الكيفية في اثارة القبيلة لمصلحة العرش العلوي، فيتلقي هذا الكتاب ويقبله أمام أعين الناس ثم يقرؤه كأنه كتاب من عند السلطان، وهكذا كان مؤدى هذه الرسالة ان السلطان مولاي عبد الحفيظ يعلمه بتسيير حملة بقيادة أحد وزرائه، وانه يطلب من القبيلة معونة الحملة والدفاع معها وقيامها بقيام رجل واحد لدفع التأثير. وبينما كانت القبيلة تغلي غليان المرجل، بما بثه فيها من روح انضال، انتصارا للسلطان الشرعى وكان هتافهم بنصره يعلو الى عنان السماء، كان قائد بوحمارة يستحث السير بحملته التى تتكون من طبقات مختلفة، ومن قبائل متجمعة من جبال غياثة جنوبا الى امطالسة وقلعية شمالا، لكى تؤدب الذين شقوا عصى الطاعة، فكانت النهاية المحتومة .

وهكذا انتهت (1) تلك الثورة التى طالت وكبدت الحكومة المغربية خسائر فى العدد والعتاد فكانت تلك الهزيمة الشنعاء فى وقعة عقدة الارانب فى رمضان عام 1320 هـ. وكان ابتداء القتال فيها بين الجيش الحكومى الذى يقود قسما منه مولاي عبد السلام الامرانى، ويقود القسم الآخر مولاي الكبير ابن مولاي الحسن (الاول)، وقد بدأت المناوشات بينهما فى قصبة بنى مطير، واعتصم التأثير بجبال غياثة، وقد عزز السلطان مولاي عبد العزيز هذين القائدين بقائدين آخرين هما السيد محمد الامرانى وعامله السيد عيسى بن عمر العبدى على رأس المتطوعة (المحلة)، وما كادت الشمس ان تغيب حتى انهزمت قوة الجيش الحكومى، هزمها التأثير

(1) قبض على بوحمارة يوم السبت 5 شعبان عام 1327 هـ. موافق 21 غشت 1909 ومات يوم الاثنين 13 شتمبر 1909 بفاس .

بمعونة قبائل الحيانة والتسول وغيثة، وغنم أموال الجيش والذخيرة، وكانت نكبة عظيمة لحقت بالجيش، ودخل الجنود فاسا حفاة عراة (1). وفي صفر عام 1321 هـ. (193 م) عبأ وز0ير الحربية المهدي بن العربي المنبهي جيشا جرارا من قبائل أقصى سوس وتاغلالت جنوبا الى فاس شمالا، بمعونة قائد المشور السيد ادريس بن يعيش ويمم الجيش مدينة تازة، وعسكر بوادي الخضر، وكاد الانتصار ان يتحقق للوزير بفضل شهامة ابي هاشم المدني السملالي، لما له من الكلمة المسموعة في القبائل المحيطة بتازة، ولكن أعمال الجيش الحكومي الوحشية أثارت الاهالي على الجنود، وانضموا الى الثائر، ولم يفك عنهم الحصار الا حضور مولاي عبد العزيز بنفسه، على رأس جيش، وقد ذاق الجنود المحاصرون الامرين (2) .

ولما استقر الثائر في سلوان (3) قاد مولاي عرفة جيشا ضخما يعزز به عامل الحكومة على وجدة احمد بن كروم المكناسي، وقد حارب ثائرا آخر يدعى أبا حصيرة الزناسني الذي ثار تحت اسم مستعار، وهو مولاي عبد العزيز، وقد انهزم عامل وجدة المكناسي المذكور، وفر حاملا أمتعته ولوازم جيشه الى مدينة مغنية حيث عسكر بجنده، واهتبلها بوحمارة فرصة فقصده وجدة جاعلا اياها عاصمة عمله، وقد خطب له على

- (1) اتحاف اعلام الناس - الجزء الاول، وخطوط السيد محمد بن عمر كاتب قائد العيون في ذلك الوقت السيد العربي النرادي .
- (2) اتحاف أعلام الناس أيضا .
- (3) قصبة تمر بها طريق الناصور - مليلية - وتبعد عن الاولى جنوبا بنحو 12 كيلمترات، وهي قصبة منيعة بناها مولاي اسماعيل من جملة ما بنى من القلاع على وادي ملوية والريف سنة 1090 هـ. (1680 م) وانزل بها 500 من خيل العبيد بعيالهم، وذلك عندما بنى قصبة العيون سيدي ملوك، وقصبة رقادة، ببنى يزناسن تحت امرة قائده أباي البقاء العياشي الزواري، وقد اتخذها بوحمارة عاصمة له، ومنها كان يوجه هجماته .

منابرها ودقت الطبول، وعزفت الموسيقى بدخوله وخروجه، ولم ينجل عنها الا عندما عزز السلطان جيش مغنية ببعثة سياسية، أرسلها عن طريق طنجة، على رأسها السيد احمد الركينة، والسيد احمد عبد الصادق الريفى مستشارا، فنشروا الاموال الطائلة على قبائل انكاد، وعندئذ تخلى عن وجدة، فرجع قافلا الى قصبة سلوان، ومن هناك جعل تسيير أعماله الحربية عن خط ملوية مسون، وقد انضم اليه ثمة الطيب بن بوعمامة، وعبد الملك ابن عبد القادر بن محيي الدين الجزائرى ولكنهما انفصلا عنه بعد ذلك وانضما الى قائد بنى بوزكو السيد حمادة حيث شاركوا فى مذبحة رجال الثائر بدار القائد حمادة، راجع كتابنا الثائر المهزوم .

وفى دخول سنة 1322 هـ. قاد المدنى بن محمد الكلاوى جيشا وتلاقى مع جيش الثائر بقيادته فى سهول مسون ووقعت بينهما معارك، جرح اثناءها الثائر، وبعد برئه دخل تازة من غير قتال يذكر أما قبائل انكاد فانه بعدما أعفى رئيس البعثة السيد احمد الركينة، وحلفه فى الريسة السيد احمد بن عبد الصادق الريفى، وتعزز جانبه بالمال والجيش تمكن من احتلال الغزوات وعجروود والسعدية .

وهذه هى الاعمال الحربية المهمة، التى ذاقت فيها قوة الحكومة وخزينتها الخسائر الجمة .

ومن هذا العرض المجز يتضح عمل قبائل الريف الوسطى فى سبيل النضال عن العرش العلوى وبالاخص قبيلة بنى ورياغل، اذ قضت فى مدة قصيرة وبقوة ضئيلة لا تتعدى قوة شجعان قبائل معدودة، فازالت تلك الغصة التى جعلها الاستعمار مطية لقضاء أغراضه، فكبدته هزيمة شنعاء لم تقم له قائمة بعدها .

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثانى ان شاء الله
مبدأه الصراع العنيف العام ضد الاحتلال الاجنبى فى الشمال

الجزء الاول

| الخطا | الصواب | الصفحة | السطر |
|-----------|------------|--------|-------|
| طفاحل | فطاحل | 6 | 2 |
| أصلية | أصيلة | 6 | 8 |
| العبار | الفبار | 7 | 10 |
| السذاجة | السذاجة | 18 | 5 |
| يقبله | يقالبه | 21 | 15 |
| قتيل | قتيلا | 21 | 16 |
| حقتهم | حقتهم | 22 | 15 |
| فانهم | فانهم | 23 | 23 |
| عليه | عنه | 34 | 20 |
| وتيكساس | وتيكساس | 40 | 23 |
| طريقة | طريقة | 41 | 7 |
| عبد الله | عبد الرحمن | 46 | 19 |
| الوالي | الولى | 52 | 13 |
| لتأديهم | لتأديهم | 60 | 4 |
| منها | منهم | 160 | 5 |
| الخدابي | الخطابي | 61 | 16 |
| القضاء | القضاء | 69 | 16 |
| لمكهم | لمكهم | 70 | 25 |
| ينظاهي | يضاهي | 75 | 10 |
| تظاهروا | تضاهي | 75 | 14 |
| اختبر | اختبر | 77 | 15 |
| يحصروا | يحصروا | 79 | 22 |
| عبد الله | عبد الرحمن | 81 | 2 |
| السذج | السذج | 83 | 23 |
| تحدير | تخديرا | 84 | 5 |
| الربة | الزينة | 86 | 4 |
| الفار | الفاول | 86 | 5 |
| بصطفة | بصفة | 87 | 9 |
| الفار | الفاول | 87 | 4 |
| لبناذقهم | بناذقهم | 90 | 16 |
| تجرء | تجرا | 93 | 24 |
| الجارجى | الخارجى | 75 | 17 |
| الخالل | الخالد | 100 | 28 |
| والتى | والذى | 107 | 8 |
| مظهر الكل | مظهورا لكل | 110 | 12 |

الجزء الاول

| السطر | الصفحة | الصواب | الخطا |
|-------|--------|----------------|----------------|
| 18 | 112 | التطبيب | التطبيب |
| 10 | 119 | كرط | كرط |
| 2 | 121 | ولاذى | والدى |
| 21 | 124 | يتوعدهم | يدعوهم |
| 23 | 126 | ذنبهم | ذنيها |
| 24 | 128 | يتاهب | ياتاهب |
| 10 | 129 | ذرعين | ذرعين |
| 7 | 132 | فانتقضوا | فانتقضوا |
| 13 | 134 | رجلاى | رجلال |
| 3 | 146 | الفضل | الفصل |
| 1 | 153 | وكان | وكن |
| 6 | 162 | نفسى | نفس |
| 24 | 163 | اقرانه | اقرأ له |
| 2 | 174 | بالتعليم | بالتعلم |

الفهرس

الصفحة

| | |
|-----|---|
| 4 | كلمة |
| 13 | مناضل من بدى |
| 14 | الزعيم ابن عبد الكريم الخطابى |
| 26 | الوحدة الوطنية فى مظهرها العملى |
| 48 | من هم الخطابيون |
| 53 | أجدير وموقع القرية |
| 55 | قبيلة بنى ورياغل مسقط رأس الزعيم |
| 60 | البيئة التى نشأ فيها ابن عبد الكريم |
| 64 | اشعاع جامعة القرويين |
| 71 | قصة وجود ابن عبد الكريم فى مليلية |
| 86 | الاسباب الحقيقية لسجنه |
| 93 | احتجاج فرنسا على اسبانيا |
| 107 | الوسط التاريخى والطبيعى لارضية المعركة |
| 108 | هجرة قبائل زناتة للريف |
| 111 | اقليم الحسيمة وموضع المدينة |
| 116 | حضارة تاريخية عبر شواطئ الريف |
| 118 | الوسط الطبيعى لهذا البلد |
| 119 | العرب والنكور |
| 120 | الامير ادريس مؤسس مدينة النكور |
| 135 | مدينة بادس |
| 141 | أبو العباس احمد الخزرجى |
| 146 | تأسيس مدينة بادس |
| 152 | رباطات المجاهدين على شواطئ البحر الابيض |

الفهرس

الصفحة

| | |
|-----------|---|
| 157 | الاندلس تحيى بـادس |
| 163 | ابن السبعين الفيلسوف بـادس |
| 164 | البورغواطيون بـادس |
| 165 | على بن العافية البورغواطي والشيخ الحاج حسون |
| 168 | تغلب العرب على بـادس |
| 170 | تخريب بـادس |
| 171 | مدينة المزمة |
| 173 | لجوء الادارسة الى الشمال |
| 176 | المنطقة الاولى لنفوذ الادارسة |
| 185 | المنطقة الثالثة |
| 187 | المريونيون في الريف الامير عبد الحق |
| 192 | عين الصفا ودولة بني مرين |
| 196 | الوطاسيون في قلعة تزوضا |
| 197 | ثورة عمر بن يحيى الوطاسي |
| 198 | ابن الاحمر ووساطته عند السلطان |
| 200 | نكبة اولاد الامير أبي بكر |
| 206 | الوسط الاجتماعي للريف |
| 207 — 299 | جماعة من علماء وصلحاء وشرفاء الريف |
| 300 — 343 | ترجمة أبي يعقوب البادسي |
| 344 | نضال مستمر |
| 347 | القلع الخمس أو الجيوب المأسورة |
| 348 | مدينة سبتة |
| 353 | القاضي عياض والموحدون |
| 357 | عبد المومن بن علي في الريف |
| 360 | نقود موحدية في باطن الارض |
| 365 | جزيرة بـادس |

الفهرس

الصفحة

| | |
|-----|---------------------------------------|
| 368 | وضعية احتلالها |
| 374 | استغاثة على لسان الشعراء |
| 376 | جزير النكور |
| 377 | مدينة مليلية |
| 381 | الجزر الجعفرية |
| 382 | الحدود المغربية التاريخية |
| 386 | الصحراء المغربية، وادى الذهب والساقية |
| 408 | الطرق الحربية عند أهالى الشمال |
| 415 | المجاهد سيدى محمد أمزيان |
| 417 | المجاهد سيدى محمد العزوزى |
| 424 | المجاهد عبد الكريم الخطابى الاب |
| 435 | يوم أغر لنصر العرش العلوى فى الريف |

المراجع التاريخية

- العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر لعبد الرحمن بن خلدون — توفي سنة 808 هـ. (1405 م) .
- الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب ودولة فاس، لاحمد ابن الزرع، توفي في بضع عشر وسبعمائة .
- المسالك والممالك — للوزير عبد الله بن عبد العزيز البكرى — توفي عام 387 هـ. (1094 م) .
- كرايس خطية من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق لمحمد الادريسي، توفي عام 370 هـ. (1164 م) .
- تقويم المنصور ؟
- المقدمة لابن خلدون .
- المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف (مخطوط)
- المعجب في أخبار المغرب ، لعبد الواحد المراكشى المتوفى عام 625 هـ. (227 م) .
- الاستقصاء في أخبار المغرب الاقصى ، لابى العباس احمد بن خالد الناصرى .
- سلوة الانفاس ، ومحادثة الاكياس ، لابى عبد الله محمد بن الشيخ جعفر الكتانى توفي عام 1345 هـ. (1926 م) .
- مناقب الحاج حسون البقيوى (مخطوطة) .
- الحلل السندسية للامير شكيب أرسلان .
- ازهار الرياض في أخبار القاضى عياض — لابى العباس احمد المقرئ .
- نفح الطيب ، من غصن الاندلس الرطيب — وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، للمقرئ التلمسانى بـ
- كتاب العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين، للاستاذ المنونى .
- مناقب أبى يعقوب البادسى لابى محمد عبد الله الاوربى قاضى الجماعة بفاس (مخطوط) .

- بحث للمرحوم السيد احمد المكناسي مدير خزانة تطوان سابقا، ألقاه في مؤتمر الآثار العربية بفاس .
- الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية للشريف سيدي محمد السنوسي المتوفى سنة 1272 بليبيا .
- البيان المغرب من أخبار المغرب لأبي عبد الله محمد المراكشي المعروف بابن عذاري من رجال عام 660 هـ. (1270 م) .
- الدرر الآلآء في ثبوت الشرف البقالي لأبي عبد الله محمد الحاج العياشي السكيرج .
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأبي العباس احمد بابا السوداني .
- جذوة الاقتباس لابن القاضي .
- درة الحجال ، في أسماء الرجال لأبي العباس احمد المعروف بابن القاضي توفي عام 681 هـ. (1282 م) .
- روضة النسر في دولة بني مرين لأبي الوليد اسماعيل يوسف المعروف بالاحمر .
- اتحاف اعلام الناس ، في أخبار جمال مكناس للنقيب عبد الرحمن ابن زيدان .
- التاريخ والعبر في نسب آل النبي المختار لسيدى احمد الصديقي البكري .
- الدوحة لابن عساكر .
- بطل الريف ، لعمر وأبي نصر
- الروكي لسنيور أنريكي أركيس باللغة الاسبانية .
- تاريخ تطوان للاستاذ محمد داود .
- مذكرات تشرشيل عن الحرب العالمية الثانية .
- ترتيب المسالك لمعرفة أهل مذهب مالك للقاضي عياض .
- الحركة الاستقلالية للاستاذ علال الفاسي .
- قلادة العقيان ، في انساب عرب الزمان للمقرزي .
- زعيم الريف محمد ابن عبد الكريم الخطابي ، للاستاذ محمد العلمي .
- المنجد الاسباني .



فاذا كان تكلم الكاتب، اى كاتب كان عن نفسه ومراحل حياته، يجعله في حرج نفساني، فانه من الاقرار بالفضل لشيوعه واساتذته، ان لا يمر عليهم مر الكرام، ويغفل ذكرهم ولو في قائمة .

ولذا عنى لى هنا ذكر اولئك الشيوخ الجهابذة، الذين قدموا لامتهم كل خير ابتغاء فضل الله، وبالاخص اولئك الذين لهم الفضل الاكبر وأنا اتابع تحصيلي في كلية القرويين في اول عهدها بتنظيم الدراسة فيها تنظيما عصريا .

المؤلف (14 دجنبر 1917) شيوخ خارج التنظيم :

- 1 — الشيخ الامام، وزير العدل الشريف الحسني سيدي عبد الرحمان بن القرشي الفلالي (كان فوق الانخراط في التنظيم، ومع ذلك لم ينقطع درسه في القرويين في الحديث الشريف، ولى معه رحلة الى الديار المقدسة على نفقة المغفور له جلالة الملك محمد الخامس قدس الله روحه، مع شرف المثل امام ملك الحجاز جلالة عبد العزيز آل سعود) .
- 2 — شيخ الجماعة ورئيس المجلس العلمي بفاس العلامة الاصولي مولاي عبد الله الفضلي العلوي. (كان فوق الانخراط في التنظيم، ومع ذلك فقد كانت له دروس في الاصول والفقه تضرب اليها اكباد الابل) .
- 3 — العلامة البليغ سيدي محمد اقصابي، (لم ينخرط في التنظيم وكانت دروسه في البيان والبلاغة فريدة في تحقيقاتها) .
- 4 — العلامة القاضي المحقق سيدي السايح (كان قاضيا ومع ذلك فقد افتتن الطلبة والجمهور بدروسه الليلية لسعة اطلاعه) .
- 5 — العلامة سيدي محمد الصنهاجي (خارج التنظيم وكان له جولات وتحقيقات في الاصول) .

شيوخ داخل التنظيم :

- 6 — العلامة الاصولي المحقق سيدي الطائع بن الحاج (الاصول في التخريري) .
- 7 — العلامة المحدث سيدي الحسن مزور (الحديث والتفسير في التخريري) .
- 8 — سيدي الحسين العراقي العلامة الفيلسوف (في فقه الزرقاني في التخريري) .
- 9 — سيدي عبد الرحمن العراقي العلامة الاديب (في الادب والفقه والتاريخ في التخريري) .
- 10 — العلامة اللغوي سيدي محمد بن الحاج المعروف بالاعرج (في اللغة والادب والتاريخ في التخريري) .
- 11 — العلامة المتفنن سيدي العباس بناني (في المنطق والبيان والجغرافية في التخريري) .
- 12 — العلامة الفقيه سيدي حسن الزرهوني (في فقه الشيخ خليل في التخريري) .
- 13 — العلامة الحافظ سيدي عبد العزيز بن الخياط (في المنطق والتاريخ في التخريري) .
- 14 — العلامة النبيه سيدي محمد الطاهري (في البيان والبلاغة) .
- 15 — العلامة الحسولي الموقت سيدي امحمد العلبي (في الحساب والتوقيت) .
- 16 — العلامة النحوي سيدي ابو سعيد المكناسي (في الصرف والحساب) .
- 17 — العلامة المؤلف سيدي بوشتي الصنهاجي (في فقه الشيخ خليل) .

وفي المرحلة الابتدائية في الريف كان عمدي :

- 18 — الفقيه النحوي سيدي محمد بن محمادي التوزاني الحساني (في النحو والفقه والتوحيد) .
- 19 — الفقيه الموقت سيدي بوشعيب التمساني (في النحو والفقه والتوحيد) .

